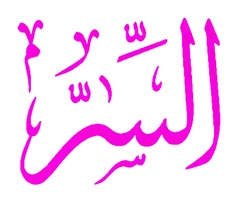




عناصر الموضوع

مفهوم السر	٨
السر في الاستعمال القراني	٩
الالفاظ ذات الصلة	١٠
استواء السر والعلن في علم الله	١٢
الإسرار المحمود وميادينه	١٧
أنواع الإسرار المذموم	٢٤
السر يوم القيامة	٣٢
المحاسبة على السر	٣٥
أثر إفشاء السر على الفرد والمجتمع	٣٨

المجلد الثامن عشر

مفهوم السر

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (س ر ر) تدل على إخفاء الشيء. وما كان من خالصه ومستقره[1].

السرُّ: مَا أَسْرَرْت. والسَّريرةُ: عمل السِّرّ من خَيْر أَو شَرّ[2].

والإسرار خلاف الإعلان، وهو: اسم لما يكتمه الإنسان ويخفيه[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف الراغب الأصفهاني السّر بقوله هو: «الحديث المكتّم في النفس»[4]، وهو خلاف الإعلان، ويستعمل في الأعيان والمعاني[5].

ففي الأعيان جاء قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ١٩].

وفي المعاني كقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧].

ويمكن تعريف السر بأنه: اسم لما يكتم ويخفى من الأعيان والمعاني من العقائد والنيات والأقوال والأعمال وغيرها[6].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٦٧.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ٢٠١.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٦٣، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٧٣، تاج العروس، الزبيدي ١٢/ ٧.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٤، وانظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٣٦.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٤.
(٦) انظر: السرائر في ضوء القرآن الكريم زينب حسين أبو مور ص ١٠-١١.

السر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سرر) في القرآن الكريم (٤٤) مرة، يخص موضوعنا منها (٣٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٠	﴿فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ۝٥٢﴾ [المائدة:٥٢]
الفعل المضارع	٧	﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [التغابن:٤]
فعل الأمر	١	﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ۖ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١٣﴾ [الملك:١٣]
المصدر	٢	﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح:٩]
الاسم	١٢	﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه:٧]

وجاء السرّ في القرآن على وجهين[٢]:

الأول: النكاح: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ [البقرة:٢٣٥] أي: نكاحًا.

الثّاني: ضد العلانية: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي ص٣٤٨-٣٤٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٢٧٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٢٠٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ النجوى:

النجوى لغة هي:

إسرار الحديث إلى الغير، وما يتفرد به الجماعة والاثنان سرّاً كان أو ظاهراً، وتطلق على القوم المتناجين، ويستوي فيه المفرد، والجمع [(١)].

النجوى اصطلاحًا هي:

المسارة بالحديث في خفاء، ولا يخرج معناها في اصطلاح القرآن الكريم عن معانيها في اللغة[(٢)].

الصلة بين النجوى والسر:

النجوى تكون في الحديث وإخفاؤه عن الناس، والسر يشمل الكلام وغيره[(٣)].

٢ الإخفاء:

الإخفاء لغة:

الستر والكتمان، يقال: خفيت الشيء أخفيه: كتمته، وأخفيت الشيء: سترته وكتمته، ويقابله الإبداء والإعلان، والإخفاء: تغييب الشيء، وأن لا يجعل عليه علامة يهتدى إليه من جهتها، وهو من الأضداد[(٤)].

والإخفاء اصطلاحًا هو:

لا يختلف عن معناه اللغوي، الذي يدل على الستر وتغييب الشيء، وأن لا يجعل عليه علامة يهتدى إليه من جهتها[(٥)].

الصلة بين الإخفاء والسر:

السر هو: اسم لما يكتمه الإنسان ويخفيه على جهة العزيمة، وأما الإخفاء فهو: السر الذي

---

(١) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٩٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٠١.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٦٣.
(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٥٤، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٠٢، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٢٣٤، تاج العروس، الزبيدي ٣٧/ ٥٦٤.
(٥) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٨٩، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٤٢، الكليات، الكفوي ص ٥١٤.

لم يبلغ حد العزيمة[١].

٣ الكتمان:

الكتمان لغة:

الإخفاء والستر[٢]، يقال: كتمت الحديث كتمًا وكتمانًا، أي: سترته، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢][٣].

الكتمان اصطلاحًا هو:

لا يختلف عن معناه اللغوي الدال على إخفاء الشيء حتى لا يرى ولا يعلم[٤].

الصلة بين الكتمان والسر:

فرّق أبو هلال العسكري بين السر والكتمان بقوله: إن السر أعم من الكتمان؛ لأن الكتمان يختص بالمعاني غالبًا، كالإسرار والإخبار؛ ولأن الكتمان لا يستعمل إلا فيهما في الغالب[٥]، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

فقد نهى الله تعالى النساء عن كتمان ما في الأرحام، والسر يختص بالأعيان غالبًا؛ لأن الأصل في السر تغطية الشيء بغطاء، ثم استعمل في غيرها تجوزًا[٦].

(١) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٦٣.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٥٠٦، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٥٢٥.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٥٧.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٤٠، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ٣/ ١٠٤، لباب التأويل، الخازن ١/ ٩٧.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٤٧.
(٦) انظر: المصدر السابق ص ٤٤٨.

استواء السر والعلن في علم الله

يستوي في علم الله تعالى السر والعلانية، والصغير والكبير، والغيب والشهادة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ٨-١٠].

وهذه الآية أبلغ آية في استواء علم الله بالسر والجهر، سواء من أسر القول ومن جهر به، و من هو مستخف بالليل ، أي : من هو مستتر بالليل، والليل أستر من النهار، ومن هو سارب بالنهار ، أي : من هو ظاهر بالنهار في طريقه، متصرف في حوائجه[(١)].

وتعد صفة العلم إحدى الصفات الذاتية لله جل ذكره؛ لأن الله هو العليم الذي أحاط علمه بالعالم العلوي، والسفلي، ولا يخلو عن علمه مكان، ولا زمان ويعلم الغيب، والشهادة، والظواهر، والبواطن، والجلي، والخفي، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١].

والنصوص في ذكر إحاطة علم الله، وتفصيل دقائق معلوماته كثيرة جداً ، لا يمكن حصرها، وإحصاؤها، وأنه سبحانه لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض، ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك، ولا أكبر، وأنه لا يغفل، ولا ينسى، وأن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقد جعل الله تعالى العلم بالسر دليلاً على أولهيته سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣].

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: إن الذي له الألوهة التي لا تنبغي لغيره، المستحق عليكم إخلاص الحمد له بآلائه عندكم، أيها الناس، الذي يعدل به كفاركم من سواه، هو الله الذي هو في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم، فلا يخفى عليه شيء، والذي يستحق عليكم الحمد، ويجب عليكم إخلاص العبادة له، هو هذا الذي صفته، لا من لا يقدر لكم على ضر ولا نفع، ولا يعمل شيئاً، ولا يدفع عن نفسه سوءاً أريد به»[(٢)].

كما قد جعل الله تعالى العلم بالسر دليلاً

(١) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص ٢٢٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ١٤١، جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٦١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٣٢٦.

(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٦١.

على أن القرآن من عنده سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦].

ولما كان السر يغلب على الأعمال المذمومة، فقد بيَّن الله تعالى أنه يعلم السر والجهر للمؤمنين والكافرين والمنافقين وجميع المخلوقين، وأنه يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، كما في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧][1].

كما أن الله تعالى يعلم إسرار من يسر بمودة الكفار: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١][2].

وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥، ٢٦][3].

كما أن الله يعلم السر مهما تخفى به صاحبه واستخدم من وسائل التخفي والكتمان في ذلك، كما في قوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: ٥][4]، بل قد بيَّن تعالى أنه يعلم ما هو أخفى من السر: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٧ - ٨].

والسر في هذه الآية فيه ستة تأويلات:

أحدها: أن (السر) ما حدَّث به العبد غيره في السر، (وأخفى) من السر، مما أضمره في نفسه، ولم يحدِّث به غيره، قاله ابن عباس.

الثاني: أن السر ما أضمره العبد في نفسه، وأخفى منه مالم يكن ولا أضمره أحد في نفسه، قاله قتادة وسعيد بن جبير.

الثالث: يعلم أسرار عباده، وأخفى سر

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ١٩٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٨٤. السراج المنير، الشربيني٢/ ٢٢٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤١٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١١٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٨٢، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ١٤، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٣٠٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٦٣.

(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٥٧.

نفسه عن خلقه، قاله ابن زيد.

الرابع: أن السر ما أسره الناس، وأخفى: الوسوسة، قاله مجاهد.

الخامس: أن السر ما أسره من علمه وعمله السالف، وأخفى: وما يعلمه من عمله المستأنف، وهذا معنى قول الكلبي.

السادس: السر: العزيمة، وما هو أخفى هو: الهم الذي دون العزيمة.

والصحيح من هذه المعاني هو القول الأول، أي: أنه تعالى يعلم السر، وأخفى من السر، في الأحوال التي يجهر فيها القائل بالقول لإسماع مخاطبه، أي: فهو لا يحتاج إلى الجهر؛ لأنه يعلم السر وأخفى، وهذا أسلوب متبع عند البلغاء شائع في كلامهم بأساليب كثيرة[1].

وقد رجح الإمام ابن جرير الطبري هذا القول بقوله: «والصواب من القول في ذلك، قول من قال: معناه: يعلم السر وأخفى من السر؛ لأن ذلك هو الظاهر من الكلام.

والصواب من القول في معنى أخفى من السر أن يقال: هو ما علم الله مما أخفى عن العباد، ولم يعلموه مما هو كائن ولم يكن؛ لأن ما ظهر وكان فغير سر، وأن ما لم يكن وهو غير كائن فلا شيء، وأن ما لم يكن وهو كائن فهو أخفى من السر؛ لأن ذلك لا يعلمه إلا الله، ثم من أعلمه ذلك من عباده»[2].

ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨]؛ لأن السر: ما حدَّث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال، والنجوى: ما تكلموا به فيما بينهم[3].

وفي الآية تهديد ووعيد للمنافقين الذين يسرون الكفر ويعلنون الإيمان مع علمهم بأنه تعالى يعلم ذلك من حالهم، كما يعلم الظاهر، وأنه يعاقب عليه كما يعاقب على الظاهر؛ لأن الله علام الغيوب، والذي تقتضي ذاته تعالى العلم بجميع الأشياء، فكيف يمكن إخفاء السر والنجوى منه[4].

ثم أمر الله تعالى المشركين بأن يسروا القول أو يجهروا، وأن ذلك عنده سواء؛ لأن الله عليم بذات الصدور، وأنه يعلم تفاصيل خلقه، قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٧٢، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢١٧، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٣٩٤، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٣٢١، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٥٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ١٨٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٧٤.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢٦٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٢١.

(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٩٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١٠٩.

﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣ - ١٤][1].

ثم قال تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم وسماعه كلامهم، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

أي: مطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم ورسله أيضاً ، مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علم الله به وسمعه لهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره الآية: «ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضاً مع علمه بهم محيط بهم، وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه وتعالى مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ؛ لأن الله بكل شيء عليم»[2].

وقد أخبر الله تعالى أنه يعلم السر والنجوى، وأن هناك من رسله من يكتب ذلك؛ ليعلموا أن علم الله بما يسرون علم يترتب عليه أثر فيهم، وهو مؤاخذتهم بما يسرون؛ لأن كتابة الأعمال تؤذن بأنها ستحسب لهم يوم الجزاء، والرسل: هم الحفظة من الملائكة ؛لأنهم مرسلون لتقصي أعمال الناس، ولذلك قال: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾، كقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] أي: رقيب[3].

كما هدد الله وتوعد من ينكر علمه بالسر والعلن، كما في قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

وقوله: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس: ٧٦].

ولا جرم معناه: حق وواجب، ولا بد ولا محالة، أي: حقًّا أن الله يعلم سرهم وعلانيتهم فيجازيهم، وهو وعيد.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ يجوز أن يريد المستكبرين عن التوحيد يعني: المشركين، ويجوز أن يعم كل مستكبر،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥١١، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٤٠، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٧٩، مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٥٨٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢٣٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٧٣.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٢٦٣.

ويدخل هؤلاء تحت عمومه[1].

وقد وردت آيات تبين أن الله تعالى يستوي عنده السر والعلن بألفاظ أخرى بمعنى السر:

أولًا: بلفظ الكتمان، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢].

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠].

وقوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ [النور: ٢٩].

وغيرها من الآيات.

ثانيًا: بلفظ الإخفاء: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡ﴾ [الممتحنة: ١].

وكذلك قوله تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠][2].

فالله سبحانه في كبريائه، وفي علوه، محيط بكل صغيرة وكبيرة في الوجود.. يتساوى لديه في ذلك بعيد الأمور وقريبها، خفيها وظاهرها، إذ لا قرب ولا بعد عند من احتوى الوجود كله، ولا خفاء ولا ظهور لدى من ملك الأمر جميعه ؛ لأنه: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣][3].

ثالثًا: بلفظ الإكنان: ففي التنزيل العزيز: ﴿أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٣٥] أي: أخفيتم.

ويترتب على أن الله بكل شيء عليم، وأنه يستوي في علمه السر والجهر: أن تظهر صفة المراقبة لله تعالى لدى العبد في السر والعلن، وذلك أن العبد إذا استشعر عظمة علم الله وسعته، وشموله لكل ما خلق الله سبحانه، وأنه يعلم السر والجهر، فإنه يعيش دائماً يراقب الله الذي يعلم السر وأخفى،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١٨٩، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ١٩٤، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٠١، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٨٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٦٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٨٩.

(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٧/ ٧٩.

ويعمل على إصلاح سريرته وعلانيته في كل وقت وحين، كما يدفعه ذلك لأن يجتنب الكبائر والصغائر ويتقي الله في خلوته ووحدته، كما يفعل ذلك في حضرته وشهوده[(١)].

الإسرار المحمود وميادينه

للإسرار المحمود ميادين نبينها فيما يأتي:

أولًا: الإسرار بالدعوة:

تعتبر الدعوة السرية أحد أطوار الدعوة الإسلامية ومبتدأها، في كل وقت وحين، وهي سنة المرسلين والأنبياء جميعاً، وكذلك الدعاة المصلحين، وقد جسد ذلك نبي الله نوح عليه السلام عندما قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ٥ - ١٠].

فقد ذكر أولًا أنه دعاهم بالليل والنهار، ثم ذكر أنه دعاهم جهاراً، ثم دعاهم في السر والعلن، أفراداً وجماعات، والحاصل: أنه دعاهم ليلاً ونهاراً في السر، ثم دعاهم جهارًا[(٢)].

قال الإمام ابن عطية: «الجهار دعاؤهم في المحافل ومواضع اجتماعهم، والإسرار

(١) انظر: بحث: مفهوم الأسماء والصفات سعد ندا، منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد ٤٦، العام ١٤٠٠-١٤٠١هـ ص ٦١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٣١، تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ٥٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢٤٨، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٥٤٣.

دعاء كل واحد على حدته، فقد اتبع نوح صلى الله عليه وسلم كل الأساليب فجهر بالدعوة تارة، ثم زاوج بين الإعلان والإسرار تارة أخرى»[(١)].

ويتضح من خلال الآيات أن نوحًا عليه السلام لم يترك سبيلاً للدعوة إلا فعلها، فاستعمل طرقاً ثلاثة:

١. بدأهم بالمناصحة في السر، فعاملوه بما ذكر في الآية من سد الآذان، والاستغشاء بالثياب، والإصرار على الكفر، والاستعظام عن سماع الدعوة.

٢. جاهرهم بالدعوة، وأعلنهم بها على وجه ظاهر لا خفاء فيه.

٣. جمع بين الإعلان والإسرار بحسب الأحوال والظروف[(٢)].

وما من نبي من الأنبياء إلا وجمع في دعوته بين السرية والجهرية، ومنهم سيد الخلق النبي محمد صلى الله عليه وسلم فقد بدأ دعوته بالسرية: فقد اتخذ صلى الله عليه وسلم دار الأرقم بن أبي الأرقم لتكون مقرّاً للدعوة السرية للدين الجديد، وقد استمرت هذه الدعوة ثلاث سنوات، وما زال النبي صلى الله عليه وسلم مستخفياً هو والمسلمون في دار الأرقم حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

فجهر النبي صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه بالدعوة وبلغوها لجميع الناس[(٣)].

ولم تكن سرية الدعوة في أول أمرها خوفاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسه، ولكنها إلهام من الله لتعليم الدعاة من بعده، وإرشادهم إلى مشروعية الأخذ بالحيطة والأسباب الظاهرة، وما يقرره التفكير والعقل السليم من الوسائل التي ينبغي أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها. على أن لا يتغلب كل ذلك على الاعتماد والاتكال على الله وحده، وعلى أن لا يذهب الإنسان في التمسك بهذه الأسباب مذهباً يعطيها معنى التأثير والفعالية في تصوره وتفكيره، فهذا يخدش أصل الإيمان بالله تعالى، فضلاً عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام.

ومن هنا تدرك، أن أسلوب دعوته صلى الله عليه وسلم في هذه الفترة، كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إماماً، وليس من أعماله التبليغية عن الله تعالى بوصف كونه نبيًّا.

(١) انظر: المحرر الوجيز ٥/ ٣٧٣.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦٣١، تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ٥٥، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٥٤٣، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢٤٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٥١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ١٩٧، تفسير المراغي ٢٩/ ٨٢.
(٣) انظر: سبل الهدى والرشاد، محمد الصالحي الشامي، ص ١٦.

وبناء على ذلك: فإنه يجوز لأصحاب الدعوة الإسلامية، في كل عصر أن يستعملوا المرونة في كيفية الدعوة -من حيث السرية والكتمان أو من حيث الجهر والإعلان، أو اللين والقوة- حسبما يقتضيه الظرف وحال العصر الذي يعيشون فيه، وهي مرونة حددتها الشريعة الإسلامية، اعتماداً على واقع سيرته صلى الله عليه وسلم، على أن يكون النظر في كل ذلك إلى مصلحة المسلمين ومصلحة الدعوة الإسلامية[1].

ثانيًا: إسرار الإنفاق:

دعت الآيات القرآنية الكريمة إلى الإنفاق في سائر الحالات: في السر والجهر، وفي الليل والنهار، وفي السراء والضراء، وفاضلت أحياناً بين نفقة السر والعلن، وبينت فضل الصدقة في كل الأحوال، ذلك أن الله سبحانه وتعالى وجَّه عباده إلى الإنفاق والمبادرة فيه سرّاً وعلانية بالليل والنهار، في السراء والضراء، في الفرض والنفل.

فالإنفاق سرّاً حتى لا يقع الإنسان فريسة المباهاة؛ والإنفاق علناً كي يعطي غيره من القادرين أسوة حسنة، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم من قبل أن يأتي يوم (هو يوم القيامة) لا بيع فيه ولا خلال، أي: من قبل أن يأتي اليوم الذي لا تنفع فيه فدية، ولا تجدي فيه صداقة، فلا يشفع خليل ولا يصفح عن عقابه لمخالته لصديقه، بل هناك العدل والقسط[2]، فقد قال تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴾[إبراهيم: ٣١].

ويستحب إعلان الواجب، وإخفاء المتطوع به، إلا في محل الاقتداء لأهل الإخلاص[3].

والمراد بالسر في الآيات: ما خفي، وبالعلانية ما ظهر، وهو قول جمهور المفسرين، الثاني: أن السر في التطوع، والعلانية في الفرض[4].

والإنفاق في سبيل الله تعالى من أفضل الأعمال، لقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٤]؛ فقد جاء في سبب نزول الآية أنها نزلت في علف

(١) انظر: فقه السيرة النبوية، محمّد سعيد البوطي ص ٦٩، الدعوة الإسلامية في عهدها المكي مناهجها وغاياتها، رؤوف شلبي ص ٣٠١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٣٨، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٩٩، تفسير المراغي ١٣/ ١٥٤، تفسير الشعراوي ١٢/ ٧٥٣١.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٩٩.

(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٣٧، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢، البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٤٣٧.

الخيل وارتباطها في سبيل الله، فكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا مر بفرس سمين قرأ هذه الآية[1].

ولكن الآية عامة في الذين ينفقون في سبيل الله تعالى، وفي الذين يعممون الأوقات والأحوال بالصدقات، فكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا قضاءها ولم يؤخروها ولم يعلقوها بوقت ولا حال، وهذا هو أحسن الوجوه في معنى الآية[2].

ثم ذكر الله أن الإنفاق في السراء والضراء، أي في الشدة والرخاء، والمنشط والمكره، والصحة والمرض، والليل والنهار، وفي السر والعلانية ، وفي جميع الأحوال والأوقات صفة من صفات أهل الجنة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

أي: يرجون ثوابًا عند الله لا بد من حصوله[3].

وفي الآية إشارة إلى أن صدقة السر أفضل من صدقة العلانية؛ وذلك لأنه قدم الليل على النهار، والسر على العلانية في الذكر، كما فضل الله صدقة السر على صدقة الجهر في قوله: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١][4].

قد جعل الله ذلك من صفات أولي الألباب.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢ - ٢٤].

كما جعل سبحانه الإنفاق سرًّا وجهرًا من صفات الكمال البشري ، كما في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ

(١) انظر: أسباب نزول القرآن، الواحدي ص ٩٠، العجاب في بيان الأسباب، ابن حجر العسقلاني ١/ ٦٣٤.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٤٧، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣٩٢، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٢٧٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٦٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٣٠٥.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٧١.

﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

فكما لا يستوي العبد الذي لا يملك شيئاً ولا يقدر عليه، والرجل الحر الذي قد رزقه الله رزقاً حسناً فهو ينفق منه سرًّا وجهراً؟ فكذلك لا يستوي الكافر العامل بمعاصي الله المخالف أمره، والمؤمن العامل بطاعته[1].

ويلاحظ من خلال الآيات السابقة أنها تشير وتحث على الإنفاق الجماعي الذي يستفاد من خطاب الجمع في قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [إبراهيم: ٣١]. وغيرها من الآيات.

قال سيد قطب في ظلال هذه الآية: « الذين ينفقون أموالهم».. هكذا بوجه عام يشمل جميع أنواع الأموال.. «بالليل والنهار. سرًّا وعلانية».. لتشمل جميع الأوقات وجميع الحالات.. «فلهم أجرهم عند ربهم».. هكذا إطلاقاً. من مضاعفة المال ، وبركة العمر ، وجزاء الآخرة ، ورضوان الله. «ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون».. لا خوف من أي مخوف، ولا حزن من أي محزن.. في الدنيا وفي الآخرة سواء[2].

ثالثًا: الإسرار بالدعاء:

أمر الله تعالى بالإسرار بالدعاء في قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦].

كما بيَّن الله تعالى حال الداعين بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

لأن الإسرار بالدعاء أبعد من الرياء وأدل على الإخلاص؛ لأن الدعاء حقيقته النداء لطلب مهم، واستعمل مجازاً في العبادة لاشتمالها على الدعاء والطلب بالقول أو بلسان الحال، كما في الركوع والسجود، مع مقارنتها للأقوال، وهو إطلاق كثير في القرآن؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (الدعاء هو العبادة)[3].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٠٧، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٢١٣، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٣٤، البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٥٦٩.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٣١٦.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الدعاء، رقم ١٤٧٩، ٢/ ٧٦، والترمذي في سننه، أبواب من قال في القرآن برأيه، باب ومن سورة المؤمن، رقم ٣٢٤٧، ٥/ ٢١١، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء، رقم ٣٨٢٨ ، ٢/ ١٢٥٨.
قال الترمذي: حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم

وقد راعى نبي الله زكريا عليه السلام أدب الدعاء، وهو إخفاؤه ؛ لكونه أبعد عن الرياء، وأدخل في الإخلاص حين وصف الله فعله: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣][1].

وتدل هذه الآيات على وجوه أهمها:

الأول: أن هذه الآية تدل على أنه تعالى أمر بالدعاء مقروناً بالإخفاء، وظاهر الأمر للوجوب، فإن لم يحصل الوجوب، فلا أقل من كونه ندبًا.

الثاني: أنه تعالى أثنى على زكريا عليه السلام فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

أي: أخفاه عن العباد وأخلصه لله وانقطع به إليه، فالآية تشير إلى أن الدعاء خفية مندوب، وأن ذلك إسرارٌ محمودٌ.

الثالث: ما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، أنهم كانوا في غزاة فأشرفوا على واد فجعلوا يكبرون ويهللون رافعي أصواتهم ، فقال صلى الله عليه وسلم: (ارفقوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنكم تدعون سميعاً قريباً وإنه لمعكم)[2][3].

ويطلق التضرع على الجهر بالدعاء؛ لأن الجهر من هيئة التضرع؛ لأنه تذلل جهري، كما في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦]؛ لأنه أنسب بمقابلته بالخفية، فيكون أسلوبه وفقاً لأسلوب نظيره في قوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾[الأعراف: ٥٦].

والتضرع لفظة تقتضي الجهر؛ لأن التضرع إنما يكون بإشارات جوارح وهيئات أعضاء تقترن بالطلب.

والخفية: الدعاء في السر، وهو مأمورٌ به مقصودٌ بذاته، أي : ادعوه مخفين دعاءكم، حتى أوهم كلام بعضهم أن الإعلان بالدعاء منهي عنه أو غير مثوب عليه، وخفية يريد في النفس خاصة.

والشريعة مقررة أن السر فيما لم يعترض من أعمال البر أعظم أجراً من الجهر، بل يندب الإسرار في جميع نوافل القربات من: الصلاة، والصوم، وقيام الليل، والعمل الصالح.

وتأول بعض العلماء التضرع والخفية في الآية في معنى السر جميعاً، فكأن التضرع فعل للقلب، ذكر هذا المعنى الحسن بن أبي الحسن البصري، وقال: لقد أدركنا أقواماً

٣٤٠٧، ١/ ٦٤١.

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٨٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم ٤٢٠٥، ٥/ ١٣٣ .

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٧٢ .

ما كان على الأرض عمل يقدرون أن يكون سرًّا فيكون جهراً أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء فلا يسمع لهم صوت، إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾، وذكر عبدا صالحا رضي فعله فقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم: ٣][1].

ولكن الصحيح جواز الدعاء جهراً؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم دعا علناً غير مرة، وعلى المنبر بمسمع من الناس، وما رويت أدعيته إلا لأنه جهر بها يسمعها من رواها، فالصواب أن قوله: تضرعاً إذن بالدعاء بالجهر والإخفاء، وأما ما ورد من النهي عن الجهر فإنما هو عن الجهر الشديد الخارج عن حد الخشوع[2].

رابعًا: إسرار الغضب:

جعل الله سبحانه وتعالى إسرار الغضب وكتمانه مع القدرة على إنفاذه من صفات المتقين ، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

والكاظمين الغيظ هم: الجارعون الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه، ولم يظهروه بقول أو فعل، فحفظوا نفوسهم من أن تمضي ما هي قادرة على إمضائه، باستمكانها ممن غاظها، وانتصارها ممن ظلمها.

وقد وصف الله تعالى أنبياءه بذلك فقال عن يعقوب عليه السلام: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [يوسف: ٨٤]؛ لأنه لم يشك إلى أحد، وإنما كان يكمد في نفسه، ويمسك همه في صدره، وكان يكظمه أي يرده إلى قلبه ولا يرسله بالشكوى والغضب.

وقوله تعالى في نبي الله يوسف عليه السلام: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧].

فقد أسر في نفسه قذفهم له وتحمل القذف ولم يظهر غضباً منها، أسر هذه الفعلة وحفظها في نفسه، ولم يبد تأثره منها، وهو يعلم براءته وبراءة أخيه ، وأعرض

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٤٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤١٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٤٩، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٣١، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٢٥٩، الوجيز، الواحدي ص ٣٥٨، تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ١١٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤١٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور٨/ ١٧١.

عن زجرهم وعقابهم مع أنها طعن فيه وكذب عليه[1].

كما أن من يسر الغضب ويكتمه ويتحكم بانفعالاته فهو الشديد الشدة المحمودة؛ لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول صلى الله عليه وسلم قال: **(ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)**[2].

وروى سهل بن معاذ، عن أبي رضي الله عنهم أن رسول صلى الله عليه وسلم قال: **(من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله عز وجل على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره الله من الحور العين ما شاء)**[3].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٦٥، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٦٢٤، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٥٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم ٦١١٤، ٨/ ٢٨، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب، رقم ٢٦٠٩، ٤/ ٢٠١٤.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من كظم غيظاً، رقم ٤٧٧٧، ٤/ ٢٤٨، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب في كظم الغيظ، رقم ٢٠٢١، ٤/ ٣٧٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الحلم، رقم ٤١٨٦، ٢/ ١٤٠٠.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٥٢٢، ٢/ ١١١٢.

أنواع الاسرار المذموم

الإسرار المذموم أنواع نتناولها بالبيان في ما يأتي:

أولًا: إسرار الكفر:

إن من أخلاق المنافقين إسرار الكفر وإعلان الإيمان، وذلك أنهم إذا استقبلوا المؤمنين دفعوا عن أنفسهم بقولهم: آمنا استهزاء، وإبداء لخبثهم ومكرهم، وكشفاً عن إفراطهم في ادعاء أنهم مثل المؤمنين في الإيمان الحقيقي[4].

وقد ذكر الله تعالى أن ذلك خلق راسخ ومتجذر فيهم في آيات كثيرة ، منها: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

وقوله عز من قائل: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٣٤٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٠٢، أنوار التنزيل البيضاوي ١/ ٨٩، فتح القدير، الشوكاني ١/ ١٢٠، روح المعاني، الألوسي ١/ ١٥٨.

﴿اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٦-٧٧].

وقوله جل شأنه: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٦١].

وقد أجمع أهل التفسير على أن هذه الآيات نزلت في قوم من أهل النفاق بصفة عامة، وذهب جمهور المفسرين إلى أن الآية نزلت في يهود نافقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالآية في عامة المنافقين الذين يظهرون كلمة الإيمان ويسرون الكفر، فنفى الله سبحانه وتعالى عنهم الإيمان، وبيَّن أن هذه الصفة صفتهم(١).

فالمنافقون يصانعون المؤمنين في الظاهر، وقلوبهم منطوية على الكفر، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر، مع أن الله تعالى عليم بما يسرون، وإن أظهروا لخلقه خلاف ذلك، وتزينوا بما ليس فيهم، فإن الله أعلم بهم منهم، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء، ثم بين الله تعالى أنه سيظهر ذلك يوم القيامة في قوله عز وجل: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

أي: أن الله تعالى يوم القيامة يكشف أسرار المنافقين الذين كانوا يسرون الكفر ويظهرون الإسلام، وأخبر أنهم لو ردوا إلى الحياة الدنيا لعادوا لما نهوا عنه؛ لأن المنافق يخالف قوله فعله، وسره علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه(٢).

ثانيًا: إسرار العداوة والبغضاء:

إن إسرار العداوة والبغضاء لأهل الإيمان من أعمال المنافقين، وبالرغم من إسرار المنافقين العداوة والبغضاء وكتمانها في قلوبهم عن المسلمين، إلا أنها تبدو من أفواه المنافقين إلى إخوانهم من الكفار، وتظهر عداوتهم بالشتيمة والوقيعة في المسلمين وإطلاع المشركين على أسرارهم، وما تخفي صدورهم من العداوة والخيانة أكبر: أعظم مما أظهروا، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٤٤٤، تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٥٠، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٢٠٥، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٩٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٣٧، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٣٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير٣/ ١٣١.

(٢) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٢٩، تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٥٠، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٩٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٨٧، المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٤٠٨.

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٨ - ١١٩].

وبسبب ما يسرون من البغضاء للمؤمنين نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ خواص ومقربين ودخلاء من غير أهل ملتهم بطانة؛ لأنهم: ﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾ والخبال: الفساد والشر، أي: لا يقصرون ولا يتركون جهداً في مضرتكم وفسادكم(١).

والمنافقون لا يقصرون بجهدهم وطاقتهم بإطلاع الكافرين على سرائر المؤمنين، وما يضمرونه لهم، وما يسعون به في مخالفتهم، وما يضرهم بكل ممكن، وبما يستطيعون من المكر والخديعة، ويودون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشق عليهم(٢).

أما المؤمنون فلا يكفي إسرار العداوة والبغضاء للكافرين والمنافقين، بل يجب إبداء تلك العداوة والبغضاء وإعلانها وإظهارها لهم أبداً حتى يؤمنوا بالله وحده، ما لم تكن هناك مصلحة شرعية في عدم إظهارها، فإذا آمنوا صارت تلك العداوة موالاة، والبغضاء محبة، عملاً وتأسياً حيث أظهروا البراءة من قومهم بسبب شركهم وكفرهم بالله تعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤](٣).

ثالثًا: إسرار المكر والكيد:

المكر في اللغة هو: التدبير على العدو في احتيال وخفية، واصطلاحًا هو: إخفاء الكيد وطيه، والكيد: المكر والخبث، وظاهر كلام أهل اللغة أن الكيد والمكر مترادفان، وقد فرق بينهما بعض فقهاء اللغة، بأن الكيد: المضرة، والمكر: إخفاء الكيد وإيصال المضرة، وقيل: الكيد هو: الأخذ على خفاء من غير إظهار الماكر خلاف ما يبطن، والمكر: الأخذ على خفاء مع إظهار الماكر خلاف ما يبطن(٤).

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٤٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٨٥، التفسير المنير، الزحيلي ٢٨/ ١٢٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ١٤٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٦١، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٤٨٣، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٣٥١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٦٤.

(٣) انظر: الوجيز، الواحدي ص ٢٢٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١٤٤، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٨٥، التفسير المنير، الزحيلي ٢٨/ ١٢٨.

(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٥٩، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ١٨٣، تاج العروس، الزبيدي٩/ ١٢٢.

إن إسرار المكر والكيد لله ولرسله وللمؤمنين في كل وقت وحين هو من أخلاق الكافرين والمنافقين، ولا يكون المكر والكيد إلا في سرٍّ وخفيةٍ، وهو على أنواع:

الأول: المكر والكيد بآيات الله بالطعن فيها وتكذيبها والاحتيال في دفعها، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١].

وقد بيَّن الله تعالى أنه أسرع مكراً منهم، فقد دبّر عقابهم قبل أن يدبروا كيدهم، والمكر من الله تعالى: صفة مقابلة لا تطلق عليه إلا في مقابل مكر وكيد الكافرين والمنافقين.

ولما كان المكر والكيد يكون في سرٍّ وخفية، فقد بين الله تعالى إن الحفظة يكتبون ما يمكر به المنافقون والكافرون؛ تحقيقاً للانتقام منهم، وتنبيهاً على أن ما دبروا في إخفائه لم يخف على الحفظة فضلاً أن يخفى على الله تعالى[1].

ثانيًا: المكر والكيد برسل الله تعالى والمؤمنين:

دلت الكثير من الآيات على مكر وكيد الكافرين والمنافقين برسل الله تعالى والمؤمنين، منها: قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢].

وقوله عز وجل: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: ٢٢].

وقوله سبحانه: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠].

وقوله جل شأنه: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨][2].

وقد بيَّن الله عاقبة مكر وكيد الكافرين والمنافقين وأنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر وسيجزي كل عامل بعمله، وستكون العاقبة لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة، كما مكر الذين من قبلهم برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم، وجعل العاقبة للمتقين: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وبيَّن الله تعالى أنه يدمر من يمكر،

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٣٧، مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٦٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٠٩.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٦١٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٠٦.

وقومه برسل الله بقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٠- ٥٢].

ومثله قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦][1].

كما أوصى الله المؤمنين بما يدفع المكر والكيد وهو :الصبر والتقوى ، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

ثالثًا: المكر والكيد بين المسلمين بعضهم لبعض، وهذا محرم ولا يجوز، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥].

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

وكذلك الغدر بالمسلمين، يدخل في المكر والكيد، وهو محرم لما رواه ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة، فيقال هذه غدرة فلان بن فلان**)[2].

والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفيًّا لا يطلع عليه الناس، فيكشف الغدر والغادر يوم القيامة علانية ويطلع عليه بصورة فيها شيء من الإهانة، ويصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل[3].

رابعًا: الإسرار بالمودة للكافرين:

بيَّن الله تعالى بأن من يسرّ من المسلمين إلى المشركين بالمودة فقد جار عن قصد السبيل التي جعلها الله طريقاً إلى الجنة ومحجة إليها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة:

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٨٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٩٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما يدعى الناس بآبائهم، رقم ٦١٧٧، ٨/ ٤١، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، رقم ١٧٣٥، ٣/ ١٣٥٩.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٩٩.

١]؛ لأن المودة هي عماد عقيدة الولاء والبراء للباري سبحانه، ومكانها القلب الذي هو موئل العاطفة، ومنبت الإحساس والمشاعر، وهي معنى خفي لا يطلع عليه إلا الخالق عالم الغيب والشهادة، ولذلك كان عطاء الله تعالى للعبد على قدر إخلاصه في هذه المحبة لله ولرسوله ولدينه ولعباده المؤمنين ، فلابد أن تجرد هذه المحبة لله وتصفى وتنقى من أي شائبة بشرك أو غبار رياء، أو تكدير نفاق(١).

والإسرار في الآية على وجهين:

أحدهما: تعلمونهم سراً أن بينكم وبينهم مودة.

الثاني: تعلمونهم سرًّا بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم بسبب المودة التي بينكم وبينهم، وقد فسر بأن معناه: يظهرون، وهذا صحيح ؛ فإن الإسرار إلى الغير يقتضي إظهار ذلك لمن يفضى إليه بالسر، وإن كان يقتضي إخفاءه عن غيره، فإن قولهم: أسررت إلى فلان يقتضي من وجه الإظهار، ومن وجه الإخفاء(٢).

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية وما بعدها من أول هذه السورة نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، وكان قد كتب إلى قريش بمكة يطلعهم على أمر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخفاه عنهم، وبذلك جاءت الآثار والرواية عن جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم(٣).

فقد روى علي بن أبى طالب رضي الله عنه قال: (بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ- وهو مكان بين مكة والمدينة- فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها فأتونى به فخرجنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة فقلنا لها: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي . ويروى أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، وكان كتب إلى أهل مكة يتنصح لهم، فكتب إليهم أن رسول الله يريد أن يغزوكم فخذوا حذركم فأطلع الله نبيه على ذلك، وكان كتب إليهم كتاباً ووجه به مع امرأة يقال إنها كانت مولاة بني هاشم، فوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم علي والزبير خلفها فلحقاها فسألاها عن الكتاب فأنكرت، ففتشا ما معها فلم يجدا شيئاً، فقال علي رضوان الله عليه: إن رسول الله صلى

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣١٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ١٥٥، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٥١٧، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥١٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣١٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ١٥٥، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٤، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٥١٧، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥١٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣١٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ١٥٥.

الله عليه وسلم لم يكذبنا فأقسم علي عليها لتخرجن الكتاب أو ليضربنها بالسيف، فقالت لهما: وليا وجوهكما وأخرجت الكتاب من قرن من قرون شعرها، فجاء بالكتاب إلى النبي عليه السلام فعرضه على حاطب فاعترف به، وقال: إن لي بمكة أهلاً ومالاً فأردت أن أتقرب منهم، ولن يرد الله بأسه عنهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية إلى آخر القصة[1].

لكن الآية عامة في كل من يسر مودة الكافرين؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[2].

خامسًا: الإسرار بمواعدة النساء بالزواج:

حرم الله تعالى النكاح في العدة، وأوجب التربص على الزوجة مدتها، وقد علم سبحانه أن الخلق لا يستطيعون الصبر عن ذكر النكاح والتكلم فيه، فأذن في التصريح بذلك مع جميع الخلق، وأذن في ذكر ذلك بالتعريض مع العاقد له، وهو المرأة أو الولي؛ وهو في المرأة آكد.

قال الإمام ابن عطية: «أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو رفث من ذكر جماع، أو تحريض عليه فإنه لا يجوز، وقال أيضاً: أجمعت الأمة على كراهة المواعدة في العدة للمرأة في نفسها، لقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥]»[3].

والتعريض هو: القول المفهم لمقصود الشيء، وليس بنص فيه، أي: الإشارة بالكلام إلى ما ليس فيه ذكر النكاح، والتعريض المباح في العدة بخطبة معتدة الوفاة في أثناء العدة: أن يقول لها الرجل مثلاً: إنك لجميلة، ومن يجد مثلك، ورب راغب فيك، ولعل الله أن يسوق إليك خيراً، أو يقول: رب رجل يرغب فيك، وما جرى مجرى هذه الألفاظ. والتصريح هو: التنصيص عليه والإفصاح بذكره. والتعريض مأخوذ من عرض الشيء وهو ناحيته، كأنه يحوم على

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح، رقم ٤٢٧٤، ٥/ ١٤٥، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب بن أبي بلتعة، رقم ٢٤٩٤، ٤/ ١٩٤١.

(٢) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي ٤/ ٢٦٩، شرح الكوكب المنير، ابن النجار الحنبلي ٣/ ١٧٧.

(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ١٥٨.

النكاح، ويمشي حوله ولا ينزل به[1].

وقد اختلف العلماء في السر المراد في هذه الآية على ثلاثة أقوال:

الأول: أنه الزنا، قاله: جابر بن زيد، وأبو مجلز: لاحق بن حميد، والحسن بن أبي الحسن، والضحاك، وإبراهيم النخعي، وهو اختيار الإمام الطبري[2].

الثاني: الجماع، وهو قول الشافعي، ويكنى به عن الجماع حلاله وحرامه؛ لكونه يكون في سر، وقد يعبر به عن العقد؛ لأنه سبب فيه[3].

الثالث: التصريح بالنكاح: ذهب إلى ذلك جمهور العلماء، أي: لا تتعدوا معهن وعداً صريحاً على التزوج بهن[4].

والمراد بالسر في الأصل: هو الوطء، ويقصد به هنا عقد الزواج في العدة سرًّا، فأطلق على العقد الذي هو سبب الوطء، وقيل: المراد به هنا هو الزنى، وهو اختيار الإمام الطبري، أو هو التعريض بالقول لها: إني عاشق وعاهديني أن لا تتزوجي غيري، قال الإمام ابن كثير: وقد يحتمل أن تكون الآية عامة في جميع ذلك[5].

قال سيد قطب في ظلال هذه الآية: «والعلة في النهي عن المواعدة؛ لأن المواعدة على هذه الحال مدرجة للفتنة، ومظنة للقيل والقال، بخلاف التعريض فإنه يكون على ملأ من الناس، فلا عار فيه ولا عيب، ولا يكون وسيلة إلى ما لا تحمد عقباه؛ لأن المرأة في عدتها ما تزال معلقة بذكرى لم تمت، وبمشاعر أسرة الميت، ومرتبطة كذلك بما قد يكون في رحمها من حمل لم يتبين، أو حمل تبين، والعدة معلقة بوضعه.. وكل هذه الاعتبارات تمنع الحديث عن حياة زوجية جديدة؛ لأن هذا الحديث لم يحن موعده؛ ولأنه يجرح مشاعر، ويخدش ذكريات.

ومع رعاية هذه الاعتبارات فقد أبيح التعريض -لا التصريح- بخطبة النساء. أبيحت الإشارة البعيدة التي تلمح منها المرأة أن هذا الرجل يريدها زوجة بعد انقضاء عدتها»[6].

(١) انظر: غريب القرآن، ابن قتيبة ص٩٠، معاني القرآن، النحاس ١/ ٢٢٨، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢٨٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ١٠٥، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٠٤، أحكام القرآن، ابن العربي ١/٢٨٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣١٥.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٨٣، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢٨٧، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٥٢٢، تفسير المراغي ٢/ ١٩٤.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ١٠٥، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٠٤، أحكام القرآن، ابن العربي ١/٢٨٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣١٥.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٨٣.

(٦) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٢٥٥.

السر يوم القيامة

تنكشف أسرار الناس يوم القيامة فلا يخفى منه على الله شيء، وهذا ما سنبينه في النقاط الآتية:

أولًا: انكشاف السرائر:

في يوم القيامة تنكشف السرائر، ويعرض الناس على عالم السر والنجوى، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر، وفي ذلك اليوم يعرض العباد على الله لحسابهم، فلا يخفى على الله تعالى من أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم وأمورهم شيء، فهو يعلم السر وأخفى، ويدل على هذا المعنى آيات كثيرة ، منها قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨].

وقوله عز وجل: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وقوله جل شأنه: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨].

وكذلك قوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩][1].

وفي هذا المقام قال سيد قطب في ظلال قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] فالكل مكشوف. مكشوف الجسد، مكشوف النفس، مكشوف الضمير، مكشوف العمل، مكشوف المصير. وتسقط جميع الأستار التي كانت تحجب الأسرار، وتتعرى النفوس تعري الأجساد، وتبرز الغيوب بروز الشهود.. ويتجرد الإنسان من حيطته ومن مكره ومن تدبيره ومن شعوره، ويفتضح منه ما كان حريصاً على أن يستره حتى عن نفسه! وما أقسى الفضيحة على الملأ. وما أخزاها على عيون الجموع! أما عين الله فكل خافية مكشوفة لها في كل آن، ولكن لعل الإنسان لا يشعر بهذا حق الشعور، وهو مخدوع بستور الأرض. فها هو ذا يشعر به كاملاً وهو مجرد في يوم القيامة. وكل شيء بارز في الكون كله. الأرض مدكوكة مسوّاة لا تحجب شيئاً وراء نتوء ولا بروز، والسماء متشققة واهية لا تحجب وراءها شيئاً، والأجسام معرّاة لا يسترها شيء، والنفوس كذلك مكشوفة ليس من دونها ستر وليس فيها سر! ألا إنه لأمر عصيب، أعصب من دك الأرض والجبال، وأشد من تشقق السماء! وقوف الإنسان عريان الجسد، عريان النفس، عريان المشاعر، عريان

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٨٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٢٩، التفسير المنير، الزحيلي ٢٩/ ٨٩.

التاريخ، عريان العمل ما ظهر منه وما استتر، أمام تلك الحشود الهائلة من خلق الله، من الإنس والجن والملائكة، وتحت جلال الله وعرشه المرفوع فوق الجميع..

وإن طبيعة الإنسان لمعقدة شديدة التعقيد ففي نفسه منحنيات شتى ودروب، تتخفى فيها نفسه وتتدسس بمشاعرها ونزواتها وهفواتها وخواطرها وأسرارها وخصوصياتها، وإن الإنسان ليصنع أشد مما تصنعه القوقعة الرخوة الهلامية حين تتعرض لوخزة إبرة، فتنطوي سريعاً، وتنكمش داخل القوقعة، وتغلق على نفسها تمامًا.

إن الإنسان ليصنع أشد من هذا حين يحس أن عيناً تدسست عليه فكشفت منه شيئاً مما يخفيه، وأن لمحة أصابت منه درباً خفيا أو منحنى سريًّا! ويشعر بقدر عنيف من الألم الواخز حين يطلع عليه أحد في خلوة من خلواته الشعورية..

فكيف بهذا المخلوق وهو عريان. عريان حقًّا. عريان الجسد والقلب والشعور والنية والضمير. عريان من كل ساتر. عريان... كيف به وهو كذلك تحت عرش الجبار، وأمام الحشد الزاخر بلا ستار؟! ألا إنه لأمر، أمر من كل أمر! ! ! وبعدئذ يعرض مشهد الناجين والمعذبين، كأنه حاضر تراه العيون[1].

(١) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٨٠.

وانكشاف السرائر يوم القيامة لا يقتصر على الأعمال فقط، بل تنكشف عقائد المنافقين الذين كانوا يسرون الكفر، ويظهرون الإسلام، ويبدى لهم يوم القيامة ما كانوا يخفون من قبل، على أحد المعاني لقوله عز وجل: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨][2].

ثانيًا: إسرار الندامة:

أخبر الله تعالى أن الكافرين يسرون الندامة يوم القيامة، والندامة: الحسرة لوقوع شيء أو فوت شيء، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٤].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣][3].

(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٥٠، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٩٧، المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٤٠٨، التفسير المنير، الزحيلي ١/ ٩٣.

(٣) انظر: معاني القرآن، النحاس ٣/ ٣٠٠، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٣٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٢٠٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢٠٩.

وإسرار الندامة يوم القيامة على معنيين:

الأول: الإخفاء والكتمان، أي: أخفى الرؤساء في الكفر الندامة من الذين أضلوهم، وستروها عنهم، وهذا قول عامة المفسرين، وهو المشهور في اللغة والشائع في الاستعمال؛ لأن السر من الأضداد - كما سبق - ولا موجب للعدول عن المشهور والشائع في الاستعمال إلا بدليل؛ ولأن (السر) يستعمل غالباً في الكتمان، وذلك ما ينصرف إليه الذهن بادىء الرأي، وهو أنسب بالمقام.

الثاني: الإظهار والإعلان، أي : أظهروا الندامة وأعلنوها على ما فاتهم من الكفر والعصيان، ويدل على هذا المعنى أن الآخرة ليست دار تجلد وتصبر؛ كي يظهروا خلاف ما يبطنون ، وقد ذهب إلى هذا المعنى جماعة من المفسرين؛ لأن الإسرار من الأضداد، يقال: أسررت الشيء، أخفيته، وأسررته، أعلنته، فيكون المعنى في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [يونس: ٥٤] أي: أظهروها[١].

ومما يؤيد هذا المعنى أن الندامة تظهر يوم القيامة جهراً في مواضع أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

وقد حكى جماعة من المفسرين عن المبرّد وجهاً ثالثًا في معنى إسرار الندامة: أنه بدت بالندامة أسرة وجوههم، وهي تكاسير الجبهة، واحدها سرار[٢].

ومن خلال النظر في أقوال المفسرين يمكن القول بأن الإسرار يوم القيامة يحتمل المعاني الثلاثة: ففي مواطن يكتمون الندامة، وفي أخرى يظهروها، مع بدو الندامة في أسرة وجوههم في جميع الأحوال.

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٩١، معاني القرآن، النحاس ٣/ ٢٩٩، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٥٠، تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٣٨٩.

(٢) انظر: معاني القرآن، النحاس ٣/ ٣٠٠، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٤٣٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٢٠٨، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ٧١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٣٥٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢٠٩.

المحاسبة على السر

لما كان الله تعالى له ملك السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، وكان المطلع على ما فيهن، بحيث لا تخفى عليه الظواهر، ولا السرائر والضمائر، وإن دقت وخفيت، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩].

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

والآيات في ذلك كثيرة جدًّا.

أخبر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة بأنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩].

وفي الآية إشارة إلى أن ابتلاء السرائر يوم القيامة يتحقق بظهورها بعد الخفاء والاستتار ليتم تمحيصها واختبارها.

وهذا المعنى يتضح في قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤][1].

ولما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة رضي الله عنهم وخافوا منها، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم[2]، وذلك لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: «لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير)**، قالوا: سمعنا

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ١١٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٠٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٤٢١، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٧٥٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٦٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٦٥.

وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم، ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال: نعم: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرًا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال: نعم: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال: نعم: ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: نعم»[1].

وبموجب هذه الحديث اختلف المفسرون والفقهاء هل هذه الآية منسوخة، أو محكمة على قولين هما:

القول الأول: ذهب الإمام علي وابن عمر وابن مسعود وكعب الأحبار والشعبي والنخعي ومحمد بن كعب القرظي وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وآخرون من الصحابة رضي الله عنهم إلى أن هذه الآية منسوخة؛ لأنها تثبت الحساب على الوساوس وخواطر النفوس، فرجع معنى هذه الآية إلى كونه تعالى عالماً بكل ما في الضمائر والسرائر[2]، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٣٥][3].

القول الثاني: ذهب ابن عباس وعكرمة والشعبي ومجاهد وعائشة رضي الله عنهم: إلى أن هذه الآية محكمة غير منسوخة، وأن الله تعالى يحاسب خلقه على ما عملوا من عمل وعلى ما لم يعملوه مما ثبت في نفوسهم فأضمروه ونووه وأرادوه، فيغفر للمؤمنين ويأخذ به أهل الكفر والنفاق، ورجح هذا القول الإمام الطبري وذهب إلى أن الآية محكمة غير منسوخة[4].

ويكون القول الراجح هو: أن الآية محكمة غير منسوخة، وأن المراد من قوله

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾، رقم ٤٥٤٥، ٦/ ٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾، رقم ١٢٥، ١/ ١١٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٠٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٤٢١، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٧٥٠.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٦٧.

(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٦٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٨٩.

في الحديث: «نسخها الله»، أي: أزال ما أخافهم، وأن آية: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ليست ناسخة، ولكنها موضحة، ويؤيد ذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل)[1]، ويدل على منع القول بالنسخ الأدلة التالية:

١. إن قوله تعالى: ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ خبر، والأخبار لا تنسخ عند جمهور الأصوليين[2].

٢. إن كسب القلب وعمله مما دل الكتاب والسنة والإجماع والقياس على ثبوته والجزاء عليه، ظهر أثره على الجوارح أم لم يظهر، كقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

٣. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

٤. إن الوساوس العارضة وحديث النفس الذي لا يصل إلى درجة القصد الثابت والعزم الراسخ لا يدخل في مفهوم الآية، كما قال المحققون.

٥. إن تكليف ما ليس في الوسع ينافي الحكمة الإلهية.

وأما قول الصحابة والتابعين رضي الله عنهم بالنسخ فهو مما يتفق مع علو مرتبة هؤلاء وكمالهم، حتى إنهم ليجدون أن وسوسة النفس مما تخضع للحساب، وهم يريدون التطهر من كل آثار الإثم، لذا قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين، فتحرجهم من باب كمال التزكية وتمام الطهارة واعتقاد النقص في أنفسهم[3].

واختبار سرائر الصدور يظهر ما كان في القلوب من خير وشر على صفحات الوجوه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦][4].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه، ولا عتاقة إلا لوجه الله، رقم ٢٥٢٨، ٣/ ١٤٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، إذا لم تستقر، رقم ١٢٧، ١/ ١١٦.

(٢) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي ٥/ ٢٤٧، المسودة في أصول الفقه، آل تيمية ص ١٩٦، شرح الكوكب المنير، ابن النجار الحنبلي ٣/ ٦٦.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٣/ ١٢٨.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٦/ ١١٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٠٤، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٧٥٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٦٥.

أثر إفشاء السر على الفرد والمجتمع

إن المحافظة على الأسرار من أعظم الأمانات في العلاقات؛ ليس على المستوى الفردي فحسب؛ بل على مستوى الدول والحكومات، وكم من أسرار كشفت للخصوم والأعداء؛ فسبّبت الذل والهوان لأفراد وشعوب وأمم!

ومن هنا فرعاية الإسلام للمحافظة على الأسرار يستهدف من ورائها تكوين المجتمع الإسلامي، ووضع التشريعات الضابطة لحماية العلاقات وتنميتها أمر لازم لدوام الحياة الاجتماعية وتقدمها من الناحية المادية والمعنوية.

ولو أهملت المبادئ الأخلاقية والاجتماعية، وسمح للخيانة، وفشو الأسرار بالانتشار؛ لزالت المعاني الإنسانية العظيمة، كالأمانة، وكتمان الأسرار من حياة الناس، وتحولت الحياة الاجتماعية إلى جحيم لا يطاق[1].

وينبغي التنبيه في هذا المقام إلى أن المحافظة على الأسرار مشروطة بأن لا تؤثر في حق الله تعالى أو حق المسلمين، وإلا عدّ ذلك من الخيانة لحق الله تعالى، أو حق المسلمين، وليس حفظ الأسرار هنا من الأمانة[2].

وقد عالج القرآن الكريم إفشاء الأسرار وبيَّن أثر ذلك في المجتمعات والدول والأفراد من جميع الجوانب، سواء العامة أو الخاصة في الأمور السياسية والعسكرية أو الاجتماعية والفردية كما يأتي:

أولًا: عالج القرآن الكريم إفشاء الأسرار وبيَّن أثر ذلك في المجتمعات والدول والأفراد في الأمور السياسية والعسكرية:

وذلك حين نهى الله المؤمنين أن يخونوا أماناتهم فيما بينهم، أو فيما أسر الرسول إليهم من السر، وهم يعلمون أن الخيانة ليست من شأن الكرام، بل هي من شأن اللئام، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

ومن هنا يكون إفشاء السر خيانة صغرى أو كبرى كما يأتي:

١. كشف السر خيانة صغرى: فقد ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].
ذهب جمهور المفسرين إلى أنها نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر الأنصاري

---

(١) انظر: مقال: المحافظة على الأسرار، عبداللطيف الحسين، منشور في مجلة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلامي، العدد ١٩٧، السنة ١٩، ص ٢٨.

(٢) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبدالرحمن حبنكة الميداني ٢/ ٣٦١.

رضي الله عنه، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أن ابعث إلينا أبا لبابة نستشيره في أمرنا، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم، فقالوا: يا أبا لبابة، ما ترى أننزل على حكم محمد؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه - أنه الذبح فلا تفعلوا -، ثم ندم بعد ذلك وقال: والله! ما زالت قدماي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله»[(١)]، فإن أبا لبابة رضي الله عنه كان يعلم الحكم في يهود بني قريظة بأنه الذبح! ولكنه أشار بيده إلى حلقه، فكان ذلك منه خيانة لأمانة المجلس، ويكون إفشاء السر في مثل هذه الحالة خيانة صغرى لعدم الإفصاح بالسر[(٢)].

٢. كشف السر خيانة كبرى: لأن حفظ أسرار المجالس أمانة كبرى يجب رعايتها، وعدم إفشاء ما يدار فيها من أمور وأخبار مهمة ربما يصل كشفها إلى الخيانة الكبرى، كما في قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه في نقله لخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتح مكة إلى زعمائها[(٣)]؛ إذ إن حاطبًا ممن أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بوجهته إلى مكة، وهو ما جاء في سبب نزول[(٤)] قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

٣. أن افشاء السر والإذاعة به من أخلاق المنافقين الذين يكيدون ويمكرون بالمؤمنين، كما ذهب إلى ذلك جمهور المفسرين، أو من أخلاق ضعفة المسلمين الذين يفشون الأسرار من غير معرفة بالأضرار الناجمة عن ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٨٠، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٥٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٧٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥١٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٨٠، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٥٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٧٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥١٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدراً، رقم ٣٩٨٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء﴾، رقم ٤٢٧٤، ٥/ ١٤٥.

وانظر: أسباب النزول، الواحدي ص ٣٤٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤١.

بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ٨٣][١].

كانوا إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمن وسلامة أو خوف وخلل أذاعوا به ، وكانت إذاعتهم مفسدة، ولو ردوا ذلك الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أولي الأمر منهم- وهم كبراء الصحابة البصراء بالأمور أو الذين كانوا يؤمرون منهم- لعلمه :لعلم تدبير ما أخبروا به ، الذين يستنبطونه : الذين يستخرجون تدبيره بفطنهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها[٢].

ثانيًا: الأضرار الناجمة على الفرد والمجتمع عن إفشاء الأسرار الاجتماعية، وكيف عالج القرآن الكريم ذلك:

فقد جسد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ [التحريم: ٣-٥].

وبعض أزواجه هي: حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعدل عن ذكر اسمها ترفعاً عن أن يكون القصد معرفة الأعيان، وإنما المراد العلم بمغزى القصة وما فيها مما يجتنب مثله أو يقتدى به، وكذلك طي تعيين المنبئة بالحديث، وهي عائشة رضي الله عنها.

وذكرت حفصة رضي الله عنها بعنوان بعض أزواجه للإشارة إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم وضع سره في موضعه ؛ لأن أولى الناس بمعرفة سر الرجل زوجه، وفي ذلك تعريض بملامها على إفشاء سره؛ لأن واجب المرأة أن تحفظ سرَّ زوجها إذا أمرها بحفظه أو كان مثله مما يجب حفظه[٣].

قال جماعة المفسرين: إن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى الغيرة والكراهية في وجه حفصة، أراد أن يترضاها، فأسرَّ إليها بشيئين:

أحدهما: تحريم مارية على نفسه أو ما حرم على نفسه مما كان الله جل ثناؤه قد

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٦٨، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥١١، مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٥٣، البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٧٢٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٢٢.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٤١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣٥٢.

أحله له من شربه العسل عند زينب بنت جحش فلن أعود له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً يبتغي بذلك مرضاة أزواجه، وحلفه على ذلك.

والثاني: تبشيرها بأن الخلافة بعده في أبي بكر وأبيها عمر رضي الله عنه [(١)].

وعلى ذلك يجب حفظ أسرار الزوجين: الرجل والمرأة مؤتمنان على حفظ أسرار كل منهما، ويجب عليهما أن يحرصا أشد الحرص على عدم إفشائها، ولا شك أن حفظ سر الزوجين من أخص خصائص كل منهما تجاه الآخر، ومن أكثرها إسهامًا في ديمومة الحياة الزوجية واستقرارها، ويدخل في المحافظة على الأسرار: ستر العورات في العلاقات الزوجية، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثم ينشر سرها)** وفي رواية عنه أيضاً: **(إنّ من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرّها)** [(٢)].

وكذلك يعتبر نقل النميمة من شخص إلى آخر من إفشاء السر، فمن قال لآخر: فلان يقول فيك أو يفعل فيك [(٣)]، فإن ذلك من إفشاء السر بالإضافة إلى كونه نميمة والكل محرم؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨] [(٤)].

والمحافظة على الأسرار أمانة عظيمة يجب الوفاء بها، وقد حثّنا الشرع عليها، وحذّرنا من فشو الأسرار والتفريط فيها، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المعارج: ٣٢].

فعلى من أودع سرًّا أن يحافظ عليه ولا يفشيه أبدًا، وإلا أصبح خائنًا، لأن إفشاء السر صفة مشابهة للمنافق الذي إذا اؤتمن على شيء خانه، كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(أربعٌ من كنّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النّفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر،**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حرم طعامه، رقم ٦٦٩١، ٦/ ١٥٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته، ولم ينو الطلاق، رقم ١٤٧٤، ٢/ ١١٠٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة، رقم ١٤٣٧، ٢/ ١٠٦٠.

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ١١٣.

(٤) انظر: سبل السلام، الصنعاني ٢/ ٦٧٨.

وإذا خاصم فجر)[١].

بالإضافة إلى أن حفظ الأسرار وكتمانها من الأخلاق العظيمة التي تعلي من شيم أصحابها وشمائل صفاتهم، فقد كان الصحابة والصحابيات رضي الله عنهم مضرب المثل في حفظ الأسرار التي يؤتمنون عليها، فهذا حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أمين سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين، وكان يقال له: صاحب السّر الذي لا يعلمه أحدٌ غيره[٢].

بالإضافة إلى أن في حفظ الأسرار وكتمانه عوناً على قضاء الحوائج ودفعاً للحسد والمكر وغيرها من الآفات والمخاطر التي تنتج عن إفشاء الأسرار والإعلان بها، وفي ذلك تظهر الحكمة والغاية التي أوصى بها النبي صلى الله عليه وسلم الناس بقوله: **(استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود)**[٣].

وفي الجملة ينبغي المحافظة على الأسرار الخاصة والعامة بكل الوسائل، وخاصة الأسرار العامة التي تهم الدول والمجتمعات ويؤدي إفشاؤها إلى دمار الشعوب، وخاصة مع وجود وسائل التنصت والتجسس المتطورة، والتي يجب الاحتراز والحذر منها بكل الوسائل الممكنة.

موضوعات ذات صلة:

الإخلاص، الإنفاق، الحساب، العلن، الكتمان، النجوى، النفاق

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامات المنافق، واللفظ له، رقم ٣٤، ١/ ١٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم ٥٨، ١/ ٧٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمار وحذيفة رضي الله عنهما، رقم ٣٧٤٢، ٥/ ٢٥.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم ٢٤٥٥، ٣/ ٥٥، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ٦٢٢٨، ٩/ ٣٤.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ١٤٥٣، ٣/ ٤٣٩.







عناصر الموضوع

مفهوم السعادة	٤٤
السعادة في الاستعمال القرآني	٤٥
الالفاظ ذات الصلة	٤٦
أنواع السعادة	٤٨
اسباب السعادة	٦٠
بعض مظاهر السعادة الدنيوية	٧٤
مظاهر السعادة في الدار الآخرة	٨٢

المجلد الثامن عشر

مفهوم السعادة

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (س ع د) تدل على خير وسرور خلاف النحس، فالسعد: اليمن في الأمر[(١)].

والسعادة: خلاف الشقاوة، يقال: يوم سعد ويوم نحس، وقد سعد يسعد سعدًا وسعادة فهو سعيد: نقيض شقي، وسَعُد بالضم فهو مسعود، والجمع سعداء[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفها الراغب بأنها: معاونة الأمور الإلهية للإنسان على نيل الخير[(٣)].

وقال ابن عاشور: «والسّعيد: ضدّ الشّقيّ، وهو المتلبّس بالسّعادة الّتي هي الأحوال الحسنة الخيّرة الملائمة للمتّصف بها»[(٤)].

والسعادة عند علماء التربية: «حالة نفسية من مشاعر الراحة والطمأنينة والرضى عن النفس والقناعة بما كتب الله سبحانه وتعالى»[(٥)].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٥٥٧.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٢١٣.
(٣) المفردات ص ٤١٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٦٤.
(٥) دليلك الشخصي إلى السعادة والنجاح، إبراهيم القعيد، ص٣٧.



السعادة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سعد) في القرآن الكريم مرتين[1].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [هود:١٠٨]
صيغة المبالغة	١	﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [هود:١٠٥]

وجاءت السعادة في الاستعمال القرآني بمعنى معاونة الأمور الإلهية للإنسان على نيل الخير[2].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٣٥٠.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤١٠، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي٢/ ١٩٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ الرضا:

الرضا لغةً:

ضد السخط، وفي حديث عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (اللّهمّ أعوذ برضاك من سخطك)[١]: وأرضاه: أعطاه ما يرضى به[٢].

الرضا اصطلاحًا:

سرور القلب بمر القضاء[٣]، أو طيب النفس بما يصيبه ويفوته مع عدم التغير[٤].

الصلة بين الرضا والسعادة

وبمقارنة الرضا بالسعادة نجد أن الأول ضد السخط والثاني ضد الشقاوة وأن السخط بعض ألوان الشقاء.

٢ الفرح:

الفرح لغة:

يقال فرح يفرح فرحًا، فهو فرحٌ على خلاف الحزن[٥].

الفرح اصطلاحًا:

«انشراح الصّدر بلذّة عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللّذات البدنيّة الدّنيوية»[٦].

الصلة بين الفرح والسعادة:

نجد أن الفرح يبدو واضحًا تحققه في اللذة العاجلة المرتبطة بملذات الدنيا، ويؤكد ذلك الآيات القرآنية؛ كقوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾، وبمقارنته بالسعادة نجد بينه وبين مفهوم السعادة نوعًا من التقارب الواضح، إلا أن الأوضح، هو أن السعادة أشمل وأعم، ففرح الإنسان بنعم الله ولذات الدنيا ومتاعها وانشراح صدره بذلك إنما هو داخل في المعونة الإلهية للإنسان على نيل الخير، والذي يشمل خير الدنيا والآخرة، إلا أن الفرح قد

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم ٤٨٦.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٣٢٣.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني، ص١٢٥.
(٤) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٣٦٥.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٤٩٩.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٢٨.

يحدث عند الإنسان بلذة دنيوية بحتة، لا تقرب من سعادة الآخرة، بل ربما تباعد بينه وبينها قال تعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد:٢٦].

٣ السرور:

السّرور لغة:

يقال: سررت برؤية فلانٍ وسرّني لقاؤه، وقد سررته أسرّه ، أي : فرّحته، السّرور خلاف الحزن ، تقول: سرّني فلانٌ مسرّةً، والسرور: ما ينكتم من الفرح [١].

السرور اصطلاحًا:

«حالة نفسانية تعرض عند حصول اعتقاد وعلم أو ظن لحصول شيء لذيذ»[٢].

الصلة بين السرور والسعادة:

السرور هو ما انشرح واطمأن له القلب من الفرح بلذة عاجلة أو آجلة، وبمقارنته بالسعادة نجد بينه وبين مفهوم السعادة نوعًا من التقارب، إلا أن السعادة أشمل وأعم، فسرور الإنسان بنعم الله ولذات الدنيا ومتاعها وانشراح صدره بذلك إنما هو داخل في المعونة الإلهية للإنسان على نيل الخير، والذي يشمل خير الدنيا والآخرة، إلا أن السرور قد يحدث عند الإنسان بلذة دنيوية بحتة، لا تقرب من سعادة الآخرة، بل ربما تباعد بينه وبينها، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝١٣﴾ [الانشقاق:١٣].

وعليه فقد يكون الشخص مسرورًا لكنه شقي.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٦١.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٩٣.

أنواع السعادة

كل إنسان على وجه الأرض يسعى لتحقيق السعادة لنفسه، ورغم اختلاف الناس في مشاربهم ومذاهبهم وأعراقهم وألوانهم إلا أنهم يتفقون في غاية واحدة هي طلب السعادة، ويبذلون لتحقيقها الأموال والأعمار.

والسعادة: هي ذاك الشعور الداخلي الذي يحسه الإنسان بين جنبيه، وتتمثل في سكينة النفس وطمأنينة القلب وراحة الضمير والبال؛ نتيجةً لاستقامة السلوك الظاهر والباطن، المدفوع بقوة الإيمان، لا تقتصر على تحقيق مطالب وملذات الجسد والدنيا، بل تمتد لتشمل التشوق إلى الحياة الأخروية الأبدية الدائمة المتمثلة في دار الخلود التي لا ينقطع نعيمها ولا يمتنع.

ويشتمل هذا المبحث على النقاط الآتية:

أولًا: السعادة الموهومة الزائلة:

السعادة هي الحلم الذي ينشده كل إنسان على الأرض فأين نجدها؟ سؤال حير الناس من قديم.... أين السعادة؟ طلبها الأكثرون في غير موضعها، فعادوا كما يعود طالب اللؤلؤ في الصحراء صفر اليدين، مجهود البدن، كسير النفس!

فقد جرّب الناس في شتى العصور ألوان المتع المادية، وصنوف الشهوات الحسية فما وجدوها وحدها تحقق السعادة أبدًا، وربما زادتهم مع كل جديد منها همًّا جديدًا[(١)].

لقد ظن قوم أن السعادة في النساء فأكثروا من منادمتهن بالحلال والحرام، وظن آخرون أنها في النعيم المادي والغنى ورخاء العيش، وظن غيرهم أنها في البنين فتفاخروا بهم وتباهوا، ورآها آخرون في المنصب والملك والجاه.

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران:١٤].

في هذه الآية الكريمة يجمع السياق القرآني أحب شهوات الأرض إلى نفس الإنسان، والتي يعتقد أنها سر سعادة الإنسان في هذه الحياة الدنيا ؛ لأنها خلاصة الرغائب الأرضية، إما بذاتها، وإما بما تستطيع أن توفره لأصحابها من لذائذ أخرى، ويخبر تعالى عمّا زين للناس في هذه الدنيا من أنواع الملاذ بصيغة الفعل المبني للمجهول، إشارة إلى أن تركيبهم الفطري قد تضمن هذا الميل، فهو محبب ومزين، بل هو جزء من

(١) انظر: الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي، ص٧٦.

تكوين الإنسان الأصيل لا حاجة لإنكاره، فهو ضروري للحياة البشرية كي تتأصل وتنمو وتطرد[1].

١ . السعادة في النساء.

المرأة كائن عجيب هي ألطف الكائنات إذا اتقت ربها، وأحبت نبيها، وهي سكن الرجل وسر راحته واستقراره، وحلم حياته، وهي شيطان بل أشد كيدًا إذا ما أطلقت العنان لنفسها! قال بعضهم: «إن الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندي، وأنت سهمي الذي أرمي به فلا أخطئ، وأنت موضع سري، وأنت رسولي في حاجتي»[2].

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ بدأ بهن لكثرة تشوف النفوس إليهن، لأنهن حبائل الشيطان وفتنة الرجل، عن أسامة بن زيدٍ رضي اللّه عنهما، عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (ما تركت بعدي فتنةً أضرّ على الرّجال من النّساء)[3].

ويقال : في النساء فتنتان ، وفي الأولاد فتنة واحدة ؛ لأن النساء خلقن من الرجل، والرجل خلق فيه الشهوة، وجعلت سكنًا له فغير مأمون كل واحدٍ منهما على صاحبه، قال عمر حين نزلت الآية: «الآن يا رب حين زينتها لنا»[4].

وقال غيره من المفسرين: بدأ سبحانه بأقوى دواعي الشهوة وهو حب النساء، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: (ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودينٍ أغلب لذي لبٍّ منكنّ)[5].

أما إذا كان القصد بالنساء الإعفاف وكثرة الاولاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه، مندوب إليه بالأحاديث الشريفة المرغبة في الزواج والاستكثار منه، وخير هذه الأمة أكثرها نساءً.

عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الدّنيا متاعٌ وخير متاعها المرأة الصّالحة)[6].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (حبّب إليّ من الدّنيا : النّساء ، والطّيب ، وجعلت قرّة عيني في الصّلاة)[7].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ١/ ٣٧٣.
(٢) إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ١٠٠.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب ما تبقى من شؤم المرأة، رقم ٥٠٩٦.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٧٦٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٢٠.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الغسل، باب ترك الحائض الصوم، رقم ٣٠٤.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب خير متاع الدنيا الزوجة الصالحة، رقم ١٤٦٧.
(٧) أخرجه النسائي في سننه، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، رقم ٣٩٤٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٩٩، رقم ٣١٢٤.

فهذا رسولنا صلى الله عليه وسلم يقر بحبه لنسائه، ويقرر أن خير المتاع والمسرّة والسعادة تكمن في المرأة الصالحة.

وإذا رجعنا إلى تاريخ البشرية القديم نجد أن أول جريمة قتل ارتكبت على الأرض بسبب النساء.

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة:٢٧](١).

فهل السعادة المنشودة تحصل حقًّا بمنادمة النساء والنظر إليهن والأنس بهن فقط، وأن اللذة بهن فوق كل اللذات والسعادات؟ إن كان كذلك ؛ فما الذي منع يوسف عليه السلام أن يحقق لنفسه أعظم اللذات والسعادات، وما الذي جعل امرأة العزيز تلوم نفسها وتعترف بصراحة ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف:٥٣].

ما الذي دفع عابد بغداد حين تعرضت له إحدى الغانيات لتفتنه وتتراقص له بين الأشجار أن يصدها واعظًا لها حتى قلبها من بغي إلى ناسكة عابدة(٢).

ولماذا امتنع الرجل الثاني في حديث الثلاثة الذين أغلق عليهم الغار بفعل صخرة انحدرت على بابه -عن مواقعة ابنة عمه(٣).

لولا أن هناك سعادة أعظم، وسرورًا أكبر يتتظرا! ما ظننت أن هؤلاء يفوتون على أنفسهم تلك السعادة المرجوة بمعاشرة النساء.

٢. السعادة في البنين.

الأولاد زهرة الحياة الدنيا وزينتها، ومجال للتفاخر بهم، وللتباهي والتعالي على الناس.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف:٣٤] أي: أكثر خدمًا وحشمًا وولدًا، قال قتادة: تلك أمنية الفاجر كثرة المال وعزة النفر(٤).

---

(١) سبب هذا القربان أن حواء كانت تلد في كل بطن ذكراً وأنثى، وكان آدم عليه السلام يزوج الذكر من هذا البطن بالأنثى من البطن الآخر، ولا تحل له أخته التي ولدت معه، فولدت مع قابيل أخت جميلة، ومع هابيل أخت ليست كذلك، فلما أراد آدم تزويجهما قال قابيل: أنا أحق بأختي، فأمره آدم فلم يأتمر، وزجره فلم ينزجر، فاتفقوا على القربان وأنه يتزوجها من تقبل قربانه.فتقبل قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل، فقال قابيل لأخيه: لأقتلنك ثم قتله.
انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٣٦.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ١/ ١٠١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب إذا اشترى شيئًا لغيره بغير إذنه فرضي، رقم ٢٢١٥.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ١١٣٠.

فكثير من الناس يرى أن سعادته وسروره وقرة عينه في الأبناء، ويحلم بتكثير عددهم، ويطلبهم للاستئناس والفرح بهم، والقرآن الكريم يروي لنا قصة موسى الرضيع حين وجده آل فرعون.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [القصص:٩].

وقال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص:١٣].

وقد سجل القرآن الكريم اعتزاز العرب بالبنين وتفاخرهم بهم.

قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الطور:٣٩].

وقد عيروا النبي صلى الله عليه وسلم بأنه مقطوع لا ولد له.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر:٣].

وأشارت سورة المدثر إلى منّة الله العظيمة على الوليد بن المغيرة المخزومي بنعمة الولد ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾ [المدثر:١٢-١٣].

فالبنون حلم جميل وشهوة محببة إلى النفس، لذا نرى جميع الناس يسعون إليها، وتتعلق قلوبهم بها، ويظهر ذلك جليًّا فيمن حرم هذه النعمة، وعقم عن الإنجاب، فإنه يدفع أغلى الأثمان من الآلاف المؤلفة، من أجل الحصول على ولد، حتى أن الأنبياء الذين اختبرهم الله بعدم الإنجاب، رفعوا أيديهم بالدعاء لله رب العالمين.

قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء:٨٩].

وقال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [مريم:٢-٧].

لو استقرأنا الواقع لوجدنا أن كثيرًا من الأولاد جرّوا على آبائهم الويلات وأذاقوهم أصناف العذابات، حتى كان حتف بعضهم على يد ابنه طمعًا في ثروته!، وكم سمعنا من القصص العجيبة عن عقوق الأبناء وتعاسة الآباء.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف:٨٠] حيث كان قتل هذا الغلام أفضل لوالديه من حياته.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ

﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن:١٤].

فالسعادة إذن لا تتحقق بالأبناء، ثم هل الذين حرموا من الأولاد محكوم عليهم بالشقاء المؤبد والتعاسة الدائمة؟ لا أظن ذلك[1].

٣. السعادة في المال.

إن المال عصب الحياة حقيقة، والكل يشتهي اقتناءه على شتى أصنافه من ذهب أو فضة أو مجوهرات أو أوراق نقدية، ويرى فيه مصدر عزٍّ وعلو مكانةٍ، ويحرص على الاستزادة منه دون شبع، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لو كان لابن آدم واديان من ذهبٍ لابتغى الثّالث)[2].

وقد ورد لفظ المال ومشتقاته في القرآن في ستة وثمانين موضعًا على اختلاف المفاهيم التي تشير إليها الآيات[3].

قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦].

وقال تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القلم:١٣-١٤].

وقال سبحانه: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر:٢٠].

وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد:٢٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس:٨٨].

وقد حرص الناس على اقتناء الذهب والفضة وكنزهما، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف:٣٣-٣٥].

وتشير آيات الزخرف الكريمة إلى افتتان الناس بالفضة والذهب، وتعلقهم بحب اقتنائهما، وقد قال المفسرون في تبيين معنى تلك الآيات: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال فيصبحون أمة واحدة مجتمعة على الكفر، لجعل الله لبيوت الكافرين سقفًا وسلالم ودرجًا من فضة عليها يصعدون، وأبوابًا لبيوتهم وأغلاقًا وسررًا، كل ذلك مصنوع من الفضة والذهب، وما ذلك إلا من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى، أي يعجل لهم بحسناتهم التي يعملونها في

(١) انظر: الإيمان والحياة، ص ٨٠، ٨١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال، رقم ٦٤٣٦.
(٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص٦٨٢، ٦٨٣.

الدنيا مآكل ومشارب، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها[1].

وهذا المال الذي يميل إليه كثير من الناس، ويرون أن السعادة تتحقق بجمعه، وبه يحصلون على متع الحياة ولذاتها، قد يكون سببًا لشقاء الإنسان في الحياة الدنيا؛ لأن في جمع المال والحفاظ عليه مشقة، فصاحبه لا يصبح إلا مهمومًا ولا يمسي إلا مغمومًا. فهل حقًّا السعادة في المال والنعيم المادي؟!!

ومما يؤكد على أن السعادة ليست في المال: أن بعض الإحصاءات أشارت إلى أن كلًّا من شعوب إيسلندا وهولندا والدانمارك أكثر من ٩٢٪ من أفرادها يستشعرون السعادة رغم أن مستواها الاقتصادي يقل كثيرًا عن دول مثل أمريكا وألمانيا التي يسود أفرادها الاكتئاب والأمراض النفسية المختلفة، كما أن الثروة الطائلة لم تحقق لليابانيين والصينيين وكل أتباع بوذا وكنفوشيوس السعادة المرجوة، وأكدت التجارب والخبرات أن السعادة شعور خفي ينبعث من داخل الفرد نفسه، وأنه ينبغي الفصل التام بين المال والسعادة[2].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ١٦٨٠.

(٢) انظر: مجلة الأزهر، ربيع الأول ١٤٢٣هـ يونيو ٢٠٠٢، ج٣، السنة ٧٥.

قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبة:٥٥].

والعذاب هو المشقة والألم والهم والسقم[3].

وما قصة قارون عنا ببعيد حين حمد الذين تمنوا مكانه بالأمس الله على فضله عليهم ومنّه الذي تمثل بحرمانهم من الثروات والكنوز التي أودت بقارون إلى الخسف والهلاك.

وقد ربّى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على ما هو أعظم من حب المال والتعلق به إلى ما فيه راحة وسعادة أعظم؛ رباهم على القناعة وغرسها في نفوسهم[4].

ومثال ذلك ما حدث مع حكيم بن حزام، فقد كان رضي الله عنه يحب المال ويكثر من طلبه، عن حكيم بن حزام رضي اللّه عنه، قال: (سألت رسول اللّه صلّى الله عليه وسلم، فأعطاني، ثمّ سألته، فأعطاني، ثمّ قال لي: يا حكيم، إنّ هذا المال خضرٌ حلوٌ، فمن أخذه بسخاوة نفسٍ، بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفسٍ، لم يبارك له فيه، وكان كالّذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خيرٌ من اليد السّفلى، قال حكيمٌ: فقلت: يا رسول اللّه، والّذي بعثك بالحقّ لا أرزأ أحدًا

(٣) انظر: الإيمان والحياة، ص ٧٦-٧٩.

(٤) انظر: تزكية النفس، محمد عبدالقادر أبو فارس، ص ٢٧٠.

بعدك شيئًا حتّى أفارق الدّنيا، فكان أبو بكرٍ يدعو حكيمًا ليعطيه العطاء، فيأبى أن يقبل منه شيئًا، ثمّ إنّ عمر دعاه ليعطيه، فيأبى أن يقبله، فقال: يا معشر المسلمين، إنّي أعرض عليه حقّه، الّذي قسم اللّه له من هذا الفيء، فيأبى أن يأخذه، فلم يرزأ حكيمٌ أحدًا من النّاس بعد النّبيّ صلى الله عليه وسلم حتّى توفّي رحمه اللّه)[(١)].

والقناعة في الحقيقة طريق السعادة في الدنيا والآخرة ؛ ذلك لأن القناعة تعني العزة والكرامة وعدم سؤال الناس حتى ولو كان محتاجًا، وإذا كان ولابد فليسأل الله تبارك وتعالى ؛ فسؤاله عبادة وهو القادر وحده على سد الحاجة، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل)[(٢)].

٤ . السعادة في الخيل المسوّمة.

لقد ذكر الله الخيل في كتابه الكريم في عدة مواضع منها ما جاء في سورة آل عمران في الآية موضع البحث ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤].

وجاء ذكرها في سورة كاملة في القرآن الكريم وهي سورة العاديات ، قال تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾ [العاديات:١-٥].

يقسم الله سبحانه وتعالى بالعاديات ضبحًا، قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة ومقاتل وأبو العالية وغيرهم: هي الخيل العادية في سبيل الله تضبح، والضبح: صوت أجوافها إذا عدت[(٣)]. ومن المعلوم أن الله سبحانه وتعالى لا يقسم بشيء إلا لتشريفه ولإظهار مكانته.

والخيل لها شأنها عند العرب منذ القدم، وكانت مصدر مفاخرة بينهم وكان الشعراء يتباهون بها باعتبارها مصدرًا من مصادر القوة لديهم، وهناك القصائد العديدة التي ألقيت في الخيل، أشهرها قول المتنبي[(٤)]:

فالخيل والليل والبيداء تعرفني
والضرب والطعن والقرطاس والقلم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي، رقم ٣١٤٣.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب في الاستعفاف، رقم ١٦٤٥.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٤٤، رقم ٦٠٤١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٢٠/ ١٥٤.

(٤) ديوان المتنبي بشرح العكبري ٢/ ٣٦٩.

وقول امرئ القيس في وصف فرسه[1]:

مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معًا

كجلمود صخرٍ حطّه السّيل من علِ

وورد في الحديث عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من فرسٍ عربيٍّ إلاّ يؤذن له عند كلّ سحرٍ بدعوتين : اللّهمّ خوّلتني من خوّلتني من بني آدم وجعلتني له فاجعلني أحبَّ أهله وماله إليه أو من أحبّ ماله وأهله إليه)[2].

وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يلوي ناصية فرسٍ بإصبعه، وهو يقول: (الخيل معقودٌ بنواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة)[3].

ومما يؤكد هذه المكانة العظيمة للخيل في نفوس مقتنيها، ما ذكره القرآن الكريم في قصة نبي الله سليمان عليه السلام ، وكيف شغله حبه للخيل وإعجابه بها عن ذكر الله أو صلاة العصر.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص:٣٠-٣٣].

ومعنى قوله تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: آثرت حب الخير وأراد بالخير الخيل، وسميت كذلك ، لأنه معقود بنواصيها الخير، الأجر والمغنم، فهل حقًّا السعادة في اقتناء الخيول وامتطاء صهواتها مطلقًا؟! لو كان الأمر كذلك لما وجدنا سليمان عليه السلام يذبحها لأنها شغلته عن صلاة ما، ولما وجدنا حاتم الطائي يذبح فرسه لإطعام ضيفه وإكرامه، إذن هناك سعادة أعظم وأمورًا أكثر إسعادًا من الخيل!

٥ . السعادة في الأنعام والحرث.

تختلف أذواق الناس فيما يسعدهم ويدخل السرور إلى قلوبهم، فهناك من رأى سعادته في كنز الذهب والفضة والأوراق النقدية مثل الرأسماليين الكبار، وأهل الفروسية يرون سعادتهم فيما يقتنونه من خيل وركاب، والفلاحون وأهل الزراعة يرون سعادتهم فيما يمتلكونه من أنعام وحرث.

وقد امتن سبحانه وتعالى على عباده بهذه النعمة العظيمة، بل أنزل سورة كاملة

(١) ديوان امرئ القيس، ص٥٢٠.

(٢) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الخيل، باب دعوة الخيل، رقم ٣٥٧٩.
وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي، ٢/ ٥٣١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخمس، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (أحلت لكم الغنائم)، رقم ٣١١٩.

تتحدث عن هذا الفضل الكبير، شيعها سبعون ألفاً من الملائكة هي سورة الأنعام.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأنعام:١٤١-١٤٢].

وفصلت الآيات في أنواع هذه الأنعام، قال تعالى: ﴿ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ﴾ [الأنعام:١٤٣-١٤٤].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَـٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [النحل:٦٦-٦٧].

وتبرز سورة الكهف موقفًا لبعض أولئك الذين وجدوا سعادتهم في الزروع والجنات مما دفعه إلى التفاخر والتباهي والتعالي على صاحبه.

قال تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف:٣٢-٣٦].

جاءت هذه الآيات الكريمة بعد ذكر المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم القرآن مثلًا برجلين، جعل لأحدهما جنتين، أي: بستانين من أعناب محفوفتين بالنخيل المحدقة، في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر في غاية الجودة، حيث قال تعالى: ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا ﴾، أي: أخرجت ثمارها ولم تنقص منه شيئًا والأنهار متفرقة بين الأشجار[1].

﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ ﴾ قيل له مال من الذهب والفضة، وقيل: ثمار وهو هنا أظهر، قال صاحب هاتين الجنتين لصاحبه وهو يجادله

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ١٢٤-١٢٥.

ويخاصمه ويفتخر عليه أنه أكثر خدمًا وحشمًا وولدًا، ودخل حديقته متمردًا متكبرًا كافرًا بأنعم الله، ومتجبرًا منكرًا المعاد، اغترارًا منه لما رأى فيها من الزروع والثمار ظانًا أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك، بل ويصر على أنه لو كان هناك معاد ورجعة إلى الله سيكون حظه أحسن من الدنيا لأن له عند الله كرامة؛ كما يزعم[1].

فهل حقًا تكمن السعادة في اقتناء الأنعام وامتلاك الحدائق والبساتين، والجواب في قصة أصحاب الجنة الواردة في سورة القلم، قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القلم:١٧].

في هذه القصة مثل يضربه الله تعالى لكفار قريش ولكل من أنعم الله عليهم بنعمة كبيرة أو رحمة عظيمة فقابلوها بالجحود والنكران. وأصحاب الجنة هؤلاء إخوة من اليمن ورثوا حديقةً عن أب تقي كان يؤدي حق الله في جنته، ولما أرادوا أن يجنوا ثمارها بعد أن نضجت وصلحت، قرّروا أن يمنعوا حق الفقراء فيها، ويقطفوها ليلًا دون أن يشعر بهم أحد ، ظانين أن السعادة والفرح في استئثارهم بثمر تلك الجنة، فلما وصلوها أنكروها بعد أن رأوها قد تحولت عن تلك النضارة والزهوة إلى سوداء مدلهمة ، لا ينتفع بشيء منها فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [القلم:٢٧].

أي: نحن لا حظ لنا ولا نصيب.

ثم أقروا جميعًا بسوء صنيعهم وأدركوا أن الخير كل الخير في الرجوع إلى الله تعالى ، وشكره على ما أعطاهم وأنعم عليهم، واعترفوا بظلمهم لأنفسهم وطغيانهم، ورجوا الله أن يبدلهم خيرًا منها في الدنيا ليحسنوا من جديد، أو احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة. بعد أن عاشوا أيام تعاسة وشقاء على فقدان تلك الجنة التي كانوا يرون فيها مصدر سعادة وهناء[2].

فلا سعادة إذن في حرث وزرع قد يثمر وقد لا يثمر وفي حدائق قد تزهر وقد تصبح حطامًا، تنشغل بها النفوس وتتعلق بها القلوب وهي ترتقب وتنتظر.

ها قد أوردنا كل ما يعتقده المعتقدون ويلهث وراءه اللاهثون ويتلذذ به المتلذذون بأنواع الشهوات المختلفة من نساء وبنين وأموال وخيل وأنعام وحرث وشهرة.

هؤلاء التائهون اللاهثون وراء أوهام السعادة المزيفة من كفروا بالله، وأعرضوا عن طريق الإيمان لن يصلوا إلا للهلاك.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤].

(١) تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير ٣/ ١١٢٩- ١١٣٠.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم ، أبو السعود ٦/ ٣٧٨، فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٣١٤.

كل ما سبق هي سعادات موهومة لا حقيقة لها، يغلفها الهم والغم والشقاء! أين السعادة إذن؟ وكيف نحصل عليها؟

ثانيًا: السعادة الأبدية الخالدة:

وهي بيت القصيد في هذا البحث المتواضع والتي لأجلها رخص الشهداء أرواحهم وأموالهم، وجاهد المؤمنون شهواتهم وأهوائهم، وأفنى العلماء والعباد أعمارهم، إنها الجنة دار السعادة التي لا تنقطع، والسرور الذي لا يزول، فنعيم الجنة يفوق الوصف، ويقصر دونه الخيال، ليس لنعيمها نظير فيما يعلمه أهل الدنيا، ومهما تقدموا وتطوروا وترقوا في دنياهم فسيبقى ما يبلغونه أمرًا هينًا ولا يذكر بالنسبة لنعيم الأخرة، ولقد حاز ذكر الجنة ووصفها في القرآن الكريم على الكثير من الآيات والسور، وكذلك أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وذاك حتى تتعلق بها القلوب، وتسعى إلى سكناها النفوس، متسليةً بها عن كل ملمات الحياة ومشاقها.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾ [الإنسان:٢٠].

وما أخفاه الله عنا من نعيم الجنة شيء عظيم لا تدركه العقول، ولا تصل إلى كنهه الأفكار، عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: شهدت من رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسًا وصف فيه الجنّة حتّى انتهى ثمّ قال صلى الله عليه وسلم في آخر حديثه: (فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشرٍ ثمّ قرأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [السجدة:١٦-١٧])[1].

وفي وصف طعام أهل الجنة قال تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١﴾ [الواقعة:٢٠-٢١].

وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف:٧١].

قال المفسرون في شرح الآيات: أي: يطوف عليهم الغلمان بما يتخيرون من الثمار، وفي الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧﴾ [الكهف:١٠٧].

وقال تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٥٦﴾ [الدخان:٥٦].

وقال تعالى: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم ٢٨٢٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٨٢٣.

[الحديد:١٢].

الجنة خالدة لا تفنى ولا تبيد، وأهلها فيها خالدون، لا يرحلون عنها ولا يظعنون ولا يبيدون، ولا يموتون والآية الكريمة في سورة الدخان تؤكد على أنهم لا يذوقون فيها الموت أبدًا[١].

كما ثبت عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يؤتى بالموت كهيئة كبشٍ أملح فينادي منادٍ يا : أهل الجنّة فيشرئبّون وينظرون فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم هذا الموت وكلّهم قد رآه ، ثمّ ينادي: يا أهل النّار فيشرئبّون وينظرون فيقول :هل تعرفون هذا فيقولون :نعم هذا الموت وكلّهم قد رآه فيذبح، ثمّ يقول : يا أهل الجنّة خلودٌ فلا موت ويا أهل النّار خلودٌ فلا موت)[٢].

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ينادي منادٍ إنّ لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبدًا ، وإنّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا ، وإنّ لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبدًا ، وإنّ لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا)[٣].

إن مقتضى النصوص أن الجنة تخلق خلقًا غير قابل للفناء ، وكذلك أهلها ، ففي الحديث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من يدخل الجنّة ينعم لا ييأس ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه)[٤].

وقد أنكر أهل السنة والجماعة قول الجهم بن صفوان -إمام المعطلة -بفناء الجنة والنار، قال شارح الطحاوية: «فأما أبدية الجنة، وأنها لا تفنى ولا تبيد، فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر به.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ١٠٨﴾ [هود:١٠٨]»[٥].

(١) انظر: المصدر السابق، ٤/١٦٩٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾، رقم ٤٧٣٠.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، رقم ٢٨٣٧.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب في دوام نعيم الجنة، رقم ٢٨٣٦.
(٥) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ٢/٦٤١، انظر: حادي الأرواح، ابن القيم، ص٢٤٤-٢٤٥.

أسباب السعادة

غفل كثير من الناس عن الأسباب الحقيقية التي تبعث السعادة في النفوس، والتي يمكن إجمالها في الالتزام بكتاب الله عز وجل وهدي نبيه صلى الله عليه وسلم الذي بين لنا أن التمسك بهما طريق السعادة الحقيقية.

وقبل الحديث عن الأسباب التي تحقق السعادة في الدنيا والآخرة لابد من الإشارة إلى أنه لا توجد سعادة مطلقة في هذه الدنيا وإنما هي نسبية، وهي ومضات خاطفة في حياة الناس؛ في مواقف وأوضاع خاصة، وتبعًا لأسباب وأخلاق وقيم إنسانية يمكن الوقوف عليها من خلال المطالب الستة التالية.

أولًا: الإيمان:

الإيمان معناه: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)[1].

هذا ما أجاب به النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام حين سأله عن الإيمان في حديث عمر رضي الله عنه.

وهو أعظم نعم الله سبحانه على عباده، والتي تستحق من صاحبها أن يواظب على شكرها ليلًا ونهارًا قائلًا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣].

قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات:١٧].

إن الإنسان الذي يؤمن بالله تعالى إيمانًا صافيًا من الشوائب يكون مطمئن القلب، هادئ النفس. فخضوع المؤمن لله تعالى يقوده إلى الراحة النفسية.

والإيمان ليس فقط سببًا لجلب السعادة بل هو أيضًا سبب لدفع موانعها، «وإذا كانت السعادة شجرة منبتها النفس البشرية، فإن الإيمان بالله وبالدار الآخرة هو ماؤها وغذاؤها، وهواؤها وضياؤها، إن الإيمان يفجر ينابيع السعادة التي لا يمكن أن تغيض، والتي تتمثل في السكينة والأمن والأمل والرضا والحب»[2]

ويظهر من خلال السياق القرآني ما ينعم به المؤمنون من خير عميم يمكن أن يلخص بما يلي:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

يخبر سبحانه وتعالى: أنه يهدي من اتبع

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم ٢.

(٢) انظر: الإيمان والحياة، القرضاوي، ص٩٢.

رضوانه سبل السلام، فيخرج المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير، فما أعظمها سعادةً أن ينقذ الله من آمن من التخبط والحيرة ويلهمهم الصراط المستنير، وقد أفرد سبحانه وتعالى لفظ ﴿النُّورِ﴾ لوحدة الحق، وجمع ﴿الظُّلُمَٰتِ﴾ لتعدد فنون الضلال، فالحق واحد والكفر أجناس[1].

وهذا النور ليس قاصرًا على الدنيا بل يراه المؤمن نورًا حقيقيًا يوم القيامة قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد:١٢].

يقول سيد قطب: «هؤلاء هم المؤمنون والمؤمنات نراهم، ولكننا نرى بين أيديهم وبأيمانهم إشعاعًا لطيفًا هادئًا، ذلك نورهم يشع منهم ويفيض بين أيديهم، فهذه الشخوص الإنسانية قد أشرقت وأضاءت وأشعت.... إنه النور الذي أخرجها الله إليه وبه من الظلمات، والذي أشرق في أرواحها فغلبت على طينتها، أم لعله النور الذي خلق الله منه هذا الكون وما فيه ومن فيه ظهر بحقيقته في هذه المجموعة التي حققت في ذواتها حقيقتها»[2].

وأما قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد:٢٨-٢٩].

أي: تطيب وتركن وتسكن وترضى به مولىً ونصيرًا.

قال ابن عباس: ﴿طُوبَىٰ﴾ فرج وقرة عين، وقال الضحاك غبطة لهم وقيل: خير لهم وقيل أصابوا خيرًا، وحسنى لهم[3].

ثانيًا: العمل الصالح:

العمل الصالح وعلى رأسه أداء العبادات هو ثمرة من ثمرات الإيمان، لذا لا نكاد نرى آيةً تتحدث عن الإيمان إلا وقرنت ذلك بالعمل الصالح.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم:٩٦].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾ [محمد:٢].

الصالحات في اللغة: جمع مؤنث سالم من اسم الفاعل صالح، والصلاح ضد

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٢٥٠.

(٢) في ظلال القرآن ٦/ ٣٤٨٥.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩٨٣.

الفساد[1].

وفي الاصطلاح: كل ما أمر الله بفعله من عبادة وخلق وعمل وتعامل، وفي أولها إقامة شريعة الله في الأرض، والحكم بين الناس بما شرع الله[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: صدّقوا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ أي: محبة في الناس في الدنيا، يحبهم الله ويحببهم إلى خلقه المؤمنين، قال ابن عباس: الود من المسلمين في الدنيا والرزق الحسن واللسان الصادق[3].

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ الله إذا أحبّ عبداً دعا جبريل، فقال: إني أحبّ فلاناً فأحبّه، قال: فيحبّه جبريل، ثم ينادي في السماء، فيقول: إنّ الله يحبّ فلاناً فأحبّوه، فيحبّه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدًا دعا جبريل عليه السلام، فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إنّ الله يبغض فلانًا فأبغضوه، ثم توضع له البغضاء في الأرض)[4].

(١) لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥١٦.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩٥٣.
(٣) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٣/ ١٧٦، تفسير القرآن العظيم ٣/ ١١٧٩.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢٠٩.

وكان هرم بن حيان يقول: ما أقبل عبد إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم. وكان عثمان ابن عفان رضي الله عنه يقول: (ما من عبد يعمل خيرًا أو شرًا إلا كساه الله عز وجل رداء عمله)[5].

قال القرطبي: «إذا كان محبوبًا في الدنيا فهو كذلك في الآخرة، فإن الله تعالى لا يحب إلا مؤمنًا تقيًا، ولا يرضى إلا خالصًا نقيًا، جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه»[6].

وأما سيد قطب فيقول: «وللتعبير بالود في هذا الجو نداوة رخية تمس القلوب، وروح رضي يلمس النفوس، وهو ود يشيع في الملأ الأعلى، ثم يفيض على الأرض والناس فيمتلئ به الكون كله ويفيض»[7].

وأفضل الأعمال على الإطلاق هي العبادات التي شرعها الله وجعل فيها الخير كل الخير، والسعادة كل السعادة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي فيما يروى عن رب العزة عز وجل: (من عادى لي وليًّا فقد بارزني بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيءٍ أحبّ إليّ ممّا افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنّوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببته

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٨.
(٦) المصدر السابق ١١/ ١٩١.
(٧) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٢١.

كنت سمعه الّذي يسمع به، وبصره الّذي يبصر به، ويده الّتي يبطش بها، ورجله الّتي يمشي بها، وإن سألني عبدي لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه، وما تردّدت عن شيءٍ أنا فاعله تردّدي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته)[1].

التزام المؤمن بما فرض الله عليه من صلاة وصيام وزكاة وحج، ثم الزيادة عليها بالنوافل من قيام وصيام وصدقة يرفعه ويعلي شأنه ليصبح من أولياء الله، فتصاحبه معية الله وتلازمه في حله وترحاله، ويقظته ومنامه، فإذا هو يرى بنور الله ويسمع، ويستعمل يده بتوفيق الله، بل ويسدد له خطاه، ثم هو مستجاب الدعوة عند ربه ومستجار.

وللعبادات دور مهم في إسعاد المسلم، يمكن توضيحه في النقاط الآتية:

١. الصلاة والزكاة.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤﴾ [المؤمنون:١-٤].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى:١٤-١٥].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [لقمان:٤-٥].

يقول سيد قطب في قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾: «تستشعر قلوبهم رهبة الموقف في الصلاة بين يدي الله، فتسكن، وتخشع، ويغشى أرواحهم جلال الله في حضرته، فتختفي من أذهانهم جميع الشواغل، ولا تشتغل بسواه... ويتطهر وجدانهم من كل دنس وتجد الروح الحائرة طريقها، ويعرف القلب الموحش مثواه»[2].

ويقول في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾. «والزكاة طهارة للقلب من الشح، واستعلاء على حب الذات، وثقة بما عند الله من العوض والجزاء، وطهارة للمال تجعل ما بقي من بعدها طيبًا حلالًا»[3].

وتتضافر الآثار التربوية والنفسية التي يغنمها العبد المصلي، وتؤدي الصلاة دورها في تزكية النفس وطهارتها فقد ورد عن أبي مالكٍ الأشعريّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والصلاة نور)[4].

فهي نور تضيء لصاحبها طريق الهداية، وتحجزه عن المعاصي وتهديه إلى العمل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم ٦٥٠٢.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٤٥٤.

(٣) المصدر السابق ٤/ ٢٤٥٥، بتصرف.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم ٤٢٢.

الصالح، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

وهي نور في قلبه بما يجد من حلاوة الإيمان ولذة المناجاة لربه، وهي نور لما تمنح النفس من تزكية وطمأنينة وراحة، وبما تمدها من أمن وسكينة، وهي نور ظاهر على وجه المقيم لها في الدنيا، تتجلى بها وضاءة الوجه وبهاؤه بخلاف تارك الصلاة، وهي نور له يوم القيامة[(١)].

ومن أهم آثار الصلاة الطمأنينة وراحة النفس فإذا أقبل العبد على صلاته بهمّة ورغبة تمده بقوة روحية وتمنحه طمأنينة النفس وراحتها، وتعينه على مواجهة متاعب الحياة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة:١٥٣].

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(**وجعلت قرة عيني في الصلاة**)[(٢)].

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول:(**قم يا بلال فأرحنا بالصلاة**)[(٣)].

أي: أقم الصلاة لنستريح بها من مقاساة الشواغل، كما يستريح المتعب إذا وصل إلى مأمنه ومنزله، ولذلك لم تكن الصلاة مقصورةً على الفرائض، وإنما هناك سنن ونوافل متنوعة تزيد صلة العبد بربه وتقر بها عينه، وتأمن بها نفسه حتى تصبح الصلاة سلاحه الدائم.

وقوله صلى الله عليه وسلم: (**قم يا بلال فأرحنا بالصلاة**) يدل على أنه صلى الله عليه وسلم تقر عينه وتغمره الفرحة والبهجة والسكينة والطمأنينة بل والسعادة، كلها عندما يناجي ربه في صلاته؛ لأن الصلاة صلة بالله سبحانه وحضور بين يديه سبحانه[(٤)].

٢. الصيام.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة:١٨٣].

ومعنى قوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ أي: «تتّقون المعاصي بسبب هذه العبادة، لأنّها تكسر الشّهوة وتضعف دواعي المعاصي، كما ورد في الحديث أنّه جنّةٌ وأنّه وجاءٌ»[(٥)].

وأما عن أثر الصيام في سعادة المسلم

(١) انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس، أنس أحمد كرزون، ص٢٣٣.

(٢) أخرجه النسائي في سننه، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء، رقم ٣٩٤٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٩٩، رقم ٣١٢٤.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما جاء في صلاة العتمة، رقم ٤٩٨٦.
وصححه الألباني في الإرواء، ٨/ ٦٦.

(٤) انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس، أنس أحمد كرزون ١/ ٢٢٥-٢٢٧.

(٥) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٠٧.

قال تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٤].

تظهر هذه الآية فضل الصيام وكونه خير للمسلم في الدنيا والآخرة، والصائم يعيش سموًا روحيًا يتعالى فيه على مطالب الجسد، يسيح فيه القلب والفكر والوجدان في ملكوت السموات، والصبر أخو الصلاة في ضبط المسلم حيث قال مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥].

الصبر في هذه الآية : الصوم، وفيه قيل لرمضان : شهر الصبر، فجاء الصوم والصلاة على هذا القول متناسبًا، في أن الصيام يكبح الشهوات، ويزهد في الدنيا، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، بل وهناك سعادة أكيدة وفرحة يقينية تحل في قلب الصائم حيث روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:(للصّائم فرحتان : فرحةٌ عند فطره، وفرحةٌ عند لقاء ربّه)[1][2].

٣. الحج.

وأما الحج: فإن المتعة والسعادة واللذة الروحية التي يتركها الحج في قلوب حجاج بيت الله الحرام لا تخفى على أحد، وقد سمع الجميع ما يرويه الحجاج، ويتحدثون به عن مشاعرهم عندما وطأت أقدامهم الأرض المباركة، وعند رؤية الكعبة المشرفة، أو زيارة النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا رجعوا إلى ديارهم يتشوقون للعودة لتلك الديار وأداء تلك المناسك.

ثالثًا: الإحسان إلى عباد الله:

للإحسان مرتبة عظيمة تعلو على مرتبة الإيمان والإسلام وهو كما ورد في حديث عمر رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام سأل الرسول صلى الله عليه وسلم ما الإحسان؟ فقال:(أن تعبد اللّه كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك)[٣].

وهو مرتبة سامية تتبوأها الصفوة المختارة من عباد الله الأخيار؛ الذين يستشعرون رقابة الله عليهم في كل عمل وعبادة، فيجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا الذنوب الصغيرة التي تكفل الاستغفار بها؛ لأن العصمة لا تكون إلا للنبي. والإحسان كما قال المناوي:«إسلام ظاهر يقيمه إيمان باطن يكمله إحسان شهودي ، أي : إخلاص وكمال الطاعة»[٤].

والإحسان ضد الإساءة.

قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم، رقم ١٩٠٤.
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٧٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، رقم ٥٠.
(٤) انظر: التقوى، محمود طافش، ص٦٥.

﴿لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:٧].

وكل حسنة سواء أكانت صغيرة أو كبيرة تعد إحسانًا لكن مرتبة الإحسان لا يتذوق حلاوتها إلا من روض نفسه على ترك المعاصي والإكثار من الحسنات، فهو يحسن لمن أحسن إليه ويحسن لمن أساء إليه وهنا يكمن السر.

عن كلثوم الخزاعيّ رضي الله عنه قال:أتى النّبيّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ فقال يا رسول اللّه: كيف لي أن أعلم إذا أحسنت أني قد أحسنت، وإذا أسأت أني قد أسأت فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (إذا قال جيرانك قد أحسنت فقد أحسنت وإذا قالوا إنّك قد أسأت فقد أسأت)[1].

ومن صور الإحسان في حياة المسلم:

١. الإحسان إلى الوالدين.

الوالدان هما سر حياة الإنسان ومصدر وجوده، لهما عليه كل حق وتقدير فلابد من برهما، والتودد إليهما، والدعاء لهما، وقد قرن الله سبحانه وتعالى بين عبادته وحده والإحسان إليهما.

قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

أمر المولى ببرهما في كل الأحوال وخاصةً في سن الكبر حين يضعف جسمهما، وفاءً لهما ولما قدماه لولدهما وقد بلغ بأحد الصالحين أن لا يؤاكل أمه في طبق واحد حتى لا تسبق يده إلى ما تسبق إليه عينها، وآخر أنه ما علا سقفًا يكون أبوه أسفله، أو تقدم عليه برًا به. وعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما قال:أقبل رجلٌ إلى نبيّ اللّه صلى الله عليه وسلم فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من اللّه، قال: (فهل من والديك أحدٌ حيٌّ؟)قال: نعم بل كلاهما قال: (فتبتغي الأجر من اللّه؟) قال :نعم قال: (فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما)[2].

٢. الإحسان إلى ذي القربى واليتامى والمساكين والجيران والخدم.

قال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الثناء الحسن، رقم ٤٢٢٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/١٦٦، رقم ٦١٠.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين وأنهما أحق به، رقم ٢٥٤٩.

[النساء:٣٦].

تناولت هذه الآية الكريمة أمر الإحسان لشريحة واسعة وممتدة وشاملة لأصناف المجتمع المسلم.

فبعد أن أوصى سبحانه وتعالى بالإحسان إلى الوالدين، عطف بالإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء، وإلى اليتامى الذين فقدوا من يقوم بمصالحهم ثم المساكين؛ وهم المحاويج من ذوي الحاجات الذين لا يجدون ما يقوم بكفايتهم.

عن عليٍّ رضي الله عنه، قال:كان آخر كلام رسول اللّه صلى الله عليه وسلم:(**الصّلاة الصّلاة اتّقوا اللّه فيما ملكت أيمانكم**)(١).

وعن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (**إخوانكم خولكم جعلهم اللّه تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممّا يأكل ، وليلبسه ممّا يلبس ولا تكلّفوهم ما يغلبهم فإن كلّفتموهم فأعينوهم**)(٢).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه، أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (**من مسح رأس يتيم لم يمسحه إلاّ للّه كان له بكلّ شعرةٍ مرّت عليها يده حسناتٌ، ومن أحسن إلى يتيمةٍ أو يتيمٍ عنده، كنت أنا وهو في الجنّة كهاتين**)، وفرّق بين أصبعيه السّبّابة والوسطى(٣).

وفي الإحسان إلى الجار: يقول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه أبو شريحٍ الخزاعيّ رضي الله عنه : (**من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليحسن إلى جاره**)(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (**لا يدخل الجنّة من لا يأمن جاره بوائقه**)(٥).

وذلك لأن سعادة المجتمع وترابطه وشيوع المحبة بين أبنائه لا تتم إلاّ بالقيام بهذه الحقوق للجار وغيره مما جاءت به الشريعة، وإن واقع كثير من الناس يشهد بقصور شديد في هذا الجانب، حتى إن الجار قد لا يعرف اسم جاره الملاصق له في السكن، وبعضهم يغصب حق جاره، وإن بعضهم ليخون جاره، ويعبث بعرضه وحريمه، وهذا من أكبر الكبائر، وإذا كان الشاعر الجاهلي عنترة يعف عن جارته

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في حق المملوك، رقم ٥١٥٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٤٧، رقم ٤٦١٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، رقم ٣٠.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٦/ ٤٧٤، رقم ٢٢١٥٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم ٤٨.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، رقم ٤٦.

فيقول[1]:

وأغضّ طرفي إن بدت لي جارتي

حتى يواري جارتي مأواها

فحري بنا نحن المسلمين أن نكون أكثر حرصًا وأداءً لحقوق الجار، والإحسان إليه، وحفظ عرضه.

٣. الإحسان إلى البنات.

عن ابن عبّاسٍ رضي الله تعالى عنهما، قال:قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: **(ما من رجلٍ تدرك له ابنتان فيحسن إليهما ما صحبتاه أو صحبهما إلاّ أدخلتاه الجنّة)**[2].

ومن صور إحسان النبي صلى الله عليه وسلم إلى كريمته السيدة فاطمة رضي الله عنها وأرضاها، أنه كان إذا دخلت عليه يقوم لها ويقبل رأسها.

٤. الإحسان في الزواج.

بدءًا من اختيار الزوج وانتهاءً بحسن العشرة وأداء الحقوق.

هذا غيض من فيض من صور الإحسان في الإسلام ولا يتسع المقام لتقصيها وقد تجاوزت الإحسان إلى البشر إلى الإحسان إلى الحيوان.

(١) ديوان عنترة بن شداد، تحقيق: محمد سعيد مولوي، ص٣٠٨.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب بر الوالدين والإحسان إلى البنات، رقم ٣٦٧٠.

وحسنه الألباني في صحيح الأدب المفرد، ص٥٧، رقم ٧٧.

يقول عائض القرني: «الجميل كاسمه والمعروف كرسمه والخير كطعمه، أول المستفيدين من إسعاد الناس هم المتفضلون بهذا الإسعاد، يجنون ثمراته عاجلًا في نفوسهم وأخلاقهم وضمائرهم، فيجدون الانشراح والانبساط والهدوء والسكينة ، فإن طاف بك طائف من همٍّ أو ألمّ بك غمٌّ فامنح غيرك معروفًا، وأسد لهم جميلًا، تجد الفرحة والسرور، وأعط محرومًا، انصر مظلومًا، أنقذ مكروبًا، أطعم جائعًا، عد مريضًا، أعن منكوبًا تجد السعادة تغمرك من بين يديك ومن خلفك. إن فعل الخير كالمسك ينفع حامله وبائعه ومشتريه، وعوائد الخير النفيسة عقاقير مباركة تصرف في صيدلية الذين عمرت قلوبهم بالبر والإحسان. إن توزيع البسمات المشرقة على فقراء الأخلاق صدقة جارية في عالم القيم، عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، قال:قال لي النّبيّ صلى الله عليه وسلم: **(لا تحقرنّ من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجهٍ طلقٍ)**[3]. إن شربة ماء من كف بغي لكلب عقور أثمرت دخول جنة عرضها السموات والأرض لأن صاحب الثواب غفور

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، رقم ٢٦٢٦.

شكور»[1].

ما أعظمها من سعادات أن يحيا المؤمن المحسن في هذه الحياة الدنيا وهو يشع بالخير والإحسان لكل من خالطه أو جاوره أو رافقه أو عاشره أو آكله أو احتاجه أو استعان به، فهو كحامل المسك إن لم يعط لم يؤذ بل أسعد الناس بطيب ريحه.

فكان جزاؤه أن يقذف الله في قلبه سعادة يتذوق طعمها في قلبه، ويحظى بفوائد وآثار تقر بها عينه ونفسه.

رابعًا: الرضا والاستسلام لقضاء الله والصبر:

الصبر فضيلة من أمهات الفضائل، وهو من أبرز الأخلاق التي كثر ذكرها في آيات القرآن الكريم، وهو دليل على صدق الإيمان، ووسيلة تعين على هذه الدنيا، وهو الدواء الشافي لنفس المصاب أو المبتلى حيث يخفف حزنها وآلامها[2].

ولقد ذكر الله تعالى الصبر في القرآن الكريم في نحو مائة وثلاثة مواضع وأضاف إليه أكثر الخيرات والدرجات وجعلها ثمرة له قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة:٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٦].

فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

والصبر خلق أهل العزائم وأصحاب الإرادة القوية: قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى:٤٣].

والصبر والاستسلام لقضاء الله يمنح الروح طاقة قادرة على الصمود أمام كوارث الحياة، وهو في حالة وقوعها ثابت لا يهتز، قوي لا يقهر ولا يتقهقر، لأن من مقتضيات الإيمان التسليم قولًا وعملًا بقاعدة أزلية ربانية هي: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة:٥١].

مما يعطي المؤمن ثقة بالنفس واعتزازًا بها واستعلاءً على صغائر الحياة، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

والمؤمن بقضاء الله لا يعرف المهانة والذلة ولا يستسلم للضعف والحزن[3].

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه عند الموت: يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم، أن ما

---

(١) ثلاثون سبباً للسعادة، عائض القرني، بتصرف يسير، ص٢١-٢٢.

(٢) انظر: الأخلاق في الإسلام، كايد فرعوش وآخرين، ص١٣٣.

(٣) انظر: المدخل إلى القيم الإسلامية، جابر قميحة، ص٧١.

أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنّ أوّل ما خلق اللّه القلم فقال له: اكتب، قال: ربّ وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كلّ شيءٍ حتّى تقوم السّاعة) يا بنيّ إنّي سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول: (من مات على غير هذا فليس منّي)[1].

قال علي رضي الله عنه: يا ابن آدم لا تفرح بالغنى ولا تقنط بالفقر ولا تحزن بالبلاء ولا تفرح بالرخاء، إن الذهب يجرّب بالنار وإن العبد الصالح يجرب بالبلاء، وإنك لا تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي، ولن تبلغ ما تؤمل إلا بالصبر على ما تكره[2].

فأي قرة عين! وأي طمأنينة نفس وراحة بال تحل على قلب من استسلم لقضاء الله وتصبّر. قال عمر رضي الله عنه لو كان الصبر والشكر بعيرين فما باليت أيهما أمتطي[3]... وأي سعادة تحل على قلوب الصابرين في الدنيا والآخرة.

خامسًا: استشعار نعم الله وشكرها:

إن نعم الله على الإنسان كثيرة، ولا أصدق في التعبير عن ذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨].

وحقيقة لا مراء فيها أن المرء لو حاول أن يعد نعم الله عليه لوجد أن ما دقّ وخفي من النعم أكثر مما ظهر واتضح، ووجد أنه يتقلب في نعم الله ليلًا ونهارًا، بل في كل لحظة من لحظات عمره في الدنيا منذ أن كان جنينًا إلى أن يلقى الله ثم تستمر النعم والسعادة على المؤمنين.

إن تقلب الإنسان في نعمة الله عليه وإلفه لها جعله يفقد الشعور بقيمة تلك النعمة بالنسبة إليه؛ إلا أن يسلبها فيدرك ذلك ويرفع أكف الضراعة إلى المنعم أن يعيدها عليه.

والمؤمن يملك أعظم نعمة على الإطلاق حيث ينعم بالطمأنينة والسكنية والسعادة التي يتمناها غيره ولا يدركها.

وتعداد نعمة الله يطول والاستطراد فيه ليس هنا مقامه، ولا يمكن تحصيله وإدراكه؛ ولذلك لابد من التعرض إلى شكر المنعم سبحانه وتعالى.

والشكر من أعلى مراتب الدين، وأسمى درجات الإيمان ومن دلائل حب العبد لمولاه، لذلك أكثر القرآن الكريم من الآيات التي تتحدث عن فضل الشكر والشاكرين، وكفار النعمة الجاحدين، وأمر سبحانه عباده

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في القدر، رقم ٤٧٠٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٠٥، رقم ٢٠١٨.
(٢) انظر: رسالة المسترشدين، الحارث المحاسبي ص٥٢-٥٦.
(٣) انظر: الصبر والثواب عليه، ابن أبي الدنيا، ص ٢٤.

الصالحين بالشكر قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢]

وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر:٦٦].

ووعد سبحانه على الشكر بالمزيد حيث قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم:٧].

ومما يجب معرفته أن الشكر لا تعود منفعته على الله، لأن الله غني عن عباده بل فضله وعائدته يكون لصاحبه[١].

قال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠].

وإن تذكر الإنسان نعم الله عليه التي تغمره تزيل ما يصيب نفسه من حزن و كآبة بسبب الملمات.

يقول الشيخ محمود المصري: «عندك عينان، ولسان وشفتان ويدان ورجلان ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن:١٣].

هل هي مسألة سهلة أن تمشي على أقدامك، وقد بترت أقدام، وأن تعتمد على ساقيك، وقد قطعت سوق، أحقير أن تنام ملء عينيك وقد أطار الألم نوم الكثير، وأن تملأ معدتك من الطعام الشهي، وأن تكرع من الماء البارد، وهناك من عكّر عليه

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٠٨٩.

الطعام، ونغص عليه الشراب، بأمراض وأسقام، تفكر في سمعك وقد عوفيت من الصمم»[٢].

وذكر النعمة كذلك من أسباب السعادة لذلك أمرنا القرآن الكريم بذكر النعم.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٠٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:٤٠].

يذكر سيد قطب موقفًا عاشه استشعر فيه قيمة النعمة التي يغفل الناس عن شكرها يقول: «وكنا فترة طويلة محرومين من رؤية الشمس. وكان شعاع منها لا يتجاوز حجمه حجم القرش ينفذ إلينا أحيانًا. وإن أحدنا ليقف أمام هذا الشعاع يمرره على وجهه ويديه وصدره وظهره وبطنه وقدميه ما استطاع. ثم يخلي مكانه لأخيه ينال من هذه النعمة ما نال! ولست أنسى أول يوم بعد ذلك وجدنا فيه الشمس. لست أنسى الفرحة الغامرة والنشوة الظاهرة على وجه أحدنا وفي جوارحه كلها وهو يقول في نغمة عميقة مديدة الله! هذه هي الشمس، شمس ربنا وما تزال تطلع، الحمد لله»[٣].

والشكر صفة الله سبحانه وتعالى و(الشكور) اسم من أسمائه:

(٢) لا تحزن وابتسم للحياة، ص٦٤-٦٥.
(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٨٨.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٧].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨] فما أعظم أن يتحلى المرء بما وصف الله به نفسه وله المثل الأعلى سبحانه.

سادسًا: جهاد النفس:

تعيش الإنسانية اليوم أشد مراحل الهبوط والانحطاط البشري، والفساد الأخلاقي، والاختلال في الموازين، والانحراف عن الحق والفضيلة والاستسلام للهوى والشهوات، والانغماس في الضلال، وكثرة الفاسدين والمفسدين؛ وارثة كل ما تركه السابقون من فساد في العقيدة والتصور، والخضوع لشريعة الشيطان، حتى أصبح الإنسان تتقاذفه أمواج الفتن بحيث لا يكاد ينجو من هذا الخضم الزاخر بالفتن إلا بشق الأنفس، مخدوشًا غير سالم بالكلية، فإن نجا من فتنة احتوته أخرى[(١)].

فضلًا عن سقوط المقدسات في يد أعداء الأمة الإسلامية وترديها إلى حد جعل أعداءها يتداعون عليها كتداعي الأكلة على قصعتها، فأصبح المسلم المستقيم على دينه غريبًا كالقابض على الجمر.

هذا يستدعي أن يبذل المسلم الجهود المضاعفة أضعافًا كثيرةً على محاور عديدة في جهاد نفسه، وأصبحت مجاهدة النفس أمرًا ليس بالهيّن، يمكن أن ندّعي لصاحبها البطولة في السّمو وعلو الهمّة، ويكون ممن قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه أنس بن مالك رضي الله عنه: **(يأتي على النّاس زمانٌ الصّابر فيهم على دينه كالقابض على الجمر)**[(٢)].

ومعنى جهاد النفس: استفراغ الوسع في تزكية النفس بترويضها على الطاعات، ومخالفة نوازعها الشريرة وأهوائها، والغاية من جهاد النفس: إدراك السعادة السرمدية.

ومقام المجاهدة من المقامات العظمية في الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت:٦٩].

وهذا جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته، ومنه مجاهدة النفس، والمرابطة على ثغورها لئلا تنزع إلى أمر الشيطان في غفلة عن الإنسان، وهذا المقام هو المذكور في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٢٠٠﴾ [آل عمران:٢٠٠].

---

(١) انظر: فقه الجهاد في الإسلام، حسن أيوب ص١٢-١٤.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، رقم ٢٢٦٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٢٦، رقم ٨٠٠٢.

يقول ابن كثير في معنى قوله تعالى: «﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، أي: لنبصرنهم طرقنا في الدنيا والآخرة وقال بعض العارفين: الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون»[1].

وجهاد النفس من أفضل أنواع الجهاد، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ۝٤١﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

أي: زجرها عن المعاصي والمحارم وقيل: «ترك الهوى مفتاح الجنة، وقال عبدالله بن مسعود: أنتم في زمان يقود الحق الهوى، وسيأتي زمان يقود الهوى الحق فنعوذ بالله»[2].

وأما قطب فيقول في قوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾: «إن الإنسان إنسان بهذا النهي، وبهذا الجهاد، وبهذا الارتفاع، وليس إنسانًا بترك نفسه لهواها، وإطاعة جواذبه إلى دركها، بحجة أن هذا مركب في طبيعته، فالذي أودع نفسه الاستعداد لجيشان الهوى، هو الذي أودعها الاستعداد للإمساك بزمامه، ونهي النفس عنه، ورفعها عن جاذبيته، وجعل له الجنة جزاءً ومأوىً حين ينتصر ويرتفع ويرقى»[3].

والإنسان في هذه الدنيا يعيش حالة صراع مع أعداء ظاهرين وآخرين لا يراهم، وربما كانوا أشد فتكًا به من أعدائه المشاهدين، وإن أعدى أعداء المرء نفسه التي بين جنبيه، فإنها تحث على نيل كل مطلوب والفوز بكل لذة، حتى وإن خالفت أمر الله ورسوله[4].

والعبد إذا أطاع نفسه هلك أما إن جاهدها وزمها بزمام الإيمان وألجمها بلجام التقوى فإنه يحرز نصرًا في أعظم ميادين الجهاد.

وفي شأن السعادة واللذة التي تعقب مجاهدة الإنسان لهوى النفس يقول ابن القيم: «ومن فوائد غض البصر: أنه يورث القلب سرورًا وفرحةً وانشراحًا أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر، وذلك لقهره عدوه بمخالفته، ومخالفة نفسه وهواه. وأيضًا فإنه لما كف لذته، وحبس شهوته لله أعاضه الله سبحانه مسرةً ولذةً أكمل منها»[5].

عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (النظر سهم من سهام إبليس مسمومة فمن تركه من خوف

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٤٢٦.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٢٠٨.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨١٩، بتصرف يسير.
(٤) انظر: مقاصد الرعاية لحقوق الله عز وجل، العز بن عبدالسلام، ص١٢٤.
(٥) روضة المحبين، ابن القيم، ص ١٠٢، ١٠٣ بتصرف يسير.

الله آتاه الله إيمانًا يجد حلاوته في قلبه)[1].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: (من غض بصره عن النظر الحرام: زوج من الحور العين حيث أحب، ومن اطلع فوق بيوت الناس حشره الله يوم القيامة أعمى)[2].

بعض مظاهر السعادة الدنيوية

لقد تكرر القول بأن السعادة في هذه الدنيا أمر نسبي، وهي ومضات خاطفة أو ساعات معدودة لا تستمر ولا تدوم، بل لابد وأن تعتريها منغصات ومكدّرات من الأمراض والأعراض، لأن هذه الدنيا دار ممر للآخرة، والإنسان فيها مسافر، عما قريب سيحط رحاله إما إلى جنة أو إلى نار، وهي سجن المؤمن، لذا فهي محفوفة بالآلام والابتلاءات، والمصاعب والمشكلات.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ [البلد: ٤].

إن الفرح أو اللذة الدنيوية إنما هي لحظات قليلة يمكن اعتبارها إرهاصات للسعادة الحقيقية الدائمة، ولمحات أو إشارات سريعة تربط قلب المؤمن بمصيره الأبدي المنتظر، فيظل هذا القلب ينبض في الدنيا بأشواق الآخرة، وتظل النفس تتشوف لذلك النعيم المقيم الذي لا يقع في دائرة الإدراك أو الحواس.

وستعرض في هذا المبحث إلى بعض مظاهر السعادة الدنيوية من النقاط الآتية:

أولًا: الحياة الطيبة:

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الرقاق، رقم ٧٨٧٥، ٤/ ٣٤٩.
قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ٣/ ١٧٧، رقم ١٠٦٥.

(٢) انظر: رسالة المسترشدين، الحارث المحاسبي، ص ١١٩.



﴿٩٧﴾ [النحل:٩٧].

الحياة الطيبة أعظم مظاهر السعادة الدنيوية وكذلك الأخروية، لأن الطّيّب: خلاف الخبيث، وقد تتسع معانيه فيكون الطيب: هو الحسن والأفضل في كل شيء، يقال: أرض طيبة للتي تصلح للإنبات، وريح طيبة: إذا كانت لينة.

قال تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢].

طعام طيب إذا كان حلالًا مستلذًا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون:٥١].

أي: كلوا من الحلال، وكل مأكول حلال مستطاب.

وامرأة طيبة: إذا كانت حصانًا عفيفة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور:٢٦].

أي: الطيبات من النساء للطيبين من الرجال، أو الكلمات الطيبات للطيبين.

وكلمة طيبة إذا لم يكن فيها مكروه، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر:١٠].

والكلام الطيب: توحيد الله وقول لا إله إلا الله. وبلدة طيبة: أي: آمنة، كثيرة الخير، قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ:١٥].

ونفس طيبة بما قدّر لها، أي: راضية وطاب الشيء: لذّ وزكا.

وقوله تعالى: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣].

معناه طيبين في الدنيا فادخلوها[1]، أي: الجنة.

ومن المدلولات المختلفة لكلمة الطيب في اللغة، يبدو واضحًا مقدار ما يتميز به المؤمن الذي يعمل الصالحات على غيره من حيازة الخير والحسن في كل شيء، حيث وردت هذه الكلمة في القرآن في مواضع عديدة، وفي كل موضع كانت توحي بالهناء والسرور.

يقول سيد قطب في قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾: «إن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة في هذه الأرض، لا يهم أن تكون ناعمةً رغدةً ثريةً بالمال. فقد تكون به، وقد لا يكون معها. وفي الحياة أشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة في حدود الكفاية: ففيها الاتصال بالله والثقة به والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه. وفيها الصحة والهدوء والرضا والبركة، وسكن البيوت ومودات القلوب، وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره في الضمير، وآثاره في الحياة، ليس المال إلا عنصرًا واحدًا يكفي

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١/ ٥٦٣-٥٦٥.

منه القليل، حين يتصل القلب بما هو أعظم وأزكى وأبقى عند الله. وأن الحياة الطيبة في الدنيا لا تنقص من الأجر الحسن في الآخرة وأن هذا الأجر يكون على أحسن ما عمل المؤمنون العاملون في الدنيا، ويتضمن هذا تجاوز الله لهم عن السيئات فما أكرمه من جزاء!»[(١)].

وقال غير واحد: الحياة الطيبة في الدنيا، أريد بها حياةً تصحبها القناعة والرضا بما قسمه الله تعالى وقدّره، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبّي صلى الله عليه وسلم يدعو يقول: (اللّهمّ قنّعني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف على كلّ غائبةٍ لي بخير)[(٢)].

وهؤلاء أصحاب الحياة الطيبة زادهم الله من فضله فكل شيء في حياتهم طيب، الرزق والبلد، الطعام والشراب، الأزواج والزوجات أقوالهم طيبة، وطريقهم طيب.

يقول تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ۝٢٤﴾ [الحج: ٢٤].

هؤلاء الطيبون طيبون في كل شيء حتى تحيتهم طيبة مثل حياتهم، قال تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].

وهل السعادة تتحقق إلا بالحياة الطيبة التي وصفتها الآيات الكريمة السابقة؟

ثانيًا: البشريات العديدة:

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

البشرى ومشتقاتها وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية في كثير من المواضع، وهذا يدل على أن الله عز وجل يريد لعباده الخير والسعادة والسرور.

قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ اختلف المفسرون فيمن يستحق هذا الاسم، قال بعضهم: هم الذين ذكرهم الله فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس: ٦٣].

وقال قوم: هم المتحابون في الله يجعل الله وجوههم نورًا ويجعل لهم منابر من لؤلؤ قدّام الرحمن يفزع الناس ولا يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون.

عن عبدالرحمن بن غنم رضي الله عنه

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٩٣.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الدعاء والتهليل والذكر، رقم ١٨٧٨، ١/ ٦٩٠.
قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
وضعفه الألباني في ضعيف الأدب المفرد، ٦٦، رقم ١٠٦.

قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم: من أولياء الله فقال: (خيار عباد الله الذين إذا رؤوا ذكر الله)[(١)].

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ اختلفوا في هذه البشرى على أقوال:

الأول: البشرى في الدنيا: هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له، سأل رجلٌ أبا الدّرداء عن قول اللّه تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾، فقال ما سألني عنها أحدٌ غيرك إلاّ رجلٌ واحدٌ منذ سألت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقال: (ما سألني عنها أحدٌ غيرك منذ أنزلت، هي الرّؤيا الصّالحة يراها المسلم أو ترى له)[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول: (لم يبق من النّبوّة إلاّ المبشّرات) قالوا وما المبشّرات؟ قال: (الرّؤيا الصّالحة)[(٣)].

الثاني: هي الثناء الحسن، قال أبو ذر: قيل لرسول اللّه صلى الله عليه وسلم أرأيت الرّجل يعمل العمل من الخير ويحمده النّاس عليه قال: (تلك عاجل بشرى المؤمن)[(٤)].

الثالث: هي نزول الملائكة بالبشارة من الله تعالى عند الموت.

قال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

وعن ابن عباس: «البشرى في الدنيا عند الموت، تأتيهم الملائكة بالبشارة وفي الآخرة عند خروج نفس المؤمن، يعرج بها إلى الله ويبشر برضوان الله»[(٥)].

الرابع: قال الحسن: هي ما بشر الله المؤمنين في كتابه من جنته وكريم ثوابه كقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة:٢٥].

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة:٢٢٣، التوبة:١١٢، يونس:٨٧، الصف:١٣].

وقوله: ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠][(٦)].

هذا وقد قدم السياق القرآني بشريات متعددة منها ما هو للدنيا مثل: تبشير إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة بإسحاق.

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧٩٩٨. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/ ٨٣٥، رقم ٢٨٤٩.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب سورة يونس، رقم ٢٢٧٣. قال الترمذي: هذا حديث حسن. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٤٤، رقم ٢٨٢٢.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب المبشرات، رقم ٦٩٩٠.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أثنى على الصالح فهي بشرى ولا تضره، رقم ٢٦٤٢.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٠٤.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٨/ ٣٥٧.

قال تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود:٧١].

وزكريا عليه السلام ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧﴾ [مريم:٧].

وأكثرها مبشرات لأهل الله من الأتقياء والمؤمنين والمحسنين الصالحين. قال تعالى في شأن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله مبشرًا بالرحمة والرضوان: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١﴾ [التوبة ٢٠-٢١].

وبشر الذين قتلوا في سبيل الله في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧١].

وبشر تعالى أهل التوحيد والاستقامة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ [فصلت:٣٠].

وهناك الكثير من البشارات التي لا يتسع المقام لذكرها.

ولكن ما أعظم هؤلاء المؤمنين الذين أخذوا بأسباب السعادة، فأتم الله عليهم سعادته، بالحياة الطيبة في الدنيا، والبشريات المختلفة التي تملأ قلوبهم سرورًا وحبورًا وتشوقًا لاستكمال هذه السعادة في دار المقامة التي لا يمسهم فيها لغوب.

ثالثًا: الرضا:

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١٩﴾ [المائدة:١١٩].

وقال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ [البينة:٨].

والرضا واحد من المقامات العالية التي يبلغها المؤمن، وهو «ارتفاع الجزع في أيّ حكم كان. وقيل رفع الاختيار، وقيل استقبال الأحكام بالفرح. وقيل سكون القلب تحت مجاري الأحكام. وقيل نظر القلب إلى قديم اختيار الله تعالى للعبد»(١).

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ١٧٥، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، السفاريني، ٢/ ٥٣٢.

وقيل: «من أراد أن يبلغ محل الرضا فليلزم ما جعل الله رضاه فيه»[(١)].

وعن عمر رضي الله عنه أنه كتب لأبي موسى الأشعري: «أما بعد فإن الخير كله في الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر»[(٢)].

وقد تضمنت الآيات الكريمة السابقة الجزاء على الصدق والإيمان والأعمال الصالحة، ومجاهدة أعداء الله، بأن رضي عنهم فأرضاهم، فرضوا عنه وإنما حصل لهم هذا الرضى لأنهم رضوا بالله ربًا وبمحمد نبيًا وبالإسلام دينًا ويتحقق الرضا عن الله للعبد إذا استوت في رضاه النعمة والمصيبة بحسب اختيار الله له، كما في قول عمر رضي الله عنه: «لو كان الصبر والشكر بعيرين لما باليت أيهما أمتطي»[(٣)]، لأن المسلم يذوق بالرضا طعم السكينة التي لا أنفع له منها، لأنها متى نزلت على فؤاده استقام، وصلحت أحواله وهدأ باله، فمن أعظم نعم الله على عبده المسلم أن ينزل السكينة عليه، ومن أعظم أسبابها الرضى عن الله في جميع الحالات.

والمسلم يعلم كذلك أن أعظم راحة وسرور ونعيم في الرضى عن ربه - تعالى وتقدس -في جميع الحالات لأن الرضى باب الله الأعظم ومستراح المحبين، فجدير بمن نصح لنفسه أن تشتد رغبته فيه وأن لا تستبدل به غيره[(٤)].

يقول سيد قطب في قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [البينة:٨] : ورضا الله عنهم هو الرضا الذي تتبعه المثوبة، وهو في ذاته أعلى وأكرم مثوبة، ورضاهم عن الله هو الاطمئنان إليه سبحانه والثقة بتقديره، وحسن الظن بقضائه، والشكر على نعمائه، والصبر على ابتلائه، ولكن التعبير بالرضا هنا وهناك يشيع جو الرضا الشامل الغامر، المتبادل الوافر، الوارد الصادر بين الله سبحانه وهذه الصفوة المختارة من عباده، ويرفع من شأن هذه الصفوة -من البشر -حتى ليبادلون ربهم الرضى، وهو ربهم الأعلى، وهم عبيده المخلوقون، وهو حال وشأن وجوّ لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبر عنه، ولكن يتنسم ويستشرف ويستجلى من خلال النص القرآني بالروح المتطلع والقلب المتفتح والحسّ الموصول! ذلك حالهم الدائم مع ربهم ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ وهناك تنتظرهم علامة هذا الرضى ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠][(٥)].

(١) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٢/ ٣٩٧.
(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٨٥.
(٣) انظر: الصبر والثواب عليه، ابن أبي الدنيا ص ٢٤.
(٤) انظر: منهاج الأنبياء في تزكية النفوس، سليم الهلالي ص٤٧-٤٨.
(٥) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٠٦، بتصرف.

وليس هناك سعادة أعظم من أن يرضى العبد عن ربه فيتقبل الضراء كما يتقبل السراء برضى نفس وطمأنينة وشعور داخلي بعدم الجزع أو السخط.

رابعًا: الأمن النفسي والطمأنينة والسكينة:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢].

وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [النمل:٨٩].

من أعظم مظاهر سعادة المؤمن تحقق الأمن النفسي لديه، ولا نعمة أعظم من الأمن، عن عبيد الله بن محصنٍ الخطميّ رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (من أصبح منكم آمنًا في سربه معافًى في جسده عنده قوت يومه فكأنّما حيزت له الدّنيا)(١).

بل ويمتن الله سبحانه على عباده الذين رضي عنهم بأن حقق لهم الأمن في غرفات الجنات هذا عن الأمن الحسي، أما الأمن النفسي، فيقول القرضاوي: «كما لا يتحسر المؤمن على الماضي باكيًا حزينًا، ولا يلقى الحاضر جزوعًا ساخطًا، لا يواجه المستقبل خائفًا وجلًا، ولا يعيش في فزع منه، ورهبة من غموضه، بل يعيش آمن النفس كأنه في الجنة، لأن إيمانه كان مصدرًا للأمن والطمأنينة والسكينة، ولا سعادة بدون هذا الأمن النفسي وقد قيل لحكيم: ما السرور؟ فقال: الأمن فإني وجدت الخائف لا عيش له، ولا عجب أن جعل الله الجنة دار السلام والأمن الكاملين، فأهلها في الغرفات آمنون، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون وتتلقاهم الملائكة منذ اللحظة الأولى ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجر:٤٦]»(٢).

يقول المفسرون في تلك الآية الكريمة من سورة الأنعام: إن الناس يخافون من أشياء كثيرة وأمور شتى، ولكن المؤمن سدّ أبواب الخوف كلها، فلم يعد يخاف إلا الله وحده، يخافه أن يكون فرّط في حقه أو اعتدى على خلقه، أما الناس فلا يخافهم وهذا إبراهيم عليه السلام يدعو إلى توحيد الله وتحطيم الأصنام، فخوفه قومه من آلهتهم فقال إبراهيم متعجبًا: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام:٨١] أي: الفريقين أحق بالأمن؟ فيجيبهم سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، رقم ٢٣٤٦.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٤٤، رقم ٦٠٤٢.

(٢) الإيمان والحياة ص١٥٧.

﴿آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

بهذه الضمانات يعيش المؤمن حياته آمنًا مطمئنًا على رزقه وأجله وعلى أولاده وزوجه، فكان يذهب إلى ميدان الجهاد حاملًا روحه على كفه متمنيًا الموت في سبيل الله ، ومن خلفه ذرية ضعاف موقن أنه يتركهم في رعاية رب كريم هو أبر بهم وأحنى عليهم منه[1].

قال ابن القيم رحمه الله : « في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس بالله، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته، وصدق معاملته وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه، والفرار إليه، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة أبدًا»[2].

والسعادة الدنيوية ثلاثة أضرب:سعادة نفسية وبدنية وخارجية، ولا يمكن أن تتحقق السعادة النفسية التي هي أهم السعادات إلا بتحقق الأمن والطمأنينة والسكينة في النفس الإنسانية[3].

(١) انظر: الإيمان والحياة ص١٦٠.
(٢) مدارج السالكين ٣/ ١٧٢.
(٣) انظر التوقيف على مهمات التعاريف ، المناوي ص٤٣٣.

خامسًا: انشراح الصدر:

قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام:١٢٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح:١].

انشراح الصدر نعمة عظيمة ومظهر من مظاهر سعادة المسلم في هذه الحياة، وقد منّ الله على حبيبه محمد بهذه النعمة العظيمة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ لهذه الدعوة ونيسر لك أمرها، ونجعلها حبيبةً لقلبك، ونشرع لك طريقها، وننر لك الطريق حتى ترى نهايته السعيدة، ألم نفتح ونوسع ونلن لك قلبك بالإيمان والنبوة والعلم والحكمة[4].

فتش في صدرك، ألا تجد فيه الروح والانشراح والإشراق والنور؟ واستعد في حسك مذاق هذا العطاء وقل: ألا تجد معه المتعة مع كل مشقة والراحة مع كل تعب، واليسر مع كل عسر، والرضى مع كل حرمان[5].

قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر:٢٢].

(٤) انظر: معالم التنزيل ٤/ ٤٦٩.
(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٢٩.

والله يشرح للإسلام قلوبًا يعلم فيها الخير، ويصلها بنوره فتشرق به وتستضيء.

يقول سيد قطب: «وهذه الآية تصور حقيقة القلوب التي تتلقى الإسلام فتنشرح له، وتندى به، وتصور حالها مع الله حال الانشراح والتفتح والنداوة والبشاشة والإشراق والاستنارة...ومن يشرح الله صدره للإسلام ويمد له من نوره، ليس قطعًا كالقاسية قلوبهم من ذكر الله وشتان شتان بين هؤلاء وهؤلاء»[(١)].

هذا غيض من فيض من مظاهر سعادة المؤمن الذي أخذ بأسباب السعادة سابقة الذكر، وهو من باب الإشارة إلى ذلك ولا سبيل لحصر مظاهر السعادة في الحياة الدنيا، ولعل من أهمها بعد ما ذكر الحب في الله والثبات في الحياة والممات، والسعادة الزوجية القائمة على إرضاء الله، والسكينة وراحة البال والأنس بالله والقناعة وغيرها.

مظاهر السعادة في الدار الآخرة

للسعادة في الدار الآخرة أشكال وألوان، وصور ومظاهر متعددة، يتقلب السعيد فيها من صورة إلى أخرى ومن مظهر لآخر.

إنها سعادة كاملة لا يشوبها نقص، ولا يعكر صفوها كدر، وما ذكره القرآن الكريم وما أخبر به النبي صلي الله عليه وسلم يحير العقل ويذهله، لأن العقل يعجز عن إدراك واستيعاب وتصور ذلك النعيم[(٢)].

والحقيقة التي لا مراء فيها ولا جدال، أنه لا وجه أبدًا للمقارنة بين متاع الدنيا وإن كان حاصلًا وواقعًا مشهودًا، وبين نعيم الجنة الموعود.

فنعيم الجنة خير وأفضل، وقد أطال القرآن في بيان فضل الآخرة وذم الدنيا، وذلك حتى يشمّر المشمّرون، ويجتهد العابدون.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء:٧٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة:٣٨].

فنعيم الجنة كثير لا ينفد ولا ينقطع، عن

(١) المصدر السابق ٥/٣٠٤٨.

(٢) انظر: الجنة والنار، عمر الأشقر ص١١٣.

أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (غدوةٌ في سبيل اللّه أو روحةٌ خيرٌ من الدّنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدمٍ من الجنّة خيرٌ من الدّنيا وما فيها)[1].

وسنتحدث في النقاط الآتية عن السعادة الحقيقية الخالدة التي تصبو إليها النفوس وتتشوف إليها العقول والقلوب.

أولًا: الزحزحة عن النار:

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران:١٨٥].

يخبر تعالى إخبارًا عامًا يعم جميع الخليقة بأن ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ٢٧﴾ [الرحمن:٢٦-٢٧].

فالجميع ميت، الجن والإنس والملائكة وحملة العرش، فإذا شاء الله أقام القيامة، وجازى الخلائق بأعمالها ، جليلها وحقيرها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحدٌ مثقال ذرة ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ أي : من جنب النار ونجا منها وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز[2].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنّ موضع سوطٍ في الجنّة لخيرٌ من الدّنيا وما فيها ، اقرءوا إن شئتم: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾)[3].

إن النجاة من النار في حكم الله وتقديره هي الفلاح العظيم والفوز الكبير والنجاة العظمى[4]، والتي تبدو تباشيرها عند حضور ملك الموت[5].

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من أحبّ لقاء اللّه أحبّ اللّه لقاءه ومن كره لقاء اللّه كره اللّه لقاءه)، قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنّا لنكره الموت، قال : (ليس ذاك ولكنّ المؤمن إذا حضره الموت بشّر برضوان اللّه وكرامته، فليس شيءٌ أحبّ إليه ممّا أمامه فأحبّ لقاء اللّه وأحبّ اللّه لقاءه ، وإنّ الكافر إذا حضر بشّر بعذاب اللّه وعقوبته فليس شيءٌ أكره إليه ممّا أمامه كره

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم ٦٥٦٨.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٣٠٢.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب سورة آل عمران، رقم ٣٠١٣. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٢٧، رقم ٦٦٣٥.

(٤) انظر: الجنة والنار، عمر سليمان الأشقر، ص١١٣.

(٥) انظر: البعث، أبو بكر بن أبي داود السجستاني، ص١٤-١٥.

لقاء الله وكره الله لقاءه)[١].

ثانيًا: نزع الغل من الصدور:

قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف:٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر:٤٧].

أي: نزعنا ما في صدورهم من حقد وحسد وضغينة، فبعد أن يجتاز المؤمنون النار ويزحزحون عنها، يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار ثم يهذبون وينقون وذلك بأن يقتص لبعضهم من بعض إذا كانت بينهم مظالم في الدنيا حتى إذا دخلوا الجنة كانوا أطهارًا أبرارًا.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يخلص المؤمنون من النّار فيحبسون على قنطرةٍ بين الجنّة والنّار فيقصّ لبعضهم من بعضٍ مظالم كانت بينهم في الدّنيا حتّى إذا هذّبوا ونقّوا أذن لهم في دخول الجنّة فوالّذي نفس محمّدٍ بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنّة منه بمنزله كان في الدّنيا)[٢].

وقال ابن عباس: «إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة وجدوا عند بابها شجرة، في أصل ساقها عينان، فشربوا من إحداهما، فينزع ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور، واغتسلوا من الأخرى فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يشعثوا ولم يشحبوا بعدها أبدًا»[٣].

أما الفخر الرازي فيقول في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾: «اعلم أن نزع الشيء قلعه من مكانه، والغل: الحقد الذي يدخل بلطفه إلى صميم القلب فيكون لهذه الآية تأويلان:

الأول: أن يكون المراد أزلنا الأحقاد التي كانت لبعضهم على بعض في دار الدنيا فيكون المعنى: تصفية الطباع وإسقاط الوساوس ومنعها من أن ترد على القلوب، لأن الشيطان في العذاب فليس له سبيل لإلقاء الوساوس في القلوب.

والقول الثاني: أن المراد أن درجات أهل الجنة متفاوتة بحسب الكمال والنقصان فالله تعالى أزال الحسد عن قلوبهم حتى أن أصحاب الدرجة النازلة لا يحسدون أصحاب الدرجة الكاملة»[٤].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، رقم ٦٥٠٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، رقم ٦٥٣٥.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٠٨، الجنة والنار، عمر سليمان الأشقر، ص١١٧.
(٤) مفاتيح الغيب ١٤/ ٨٠.

ثالثًا: تسليم الملائكة على أهل السعادة والترحيب بهم:

قال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد:٢٣-٢٤].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾ [النحل:٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزمر:٧٣].

هذه الآيات الكريمة تعرض لمظهر عظيم من مظاهر سعادة أولئك السعداء، أولئك في مقامهم العالي لهم عقبى الدار: جنات عدن للإقامة والقرار، تشارك الملائكة فيه بالتأهيل والترحيب والتكريم في حركة رائحة غادية ﴿يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾، ويدعنا السياق نرى المشهد حاضرًا وكأنما نشهده، ونسمع الملائكة أطوافًا أطوافًا ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ فهو مهرجان حافل باللقاء والسلام والحركة الدائبة والإكرام(١).

هذا التسليم والتكريم لا يكون في الجنة فحسب؛ بل إنه يبدأ قبل ذلك بكثير، من يوم الاحتضار الذين تتوفاهم الملائكة طيبةً نفوسهم بلقاء الله، معافين من الكرب وعذاب الموت يقولون ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ﴾ طمأنةً لقلوبهم وترحيبًا بقدومهم ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ تعجيلًا لهم بالبشرى وهم على أعتاب الآخرة(٢).

أخبر الله عن هؤلاء السعداء المتصفين بالصفات الحسنة بأن لهم جنات الإقامة يخلدون فيها مع أزواجهم وآبائهم وذرياتهم، والملائكة تدخل عليهم من ههنا وههنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام(٣).

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (هل تدرون أوّل من يدخل الجنّة من خلق اللّه؟) قالوا : اللّه ورسوله أعلم ، قال: (أوّل من يدخل الجنّة من خلق اللّه الفقراء والمهاجرون الّذين تسدّ بهم الثّغور، ويتّقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاءً فيقول اللّه عز وجل لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيّوهم : فتقول الملائكة : نحن سكّان

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٥٨.

(٢) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢١٦٩.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٩٨٢.

سمائك وخيرتك من خلقك أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلّم عليهم؟ قال: إنّهم كانوا عبادًا يعبدوني لا يشركون بي شيئًا وتسدّ بهم الثّغور ويتّقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاءً. قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كلّ باب، سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدّار)[1].

وهذا الترحيب بعد قطعهم جسر جهنم وحبسهم على قنطرة للقصاص حتى إذا هذبوا وطيبوا قال لهم رضوان عليه السلام وأصحابه: سلام عليكم[2].

رابعًا: ذهاب الهموم والأحزان ونسيان البؤس والآلام:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر: ٦١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فاطر: ٣٤].

نعيم الجنة نعيم حقيقي مؤكد لا يشوبه كدر، تبشر به الملائكة عند الموت وفي القبر وعند البعث من القبور وعند دخول الجنة، تبشر به من سبقت له السعادة والفوز عند ربه، فلا همّ ولا غمٌّ ولا نقص ولا تغيير، آمنون من الفزع الأكبر ومن كل فزع وخوف[3].

وقد حكى سبحانه وتعالى عن حال أهل الجنة إذا دخلوها قولهم: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤].

قال السعدي: «أسكنهم الدار التي تدوم فيها الإقامة والتي يرغب في المقام فيها لكثرة خيراتها وتوالي مسراتها، وزوال كدوراتها ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٥].

أي: لا تعب في الأبدان ولا في القلب والقوى ولا في كثرة التمتع، وهذا يدل على أن الله تعالى يجعل أبدانهم في نشأة كاملة، ويهيئ لهم من أسباب الراحة على الدوام، ما يكونون بهذه الصفة بحيث لا يمسهم نصب ولا لغوب ولا هم يحزنون»[4]. أراحهم مما كانوا يتخوفون ويحذرون من هموم الدنيا

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٦٥٧٠. وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٣١٨٣، ٣/ ١٣١.
(٢) انظر: فتح القدير ٣/ ٩٠.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٦٢٤.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٧٥٨.

والآخرة[1].

وهذا المظهر العظيم من مظاهر سعادة المؤمن في الجنة عام في كل من دخل الجنة سواءً دخل النار قبلها، أو لم يدخل، فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن غمسةً واحدةً في الجنة تنسي السعيد كل بؤس عاشه في الدنيا، فكيف بمن تكون الجنة مستقره وداره! ولا يبعد أن يشمل هذا البؤس الذي عاناه المسلم عندما كان في النار.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بأنعم أهل الدّنيا من أهل النّار يوم القيامة فيصبغ في النّار صبغةً ثمّ يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قطّ؟ هل مرّ بك نعيمٌ قطّ؟ فيقول: لا والله يا ربّ، ويؤتى بأشدّ النّاس بؤسًا في الدّنيا من أهل الجنّة فيصبغ صبغةً في الجنّة فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسًا قطّ؟ هل مرّ بك شدّةٌ قطّ فيقول: لا والله يا ربّ ما مرّ بي بؤسٌ قطّ ولا رأيت شدّةً قطّ)[2].

فما أعظم هذا الفضل والمن! إنه من إله رحيم كريم!

خامسًا: الفوز بالجنة:

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر:٢٠].

وقال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الصف:١٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات:٦٠-٦١].

عند الحديث عن السعادة الحقيقة في الدار الآخرة لا يمكن الاستغناء عن صيغة أفعل التفضيل!! فهل حقًّا هناك أعظم وأحسن من الفوز.. وأي فوزا! إنه الفوز بالجنة! هل هناك أدنى وجه للمقارنة بين من كان من أهل النار، في الحميم والغساق وشجر الزقوم، وبين من سكن الجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، شتان.. شتان!

يقول قطب عند تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾: لا يستويان طبيعةً وحالًا، ولا طريقًا ولا سلوكًا، ولا وجهًا ولا مصيرًا، فهما على مفرق طريقين لا يلتقيان أبدًا في طريق ولا في سمة ولا في خطّة، ولا يلتقيان أبدًا في سياسة ولا يلتقيان أبدًا في صف واحد في دنيا ولا في آخرة[3].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣/ ١٥٤٥.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، ح٢٨٠٧.
(٣) انظر: في ظلال القرآن ٦/ ٣٥٣١.

﴿تَجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢﴾ [الصف:١٠-١٢].

وهذه الآيات تشير إلى تجارة رابحة وصفقة ناجحة مع رب العالمين، بل هي أربح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة حتى حين يفقد هذه الحياة كلها، ثم يعوض عنها تلك الجنات وهذه المساكن في نعيم مقيم وحقًا ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[(١)].

ويحسن الإشارة هنا إلى أن الفوز بنعيم الجنة لا يستلزم ترك متاع الدنيا كما يظن الرهبان وكثير من العباد، الذين يشقون على أنفسهم، ويعذبون أجسادهم، ويعزفون عن العمل والزواج، وهذه فكرة خاطئة إذ من عظمة هذا الدين أن يجمع للمسلم خير الدنيا إلى الآخرة.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢].

سادسًا: الاشتغال بالملذات والتمتع بالمسرات:

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦﴾ [يس:٥٥-٥٦].

قال ابن مسعود وابن عباس: «شغلهم افتضاض العذارى»، وقال أبو قلابة: «بينما الرجل من أهل الجنة مع أهله إذ قيل له: تحوّل إلى أهلك فيقول: أنا مع أهلي مشغول، فيقال: تحول أيضًا إلى أهلك»، وقيل: أصحاب الجنة في شغل بما هم فيه من اللذات والنعيم عن الاهتمام بأهل المعاصي ومصيرهم وما هم فيه من أليم العذاب؛ وإن كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم.

وقالوا ﴿فِى شُغُلٍ﴾ أي: في زيارة بعضهم بعضًا وقيل: في ضيافة الله تعالى، أو في نعيم معجبون به، ﴿فَٰكِهُونَ﴾ أي: فرحون بسماع الأوتار مسروررون[(٢)].

وقال ابن عباس: «إن الرجل من أهل الجنة ليعانق الحوراء سبعين سنة لا يملها ولا تمله، كلما أتاها وجدها بكرًا»[(٣)].

يقول قطب: «إنهم مشغولون بما هم فيه من النعيم، ملتذون متفكهون وإنهم لفي ظلال مستطابة يستروحون نسيمها..وعلى أرائك متكئين في راحة ونعيم هم وأزواجهم ولهم فوق اللذائذ التأهيل والتكريم ﴿سَلَٰمٌ﴾ يتلقونه من ربهم الكريم»[(٤)].

(١) انظر: المصدر السابق، ٦/ ٣٥٥٩.

(٢) حادي الأرواح، ابن القيم، ص١٦٥.

(٣) انظر: جامع أحكام القرآن ١٥/ ٤٤-٤٥، حادي الأرواح، ابن القيم، ص١٦٥.

(٤) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٧٢.

لماذا يأكل أهل الجنة ويشربون ويمتشطون إذن؟ هل يجوعون؟ هل يعطشون؟. إذا كان أهل الجنة فيها خالدون، وكانت خاليةً من الآلام والأوجاع والأمراض لا جوع فيها ولا عطش ولا قاذورات ولا أوساخ، فلماذا يأكلون؟[1].

أجاب القرطبي في التذكرة عن هذا السؤال قائلًا: «نعيم أهل الجنة وكسوتهم ليس عن دفع ألم اعتراهم، فليس أكلهم عن جوع، ولا شربهم عن ظمأ، ولا تطيبهم عن نتن، وإنما هي لذات متوالية ونعم متتابعة ألا ترى قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ۝١١٩﴾ [طه:١١٨-١١٩].

وحكمة ذلك أن الله تعالى عرفهم في الجنة بنوع ما كانوا يتنعمون به في الدنيا، وزادهم على ذلك ما لا يعلمه إلا الله عز وجل»[2].

سابعًا: رؤية الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٢٦﴾ [يونس:٢٦].

قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾: «فأما الذين أحسنوا الاعتقاد، وأحسنوا العمل، وأحسنوا معرفة الصراط المستقيم، وإدراك القانون الكوني المؤدي إلى دار الإسلام، فأما هؤلاء فلهم الحسنى جزاء ما أحسنوا، وعليها زيادة من فضل الله غير محدودة»[3].

عن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخل أهل الجنّة الجنّة قال يقول اللّه تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيّض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنّة وتنجّنا من النّار ؟ قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئًا أحبّ إليهم من النّظر إلى ربّهم عز وجل)، وفي رواية ثمّ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[4].

وقيل: الحسنى البشرى، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾: ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ من النضارة أي : حسنة بهية مشرقة مسرورة، و﴿نَاظِرَةٌ﴾ أي : تراه عيانًا، وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة، في

(١) انظر: الجنة والنار، عمر سليمان الأشقر، ص٢٢٥.
(٢) انظر: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، ص ٤١٦.
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٧٧٩.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم، رقم ١٨١.

الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن دفعها ولا منعها[١].

عن جرير بن عبد الله، قال: كنّا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم، فنظر إلى القمر ليلةً -يعني البدر- فقال: (إنّكم سترون ربّكم كما ترون هذا القمر لا تضامّون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشّمس وقبل غروبها فافعلوا)[٢].

وعن أبي بكر بن عبد الله بن قيسٍ، عن أبيه، أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: (جنّتان من فضّةٍ آنيتهما وما فيهما، وجنّتان من ذهبٍ آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم إلاّ رداء الكبر على وجهه في جنّة عدنٍ)[٣].

وفي هذا رد على كل من أنكر رؤية المؤمنين لله يوم القيامة مثل المعتزلة والجهمية والفرعونية، والرافضة والقرامطة والباطنية والصابئة والمجوس واليونان الذين قالوا بكفر من اعتقد ذلك وأنه من أهل التشبيه والتجسيم، وتابعهم على ذلك كل عدو للسنة وأهلها، والله تعالى ناصر كتابه وسنة رسوله ولو كره الكافرون[٤].

يقول قطب: هذه الوجوه الناضرة، نضّرها أنها إلى ربها ناظرة؟! فأي مستوى من الرفعة هذا؟ أي مستوى من السعادة؟ إن روح الإنسان لتستمتع أحيانًا بلمحة من جمال الإبداع الإلهي في الكون والنفس، تراها في الليلة القمراء أو الليل الساجي أو الفجر الوليد، إلى آخر مطالع الجمال في هذا الوجود فتغمرها النشوة وتفيض بالسعادة، وترف بأجنحة من نور في عوالم مجنحة طليقة وتتوارى عنها أشواك الحياة. فكيف بها وهي تنظر -لا إلى جمال صنع الله -ولكن إلى جمال ذات الله؟ ألا إنه مقام يحتاج أولًا إلى مدد من الله، ويحتاج ثانيًا إلى تثبيت من الله، ليملك الإنسان نفسه، فيثبت ويستمتع بالسعادة التي لا يحيط بها وصف، ولا يتصور حقيقتها إدراك؟ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾، وما لها لا تنضر وهي إلى جمال ربها ناظرة؟[٥].

موضوعات ذات صلة:

البكاء، الجنة، الحزن، الغم، الفرح، اليأس

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم ٤/ ١٩٧١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الفجر، رقم ٥٧٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب وجوه يومئذ ناضرة، رقم ٧٤٤٤.

(٤) انظر: حادي الأرواح، ص٢١١.

(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٧٠ بتصرف.



عناصر الموضوع

مفهوم السعة	٩٢
السعة في الاستعمال القرآني	٩٣
الألفاظ ذات الصلة	٩٤
السعة في حق الله تعالى	٩٦
السعة نعمة إلهية	١٠٥
أنواع السعة	١١٤

مفهوم السعة

أولًا: المعنى اللغوي:

هي: الغنى والجدة والطاقة، ونقيض الضيق، قال ابن فارس: «(وسع) الواو والسين والعين: كلمة تدل على خلاف الضيق والعسر، يقال: وسع الشيء واتسع، وهو ينفق على قدر وسعه، أي: طاقته وقدرته، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق:٧]»[(١)].

ورجل موسع: وهو المليء، والوسع: الغنى والجدة وقدرة ذات اليد، وأوسع الرجل إذا كثر ماله، قال الله عز جل: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٦][(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي الذي يدل على خلاف الضيف والعسر، وتكون في الأمكنة والحال والفعل والجود[(٣)].

(١) انظر: مقاييس اللغة ٦/ ١٠٩.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ٦١، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٥/ ١٨٤، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٣٩٣، تاج العروس، الزبيدي ٢٢/ ٣٢٥.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٧٠.

السعة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (السعة) في القرآن بصيغ متعددة، بلغت ثنتين وثلاثين مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٦	﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف:٨٩]
المصدر	١١	﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]
اسم الفاعل	١٥	﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢]

ووردت السعة في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهي: كلمة تدل على خلاف الضيق والعسر[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٧٥١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الواو ص ١٤١١-١٤١٢.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦/ ١٠٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ٢/ ١٠٣١، المخصص، ابن سيده، ٣/ ٣٤١، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/ ٣١٠-٣١١.

الألفاظ ذات الصلة

١ القدرة:

القدرة لغة:

الطاقة والقوة على الشيء والتمكن منه، والغنى والثراء، يقال رجل ذو قدرة ذو يسار وغنى(١).

القدرة اصطلاحًا:

الصفة التي تمكن الحي من الفعل وتركه بالإرادة(٢)، والقدرة: صفة تؤثر على قوة الإرادة(٣).

الصلة بين السعة والقدرة:

أن السعة والقدرة يأتيان بمعنى الغنى وقدرة ذات اليد إلا أن القدرة فيها معنى القوة على الشيء والتمكن منه، والسعة فيها معنى زائد وهو الفسحة واتساع المكان.

٢ الطاقة:

الطاقة لغة:

الوسع، وأطقت الشيء إطاقة: قدرت عليه، والطاقة هي: القدرة وما يستطيع الإنسان أن يفعله بمشقة(٤).

الطاقة اصطلاحًا:

غاية مقدرة القادر واستفراغ وسعه في المقدور(٥).

الصلة بين السعة والطاقة هو:

أن بينهما معنىً مشتركًا وهو القدرة على الشيء، إلا أن في الطاقة استفراغ الوسع في المقدور.

(١) تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ٤٠، مختار الصحاح، الرازي ص ٢٤٨، المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٤٩٢.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١٧٣، الكليات، الكفوي ص ١٠٨.
(٣) التعريفات، الجرجاني ١٧٣.
(٤) انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٣٨١، تاج العروس، الزبيدي ٢٦/ ١٠٤، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٥٧١.
(٥) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٣٣٦.



٣ الجهد:

الجهد لغة:

بالفتح، المشقة، وقيل: المبالغة والغاية، وبالضم، الوسع والطاقة؛ وقيل: هما لغتان في الوسع والطاقة، ومنه قول الله جل وعز: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة:٧٩] أي: طاقتهم تقول: هذا جهدي، أي: طاقتي [١].

الجهد اصطلاحًا:

الوسع والطاقة [٢].

الصلة بين السعة والجهد:

أن بينهما معنى مشتركًا وهو الوسع والطاقة والقدرة على الشيء إلا أن في الجهد معنى المشقة.

٤ الضيق:

الضيق لغة:

قال ابن فارس: «(ضيق) الضاد والياء والقاف كلمة واحدة تدل على خلاف السعة، وذلك هو الضيق والضيقة: الفقر، يقال: أضاق الرجل: ذهب ماله» [٣].

الضيق اصطلاحًا:

الفقر وسوء الحال [٤].

الصلة بين السعة والضيق:

أن الضيق ضد السعة.

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٦/ ٢٦، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٣٣، المصباح المنير، الفيومي ١/ ١١٢، تاج العروس، الزبيدي ٧/ ٥٣٤.
(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٣٣ ١١٢.
(٣) انظر: مقاييس اللغة ٣/ ٣٨٣.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٢٠٨، تاج العروس، الزبيدي ٢٦/ ٤٥.

السعة في حق الله تعالى

إن السعة في حق الله تعالى تتضح من خلال بيان معنى اسم الله: (الواسع)، واسمه: (واسع المغفرة) بالإضافة لبيان سعة رحمة الله تعالى، وسعة علمه سبحانه، واقتران اسم الله الواسع بأسماء الله الحسنى، وذلك في النقاط الآتية:

أولًا: معنى اسم الله (الواسع):

إن من أسماء الله الحسنى اسمه: (الواسع)، وهو على وزن (فاعل)، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم تسع مرات منها قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝١١٥﴾ [البقرة:١١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٤٧﴾ [البقرة:٢٤٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ۝١٣٠﴾ [النساء:١٣٠].

وقد ذكر المفسرون العديد من معاني هذا الاسم الكريم منها قولهم: الواسع هو: الغني، وقيل: الواسع هو: المحيط بكل شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾، أي أحاط به، وقيل الواسع هو: الجواد الذي يسع عطاؤه كل شيء، وقيل: الواسع هو: واسع الفضل، يوسع على من يشاء من عباده، وقيل: الواسع هو: الذي يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والإفضال، وقيل الواسع هو: واسع الفضل والصفات وعظيمهما، وقيل الواسع هو: العالم، فيرجع معناه إلى صفة، العلم ، أي : أنه يسع علمه كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨](1).

ومن المفسرين من فسر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١١٥] بأنه: واسع الشريعة بالترخيص لهم والتوسعة على عباده في دينهم، لا يضطرهم إلى ما يعجزون عن أدائه(2).

قال الإمام ابن جرير: «ومعنى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والإفضال، وهو عليم بأعمالهم ما يغيب عنه منها شيء ولا يعزب عن علمه بل هو بجميعها عليم»(3).

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٥٣٧، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ١٢٣.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ١٣٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٢٠، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ١٢٣.
(٣) انظر: جامع البيان ٢/ ٥٣٧.

واسم الله (الواسع) يجمع هذه المعاني كلها: ويفيد هذا الاسم: الغنى والملك المطلق والعظمة والسلطان، واتساع المكان، فهو تعالى لا يحصر ولا يتحدد، فيصح أن يتوجه إليه في كل مكان[1]، وهو عند إجرائه على الذات يفيد كمال صفاته الذاتية وهي: الوجود، والحياة، والعلم، والقدرة، والحكمة[2].

ومن أسمائه تعالى (الموسع): وهو اسم من أسماء الله تعالى على وزن (مفعل) وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم مرةً واحدةً بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذاريات:٤٧].

ومعنى اسمه تعالى: (الموسع): أنه تعالى ذو الوسع والسعة، أي: القادر، وقيل الموسع: أي :لأرجاء السماء وأنحائها، أي: أنه لذو سعة، بخلقها وخلق غيرها، لا يضيق عليه شي يريده، وأنه سبحانه: الموسع على عباده بالرزق[3].

(١) انظر: تفسير المراغي ١/ ١٩٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٥١٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٢٩، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٩٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ١٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٠٧.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٣٨، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٥٧، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٣٧٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٥٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٥.

وأسماء الله تعالى: (الواسع والموسع) ثابتة بالكتاب والسنة، والدليل من الكتاب: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام:٨٠].

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذاريات:٤٧].

والدليل من السنة: حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (إنّ أول الناس يقضى يوم القيامة... ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال)[4].

والفرق بين لفظ (الموسع) في حقه تعالى في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذاريات:٤٧].

أي: أنه تعالى ذو الوسع والسعة والقدرة والقوة والملك والغنى المطلق، والموسع لأرجاء السماء وأنحائها، بخلقها وخلق غيرها، لا يضيق عليه شي يريده، وأنه سبحانه الموسع على عباده بالرزق والفضل والنعم.

أما لفظ (الموسع) في حق العبد الوارد في قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًا

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، رقم ١٩٠٥، ٣/ ١٥١٣.

﴿بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة:٢٣٦].

فهي تدل على الغنى والقدرة على الإنفاق النسبي، وذكرت في مقابل المقتر وهو: الفقير الذي يكون في ضيق من وقلة ذات اليد.

ثانيًا: معنى اسمه تعالى ﴿وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾:

إن من أسماء الله تعالى الحسنى: (واسع المغفرة)، فقد جاء هذا الاسم مضافًا إلى المغفرة مرةً واحدةً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم:٣٢].

أي: أن الله تعالى هو الغفور الذي لم يزل يغفر الذنوب، ويتوب عل كل من يتوب، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة)[(١)].

ويكون معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾، أي: رحمته وسعت كل شيء، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها، حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر كقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣][(٢)]، وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف:٥٨].

فقد ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه غفور، أي: كثير المغفرة، وأنه ذو الرحمة يرحم عباده المؤمنين يوم القيامة، ويرحم الخلائق في الدنيا.

وبين في مواضع آخر: أن هذه المغفرة شاملة لجميع الذنوب بمشيئته جل وعلا إلا من مات على الشرك لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء:٤٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء:١١٦].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده، رقم ٣٥٤٠، ٥/ ٥٤٨.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٣٣٨، ٢/ ٧٩٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٣٩، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٢٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٢٩.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة:٧٢].

وقد بين سبحانه أن هذه الرحمة الواسعة، صادرة عن علم شامل للظواهر والبواطن، ثم أكد الله تعالى علمه بالأشياء كلها، بقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢].

أي: إن الله بصير بكم، عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التي ستصدر منكم، حين ابتدأ خلقكم بخلق أبيكم آدم من التراب، واستخرج ذريته من صلبه، وحين صوركم أجنة في أرحام أمهاتكم، وتعهدكم بالنمو والتكوين في أطوار مختلفة. والجنين: هو الولد ما دام في البطن، وفائدة قوله: في بطون أمهاتكم التنبيه على كمال العلم والقدرة، فإن بطن الأم في غاية الظلمة، ومن علم بحال الجنين فيها لا يخفى عليه ما ظهر من حال العباد[(١)].

لكن مع هذه المغفرة الواسعة قد بين في مواضع أخر أنه مع سعة مغفرته، شديد العقاب، كقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الرعد:٦].

وقوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾ [غافر:٣] وقوله تعالى: ﴿۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ٥٠﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]. إلى غير ذلك من الآيات[(٢)].

ثالثًا: سعة رحمة الله تعالى:

ذكر ربنا جل وعلا أنه رحمته وسعت كل شيء.

قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقال سبحانه: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام:١٤٧].

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر:٧].

وقد ذكر المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ أربعة أقوال:

أحدها: أن مخرجه عام ومعناه خاص، وتأويله: ورحمتي وسعت المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، لقوله تعالى: ﴿فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، قاله ابن عباس.

---

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٧/ ١٢١.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٣١٦.

والثاني: أن هذه الرحمة على العموم في الدنيا، والخصوص في الآخرة وتأويلها: ورحمتي وسعت كل شيء في الدنيا، البر والفاجر، وفي الآخرة هي للمتقين خاصةً، قاله الحسن، وقتادة، فعلى هذا، معنى الرحمة في الدنيا للكافر أنه يرزق ويدفع عنه، كقوله في حق قارون: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧].

أي: وسعت كل من يدخل فيها لا تعجز عن من دخل فيها، أو يكون يعني الرحمة التي قسمها بين الخلائق يعطف بها بعضهم على بعض حتى عطف البهيمة على ولدها[1].

والثالث: أن الرحمة: التوبة، فهي على العموم، قاله ابن زيد.

والرابع: أن الرحمة تسع كل الخلق إلا أن أهل الكفر خارجون منها، فلو قدر دخولهم فيها لوسعتهم، قاله ابن الأنباري، قال الزجاج: «وسعت كل شيء في الدنيا، ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ في الآخرة، قال المفسرون: معنى ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾: فسأوجبها، وفي الذين يتقون قولان: أحدهما: أنهم المتقون للشرك، قاله ابن عباس، والثاني: للمعاصي، قاله قتادة»[2].

والآية عظيمة الشمول والعموم، كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]؛ ولما روى سلمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن لله عز وجل مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخر تسعةً وتسعين إلى يوم القيامة)[3]؛ لأنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤][4].

وهذه الآية من العام الذي أريد به الخاص، كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٢٣].

فرحمته وسعت في الدنيا البر والفاجر، وهي يوم القيامة للذين اتقوا خاصةً[5].

(١) انظر: معانى القرآن، الأخفش ١/ ٣٤٠، جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٥٩، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤١٥.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ١٥٨، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٦٧، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٨٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم ٢٧٥٣، ٤/ ٢١٠٨.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤١٥، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٦٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٦١، مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٣٧٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٣٣.
(٥) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤١٥،

والمعنى: إن رحمة الله مع أنها عامةً شاملةً، تسع الوجود كله، وهي على سعتها، وعمومها وشمولها، لا ينالها إلا أهل طاعته الذين آمنوا واتقوا.. ثم إن العصاة في الدنيا لم يحجب الله عنهم نعمه، ولم يحرمهم رزقه، ولم يصبهم في جوارحهم التي يعيشون بها مثل سائر الناس.

وأصحاب النار وهم في النار، هم ممن وسعتهم رحمة الله، إذ هناك عذاب فوق هذا العذاب، وبلاء أكبر من هذا البلاء، وقد وقف الله بهم عند هذا الحد من العذاب الذي هم فيه، وذلك رحمة من رحمته، ولولا ذلك لضاعف لهم هذا العذاب الذي هم أهل له بما ارتكبوا من آثام[١].

ووجه تعقيب صفة عموم العلم بصفة الرحمة أن عموم العلم يقتضي أن لا يغيب عن علمه شيء من أحوال خلقه وحاجتهم إليه، فهو يرحم المحتاجين إلى رحمته ويمهل المعاندين إلى عقاب الآخرة[٢].

رابعًا: سعة علم الله تعالى:

إن علم الله واسع وشامل، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يعلم ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها، وهو بكل شيء عليم، والآيات الدالة على سعة علم الله بكل شيء كثيرة في كتاب الله العزيز، منها قوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:٨٠].

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف:٨٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه:٩٨][٣].

ومما يدل على سعة علم الله تعالى الآيات التي تدل على أن الله بكل شيء عليم: ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٨٢].

وقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾[الأنعام:١٠١].

وكذلك الآيات التي تدل على أن الله عالم بالغيب والشهادة، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾

النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٦٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٦١، مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٣٧٩، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٦٠٩، البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٦٠٤.

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٥/ ٤٩١، ٤٩٣.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ١١٩.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٢٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٢١٢، روح المعاني، الألوسي ٨/ ٥٦٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٣٠١.

[الحشر:٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة:١٠٥][1].

ومما يدل على سعة علم الله الآيات الدالة على إحاطة علم الله بكل شيء، وقد أوضح هذا المعنى في آيات في كتابه العزيز منها قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء:١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾ [النساء:١٢٦].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران:١٢٠].

والتعبير بالإحاطة استعراض لعظمة الله وسعة ملكه، ومقدار سلطانه، الذي يشمل كل شيء، وينفذ إلى كل شيء! ومن كان هذا شأنه، وتلك صفته، فإن من السفه والضلال أن يولّي الإنسان وجهه إلى غيره، أو يعبد معبودا سواه[2].

وإسناد الإحاطة إلى اسم الله تعالى مجاز عقلي، لأن المحيط هو علم الله تعالى فإسناد الإحاطة إلى صاحب العلم مجاز في عدم خفاء شيء من عملهم عن علم الله تعالى، ويلزمه أنه مجازيهم عن عملهم بما يجازي به العليم القدير من اعتدى على حرمه، وتضمن ذلك الوعيد الشديد والتقريع البالغ، وإذ كان تعالى محيطاً بجميع الأقوال والأعمال، فكان ينبغي أن تستر القبائح عنه بعدم ارتكابها[3].

خامسًا: اقتران اسم الله الواسع بأسماء الله الحسنى:

اقترن اسم الله الواسع ببعض أسماء الله الحسنى، وهذا الاقتران يتناسب مع هذا الاسم سياقًا ومعنى وهي:

١ ـ اقتران الواسع بالعليم.

إن اسم الله (الواسع) اقترن في سبع آيات، التي ورد فيها باسمه (العليم)، ومنها قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١١٥].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦١].

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٧٣].

فالله واسع عليم أي: واسع بالعطاء،

---

(١) انظر بحث: مفهوم الأسماء والصفات، سعد ندا، منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة العدد ٤٦ العام ١٤٠٠، ١٤٠١هـ ص ٦١.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٣/ ٩١٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٦١، البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٥٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٣٤.

عليم بالنية، وقيل: واسع القدرة على المجازاة، عليم بمقادير المنفقات وما يرتب عليها من الجزاء[1].

وهو كذلك واسع الإحاطة، وواسع الصفات؛ فهو واسع في علمه، وفي قدرته، وسمعه، وبصره، وغير ذلك من صفاته؛ و﴿عَلِيمٌ﴾ أي: ذو علم؛ وعلمه محيط بكل شيء، وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: «الواسع الصفات والنعوت ومتعلقاتها، بحيث لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، واسع العظمة والسلطان والملك، واسع الفضل والإحسان، عظيم الجود والكرم»[2].

وقد ختم الله تعالى هذه الآيات باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها وهما : الواسع والعليم، فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عطنه، فإن المضاعف واسع العطاء واسع الغنى واسع الفضل ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضي حصولها لكل منفق فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها، ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها، فإن كرمه وفضله لا يناقض حكمته بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه[3].

ولعل هذا يشير إلى: أن الله سبحانه يعطي من فضله الواسع من يشاء عن كمال العلم بمن يستحق هذا العطاء، سواءً أكان هذا العطاء رحمةً، أو مغفرةً، أو ملكاً، أو مالاً، أو علماً، أو أي نوع من أنواع العطاء، وعطاؤه سبحانه - فضلا عن كونه عن كمال العلم- فهو مع كمال الحكمة، وسعة المغفرة[4].

٢. اقتران الواسع بالحكيم.

وجاء اسمه تعالى: (الواسع) مقترنًا باسمه (الحكيم) مرةً واحدةً في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ [النساء: ١٣٠].

إن اقتران اسم الله الواسع بالحكيم ناسب ذلك ذكر السعة؛ لأن اسمه الواسع عام في الغنى والقدرة والعلم وسائر الكمالات، وناسب ذكر وصف الحكمة، وهو وضع الشيء موضع ما يناسب[5].

قال الراغب الأصفهاني: «والواسع: عام في الغنى، والقدرة، والعلم، وعقبه بالحكم، منبهاً أن السعة ما لم يكن معها الحكمة، والعلم، كان إلى الفساد أقرب منها إلى الصلاح»[6].

فقد أخبر الله تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها ويغنيها عنه بأن يعوضه الله

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٦٥٨.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٤٩.
(٣) انظر: طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٣٦٤.
(٤) انظر: المصدر السابق.
(٥) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٩٠.
(٦) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ١٨٦.

من هو خير له منها، ويعوضها عنه بمن هو خير لها منه، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ أي: واسع الفضل، عظيم المن، حكيما، في جميع أفعاله وأقداره وشرعه، وتدبيره وقضاياه في خلقه(1).

٣. إضافة الواسع إلى المغفرة.

جاء اسم الله (الواسع) سبحانه مضافًا إلى المغفرة مرةً واحدةً: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣٢].

في إضافة اسمه سبحانه وتعالى: (الواسع) إلى المغفرة إشارة إلى أن مغفرة الله تعالى كثيرة، حيث يكفر الصغائر باجتناب الكبائر، والكبائر بالتوبة، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ إشارة كذلك إلى أن الكبائر إذا تاب الإنسان منها غفر الله له، وكأنها لم تكن، وإن لم يتب منها فهو تحت المشيئة: إن شاء غفر الله له، وإن شاء عاقبه بما يستحق، ويكون معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾، أي: رحمته وسعت كل شيء ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها، كقوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

وفي الآية امتنان من الله تعالى على المذنبين بسعة مغفرته لكل الذنوب، فكأن السامعين لما سمعوا ذلك الامتنان شكروا الله وهجس في نفوسهم خاطر البحث عن سبب هذه الرحمة بهم فأجيبوا بأن ربهم أعلم بحالهم من أنفسهم فهو يدبر لهم ما لا يخطر ببالهم(2).

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٥٧٧، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٠١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٨٢.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ١٢٤.

السعة نعمة إلهية

إن السعة نعمة من نعم الله تعالى التي ينعم بها على من يشاء من خلقه، ويمنعها على من يشاء من خلقه، وتجري على نعمة السعة كل الأحكام الشرعية المقررة على النعم، من واجب الشكر عليها وبذلها لمن هو محتاج إليها، وذلك في النقاط الآتية:

أولًا: السعة في المال:

إن السعة في المال نعمة إلهية يمنحها الله تعالى لمن يشاء، ويمنعها عمن يشاء.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦﴾ [الرعد:٢٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٣٠﴾ [الإسراء:٣٠].

وقال جل شأنه: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ [سبأ:٣٦].

فالله سبحانه وتعالى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر على من يشاء، أي: بحسب ماله في ذلك من الحكمة يبسط على هذا من المال كثيراً، فيبسط لهذا في رزقه، ويضيق ويقتر على هذا في رزقه، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره، كما قال تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾ [الإسراء:٢١].

أي: كما هم متفاوتون في الدنيا فهذا فقير، وهذا غني موسع عليه، فكذلك هم في الآخرة هذا في الغرفات في أعلى الدرجات، وهذا في الغمرات في أسفل الدركات، ومع هذا التفضيل بين الناس في الدنيا والآخرة، يكون أطيب الناس في الدنيا من أسلم ورزق كفافًا[1]، كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم: **(قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه)**[2].

وهذا التفضيل في الرزق هو مقتضى خبرة الله بعباده: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا﴾: أي: إن ربك ذو خبرة بعباده، ومن الذي تصلحه السعة في الرزق وتفسده؛ ومن الذي يصلحه الإقتار والضيق، ﴿بَصِيرٗا﴾: أي: هو ذو بصر بتدبيرهم وسياستهم[3].

وليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه، فإن الله يعطي ويمنع ويضيق

(١) الكفاف لغة هو: ما كف عن الناس وأغنى، واصطلاحًا هو: ما يكون بقدر الحاجة ولا يفضل منه شيء، ويكف عن السؤال.
انظر: لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٣٠٦، تاج العروس، الزبيدي ٢٤/ ٣٢٣، التعريفات، الجرجاني ص ١٨٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب في الكفاف والقناعة، رقم ١٠٥٤، ٢/ ٧٣٠.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٣٥.

ويوسع ويخفض ويرفع، وله الحكمة التامة والحجة البالغة، وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود رضي الله عنه (**إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب**)[1].

فقد أوسع الله على قارون بالمال الكثير مع كفره وعصيانه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص:٧٦].

كما أن العادة في نظر الناس القاصر أن السعة في المال من أسباب الملك والسلطان في الأرض، وهذا ما صوره القرآن بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة:٢٤٧].

قال الإمام الزمخشري: «والمعنى: كيف يتملك علينا والحال أنه لا يستحق التملك لوجود من هو أحق بالملك، وأنه فقير ولا بد للملك من مال يعتضد به، وإنما قالوا ذلك؛ لأن النبوة كانت في سبط لاوى بن يعقوب، والملك في سبط يهوذا ولم يكن طالوت من أحد السبطين، ولأنه كان رجلاً سقاءً أو دباغاً فقيراً، وروى أن نبيهم دعا الله تعالى حين طلبوا منه ملكاً، فأتى بعصا يقاس بها من يملك عليهم، فلم يساوها إلا طالوت: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ يريد أن الله هو الذي اختاره عليكم، وهو أعلم بالمصالح منكم ولا اعتراض على حكم الله، ثم ذكر مصلحتين أنفع مما ذكروا من النسب والمال وهما: العلم المبسوط والجسامة»[2].

وكان بنو إسرائيل اعتقدوا أن الملك يستحق بالوراثة وكثرة المال، وكان فيهم أسباط ملوك، فلما أنبأهم نبيهم أن الله بعث لهم طالوت ملكاً، ولم يكن من بيت الملك، ولا كان ذا مال، استعظموا، فراجعوه وقالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾[3]، فرد الله تعالى عليهم بأنه: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ يريد: أن الملك ليس بالوراثة، وإنما هو بإيتاء الله تعالى واختياره، والله واسع أي: واسع الرزق والفضل، والرحمة

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٣٦٧٢، ٦/ ١٨٩.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٢٧١٤، ٦/ ٤٨٢.

(٢) الكشاف ١/ ٢٩٢.

(٣) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٥٠٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٠٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٩١.

وسعت رحمته كل شيء، وهذا كما يقال: فلان كبير عظيم[1].

وهكذا في كل زمان يظن الجهال أن أحق الناس بالزعامة والقيادة أصحاب النفوذ والثروة، كما زعم بنو إسرائيل بقولهم: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾، مع أن الأجدر بالقيادة أهل العلم والخبرة والمقدرة الشخصية والخلق الكريم كما تدل على ذلك الآية الكريمة[2].

ثانيًا: السعة في العلم:

جعل الله تعالى السعة في العلم من نعمه على عباده التي يمن بها على من يشاء، كما ذكر الله تعالى ذلك في شأن العبد الصالح: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة:٢٤٧][3].

والبسطة: الزيادة في كل شيء، من بسط الشيء بسطاً إذا نشره ووسعه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ [البقرة:٢٤٥].

وقال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى:٢٧]

أي: لو وسعه عليهم لبغوا، قال المفسرون إن المراد بالعلم في الآية: هو العلم بالحروب، والظاهر علم الديانات والشرائع[4].

والمعنى: زاده بسطةً في العلم بالحرب، والجسم بالطول، وكان يفوق الناس برأسه ومنكبيه، وإنما سمي طالوت لطوله[5]، أي: أعطاه من العلم، وقال بعضهم: بسطته في العلم هو أن انتفع هو به ونفع غيره فصار له به بسطة أي: جود[6]، وبسط له في الجسم قدراً يزيد على ما أعطى أهل زمانه[7].

قال الإمام الرازي: «وقدم العلم على الجسم ولا شك أن المقصود من سائر النعم سعادة البدن، فسعادة البدن أشرف من السعادة المالية فإذا كانت السعادة العلمية راجحةً على السعادة الجسمانية فأولى أن تكون راجحةً على السعادة المالية»[8].

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٢٨، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣٥٧.

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٤٣٤.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣٥٧، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٢٥٠، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٥٠٧.

(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٨٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٢١٨، البحر المحيط ٢/ ٥٧٥.

(٥) انظر: المصادر السابقة.

(٦) انظر: الموسوعة القرآنية، الخطيب ٨/ ٥٢.

(٧) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٨٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٢١٨.

(٨) انظر: مفاتيح الغيب ٢/ ٤١٨.

والعلم الواسع هو: ما أورث الخشية من الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

يعني بالعلماء: الذين يخافونه، وقد ذكر المفسرون أقوالا عن السلف بهذا المعنى منها ما قاله الربيع بن أنس: «من لم يخش الله فليس بعالم، قال ابن مسعود: المتقون سادة، والعلماء قادة[١]، وقال مقاتل: أشد الناس لله خشيةً أعلمهم به، وقال مسروق: كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار بالله جهلاً، وقال مجاهد والشعبي: العالم من خاف الله تعالى، وروى عكرمة، عن ابن عباس، قال: من خشي الله فهو عالم. وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله فليس بعالم»[٢].

وقال الإمام ابن كثير: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر»...... ثم قال أيضا: «والعلم الذي فرض الله عز وجل أن يتبع، فإنما هو الكتاب والسنة وما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم من أئمة المسلمين، فهذا، لا يدرك إلا بالرواية»[٣].

ثالثًا: السعة في الخلق:

بين الله تعالى في كتابه الكريم أن الزيادة في خلق المخلوقات من نعمه تعالى التي يمن بها على من يشاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [فاطر:١].

وذلك زيادته تبارك وتعالى في خلق هذا الملك من الأجنحة على الآخر ما يشاء، ونقصانه عن الآخر ما أحب، وكذلك ذلك في جميع خلقه يزيد ما يشاء في خلق ما شاء منه، وينقص ما شاء من خلق ما شاء، له الخلق والأمر وله القدرة والسلطان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول: إن الله تعالى قدير على زيادة ما شاء من ذلك فيما شاء، ونقصان ما شاء منه ممن شاء، وغير ذلك من الأشياء كلها، لا يمتنع عليه فعل شيء أراده سبحانه وتعالى[٤].

قال الإمام الماوردي: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ : «فيه ثلاثة تأويلات: أحدها:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٣١٣، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٥٧٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٥٠.
(٢) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٧١، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٠٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٤٨٢.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٣٦.

أنه حسن الصوت، قاله الزهري وابن جريج، الثاني: أنه الشعر الجعد، حكاه النقاش، الثالث: يزيد في أجنحة الملائكة ما يشاء، قاله الحسن، ويحتمل رابعاً: أنه العقل والتمييز، ويحتمل خامساً: أنه العلوم والصنائع، ويكون معناه على هذين التأويلين: كما يزيد في الخلق ما يشاء كذلك يزيد في أجنحة الملائكة ما يشاء»[(١)].

وقال قتادة: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ هي: الملاحة في العينين، والحسن في الأنف، والحلاوة في الفم، وقيل: الخط الحسن[(٢)].

وقد ذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد من قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ أي: في خلق الملائكة، فقد جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام ليلة أسري به، وله ستمائة جناح[(٣)].

ولهذا قال سبحانه ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ أي يزيد في خلق الأجنحة وغيره ما يشاء مما تقتضيه حكمته لأن الله على كل شيء قدير[(٤)].

ومن المفسرين من عمم المعنى، وقال إن المراد بـ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾: الوجه الحسن، ومنهم من قال: الصوت الحسن، ومنهم من قال: كل وصف محمود، وهو الأولى، أي: يزيد بعض مخلوقاته على بعض، في صفة خلقها، وفي القوة، وفي الحسن، وفي زيادة الأعضاء المعهودة، وفي حسن الأصوات، ولذة النغمات[(٥)].

قال الإمام الزمخشري: «والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق، من طول قامة، واعتدال صورة، وتمام في الأعضاء، وقوة في البطش، وحصافة في العقل، وجزالة في الرأي، وجرأة في القلب، وسماحة في النفس، وذلاقة في اللسان، ولباقة في التكلم، وحسن تأت في مزاولة الأمور، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به وصف، ثم ختم سبحانه- الآية الكريمة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: إن الله تعالى لا يعجزه شيء يريده، لأنه قدير على فعل كل شيء، فالجملة الكريمة تعليل لما قبلها من كونه-

(١) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٦٢.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٩٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٢٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٢٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، آمين فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم ٣٢٣٢، ٤/ ١١٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، رقم ١٧٤، ١/ ١٥٨، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٢٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٢٩.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٥، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٢، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٢٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٢٩.

سبحانه- يزيد في الخلق ما يشاء، وينقص منه ما يشاء»[1].

ورأي الأمام الزمخشري هو المختار في تفيسر الآية؛ لأن الأقوال والتفسيرات قبله هو تفسير بالمثال.

والزيادة في الخلق قد تكون لأقوام وأجيال بعينها كما ذكر عن عاد قوم هود عليه السلام: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف:٦٩].

يذكر الله تعالى عاد قوم هود النعمة التي أنعم الله بها عليهم، يقول: اذكروا أن الله أهلك قوم نوح واستخلفكم بعدهم ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف:٦٩].

أي: فضيلة في الطول والأجسام، قال ابن عباس: « يريد : أنكم أجسم وأتم من آبائكم الذين ولدوكم بأن زاد في أجسامكم طولاً وعظماً على أجسام قوم نوح، وفي قواكم على قواهم، نعمةً منه بذلك عليكم، فاذكروا نعمه وفضله الذي فضلكم به عليهم في أجسامكم وقواكم، واشكروا الله على ذلك بإخلاص العبادة له، وترك الإشراك به، وهجر الأوثان والأنداد لعلكم تفلحون، فتدركوا الخلود والبقاء في النعم في الآخرة، وتنجحوا في طلباتكم عنده»[2].

قال محمد رشيد رضا: «أي: واذكروا فضل الله عليكم ونعمه إذ جعلكم خلفاء الأرض من بعد قوم نوح، وزادكم في المخلوقات بسطةً وسعةً في الملك والحضارة، أو زادكم بسطةً في خلق أبدانكم؛ إذ كانوا طوال الأجسام أقوياء الأبدان، وقد نص القرآن على قوتهم وجبروتهم وهذه الآيات هي قوله تعالى عن عاد قوم هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود:٥٢].

وقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾ [الشعراء:١٢٨-١٣١].

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت:١٥]»[3].

وقد تكون الزيادة في الخلق والبسط في الجسم في شخص واحد كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ

(١) الكشاف ٣/ ٥٩٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٥، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٢.

(٣) المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٤٤٣.

﴿عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة:٢٤٧].

رابعًا: السعة في الذرية:

إن السعة في الذرية من نعمة الله تعالى الواسعة على عباده يهبها لمن يشاء، ويمنع الذرية عمن يشاء، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

والذرية أصلها: الصغار من الأولاد، وإن كان قد يقع على الصغار والكبار معاً في التعارف، ويستعمل للواحد والجمع، وأصله الجمع.

قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران:٣٤].

وقال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء:٣].

وقال سبحانه: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾ [يس:٤١][1].

وقد بين الله تعالى أنه بسط ذرية آدم، ومن حمل مع نوح، ومن ذرية إبراهيم وجعل فيها النبوة.

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم:٥٨].

وقد ذكر الله تعالى أنه بسط ذرية من حمل مع نوح حتى جاء منهم موسى وهارون عليهم السلام من بني إسرائيل في قوله عز وجل: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء:٣].

يعني موسى وقومه من بني إسرائيل ذرية من حملهم الله تعالى مع نوح في السفينة وقت الطوفان[2].

ويلاحظ من خلال هذه الآية أن من أسباب البسط في الذرية العبادة والشكر حيث علل سبحانه وتعالى بقاء ذرية نوح بكونه عبدًا شكورًا.

كما بين الله تعالى أنه جعل ذرية نوح هم الباقين بعد أن أهلك قومه الكافرين: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات:٧٧].

والمعنى: وجعلنا ذرية نوح هم الذين بقوا في الأرض بعد مهلك قومه، وذلك أن الناس كلهم من بعد مهلك نوح إلى اليوم

---

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٢٧.

(٢) النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٢٨، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٣٠١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٢٦.

إنما هم ذرية نوح، فالعجم والعرب أولاد سام بن نوح[1].

وجعل الله تعالى في ذرية نوح وإبراهيم النبوة والكتاب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحديد:٢٦].

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام:٨٤-٩٠][2].

فأما نوح عليه السلام: فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به، وهم الذين صحبوه في السفينة، جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته، وأما الخليل إبراهيم عليه السلام: فلم يبعث الله عز وجل بعده نبياً، إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت:٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد:٢٦].

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم:٥٨].

---

(١) منها: ما أخرجه أحمد في مسنده رقم ٢٠٠٩٣، ٣/ ٢٩٢، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب ومن سورة الصافات، رقم ٣٢٣٠، ٥/ ٣٦٥، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات:٧٧] قال: «حام، وسام، ويافث» بالثاء. يقال: يافت، ويافث بالتاء والثاء «وفي رواية: «سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش» ويقال: يافث ويافت ويفث».
قال الترمذي: حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث سعيد بن بشير.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ٨/ ١٦٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٠٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٦٦.

ويخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً عليه السلام لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته ، وكذلك إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشر من بعده إلا وهو من سلالته، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت:٢٧] حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى بن مريم الذي بشر من بعده بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما، ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾[الحديد:٢٧].

وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه - وهم الحواريون- رأفة ، أي : رقة ، وهي الخشية ورحمة بالخلق(١) .

وقد بسط الله في ذريات أمم وشعوب وأقوام نعمةً منه بعد إن كانوا قلةً، قال تعالى في قوم شعيب عليه السلام :﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦].

والآية تدل على أن نبي الله شعيباً عليه السلام ذكرهم بنعمة الله عندهم بأن كثر جماعتهم بعد أن كانوا قليلًا عددهم، وأن رفعهم من الذلة والقلة، يقول لهم: فاشكروا الله الذي أنعم عليكم بذلك، وأخلصوا له العبادة، واتقوا عقوبته بالطاعة، واحذروا نقمته بترك(٢) .

وقد يبسط الله في ذرية شخص بعينه كما ذكر عن نبيه أيوب عليه السلام كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء:٨٣-٨٤].

قال ابن عباس:«لما دعا أيوب استجاب الله له، وأبدله بكل شيء ذهب له ضعفين، رد إليه أهله ومثلهم معهم»(٣) .

وقال الإمام الماوردي في تفسير قوله عز وجل: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ «ففي هبتهم له ومثلهم معهم خمسة أقاويل: أحدها: أن الله تعالى رد عليه أهله وولده ومواشيه بأعيانهم، لأنه تعالى أماتهم قبل آجالهم ابتلاء ووهب له من أولادهم مثلهم، قاله الحسن.

الثاني: أن الله سبحانه ردهم عليه بأعيانهم ووهب له مثلهم من غيرهم قاله ابن عباس.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٦٠ .

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٦٠، النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢٣٩، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨٧، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٠٨ .

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٠٦ .

الثالث: أنه رد عليه ثوابهم في الجنة ووهب له مثلهم في الدنيا، قاله السدي.

الرابع: أنه رد عليه أهله في الجنة، وأصاب امرأته فجاءته بمثلهم في الدنيا»[1].

أنواع السعة

يمكن تقسيم السعة إلى سعة في الحال، وسعة في المكان.

وبيانها في النقاط الآتية:

أولًا: السّعة في الحال:

إن المراد من السعة في الحال هو حال الشخص في قدرته على الإنفاق الواجب والمندوب، مع مراعاة يساره وفقره، فلكل حالة أحكامها، ويتضح هذا في الفقرتين الآتيتين:

١. السّعة في الإنفاق على المطلقات.

اعتبر القرآن الكريم السّعة في الإنفاق على المطلقات وهي: الاستطاعة والقدرة في الإنفاق، وذلك بأن تكون النفقة بقدر حالة الطرفين بالنسبة لليسار والإعسار وأمثالهما، بحيث يكون ذلك بلا ضرر فيه ولا إضرار ، وذلك في الأمور الآتية:

أولًا: نفقة الرضاع.

قال تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة:٢٣٣].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ١٠٢.

قال أبو جعفر الطبري: «لا تحمل نفس من الأمور إلا ما لا يضيق عليها، ولا يتعذر عليها وجوده إذا أرادت، وإنما عنى الله تعالى ذكره بذلك: لا يوجب الله على الرجال من نفقة من أرضع أولادهم من نسائهم البائنات منهم، إلا ما أطاقوه ووجدوا إليه السبيل، كما قال تعالى ذكره: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق:٧]»[1].

والمعنى: أي: على والد الطفل نفقة أمه المطلقة مدة الإرضاع، أي: طعامهن ولباسهن بالمعروف، وهو قدر الميسرة كما فسره قوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾، يعني: طاقتها، ومن كان رزقه بمقدار القوت فلينفق على مقدار ذلك، ونظيره: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة:٢٣٦].

وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾أي: ما أعطاها من الرزق، فلا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني، وقوله: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي: بعد ضيق وشدة غنى وسعة ورخاء، وكان الغالب في ذلك الوقت الفقر والفاقة، فأعلمهم الله تعالى أن يجعل بعد عسر يسراً وهذا كالبشارة لهم بمطلوبهم[2].

ثم نهى تعالى عن المضارة بكل أنواعها وأشكالها وممن صدرت: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٢٣٣] بأن يكلف أن يعطيها أكثر من أجر مثلها أو خارجاً عن وسعه وطاقته واعتبار الوسع في النفقة مبني على العرف والعادة[3].

فلا يكلف أبو الولد في الإنفاق عليه وعلى أمه إلا قدر ما تتسع به مقدرته، ولا يبلغ إسراف القدرة لا تضار والدة بولدها، أي: يأخذ ولدها منها بعد رضاها بإرضاعه ورغبتها في إمساكه وشدة محبتها له ولا مولود له، يعني الأب بولده، بطرح الولد عليه يعني: لا تلقي المرأة الولد إلى أبيه وقد ألفها، تضاره بذلك[4].

ولهذا قال سبحانه: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٢٣٣] أي: لا يحل أن تضار الوالدة بسبب ولدها، إما أن تمنع من إرضاعه، أو لا تعطى ما يجب لها من النفقة،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٥.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٥٦٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ١٧٠،

البحر المحيط، أبو حيان ١٠/ ١٩٩.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣١١، لباب التأويل، الخازن١/ ١٦٦، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٥٠١.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٣١٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٣٢، محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ١٥٤، التفسير المنير، الزحيلي ٢/ ٣٦٠.

والكسوة أو الأجرة، ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ بأن تمتنع من إرضاعه على وجه المضارة له، أو تطلب زيادةً عن الواجب، ونحو ذلك من أنواع الضرر[1].

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أي: أن عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، وهو قول الجمهور وقيل: في عدم الضرار لقريبه، قاله مجاهد والشعبي والضحاك[2].

كما يعتبر الشرع الحكيم الحال سعةً ويساراً وإعساراً وفقراً في الإنفاق على الأقارب الواجب الإنفاق أو المندوب من غير المذكورين في الآيات كالوالدين والأولاد: فقد استدل بالآية من ذهب من الحنفية والحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف، ويرجح ذلك بحديث الحسن عن سمرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من ملك ذا رحم محرم، عتق عليه)[3].

ثانيًا: نفقة السكنى.

قال تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق:٦-٧].

أي: اسكنوا مطلقات نسائكم من الموضع الذي سكنتم ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾: يقول: من سعتكم وعلى قدر طاقتكم التي تجدون؛ وإنما أمر الرجال أن يعطوهن مسكناً يسكنه مما يجدونه، حتى يقضين عددهن[4].

والوجد هو: المقدرة ويكون المعنى: اسكنوا مطلقات نسائكم من الموضع الذي سكنتم ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ يقول: من سعتكم التي تجدون، حتى يقضين عددهن[5].

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق:٦].

نهى الله تعالى عن مضارتهن، بالتضييق

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٤.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٣١٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٣٢، محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ١٥٤.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العتق باب فيمن ملك ذا رحم محرم، رقم ٣٩٤٩، ٤/ ٢٦، والترمذي في سننه، أبواب الأحكام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب ما جاء فيمن ملك ذا رحم محرم، رقم ١٣٦٥، ٣/ ٦٣٨.
وصححه الألباني في الإرواء، رقم ١٧٤٦، ٦/ ١٦٩.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٥٦، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ١٨٧، الكشف والبيان، الثعلبي ١/ ٢٦٣.

(٥) انظر: معاني القرآن، الأخفش ٢/ ٥٤٤، جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٥٦.

عليهن في المسكن والنفقة، ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٦].

لأن عدتها تكون بوضع الحمل، فلها النفقة إلى أن تضع حملها، وإن كانت مطلقةً ثانيةً أو ثالثةً، فإنها تستحق النفقة إذا كانت حاملاً، ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق:٦]. يعني: حق الرضاع وأجرته بالتراضي[(١)].

ثالثًا: متعة الطلاق.

قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٢٣٦﴾ [البقرة:٢٣٦].

حيث أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها، وقبل الدخول بها، بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها والفرض لها، إن كانت مفوضةً وإن كان في هذا انكسار لقلبها، ولهذا أمر تعالى بإمتاعها وهو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله، على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره[(٢)].

قال الإمام ابن عاشور: «والمتعة هي: عطية يعطيها الزوج للمرأة إذا طلقها»[(٣)]، «وأصل المتعة والمتاع: ما ينتفع به الإنسان من مال أو كسوة أو غير ذلك، ثم أطلقت المتعة على ما يعطيه الرجل للمرأة من مال أو غيره عند طلاقها منه لتنتفع به، جبراً لخاطرها، وتعويضاً لما نالها بسبب هذا الفراق»[(٤)].

والموسع هو: الغنى الذي يكون في سعة من غناه. يقال: أوسع الرجل إذ كثر ماله، واتسعت حاله، والمقتر هو: الفقير الذي يكون في ضيق من فقره. أقتر الرجل أى: افتقر وقل ما في يده[(٥)].

وقد اختلف العلماء: هل تجب المتعة لكل مطلقة أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التي لم يفرض لها، والراجح من تلك الأقوال: إن المتعة حق للمطلقة سواءً سمى لها الزوج الصداق أم لم يسم، وقد جعل الله التمتيع جبرًا لخاطر المرأة المنكسر بالطلاق بحكم آية سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٣١٥، النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٣٣، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ١١١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٧٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٨٥.

(٣) التحرير والتنوير ٢/ ٤٦٢.

(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٥٤١. وانظر: تاج العروس، الزبيدي ٢٢/ ١٨٤، المطلع على ألفاظ المقنع، البعلي ص ٣٩٨.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ١٢٠، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٤٨٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٦٢.

﴿جَمِيلًا ٤٩﴾ [الأحزاب:٤٩][1].

«لأن الله أمر بالتمتيع للمطلقة قبل البناء مطلقاً فكان عمومها في الأحوال كعمومها في الذوات، وليست آية البقرة بمعارضة لهذه الآية إذ ليس فيها تقييد بشرط يقتضي تخصيص المتعة بالتي لم يسم لها صداق لأنها نازلة في رفع الحرج عن الطلاق قبل البناء وقبل تسمية الصداق، ثم أمرت بالمتعة لتينك المطلقتين فالجمع بين الآيتين ممكن»[2].

وظاهر هذه الآية وجوب المتعة لكل المطلقات عملاً بظاهر قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ٢٤١﴾ [البقرة:٢٤١].

ولكن قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧].

لم يجعل للتي طلقت قبل الدخول وقد فرض لها مهر إلا نصف ما فرض لها، ولم يجعل لها متعةً، لأن وروده في مقابلة قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ٢٣٦﴾ [البقرة:٢٣٦].

يجعله كالبيان لمفهوم القيد الذي هو عدم الفرض، فيكون كالصريح في أن التي طلقت قبل الدخول ولم يفرض لها مهر ليس لها متعة[3].

٢. السّعة في الإنفاق على الأقارب والمساكين والمجاهدين.

اعتبر القرآن الكريم السّعة في الإنفاق على الأقارب والمساكين والمجاهدين حيث نهى الله تعالى أولي الفضل والسعة، وأولوا الفضل هم: أهل الطول والصدقة والإحسان، والسعة: أي : الجدة أن يحلفوا بأن لا يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٢٢﴾ [النور:٢٢].

أي: لا تحلفوا[4] أن لا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين، وهذا في غاية

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٦٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٦٢.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٧٧، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٨٩.
(٤) معنى تأتلي: تحلف، هو مأخوذ من الألية، والألية اليمين، ومعنى أن يؤتوا: أن لا يؤتوا أولي القربى، والمعنى: ولا يحلف أولو الفضل منكم والسعة أن لا يعطوا أولي القربى والمساكين.
انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٣٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٣٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣١٣، أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٣٦٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩.

الترفق والعطف على صلة الأرحام، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ أي: عما تقدم منهم من الإساءة والأذى؟ وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم، وهذه الآية نزلت في الصديق رضي الله عنه حين حلف أن لا ينفع مسطح ابن أثاثة بنافعة بعد ما قال في عائشة ما قال[1].

ونزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق، وكان حلف أن لا يفضل على مسطح بن أثاثة، وكان ابن خالته بسبب سبه عائشة رضي الله عنها فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة، وكان ابن خالة الصديق، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد تاب الله عليه منها وضرب الحد عليها، وكان الصديق رضي الله عنه معروفاً بالمعروف، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه[2].

وأعاد الإفضال على مسطح وعلى من حلف أن لا يفضل عليه وكفر عن يمينه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، في مقابلة ما كان[3].

ويمكن القول بالقاعدة الأصولية إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وعليه فتعتبر السعة في الإنفاق على الأقارب والمساكين والمجاهدين.

ثانيًا: السّعة في المكان:

أثبت القرآن الكريم سعة المكان الدالة على عظمة الله جل وعلا والغنى المطلق له سبحانه من خلال ما يأتي:

١ . سعة كرسي الله تعالى.

أثبت الله سبحانه وتعالى سعة كرسيه في أعظم آية من كتابه الكريم.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٣٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٣٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣١٣، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٥١٤، أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٣٦٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩، أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٢٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ١٣٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٣٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣١٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً، رقم ٢٦٦١، ٣/ ١٧٣، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم ٢٧٧٠، ٤/ ٢١٢٩.

﴿بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥].

وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ : بمعنى شمل واتسع وأحاط، يعني: أن كرسيه محيط بالسماوات والأرض، وأكبر منها، لأنه لولا أنه أكبر ما وسعها.

وفيها إثبات عظيم قدرة الرب جل وعلا حيث ذكر سعة كرسيه السماوات والأرض وأنه سبحانه: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة:٢٥٥].

أي: لا يكرثه ولا يثقل عليه[(١)].

قال ابن منظور: «الكرسي: معروف واحد الكراسي، والكرسي في اللغة الشيء الذي يعتمد عليه ويجلس عليه، فهذا يدل على أن الكرسي عظيم دونه السماوات والأرض، والكرسي في اللغة والكراسية إنما هو الشيء الذي قد ثبت ولزم بعضه بعضا»[(٢)].

والكرسي ثابت بالكتاب، والسنة، وإجماع جمهور السلف، القول الراجح في معناه هو: إن الكرسي شيء عظيم يضبط السموات والأرض، نسلم به بدون بحث فى تعينه، ولا كشف عن حقيقته، ولا كلام فيه بالرأي دون نص عن المعصوم[(٣)]، إلا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهم بأن الكرسي موضع قدمي الرب عز وجل[(٤)].

وليس هو العرش، بل العرش أكبر من الكرسي وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: **(أن السماوات والسبع والأرضين السبع بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وأن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة)**[(٥)].

وما روي في ذلك عن أبي ذر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض)**[(٦)].

من ذلك وغيره يتبين أن القول الفصل

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٣٩٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٤١، مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢٣٧، تفسير القرآن العظيم ابن كثير ١/ ٥٢٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٣.

(٢) لسان العرب ٦/ ١٩٤.

(٣) تفسير المراغي ٣/ ١٤.

(٤) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب السنة ٥٨٦، وابن أبي شيبة في كتاب العرش ٦١، وابن خزيمة في التوحيد ٢٤٨، والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٨٢ وقال: صحيح عن شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأخرجه الدارقطني في كتاب الصفات ٣٦ عن ابن عباس موقوفا عليه، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٦/ ٣٢٣ للطبراني، وقال: رجاله رجال الصحيح، وقال الألباني في مختصر العلو٤٥: إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات.

(٥) سبق تخريجه قريبًا.

(٦) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٤١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٣.

في هذه المسألة هو: ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من أن الكرسي هو موضع قدمي الرب عز وجل، وبهذا القول جزم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى وغيرهما من أئمة العلم وأهل التحقيق[1].

٢. سعة السموات.

يخبر الله تعالى بأنه بنى السماء بأيد، أي: بقوة وقدرة تتناسب مع عظم هذا المخلوق، وأن السماء في اتساع دائم.

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذاريات:٤٧][2].

وقد ذكر المفسرون في معنى الآية أوجه:

أحدها: لموسعون في الرزق بالمطر، قاله الحسن.

الثاني: لموسعون السماء، قاله ابن زيد.

الثالث: لقادرون على الاتساع بأكثر من اتساع السماء.

الرابع: لموسعون بخلق سماء مثلها، قاله مجاهد.

الخامس: لذو سعة لا يضيق علينا شيء نريده[3].

وفي الآية إشارة إلى امتداد السماء واتساعها، كما يبدو ذلك لأي ناظر ينظر إليها، حيث لا يبلغ الإنسان لها حداً، فحيث كان من عالم الأرض، فإن السماء تظله على امتداد الآفاق حوله، ولعل هذا من بعض ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر:١][4].

وهذه الآية تصف سعة الكون أو أن نظرية تمدد الكون تتوافق مع هذه الآية؟ من الناحية الأولى نرى أن (أينستين) يتخيل سعة هذا الكون بأنه يتسع لبلايين من السدم وكل سديم منها يحتوي على مئات من النجوم المكهربة.

أما نظرية تمدد الكون، فقد لاحظ علماء الفلك في أقصى ما يدركه المنظار علامات تدل على حركة السدم الخارجية حركات نظامية، واستدلوا منها على أن جميع السدم الخارجية أو (الجذر الكونية) تبدو على أنها تتباعد عن مجموعتنا الشمسية بل

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٥/ ٦٠، اجتماع الجيوش الإسلامية، ابن القيم ٢/ ١٥١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/٤٣٨، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ١٨٠، تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٢٦٢، الجامع لحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٥٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٩٥.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ١٨٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٥٧، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٣٧٣، محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٤٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨١١.

(٤) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٧/ ٤١، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ٢٦، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٤/ ٥٣٠.

إنها تتباعد عن بعضها البعض، وعلى هذا الأساس فإن الكون ليس ساكناً إنما يتمدد كما تتمدد فقاعة الصابون أو كما يتمدد البالون ولكن الأجسام المادية هي تحافظ على أحجامها(١).

وقد تقدم عدد من العلماء الكونيين بنظريات تشرح لغز الكون المتمدد، منهم: الدكتور: هابل، رائد الباحثين في السدم فقد لاحظ أن هناك نزعة واحدة تسود هذه المجموعات النجمية الواسعة الشاسعة البعد، وهي أنها أميل إلى الإدبار منها إلى الإقبال كما لاحظ أن سرعة الإدبار تزيد بازدياد أبعاد هذه الجزر الكونية(٢).

قال محمد إسماعيل إبراهيم: «ويقرر العلم الحديث أن ملكوت الله العظيم والممتد بلا نهاية والمتسع باستمرار فيه بلايين النجوم ذات الأقدار المختلفة حجماً ولمعاناً وكل واحد من هذه النجوم يتفجر كما انفجرت شمسنا مكونةً مجموعاتها من الكواكب الدائرة حولها، وبهذه الانفجارات الكثيرة للنجوم يتسع نطاق ملك الله، ثم إن هذه النجوم كانت أجزاء من سدم هائلة هي السحب الكونية التى كانت متصلةً ثم انفصل بعضها عن بعض بسبب هذه الانفجارات التي حدثت بصورة دقيقة ومحكمة وتركت ما تناثر منها في حركة منتظمة بلا خلل ولا تصادم بينها، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾ [الذاريات:٤٧].

والحقائق الثابتة والمشاهدة بأجهزتنا الدقيقة في الصور الفوتغرافية العديدة التي حصلنا عليها تدلنا دلالةً واضحةً على أن جميع ما في الكون الشاسع من حجم الذرة إلى حجم أكبر النجوم لا تتحرك أو تدور أو تسبح في أفلاكها إلا بحكمة فائقة وتقدير متناه في الدقة حيث لا شيء مطلقاً في ملك الله يتحرك حركةً عشوائيةً لانه سبحانه قدر كل شيء تقديراً وأحكمه إحكاماً»(٣).

وتحدثت الآية الكريمة عن حقيقة البناء الكوني في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾ [الذاريات:٤٧].

وقد ثبت يقينًا أن البناء الكوني منظم ومعقد ومحكم، وأن في الكون هندسة مبهرة فالكون يحوي أعمدة، ويحوي جسورًا من المجرات، ويحوي كذلك خيوطًا عظمى كل خيط يتألف من آلاف المجرات ويمتد لمئات البلايين من السنوات الضوئية، فسبحان من أحكم هذا البناء وحدثنا عنه

(١) انظر: معجزات القرآن العلمية، حامد حسين قدير، منشورات مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة الرابعة عشرة، العددان الخامس والخمسون والسادس والخمسون، رجب، ذو الحجة ١٤٠٢هـ ص ١٧٩.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ١٨٠.

(٣) انظر: القرآن وإعجازه العلمي ص ١٧٢.

قبل أن يكتشفه علماء الغرب بقرون طويلة.

وهنا يتفوق القرآن على العلم من جديد، فالعلم يتحدث عن (فضاء)، والقرآن يتحدث عن (بناء)، وكلمة (بناء) هي الكلمة الأنسب علميًا لوصف السماء، فسبحان القائل: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان:٣٣].

والقائل سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر:٢٣].

والقائل: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧].

ويفهم من الآية الكريمة أن هذه الكون يتسع باستمرار من بداية خلقه إلى يومنا هذا، فقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات:٤٧].

وعبر عن هذا الاتساع باسم الفاعل (موسع)، واسم الفاعل يكون في الأزمنة الثلاثة (الماضي والحال والاستقبال) كما يقرر ذلك علماء اللغة العربية، أي : أن هذا الاتساع بدأ في الماضي وهو مستمر في عصر نزول الآية وسيستمر إلى ما شاء الله تعالى، وتوسع الكون حقيقةً لم يتمكن الإنسان من إدراكها إلا في الثلث الأول من القرن العشرين، ودار حولها الجدل حتى سلّم بها أهل العلم أخيراً، وقد سبق القرآن الكريم بإقرارها قبل أربعة عشر قرنًا أو يزيد، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدرًا لتلك الإشارة القرآنية الباهرة غير الله الخالق تبارك وتعالى، فسبحان خالق الكون الذي أبدعه بعلمه وحكمته وقدرته، والذي أنزل لنا في خاتم كتبه، وعلى خاتم أنبيائه ورسله صلى الله عليه وسلم عددًا من حقائق الكون الثابتة، ومنها تمدد الكون وتوسعه فقال عز من قائل: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات:٤٧].

لتبقى هذه الومضة القرآنية الباهرة مع غيرها من الآيات القرآنية، شهادة صدق بأن القرآن الكريم كلام الله، وأن سيدنا ونبينا محمداً صلى الله عليه وسلم كان موصولًا بالوحي، معلمًا من قبل خالق السماوات والأرض، وأن القرآن الكريم هو معجزته الخالدة إلى قيام الساعة[1].

٣. سعة الأرض.

أخبر الله تعالى أن أرضه واسعةً للمهاجرين في سبيله ، والذين قد يظنون أن في الهجرة بعد عن الأوطان وربما يحصل ضيق في العيش.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

(١) انظر بحث: الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، عادل الصعدي، منشور في موقع جامعة الإيمان اليمنية.

[النساء: ١٠٠].

قال الإمام الماوردي: «في المراغم خمسة تأويلات:

أحدها: أنه المتحول من أرض إلى أرض، وهذا قول ابن عباس والضحاك.

والثاني: مطلب المعيشة، وهو قول السدي.

والثالث: أن المراغم المهاجر، وهو قول ابن زيد.

والرابع: يعني بالمراغم مندوحة عما يكره.

والخامس: أن يجد ما يرغمهم به، لأن كل من شخص عن قومه رغبةً عنهم فقد أرغمهم، وهذا قول بعض البصريين، وأصل ذلك الرغم وهو الذل. والرغام: التراب لأنه ذليل، والرغام بضم الراء ما يسيل من الأنف.

والظاهر: أنه المنع الذي يتحصن به ويراغم به الأعداء . قوله ﴿وَسَعَةً﴾ يعني: الرزق، قاله غير واحد منهم قتادة حيث قال: في قوله : ﴿يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ أي : من الضلالة إلى الهدى، ومن القلة إلى الغنى[١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَسَعَةً﴾ ثلاث تأويلات:

أحدها: سعة في الرزق، وهو قول ابن عباس.

والثاني: يعني من الضلالة إلى الهدى ومن العيلة إلى الغنى، وهو قول قتادة.

والثالث: سعة في إظهار الدين»[٢].

وقد بين الله تعالى ظلم من لم يهاجر من أرض الشرك إلى أرض الإسلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: ٩٧].

والآية توجب المهاجرة إلى المدينة مع المسلمين، وذلك أن الله تعالى لم يرض بإسلام أهل مكة حتى يهاجروا، روى البخاري قال: حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا حيوة، وغيره، قالا: حدثنا محمد بن عبد الرحمن أبو الأسود، قال: قطع على أهل المدينة بعث، فاكتتبت فيه، فلقيت عكرمة، مولى ابن عباس فأخبرته، فنهاني عن ذلك أشد النهي، ثم قال: أخبرني ابن عباس: «أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين، على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، يأتي السهم فيرمى به فيصيب أحدهم، فيقتله - أو يضرب فيقتل» فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٤٥

(٢) النكت والعيون ١/ ٥٢٢.
وانظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٤٧٠ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٤٧.

﴿الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء:٩٧][1].

وذلك أنهم خرجوا مع المشركين يكثرون سوادهم فقتلوا معهم[2].

وروى أبو داود عن سمرة بن جندب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله)[3].

واستثنى الله تعالى من هؤلاء: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ۝﴾ [النساء:٩٨-٩٩].

وهذه الآية عذر من الله لهؤلاء في ترك الهجرة، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، قال مجاهد وعكرمة والسدي: يعني طريقًا[4].

والأمر بالهجرة من أرض الشرك والمعاصي عام يشمل جميع المؤمنين.

قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ۝﴾ [العنكبوت:٥٦].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝﴾ [الزمر:١٠].

فقال تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ۝﴾ إن تعذرت العبادة عليكم في بعضها فهاجروا ولا تتركوا عبادتي بحال، وبهذا علم أن الجلوس في دار الحرب حرام، والخروج منها واجب[5].

وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات، بل من الكبائر[6].

وفي الآيات تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه، وأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب، بل الصواب أن يتلمس عبادة الله في أرضه مع صالحي عباده، أي: إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها فهاجروا إلى المدينة فإنها واسعة، لإظهار التوحيد بها.

قال الزجاج: «أمروا بالهجرة من

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ رقم٤٥٩٦، ٦/ ٤٨

(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ١٠٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٤٣.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد باب في الإقامة بأرض الشرك، رقم ٢٧٨٧، ٣/ ٩٣.

وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦١٨٦، ٢/ ١٠٦٤.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٤٤.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٦٩.

(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٩٦.

الموضع الذي لا يمكنهم فيه عبادة الله، وكذلك يجب على من كان في بلدة يعمل فيها بالمعاصي، ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له أن يعبد الله حق عبادته»[(١)].

وقال ابن جبير وعطاء: «إن الأرض التي فيها الظلم والمنكر تترتب فيها هذه الآية، وتلزم الهجرة عنها إلى بلد حق. وقاله مالك، وقال مجاهد: إن أرضي واسعة فهاجروا وجاهدوا»[(٢)].

وقال سفيان الثوري: «إذا كنت بأرض غالية فانتقل إلى غيرها تملأ فيها جرابك خبزًا بدرهم، وقيل: المعنى: إن أرضي التي هي أرضى الجنة واسعة، فاعبدون حتى أورثكموها فإياي فاعبدون»[(٣)].

ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها، خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك، فوجدوا خير المنزلين هناك: أصحمة النجاشي ملك الحبشة، فآواهم وأيدهم بنصره، وجعلهم آمنين في بلاده، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة الباقون إلى المدينة النبوية المطهرة[(٤)].

وفي بيان سعة الأرض للمؤمنين تطمين لهم في كل وقت وحين بأن أرض الله واسعة للهجرة في كل عصر، وعلى هذه الآيات يستند المؤمنون الذين يضايقون وينكل بهم في بعض بلدان الأرض بسبب عقيدتهم ودينهم بأن لهم متسعًا في الأرض يمكنهم من الفرار بدينهم إلى بلدان أخرى بحيث تكون لهم الحرية الكاملة في ممارسة شعائرهم الدينية والبعد من البلدان التي يضيق عليهم فيها.

موضوعات ذات صلة:

الإسراف، الاقتصاد، الإنفاق، البخل، الرزق، الكسب، المال، اليسر

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٥٥، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٢٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٥٧.

(٣) انظر: المصدر السابق ١٣/ ٣٥٨.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٦٩، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٣٤٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٦٢.



عناصر الموضوع

مفهوم السعي	١٢٨
السعي في الاستعمال القرآني	١٢٩
الألفاظ ذات الصلة	١٣٠
أنواع السعي	١٣١
كتابة السعي والمحاسبة عليه	١٥٠
أسباب السعي	١٥٦
جزاء السعي	١٦٢

مفهوم السعي

أولًا: المعنى اللغوي:

يأتي السعي في اللغة على معان هي:

الأول: المشي، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ [الصافات:١٠٢] يعني: المشي[١].

الثاني: الإسراع في المشي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص:٢٠]. أي: يسرع في مشيه[٢].

الثالث: السعي: الجد، ومنه قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ [سبأ:٥]. أي: اجتهدوا في أن يظهروا لنا عجزاً فيما أنزلناه من الآيات[٣].

الرابع: العمل والتصرف والكسب في أي عمل كان، ومنه قوله تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[طه:١٥]. أي: تكسب[٤]، وأصل السعي التصرف في كل عمل وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم:٣٩].أي: إلا ما عمل[٥].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

السعي اصطلاحًا هو: العمل والفعل، وهذا مروي عن كثير من المفسرين منهم عكرمة ومجاهد، وزيد بن أسلم، وابن شهاب قال مالك: وإنما السعي في كتاب الله عز وجل العمل والفعل[٦].

ويمكن صياغة تعريف للسعي في القرآن بأنه: العمل والفعل الجاد الذي يقوم على النية والقصد سواءً أكان ذلك في الخير أو الشر.

---

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص ٢٧٤، الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٢٥٧، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣٧٦.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤١١.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤١٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٢٢٢.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٣٨٦، تاج العروس، الزبيدي ٣٨/ ٢٨٠، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٤٣١.
(٥) انظر: المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٧٧.
(٦) انظر: معاني القرآن، الفراء ٢/ ٣٨٩، أحكام القرآن، الجهضمي ص ١٩٨.

السعي في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سعى) في القرآن الكريم (٣٠) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٧	﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾[البقرة:٢٠٥]
الفعل المضارع	١٢	﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾[القصص:٢٠]
فعل الأمر	١	﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[الجمعة:٩]
المصدر	١٠	﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾[الصافات:١٠٢]

وجاء السعي في القرآن الكريم على وجهين، وهما[٢]:

الأول: المشي، أو الإسراع في المشي: قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾﴾ [عبس:٨].
يعني: يمشي، أو يسرع.

الثاني: العمل: قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٩]. يعني: وعمل لها عملًا وهو مؤمن، كان عملهم مقبولًا.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٥١.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٥٨، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٣٤٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ العمل:

العمل لغة:

المهنة والفعل، قال ابن فارس: «(عمل) العين والميم واللام أصل واحد صحيح، وهو عام في كل فعل يفعل»(١).

العمل اصطلاحًا:

كل فعل كان بقصد وفكر سواءً كان من أفعال القلوب كالنية أم من أفعال الجوارح كالصلاة(٢).

الصلة بين العمل والسعي:

العمل هو المعنى الرئيس في القرآن للسعي ويقوم على القصد والإرادة.

٢ الشغل:

الشغل لغة:

(شغل) الشين والغين واللام أصل واحد، يدل على خلاف الفراغ، تقول: شغلت فلانًا فأنا شاغله، وهو مشغول، وجمع الشغل أشغال، وقد جاء عنهم: اشتغل فلان بالشيء، وهو مشتغل(٣).

الشغل اصطلاحًا:

لا يختلف معنى الشغل في الاصطلاح عن معناه في اللغة.

وقال الراغب: الشّغل والشّغل: العارض الذي يذهل الإنسان، قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [يس:٥٥](٤).

الصلة بين الشغل والسعي:

يشتركان في العمل الذي ينشغل به الإنسان، فهو سعي وشغل، وقد يكون الشغل بغير عمل، وقد يراد بالسعي غير العمل.

---

(١) مقاييس اللغة ٤/ ١٤٥.
وانظر: لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٤٧٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ١٠١.
(٢) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي ص ٣٢٢.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ١٩٥.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٥٧.

أنواع السعي

أقسم الله تعالى على أن سعي الناس أنواع مختلفة، وذلك في قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾ [الليل:١-٤].

أي : إن عملكم لمختلف أيها الناس؛ لأن منكم الكافر بربه، والعاصي له في أمره ونهيه، والمؤمن به، والمطيع له في أمره ونهيه، ومنكم من سعيه في طلب دنياه، ومنكم من سعيه في شهوات نفسه واتباع هواه، ومنكم من سعيه في طلب جاهه ومناه، وآخر في طلب عقباه(١).

أولًا: السعي الممدوح:

١ . السعي في الطاعات.

إن السعي في الطاعات التي يتقرب بها المسلم إلى الله تعالى من السعي الممدوح الذي يكسب به الساعي رضى الله تعالى، وثناء الناس.

وقد أمر الله تعالى بالسعي إلى الطاعات في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩﴾ [الجمعة:٩].

وفي الآية أمر من الله تعالى للمؤمنين بالسعي إلى صلاة الجمعة عند قعود الإمام على المنبر للخطبة، وأصل السعي في هذا الموضع العمل، والسعي لذكر الله تعالى يتضمن جميع الطاعات، وهذا أولى لأنه أوفق لعموم اللفظ(٢).

ومثله السعي في الحج في جميع المشاعر وبين الصفا والمروة كما في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾ [البقرة:١٥٨](٣).

كما أخبر سبحانه وتعالى أن من يسعى إلى عمل الآخرة أن سعيهم مشكور.

قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾ [الإسراء:١٩].

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٤٦٧، النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٢٨٧، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٥٠٢ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٠٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٣٨٠.

(٢) انظر: معاني القرآن، الأخفش ٢/ ٥٤٢، جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٨٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٣٩، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٣/ ٧٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٨٠، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٦١، النكت والعيون، الماوردي٦/٨، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٢٤١، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٥٥.

﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ٩٤﴾ [الأنبياء:٩٤].

وهذه الآيات مشتملة على الأعمال التي بواسطتها يحصل الفوز بسعادة الآخرة وهي تشمل جميع الطاعات[١].

كذلك يدل على هذا المعنى الآيات التي ذكر فيها عمل الصالحات، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٢٧٧﴾ [البقرة:٢٧٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ١٢٤﴾ [النساء:١٢٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ٩﴾ [الإسراء:٩].

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار)**[٢]، وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله -وأحسبه قال- وكالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر)**[٣].

والمراد بالساعي في الحديث: الكاسب لهما، العامل لمؤنتهما، والأرملة من لا زوج لها سواء كانت تزوجت أم لا ، وقيل هي التي فارقت زوجها، وسميت أرملة لما يحصل لها من الإرمال وهو الفقر وذهاب الزاد بفقد الزوج ، يقال : أرمل الرجل إذا فني زاده، والمسكين الذي لا شيء له[٤].

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: **(كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة)**، وفي رواية **(وأنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا) وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئًا**[٥].

وأما كافل اليتيم فهو: القائم بأموره من

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ١٠١، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٣٢٣، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢٥٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل، رقم ٥٣٥٣، ٧/ ٦٢.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، رقم ٢٩٨٢، ٤/ ٢٢٨٦.

(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ١٠٣، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٣٨٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب اللعان، رقم ٥٣٠٤، ٧/ ٥٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، رقم ٢٩٨٣، ٤/ ٢٢٨٧، عن سهل بن سعد.

نفقة وكسوة وتأديب وتربية وغير ذلك وهذه الفضيلة تحصل لمن كفله من مال نفسه أو من مال اليتيم بولاية شرعية[1].

٢. السعي في نصرة الحق وأهله.

إن السعي في نصرة الحق وأهله من السعي الممدوح فاعله.

قال تعالى عن العبد الصالح الذي نصر الحق ودافع عن المرسلين: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس:٢٠][2].

فقد جاء هذا الرجل من أقصى المدينة، وفي ذلك بلاغة باهرة؛ لأن ذلك يدل على أنه تحمل المشقة والبعد من أجل نصرة الحق وأهله، والمدينة هي أنطاكية، وهي كانت كبيرةً شاسعةً، قائلا لهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي: اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل وأوضحوا لكم السبيل[3]، حتى وإن ضحى الساعي في نصرة الحق بنفسه فقد جاء قتادة في قوله: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ قال: بلغني أنه رجل كان يعبد الله في غار واسمه حبيب فسمع بهؤلاء النفرالذين أرسلهم عيسى إلى أهل انطاكية فجاءهم فقال: تسألون أجراً فقالوا: لا ، فقال لقومه ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ حتى بلغ ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ قال: فرجموه بالحجارة فجعل يقول: رب اهد قومي فإنهم لا يعلمون ﴿بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى﴾ حتى بلغ ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ قال: فما نوظروا بعد قتلهم إياه حتى أخذتهم ﴿صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾[4].

وكذلك ذكر القرآن الكريم مؤمن آل فرعون حين نصر الحق.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر:٢٨].

فقد كتم هذا الرجل الإيمان من أجل الدعوة والدفاع عنها، وفي مرحلة الضعف خوفا على النفس، مما أباحه الشرع، وقد ذكر الله تعالى في معرض المدح رجلاً مؤمناً من آل فرعون كان يكتم إيمانه[5]، وأظهر الرجل إيمانه حين رأى أن ذلك من مصلحة

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٨/ ١١٢، شرح صحيح البخارى، ابن بطال ٩/ ٢١٨.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٢٢/ ١٥٣، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ١٠٠.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٦٢.
(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٤، الدر المنثور، السيوطي ٧/ ٥١.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٧٥.

الدعوة، ومواجهة خطر فرعون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر:٢٦].

فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل وقام بواجبه بالجهاد بالكلمة عند سلطان جائر والتي هي أفضل الجهاد، كما قال صلى الله عليه وسلم: (**أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر**)[(١)].

ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون، وهي قوله تعالى: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر:٢٨] أي: لأجل أن يقول ربي الله[(٢)].

واختلف المفسرون أيضًا: هل كان إسرائيلياً أو قبطياً من آل فرعون؟ والتحقيق

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأوامر والنواهي، رقم ٤٣٤٤، ٤/ ١٢٤، والترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، رقم ٢١٧٤، ٤/ ٤٧١، والنسائي في سننه، كتاب البيعة، فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر، رقم ٤٢٠٩، ٧/ ١٦١.
قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٤٠.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٥٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣٠٦، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٢/ ١٢٢٦، أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٣٨٤.

أن الرجل المؤمن المذكور في هذه الآية هو من جماعة فرعون، كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾[(٣)]، دون أن يذكر القرآن اسمه، وإنما أشار إلى خاصته، وذوي قرابته، فهو إنسان ذو شأن في المجتمع الفرعوني، ومع هذا لم يكشف القرآن عن اسمه.

ويكون السعي في نصرة الحق وأهله بكل الوسائل الممكنة بالقول والبيان كما في هذه الآيات السابقات، أومن خلال الجهاد الشرعي المضبوط بضوابطه الفقهية المعروفة عند الفقهاء.

قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال:٥-٨].

٣. السعي في طلب العلم.

إن السعي في طلب العلم من أفضل الأعمال التي توازي الجهاد في سبيل الله

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٥٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٣٠٦، أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٣٨٤.

تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة:١٢٢].

أي: فهلا خرج إلى الغزو من كل قبيلة جماعة ويبقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة، ليتفقهوا في الدين، يعني: فرقة القاعدين يتعلمون القرآن والسنن والفرائض والأحكام، فإذا رجعت السرايا أخبروهم بما أنزل الله بعدهم على نبيه من القرآن[١].

وقد عاتب الله تعالى نبيه الكريم في الإعراض عن الذين يسعون في طلب العلم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾﴾ [عبس:٨] أي: لطلب العلم، ويخشى الله فأنت عنه تتلهى، وتتشاغل... وهذا كله من قبيل العتاب للنبي صلى الله عليه وسلم[٢].

وقد بين الله تعالى أنه اصطفى من عباده من يحمل الكتاب وهم: علماء الأمة من الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم، أو الأمة بأسرهم، فإن الله اصطفاهم على سائر الأمم فمنهم ظالم لنفسه بالتقصير في العمل به، ومنهم مقتصد يعمل به في غالب الأوقات، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله بضم التعليم والإرشاد إلى العمل، وقيل الظالم الجاهل والمقتصد المتعلم والسابق العالم، وقيل الظالم المجرم والمقتصد الذي خلط الصالح بالسيء والسابق الذي ترجحت حسناته بحيث صارت سيئاته مكفرة.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر:٣٢][٣].

وروى الترمذي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من سلك طريقا يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر)[٤].

---

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٤٠٣.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٢١٥، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٦٣، تفسير المراغي ٣٠/ ٤١، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٢٨٤.
(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٥٩.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، ٣٦٤١، ٣/ ٣١٧، والترمذي في سننه، أبواب العلم عن رسول

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه)[1].

ومعنى الحديث: من سلك طريقا: حسية أو معنوية، ونكره ليتناول أنواع الطريق الموصلة إلى تحصيل أنواع العلوم الدينية، والمعنى سهل الله له بسبب العلم طريقاً من طرق الجنة ، وذلك لأن العلم إنما يحصل بتعب ونصب، فمن تحمل المشقة في طلبه سهلت له سبل الجنة سيما إن حصل المطلوب.

قال ابن جماعة: «والأظهر أن المراد أن يجازيه يوم القيامة بأن يسلك به طريقاً لا صعوبة له فيه ولا هول إلى أن يدخله الجنة سالمًا، فأبان أن العلم ساعد السعادة وأس السيادة والمرقاة إلى النجاة في الآخرة والمقوم لأخلاق النفوس الباطنة والظاهرة فهو نعم الدليل والمرشد إلى سواء السبيل، وتقديم الظرفين (فيه - له) للاختصاص؛ لأن تسهيل طريق الجنة خاص بالله وغيره في مقابلته كالعدم ؛ لأنه في حقه غير مفيد، وكذا بالنسبة لسببه فإن غير هذا السبب من أسباب التسهيل كالعدم ؛ لأنه أقوى الأسباب المسهلة وفيه حجة باهرة على شرف العلم وأهله في الدنيا والآخرة لكن الكلام في العلم النافع لأنه الذي يترتب عليه الجزاء المذكور كما تقرر»[2].

وهناك أحاديث نبوية صحيحة عديدة فيها تنويه بالعلم وحثّ عليه وتنويه بالعلماء وفضلهم ومسؤولياتهم، يصح أن يساق في هذا المقام، من ذلك حديث رواه البخاري ومسلم عن معاوية رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدّين)[3].

وسلوك طريق العلم مما تعترضه

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم ٢٦٩٩، ٤/ ٢٠٧٤.

الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم ٢٦٨٢، ٥/ ٤٨، وابن ماجه في سننه، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم ٢٢٣، ١/ ٨١ . وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢١١٧، ٢/ ١٠٧٩ .

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١/ ١٧٤، فيض القدير، المناوي ٦/ ١٥٤، دليل الفالحين، البكري ٧/ ١٧٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، رقم ٧١، ١/ ٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب النهي عن المسألة، رقم ١٠٣٧، ٢/ ٧١٩.

المشقات والسفر والبعد عن الأوطان.

وقد قال الله تعالى عن نبيه موسى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ [الكهف:٦٢-٦٩].

يخبر تعالى عن قول موسى عليه السلام لذلك الرجل العالم، وهو الخضر، الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر قال له موسى : هل أتبعك ؟ سؤال تلطف لا على وجه الإلزام والإجبار، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم[1].

٤ . السعي في عمارة المساجد.

إن السعي في عمارة المساجد من السعي المحمود الذي يقوم به المؤمنون

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة:١٧-١٨].

إن عمارة المسجد هي: لزومه، والإقامة فيه، وعبادة الله فيه، وبناؤه وترميمه، وهي نوعان: حسية، ومعنوية:

فالحسية: بالتشييد والبناء والترميم والتنظيف والفرش والتنوير بالمصابيح والدخول إليها والقعود فيها.

والمعنوية: بالصلاة وذكر الله، والاعتكاف، والزيارة للعبادة فيها، وذلك يشمل العمرة، ومن الذكر: درس العلم، بل هو أجله وأعظمه وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا، فضلا عن فضول الحديث[2].

والمعنى في هذه الآية إنما يعمر مساجد الله بالحق لهم والواجب، ولفظ هذه الآية الخبر وفي ضمنها أمر المؤمنين بعمارة المساجد، وقد قال بعض السلف: إذا رأيتم

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٦٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٣٤١.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٣٤٦، تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٢٩٤، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٥٤، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٨٦.

الرجل يعمر المسجد فحسنوا به[1]، ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، وعمارتها رمّ ما استرم منها، وقمها وتنظيفها وتنويرها بالمصابيح وصيانتها مما لم تبن له المساجد من أحاديث الدنيا ؛ لأنها بنيت للعبادة والذكر، ومن الذكر درس العلم[2].

ثم بين سبحانه أن المؤمنين الصادقين هم الجديرون بعمارة مساجد الله، فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: ليس المشركون أهلًا لعمارة مساجد الله وإنما الذين هم أهل لذلك المؤمنون الصادقون الذين آمنوا بالله إيماناً حقًّا، وآمنوا باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، وآمنوا بما فرضه الله عليهم من فرائض فأدوها بالكيفية التي أرشدهم إليها نبيهم صلى الله عليه وسلم فهم في صلاتهم خاشعون وللزكاة معطون بسخاء وإخلاص.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة:١٨][3].

٥. السعي في النصيحة.

إن النصيحة ذات أهمية عظيمة عند ذوي الألباب والفهوم؛ لأنها إرشاد إلى الصواب وتوجيه نحو العمل الصالح والأخلاق الفاضلة والسيرة الحسنة وهداية إلى ما يعود نفعه وفائدته على المنصوح بالسعادة والعز والنصيحة ، تبصير بالمضار حتى لا يقع فيها من لا يعرفها.

ولذلك ينبغي أن يكون الناصح ذا رأي ثاقب وعقل راجح قد جرب الأمور وعركته الأيام والليالي ، وذاق حلوها ومرها وانتفع بما رآه فيها من عسر ويسر وفرح وسرور، وخلص قلبه من هم قاطع وغم شاغل ليسلم رأيه وتخلص نصيحته من الشوائب المكدرة[4].

والسعي في النصيحة من الأعمال التي قام بها الأبياء عليهم السلام.

قال تعالى إخبارًا عن نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٥٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ١٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٩٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٠٥.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٢٢٨.

(٤) انظر: موارد الظمآن لدروس الزمان، عبدالعزيز السلمان ٣/ ٤٦٧.

رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٢].

وقال عن هود عليه السلام: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف: ٦٥-٦٨].

وقال عن صالح عليه السلام: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧٧-٧٩].

وقال عن شعيب عليه السلام: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٩٠-٩٣].

فإذا علمت أن شراً سينزل بمؤمن غافل عنه فواجب عليك أن تنبهه وتحذره ليأخذ حذره من الكائدين ، وأسرع بأخباره كما حذر رجل موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص: ٢٠].

فهذا الرجل هو مؤمن آل فرعون والمشهور إن هذا الرجل المؤمن كان (قبطيًا) من آل فرعون، وجاء من أقصى المدينة ومعنى ﴿يَسْعَىٰ﴾ يعدو أي: من أطرافها البعيدة، ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ فيه تأويلان:

أحدهما: يتشاورون في قتلك.

الثاني: يأمر بعضهم بعضًا بقتلك.

ومنه قوله: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٦] أي: ليأمر بعضكم بعضًا، والملأ أشراف القوم، والمنظور إليهم.

﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]

أي: من الناصحين لك في الأمر بالخروج، والنصح للإنسان هو الإشارة عليه بما يصلح أمره، وقد كان السلف يطلب هذا بعضهم من بعض(١).

وتختلف النصيحة عن السعي بالنميمة؛

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ١٣٨، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٢٤٤، تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ١٣٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٤١.

لأن النميمة نقل للحديث من قوم الى قوم على وجه الإفساد بينهم وهي من الكبائر، أما نقل الكلام بقصد النصيحة فواجب، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [القصص:٢٠][1].

ثانيًا: السعي المذموم:

إن السعي المذموم في القرآن الكريم لكل صور وأمثلة، منها:

١. السعي في الصد عن سبيل الله تعالى.

إن الصد عن سبيل الله تعالى قد يكون بالانصراف والامتناع عنه.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء:٦١].

وقد يكون بالصرف والمنع عن سبيل الله نحو قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل:٢٤].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾﴾ [محمد:١] إلى غير ذلك من الآيات[2].

وقد بين الله تعالى أن الكافرين والمنافقين يسعون مجتهدين في الصد عن سبيل الله تعالى بكل أنواع الصد، سواءً أكان بالإعراض عن القرآن، وعدم الالتفات إليه، أو كان ذلك بمنع وصرف من يريد اتباع الرسول، والإقرار بالقرآن الذي أنزله الله تعالى كما يدل عليه قوله بعد: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ:٦][3].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾، إشارة إلى سعى هؤلاء المشركين، وأنه سعي للباطل والضلال، حيث يسعون لإعجاز آيات الله، وغلبتها وصرفها عن طريقها.

وفي تعدية الفعل بحرف الجر «في» الذي يفيد الظرفية، إشارة إلى أنهم يدخلون فى آيات الله ويلبسون الحق بالباطل، إذ يحرفون الكلم عن مواضعه، ويلقون فيه بالهذر من القول، والسخف من الكلام[4].

ويكون المعنى: والذين جهدوا في إبطال آياتنا، ورد دعوة الدين، والتكذيب بها، وثبطوا الناس عن متابعة النبي صلى

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٢٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ١٢٦.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٧٧، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٣٩٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢١٨، أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٢٦٤.

(٤) انظر: التفسير القرآني للقرآن، يونس الخطيب ٩/ ١٠٥٩.

الله عليه وسلم، ظناً منهم أنهم يعجزوننا ويتفلتون من أمرنا وبعثنا لهم وأننا لا نقدر عليهم، فهم أهل النار الحارة الموجعة، الشديد عذابها ونكالها، المقيمون فيها على الدوام.

وقد بين الله تعالى أن هؤلاء هم أصحاب الجحيم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [الحج:٥١].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [سبأ:٥][1].

كما حكى القرآن ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سبأ:٣٨].

كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل:٨٨][2].

واختلف أهل التفسير في معنى قوله: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾، قال الماوردي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه تكذيبهم بالقرآن، قاله يحيى ابن سلام.

الثاني: أنه عنادهم في الدين، قاله الحسن.

(معجزين) قراءة ابن كثير وأبي عمرو، وقرأ الباقون (معاجزين) فمن قرأ معجزين ففي تأويله أربعة أوجه:

أحدها: مثبطين لمن أراد اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قول السدي.

الثاني: مثبطين في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، وهو قول مجاهد.

والثالث: مكذبين، حكاه ابن شجرة.

الرابع: معجزين لمن آمن بإظهار تعجيزه في إيمانه.

ومن قرأ (معاجزين) ففي تأويله أربعة أوجه:

أحدها: مشاققين، قاله ابن عباس.

والثاني: متسارعين حكاه ابن شجرة.

والثالث: معاندين، قاله قطرب.

والرابع: معاجزين يظنون أنهم يعجزون الله هرباً، قاله السدي[3].

ثم أخبر عن هؤلاء أنهم أصحاب النار بقوله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحج:٥١].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [سبأ:٥].

وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٤٧.
(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٧/ ٢٤٤.
(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٣.

﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل:٨٨].

فالعذاب من الرجز الأليم المذكور في «سبأ» هو عذاب الجحيم المذكور في الحج[١].

ثم توعدهم الله تعالى بالويل: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [إبراهيم:٢-٣][٢].

وأخبر تعالى أن أهل الكتاب يصدون عن سبيل الله، فقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ [التوبة:٣٤].

وكذلك قال تعالى عن المشركين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج:٢٥].

وكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال:٤٧][٣].

يقول تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص في القتال في سبيله، وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم، ﴿بَطَرًا﴾ أي: دفعاً للحق، ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ وهو المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبو جهل: لما قيل له: إن العير قد نجا فارجعوا، فقال: لا والله لا نرجع، حتى نرد ماء بدر، وننحر الجزر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً، فانعكس ذلك عليه أجمع، لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام، وركموا في أطواء بدر مهانين أذلاء، صغرةً أشقياء في عذاب سرمدي أبدي، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: عالم بما جاءوا به وله، ولهذا جازاهم عليه شر الجزاء لهم[٤].

٢. السعي بالإفساد في الأرض.

إن السعي بالفساد من سجايا اليهود قولًا

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٢٧٦، جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٦١، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٣٣، تفسير المراغي ١٧/ ١٢٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢١٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٢٣، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٣٣، تفسير المراغي ١٧/ ١٢٦.
(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٠٣.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٩٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦٣.

وفعلًا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة:٦٤]

قال أبو جعفر الطبري: «يقول تعالى ذكره: ... ويعمل هؤلاء اليهود والنصارى بمعصية الله، فيكفرون بآياته ويكذبون رسله، ويخالفون أمره ونهيه، وذلك سعيهم فيها بالفساد والله لا يحب المفسدين»، يقول: والله لا يحب من كان عاملاً بمعاصيه في أرضه»[(١)]، أي: من سجيتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض، والله لا يحب من هذه صفته[(٢)].

وصفة السعي بالفساد من صفات الملوك الجبابرة، قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النمل:٣٤].

وقال تعالى عن فرعون: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النازعات:٢٢].

فبعد أن رأى فرعون الآية الكبرى، وهي المعجزة الكبرى الدالة على صدق نبوته، وهي انقلاب العصا حيةً أو اليد، ومع ذلك كذب وخالف، كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ أي: فكذب فرعون بموسى وبما جاء به وبالحق، وعصى الله عز وجل فلم يطعه، وتولى وأعرض عن الإيمان، وأخذ يسعى بالفساد في الأرض، ويجتهد في مكايدة موسى ومعارضة ما جاء به والعمل على إبطال أمره[(٣)].

وكذلك يسعى المنافقون في الفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٥].

فالمنافق إذا تولى وأعرض وأدبر أو تولى إذا أصبح واليًا سلطانًا جارٍ، ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾

(١) جامع البيان ١٠/ ٤٦١.
وانظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٣.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ١٨٩، تفسير الراغب الأصفهاني ٥/ ٣٩٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٤٨.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٠٢، تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ١٥٠، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٥٩٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢١٨ التفسير القرآني للقرآن، يونس الخطيب ١٦/ ١٤٣٩.

[البقرة:٢٠٥][1].

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول الآية أقوالًا:

قال القاضي ابن عطية: «قال السدي: «نزلت في الأخنس بن شريق، واسمه أبي، والأخنس لقب، وذلك أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأظهر الإسلام، وقال: الله يعلم أني صادق، ثم هرب بعد ذلك، فمر بقوم من المسلمين، فأحرق لهم زرعاً، وقتل حمرًا، فنزلت فيه هذه الآيات ، وما ثبت قط أن الأخنس أسلم.

وقال ابن عباس: نزلت في قوم من المنافقين تكلموا في الذين قتلوا في غزوة الرجيع عاصم بن ثابت وخبيب وابن الدثنة وغيرهم قالوا: ويح هؤلاء القوم لا هم قعدوا في بيوتهم ولا أدوا رسالة صاحبهم، فنزلت هذه الآيات في صفات المنافقين.

ثم ذكر المستشهدين في غزوة الرجيع في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ الآية، وقال قتادة ومجاهد وجماعة من العلماء: نزلت هذه الآيات في كل مبطن كفر أو نفاق أو كذب أو إضرار وهو يظهر بلسانه خلاف ذلك، فهي عامة»[2].

وقوله تعالى: ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾.

قال المفسرون إن : المراد الأخنس في إحراقه الزرع وقتله الحمر، وقال مجاهد: المراد أن الظالم يفسد في الأرض فيمسك الله المطر فيهلك الحرث والنسل، وقيل: المراد أن المفسد يقتل الناس فينقطع عمار الزرع والمنسلون، وقال الزجاج: يحتمل أن يراد بالحرث : النساء وبالنسل نسلهن»[3].

قال القاضي أبو محمد بن عطية: «والظاهر أن الآية عبارة عن مبالغة في الإفساد، إذ كل فساد في أمور الدنيا، فعلى هذين الفصلين يدور»[4].

أي: أن المنافق أعوج المقال سيء الفعال، كلامه كذب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة، وليس له همة إلا الفساد في الأرض وإهلاك الحرث، وهو محل نماء الزروع والثمار والنسل، وهو نتاج الحيوانات اللذين لا قوام للناس إلا بهما، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ أي : لا يحب من هذه صفته، ولا من يصدر منه ذلك[5].

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣١٠، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٤٢٨.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٢٧٩.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٣٢، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣١٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٨٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٠٢، تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ١٥٠، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٥٩٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢١٨.

(٤) انظر: المحرر الوجيز ١/ ٢٧٩.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٢٠.

ومن الفساد في الأرض محاربة الله ورسوله كقطع الطريق وقتل النفس ونقض العهود والمواثيق.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾ [المائدة:٣٣-٣٤].

والمحاربة هي المضادة والمخالفة، وهي صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل، وكذا الإفساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر،[1] حتى قال كثير من السلف، منهم سعيد بن المسيب: إن قطع الدراهم والدنانير من الإفساد في الأرض.

وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥﴾ [البقرة:٢٠٥].

ثم قال بعضهم: نزلت هذه الآية الكريمة في المشركين، كما روى ابن جرير عن عكرمة والحسن البصري، قالا: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ نزلت هذه الآية في المشركين، فمن تاب منهم من قبل أن تقدروا عليه، لم يكن عليه سبيل، وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل، أو أفسد في الأرض، أو حارب الله ورسوله، ثم لحق بالكفار قبل أن يقدر عليه، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذي أصاب.

قال الإمام ابن كثير: «والصحيح أن هذه الآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات.

كما رواه البخاري ومسلم من حديث أبي قلابة واسمه عبدالله ابن زيد الجرمي البصري عن أنس بن مالك أن نفرًا من عكل ثمانية، قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعوه على الإسلام، فاستوخموا المدينة، وسقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك، فقال (ألا تخرجون مع راعينا في إبله، فتصيبوا من أبوالها وألبانها) فقالوا: بلى، فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحوا، فقتلوا الراعي، وطردوا الإبل، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث في آثارهم

---

(١) الحرابة هي: قطع الطريق وإشهار السلاح خارج المصر، وقال البعض تتحقق الحرابة داخل المصر..والمحارب وفسره الجمهور في هذه الآية بالذي يقطع الطريق على الناس، مسلماً كان أو كافرًا.

انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي ص ١٧٧، القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص ٨٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٨٤، البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٢٤٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ١٥٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور٦/ ١٨٢.

فأدركوا فجيء بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسمرت أعينهم، ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا(١)(٢).

وقال ابن عاشور: «وفي الآية الكريمة إشارة إلى بني إسرائيل، وإلى أنهم هم الوجه البارز في الإنسانية، الذي تظهر فيه تلك المنكرات ظهوراً واضحاً، حتى لتكاد تكون الأصل الذي يقاس عليه كل منكر يظهر في الناس. فهم يحادون الله ورسوله، والمحادة هي العدوان على حدود الله، والاستباحة لحرماته»(٣).

٣. السعي في خراب المساجد.

إن السعي في خراب المساجد من أظلم الظلم كما قال ربنا جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة:١١٤].

أي: لا أظلم ممن اجتهد وبذل وسعه في خرابها الحسي والمعنوي، فالخراب الحسي: هدمها وتخريبها، وتقذيرها، والخراب المعنوي: منع الذاكرين لاسم الله فيها، وهذا عام، لكل من اتصف بهذه الصفة(٤).

وقد اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها؟ على قولين:

القول الأول: إن المراد بالذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها بأنهم هم النصارى قال مجاهد: هم النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه وعن قتادة قال: هو بختنصر وأصحابه، خرب بيت المقدس، وأعانه على ذلك النصارى، وقال سعيد عن قتادة: قال أولئك أعداء الله، النصارى حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس، حتى خربه وأمر أن تطرح فيه الجيف(٥).

وهذا القول اختاره ابن جرير، واحتج بأن قريشًا لم تسع في خراب الكعبة، وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب إذا حرق المشرك المسلم هل يحرق، رقم ٣٠١٨، ٤/ ٦٢، ومسلم في صحيحه، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب حكم المحاربين والمرتدين، رقم ١٦٧١، ٣/ ١٢٩٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٤٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٨٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ١٨٠.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٥٢٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٦٩.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٥٢٠، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ١٢٨، النكت والعيون، الماوردي ١/ ١٧٣، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٢٩٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٦٩.

قال ابن جرير: «والدليل على صحة ما قلنا في ذلك، قيام الحجة بأن لا قول في معنى هذه الآية إلا أحد الأقوال الثلاثة التي ذكرناها، وأن لا مسجد عنى الله عز وجل بقوله: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ﴾، إلا أحد المسجدين، إما مسجد بيت المقدس، وإما المسجد الحرام، وإذ كان ذلك كذلك، وكان معلوماً أن مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام، وإن كانوا قد منعوا في بعض الأوقات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الصلاة فيه صح وثبت أن الذين وصفهم الله عز وجل بالسعي في خراب مساجده، غير الذين وصفهم الله بعمارتها، إذ كان مشركو قريش بنوا المسجد الحرام في الجاهلية، وبعمارته كان افتخارهم، وإن كان بعض أفعالهم فيه، كان منهم على غير الوجه الذي يرضاه الله منهم.

وأخرى أن الآية التي قبل قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ مضت بالخبر عن اليهود والنصارى وذم أفعالهم، والتي بعدها نبهت بذم النصارى والخبر عن افترائهم على ربهم، ولم يجر لقريش ولا لمشركي العرب ذكر، ولا للمسجد الحرام قبلها، فيوجه الخبر بقول الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ إليهم وإلى المسجد الحرام.

وإذ كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى بالآية أن يوجه تأويلها إليه، وهو ما كان نظير قصة الآية قبلها والآية بعدها، إذ كان خبرها لخبرهما نظيراً وشكلاً إلا أن تقوم حجة يجب التسليم لها بخلاف ذلك، وإن اتفقت قصصها فاشتبهت»[(١)].

القول الثاني: إن المراد بهم المشركون الذين حالوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، وبين أن يدخلوا مكة، حتى نحر هديه بذي طوى، وهادنهم، فعن ابن عباس أن قريشاً منعوا النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾[(٢)].

ورجح هذا القول الإمام ابن كثير فقال في ترجيح هذا القول: «شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مكة، ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام، وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة، فأي خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله صلى

(١) جامع البيان ٢/ ٥٢٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٥٢٠، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ١٩٢، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ١٢٨، النكت والعيون، الماوردي ١/ ١٧٣، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٢٩٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٦٩.

الله عليه وسلم وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنفال: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٧-١٨].

وقال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٨].

فإذا كان من هو كذلك مطرودًا منها مصدودًا عنها، فأي خراب لها أعظم من ذلك؟

وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ هذا خبر معناه الطلب، أي: لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها، إلا تحت الهدنة والجزية، وهذا إنما كان تصديقاً وعملاً بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

وقال بعضهم: ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين، على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين، أن يبطشوا بهم فضلاً أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها، والمعنى: ما كان إلا الحق والواجب إلا ذلك، لولا ظلم الكفرة وغيرهم.

وقيل: إن هذا بشارة من الله للمسلمين، أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم، حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم، إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل،

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ٢٧٠.

إن لم يسلم، وقد أنجز الله هذا الوعد، كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام، وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان، وأن يجلى اليهود والنصارى منها، ولله الحمد والمنة. وما ذاك إلا تشريف أكناف المسجد الحرام، وتطهير البقعة التي بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافةً، بشيراً ونذيراً، صلى الله عليه وسلم، وهذا هو الخزي لهم في الدنيا، لأن الجزاء من جنس العمل، فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صدوا عنه، وكما أجلوهم من مكة أجلوا عنها، ولهم في الآخرة عذاب عظيم على ما انتهكوا من حرمة البيت، وامتهنوه من نصب الأصنام حوله، ودعاء غير الله عنده، والطواف به عرياً وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله[1].

وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فلا أعظم إيماناً ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُولَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة:١٨][2].

وعلى أي حال، العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فتشمل أهل الكتاب والمشركين ومن على شاكلتهم، في كل زمان ومكان، وينطبق على ما وقع من تيطس الروماني الذي دخل بيت المقدس بعد موت المسيح بنحو سبعين سنة وخربها، وهدم هيكل سليمان عليه السلام، وأحرق بعض نسخ التوراة، وكان المسيح قد أنذر اليهود بذلك، كما ينطبق على مشركي مكة الذين منعوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من دخول مكة، وكذلك على الصليبيين الذين أغاروا على بيت المقدس وغيره من بلاد المسلمين، وصدهم عن المسجد الأقصى وتخريبهم كثيراً من المساجد، ويتكرر الأمر من اليهود في الوقت الحاضر بتخريب كثير من مساجد فلسطين، وإحراق المسجد الأقصى، ومحاولات هدمه المتكررة[3].

قال وهبة الزحيلي: «إن تدمير المساجد أو الصد عنها جرم عظيم، لا يرتكبه إلا من فقد الإيمان، وعادى جوهر الدين، واتبع الأهواء، وحارب الأخلاق والفضائل، ولم يقدم على تلك الجريمة في الماضي أو في العصر الحاضر، سواءً في ديار الإسلام أو غيرها إلا الملحدون المارقون من الدين، الذين يبتغون نشر الإلحاد وتقويض دعائم الدين والإسلام»[4].

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ١٩٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٢٧٠.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٣.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١/ ٢٨٠.
(٤) انظر: المصدر السابق ١/ ٢٨١.

كتابة السعي والمحاسبة عليه

بدهي أن يكتب السعي ويحاسب عليه؛ لأن ذلك سنة الله الجارية في الخلق وسيكون هذا المبحث عن ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: كتابة السعي:

بين الله تعالى أنه يكتب سعي المؤمن الذي يعمل الصالحات في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنبياء:٩٤].

والمعنى: فمن عمل بما أمره الله به من العمل الصالح، وأطاعه في أمره ونهيه، وهو مقر بوحدانية الله؛ مصدق بوعده ووعيده متبرئ من الأنداد والآلهة، فإن الله يشكر عمله الذي عمل له مطيعاً له، وهو به مؤمن، فيثيبه في الآخرة ثوابه الذي وعد أهل طاعته أن يثيبهموه، ولا يكفر ذلك له فيجحده، ويحرمه ثوابه على عمله الصالح ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ يقول: ونحن نكتب أعماله الصالحة كلها، فلا نترك منها شيئاً لنجزيه على صغير ذلك وكبيره وقليله وكثيره. وإنا مثبتون له ذلك فى صحيفة أعماله، لا نترك منه شيئاً جل أو قل، عظم أو حقر، والكتابة تكون في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي مع الحفظة أو في صحيفة عمله[1].

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران:١٩٥].

أي: كل ذلك محفوظ ليجازي به[2].

وأكد ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ مؤكدًا بحرف التأكيد للاهتمام به، والكتابة كناية عن تحققه وعدم إضاعته؛لأن الاعتناء بإيقاع الشيء يستلزم الحفظ عن إهماله وعن إنكاره، ومن وسائل ذلك كتابته ليذكر ولو طالت المدة. وهذا لزوم عرفي[3].

كما بين سبحانه أنه يكتب سعي وعمل الكافر في مواضع متعددة من كتابه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس:٢١].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف:٨٠].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٢٤، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٠٤، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٢٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٨٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٤٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٣٠، تفسير المراغي ١٧/ ٧٠.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٦٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٣٩.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٤٤.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩﴾ [الجاثية:٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ١٩﴾ [الزخرف:١٩].

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ١٨١﴾ [آل عمران:١٨١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف:٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء:١٣-١٤].

إلى غير ذلك من الآيات[١].

كما أخبر الله تعالى عن كتابة السعي بخيره وشره للمسلم والكافر.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾ [يس:١٢][٢].

فما قدموا هو أفعالهم وآثارهم أفعال الشاكرين فبشرهم حيث يؤاخذون بها ويؤجرون عليها والثالث: ما ذكرنا أن الآثار الأعمال وما قدموا النيات فإن النية قبل العمل[٣].

وقوله: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ يحتمل وجوهًا:

أحدها: أن يكون ذلك بياناً لكون ما قدموا وآثارهم أمرًا مكتوبًا عليهم لا يبدل، فإن القلم جف بما هو كائن فلما قال: نكتب ما قدموا بين أن قبل ذلك كتابة أخرى، فإن الله كتب عليهم أنهم سيفعلون كذا وكذا، ثم إذا فعلوه كتب عليهم أنهم فعلوه.

وثانيها: أن يكون ذلك مؤكدًا لمعنى قوله: ﴿وَنَكۡتُبُ﴾؛ لأن من يكتب شيئًا في أوراق ويرميها قد لا يجدها فكأنه لم يكتب فقال: نكتب ونحفظ ذلك في إمام مبين، وهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ٥٢﴾ [طه:٥٢].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٢٤، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٠٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٨٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٤٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٥٠٨.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٢١.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/٢٥٨.

وثالثها: أن يكون ذلك تعميمًا بعد التخصيص كأنه تعالى يكتب ما قدموا وآثارهم وليست الكتابة مقتصرةً عليه، بل كل شيء محصى في إمام مبين، وهذا يفيد أن شيئًا من الأقوال والأفعال لا يعزب عن علم الله ولا يفوته، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾ [القمر:٥٢-٥٣].

يعني: ليس ما في الزبر منحصرًا فيما فعلوه، بل كل شيء فعلوه مكتوب.

وقوله: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ أبلغ من كتبناه، لأن من كتب شيئًا مفرقًا يحتاج إلى جمع عدده فقال: هو محصى فيه وسمي الكتاب إماماً لأن الملائكة يتبعونه فما كتب فيه من أجل ورزق وإحياء وإماتة اتبعوه.

وقيل هو اللوح المحفوظ، وإمام جاء جمعًا في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء:٧١]، أي: بأئمتهم وحينئذ، فإمام إذا كان فردًا فهو ككتاب وحجاب، وإذا كان جمعًا فهو كجبال وحبال.

والمبين هو المظهر للأمور لكونه مظهرًا للملائكة ما يفعلون وللناس ما يفعل بهم، وهو الفارق يفرق بين أحوال الخلق فيجعل فريقًا في الجنة وفريقًا في السعير[(١)].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٥٩، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٩٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٢٦،

ثانيًا: المحاسبة على السعي:

إن كتابة السعي تمثل مرحلةً تمهيديةً للحساب عليه.

وقد عامل الله سبحانه وتعالى البشر بما أمرهم أن يتعاملوا به من توثيق المعاملات بينهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة:٢٨٢].

من أجل أن يعلموا أن السعي في الخير والشر مسجل ومقيد بكل صغيرة وكبيرة ليوم الحساب.

قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠﴾ [النجم:٣٩-٤٠].

أي: أن عمل كل عامل سوف يراه يوم القيامة، من ورد القيامة بالجزاء الذي يجازى عليه، خيراً كان أو شراً، لا يؤاخذ بعقوبة ذنب غير عامله، ولا يثاب على صالح عمله عامل غيره[(٢)].

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ قيل: معناه يراه الخلق يوم القيامة، والأظهر أنه صاحبه[(٣)]؛ لقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا

اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٦/ ١٨٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٤٧، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٧٦.

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ١٧٢، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٠٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٣١١.

﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة:٦-٨].

وقد أخبر تعالى بأن الحساب سيكون بموجب الكتابة للأعمال.

قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ۝١٤﴾ [الإسراء:١٣-١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ۝٤٩﴾ [الكهف:٤٩].

وقوله تعالى: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ۝١٨﴾ [ق:١٨][(١)].

إلا ما سعى بصيغة الماضي دون المستقبل لزيادة الحث على السعي في العمل الصالح وتقريره هو أنه تعالى لو قال: ليس للإنسان إلا ما يسعى، تقول النفس إني أصلي غداً كذا ركعة وأتصدق بكذا درهماً، ثم يجعل مثبتاً في صحيفتي الآن لأنه أمر يسعى وله فيه ما يسعى فيه، فقال: ليس له إلا ما قد سعى وحصل وفرغ منه، وأما تسويلات الشيطان وعداته فلا اعتماد عليها ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ۝٤١﴾[النجم:٤٠-٤١][(٢)].

كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٠٥﴾ [التوبة:١٠٥].

أي: فيخبركم به ويجزيكم عليه أتم الجزاء إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وهكذا قال هاهنا: ﴿ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾ أي: الأوفر[(٣)].

إن المقصود من كتابة السعي لكل إنسان هو الحساب يوم القيامة فكل سعي يعمله الإنسان من خير أو شر فهو مكتوب مسجل له أو عليه، ويعطى له كتابه يوم القيامة بكل ما عمله من خير أو شر، وذلك لإقامة الحجة عليه؛ لأن الله تعالى عليم بكل شيء، ولا يحتاج إلى كتابة تعالى الله علواً كبيراً، و حتى ما يهم به الإنسان من خير فإنه يكتب له.

ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٢٩١.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٢٧٧، لباب التأويل، الخازن ٤/ ٢١٤، الجواهر الحسان، الثعالبي ٥/ ٣٣١.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٤٧، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ١٧٢، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٠٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٣١١، التسهيل لعلوم التنزيل تفسير ابن جزي ٢/ ٣٢٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٣٢.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله عز وجل: إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنةً فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف ،وإذا هم بسيئة ولم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبتها سيئةً واحدةً)(١).

فهذا الحديث صريح في أن كل شيء يعمله الإنسان فهو مكتوب عند الحفظة سواءً كان خيراً أو شراً، حتى الهم إذا هم بالحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة(٢).

وحساب الله تعالى على الأعمال هو: أن تقابل السيئات بالحسنات، وتقابل الحسنات بالنعم، فإن الإنسان عليه حقوق لله تعالى في مقابل النعم. وبعض الناس يستكثر أعماله فيقول: عملت أعمالاً كثيرةً من صلوات وصدقات وأذكار وقراءة قرآن وجهاد وحج وعمرة وصوم وطواف، ولم أقترف سيئات أبدًا.

قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء:١٣-١٤].

ويخبر سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أنه ما من إنسان إلا وسيجد كتاب أعماله ملازمًا له، ينشر عليه في يوم القيامة، ويقال له: اقرأ كتابك وأنت حسيب نفسك، بعد أن تقف على كل أعمالك التي عملتها في الدنيا، وهذا هو العدل التام، والإنصاف الكامل.

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة:١٩-٢٩].

وهذا وصف من الله جل وعلا، وتقسيم كذلك لحال الناس بالنسبة لإيتائهم كتبهم: قسم يأخذه بيمينه، ثم يعبر عن سروره وغبطته، وما يصير إليه حاله من النعيم العظيم، والفوز الكبير.

وقسم آخر يأخذه بشماله، ثم يعبر عن حسرته وندامته وتمنيه أنه لم يكلف بقراءة كتاب ولم يوقف لحساب، أو تمنيه كذلك لأن تكون موتته التي ماتها هي القاضية فلا يبعث ولا يحاسب، ثم يتذكر بعض الأسباب التي كانت تحول بينه وبين السعادة في الآخرة، والتي منها اغتراره بالمال والسلطان، وهما آفة الكثير ممن يقع عليهم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إذا هم العبد، ١/ ١١٧، رقم ١٢٨.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٢٧/ ٦٦.

شدة الحساب ووقوع العذاب.

وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف:٤٩].

وهذا تصوير بديع لحالة وقوف الناس على كتبهم خائفين وجلين، وكأنهم قد اطلعوا على ما فيها من تسجيل كامل لجرائمهم التي كانوا يتفننون في ارتكابها، ومع هذا الخوف الشديد، والرهبة الكاملة فهم لا يخفون انزعاجهم من دقة هذا الكتاب، الذي لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، ووضحها تمام الوضوح، ولكن هذا صنع من يريد العدل سبحانه وتعالى بعباده، فليس هناك خوف من الظلم، فليطمئن كل مخلوق إلى أنه سوف لا يقع عليه إلا ما قدم لنفسه.

قال الإمام ابن كثير في معنى الآية: «﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي: كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير.

﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ أي: من أعمالهم السيئة، وأفعالهم القبيحة، لأن هذا الكتاب لم يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها»[1].

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٤٣٢.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [الإسراء:٧١].

يخبر سبحانه وتعالى أنه في يوم القيامة، في موقف فصل القضاء، يدعو كل أمة بإمامهم، أي: كتاب الأعمال ثم يعطون كتب أعمالهم، على ما سبق وصفه، إما باليمين أو بالشمال، وأخبر سبحانه أنه لا يقع على أي مخلوق ظلم أو نقص من عمل، حتى وإن كان شيئًا تافهًا لا يسترعي الانتباه، كالفتيل ومثقال الذرة وما إلى ذلك[2].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق:٧-١٢].

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٥٤٧، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٠٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٣١١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٣٢.

أسباب السعي

إن هناك أسباب للسعي الممدوح، والسعي المذموم، وهذه الأسباب تعتبر الطرق الموصلة لكلا السعيين، ويمكن بيانها في النقاط الآتية:

أولًا: أسباب السعي الممدوح:

١ . الإيمان.

اعتبر القرآن الكريم الأيمان أهم الأسباب الموصلة للسعي الممدوح الموصل إلى الجنة بإذن الله تبارك و تعالى، ولكنه دائماً يأتي مقروناً بالعمل الصالح، لذلك لا تكاد تجد موضع فيه ذكر للأيمان وأنه سبب لدخول الجنة إلا وهو مقرون بالعمل الصالح، وباب الأعمال الصالحة واسع وكبير، وطرق كسب الثواب عظيمة ومتعددة لا يحصيها إلا الله سبحانه وتعالى.

قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٩].

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنبياء:٩٤].

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد:١٢].

٢ . التقوى.

إن التقوى سبب لكثير من أنواع السعي الممدوح.

قال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٦].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة:١-٥].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

٣. طاعة الله تبارك وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء:٦٩].

وقال عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور:٥٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح:١٧].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى) قالوا يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)[1].

كما أن امتثال قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الجمعة:٩].

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات:١٠٢].

٤. الجهاد في سبيل الله.

إن الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال من أعظم الأعمال ومن الأسباب التي تجعل المجاهد يعمل السعي الممدوح لما في ذلك من الفضل العظيم.

قال تبارك وتعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:١١١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف:١٠-١٣].

ولما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل: أي العمل أفضل؟ فقال: (إيمان بالله ورسوله). قيل: ثم ماذا؟ قال: (الجهاد في سبيل الله) قيل: ثم ماذا؟ قال: (حج مبرور)[2].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ٧٢٨٠، ٩/ ٩٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان،

٥. التوبة.

إن التوبة تدفع المسلم لمزيد من السعي الممدوح من أجل المحافظة على التوبة والحذر من العودة إلى المعاصي والسيئات.

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ [مريم:٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه:٨٢].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان:٧٠-٧١].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [القصص:٦٧].

فالتوبة تجب ما قبلها وكما قال صلى الله عليه وسلم: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)[(١)].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ [مريم:٦٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التحريم:٨].

٦. الاستقامة على دين الله.

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود:١١٢].

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت:٣٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف:١٣-١٤].

إن الاستقامة هي أن يجمع العبد بين فعل الطاعات واجتناب المعاصي؛ لأن التكليف يشتمل على أمر بطاعة تبعث على الرغبة ونهي عن معصية يدعو إلى الرهبة[(٢)].

باب من قال إن الإيمان هو العمل، رقم٢٦، ١/ ١٤.

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد باب ذكر التوبة، رقم ٤٢٥٠، ٢/ ١٤١٩، من حديث ابن مسعود.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٠٠٨، ١/ ٥٧٨.

(٢) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٨٠.

٧. طلب العلم.

في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (... ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، و ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه)(١).

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾ [عبس:٨].

ثانيًا: أسباب السعي المذموم:

١. الكفر والشرك بالله تعالى.

الشرك بالله: بأن يجعل لله شريكاً في الرّبوبية، أو الألوهية، أو الصّفات. فمن اعتقد أنّ مع الله خالقاً مشاركاً، أو منفرداً، أو اعتقد أن مع الله إلهاً يستحق أن يعبد، أو عبد مع الله غيره فصرف شيئاً من أنواع العبادة إليه، أو اعتقد أنّ لأحدٍ من العلم والقدرة والعظمة ونحوها مثل ما لله عزّ وجلّ؛ فقد أشرك بالله شركاً أكبر، واستحقّ الخلود في النار.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

والكفر بالله عزّ وجلّ، أو بملائكته، أوكتبه، أو رسله، أو اليوم الآخر، أو قضاء الله وقدره: فمن أنكر شيئاً من ذلك تكذيباً، أو جحداً، أو شكّ فيه؛ فهو كافر مخلّد في النار.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝١٥١﴾ [النساء:١٥٠-١٥١].

وهؤلاء هم الذين وصف الله سعيهم بأنه ضلال.

قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف:١٠٤].

٢. الصد عن سبيل الله تعالى.

إن الصد عن سبيل الله تعالى يعتبر من السعي المذموم فاعله.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝٥١﴾ [الحج:٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾ [سبأ:٥].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا

(١) سبق تخريجه.

﴿مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سبأ:٣٨].

٣. النفاق.

وهو أن يكون كافراً بقلبه، ويظهر للناس أنه مسلم، إما بقوله، أو بفعله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء:١٤٥].

وهذا الصنف أعظم مما قبله؛ ولذلك كانت عقوبة أصحابه أشدّ، فهم في الدرك الأسفل من النار؛ وذلك لأن كفرهم جامع بين الكفر والخداع، والاستهزاء بالله وآياته ورسوله، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾

[البقرة:٢٠٤-٢٠٥].

٤. الفساد في الأرض.

إن الفساد في الأرض بكل صوره وأشكاله من السعي المذموم قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة:٦٤].

٤. الحرابة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة:٣٣-٣٤].

٥. الظلم.

ومن أظلم الظلم السعي في خراب المساجد.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة:١١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ

﴿قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف:٥٧].

٦. فعل الكبائر والمعاصي.

كعقوق الوالدين: وعقوقهما أن يقطع ما يجب لهما من برٍّ وصلةٍ، أو يسيء إليهما بالقول أو الفعل.

قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤].

وقال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان:١٤].

وقطيعة الرّحم: وهي أن يقاطع الرجل قرابته فيمنع ما يجب لهم من حقوقٍ بدنيةٍ، أو ماليةٍ، فعن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (لا يدخل الجنّة قاطع)[1].

قال سفيان: يعني قاطع رحم، وقال صلى الله عليه وسلم: (خلق اللّه الخلق فلمّا فرغ منه قامت الرّحم فأخذت بحقو الرّحمن فقال له : مه ، قالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟! قالت :بلى يا ربّ ، قال : فذاك ثمّ ، قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : اقرءوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد:٢٢-٢٣])[2].

وأكل الرّبا: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران:١٣٠-١٣٢].

وقد توعّد الله تعالى من عاد إلى الرّبا بعد أن بلغته موعظة الله، وتحذيره توعّده بالخلود في النار، فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة:٢٧٥].

٧. العمل من أجل الدنيا.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إثم القاطع، رقم ٥٩٨٤، ٨/ ٥، من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾، رقم ٤٨٣٠، ٦/ ١٣٤.

أن السعي من أجل الدنيا دون اعتبار قصد الآخرة من السعي المذموم، وعلى العكس من ذلك العمل من أجل الآخرة، فمن كان عمله للدنيا فقط نال منها ما قدره الله له، ولم يكن له في الآخرة نصيب، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها مع ما قسم له في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

ولهذا قال هاهنا ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم[(١)].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٩٧.

جزاء السعي

إن السعي بنوعيه الممدوح والمذموم لكل منهما جزاء في الدنيا والآخرة، وهذا الجزاء يدفع بالمسلم للسعي الممدوح حتى ينال الجزاء المترتب عليه، ويجتنب السعي المذموم حتى لا يناله الجزاء على ذلك أيضاً، كما أن معرفة الجزاء يدفع المسلم للإقدام على السعي الممدوح، واجتناب السعي المذموم، وفي هذا المبحث سيتم بيان هذين النوعين من الجزاء كما يأتي:

أولًا: جزاء السعي الممدوح في الدنيا والآخرة:

١ . جزاء السعي الممدوح في الدنيا.

إن للسعي الممدوح جزاءً عاجلً في الدنيا قبل الثواب في الآخرة، وليس جزاء العمل الصالح مقتصرًا على الجزاء الأخروي فقط كما يظن ذلك كثير من الناس، بل إن الله تعالى يجازي من يعمل صالحاً جزاءً دنيوياً عاجلًا كما دلت على ذلك النصوص، ومنها حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إنّ الله لا يظلم مؤمناً حسنةً، يعطى بها في الدّنيا ويجزى بها في الآخرة)**[(٢)].

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في

فمن ذلك ما يأتي:

* المودّة في قلوب المؤمنين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم:٩٦].

وفي الحديث عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا أحب الله تعالى العبد، نادى جبريل: إن الله تعالى يحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي في أهل السماء: إنّ الله يحبّ فلانًا فأحبّوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض)(١).

* الثناء الحسن من الله تعالى.

فيثني الله عليه ثناءً حسنًا جزاءً على السعي الممدوح في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ [البينة:٧].

فقد أثنى الله تعالى عليهم بأنهم خيرية البرية، والبرية كل من خلق الله على العموم(٢).

ويكفي العمل الصّالح فضلًا، ويكفي أهله شرفًا أنّ الله تعالى زكّاهم وأثنى عليهم، فيا له من فضلٍ وشرفٍ لمخلوقٍ يزكّيه الخالق سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ [البينة:٧]. فجعلهم سبحانه خير الخليقة.

وفي آيةٍ أخرى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤].

فالعمل الصالح سبب لسعادة القلب وفرحه، وذهاب همه وغمه؛ ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يرتاح بالصلاة، وجعلت قرة عينه فيها، وكان إذا حزبه أمر صلى، والمؤمن يجد لذةً وسعادةً عقب كل عمل صالح يعمله، وهذه السعادة التي لا تشترى بمال، ولا تنال بجاه، وهي من الجزاء العاجل على العمل الصالح: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] فمن الّذي لا يريد الحياة الطّيّبة الهانئة؟! والحياة الطّيّبة تشمل وجوه الرّاحة من أيّ جهةٍ كانت.

* التمكين في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور:٥٥].

وعد الله الذين آمنوا بالله ورسوله منكم

الدنيا، رقم ٢٨٠٨، ٤/ ٢١٦٢.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢٠٩، ٤/ ١١١.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٥٤٠، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٢٦٣.

أيها الناس، وعملوا الصالحات وأطاعوا الله ورسوله فيما أمراه ونهياه ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ليورثنهم الله أرض المشركين من العرب والعجم، فيجعلهم ملوكها وساستها ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: كما فعل من قبلهم ذلك ببني إسرائيل، إذ أهلك الجبابرة بالشأم، وجعلهم ملوكها وسكانها ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ يقول: وليوطئن لهم دينهم، يعني: ملتهم التي ارتضاها لهم، ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ بمعنى: وليغيرن حالهم عما هي عليه من الخوف إلى الأمن، قال أبي ابن كعب: «لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة آوتهم الأنصار ومنهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا مع السلاح، ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله، فنزلت هذه الآية»، وقد حقّق الله تعالى ذلك للمسلمين الأولين لما آمنوا وعملوا الصالحات، ففتحوا مشارق الأرض ومغاربها، ومنحهم التمكين والعزّة والقوة[1].

❁ **تفريج الكروب.**

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢].

وقال سبحانه: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤].

وفي الحديث الشريف عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم....**)[2].

وفي هذا الحديث الشريف؛ أنّ السعي والعمل الصالح مع الإخلاص: يفرّج الكروب، وينجي من الشدائد والصعاب.

❁ **النصر.**

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد:٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

فمن ينصر دين الله في الأرض، ينصره الله تعالى على أعدائه، وهذا ما حقّقه المسلمون، إذ نصروا دين الله تعالى، فنصرهم الله، مع قلّة عددهم وكثرة عدوهم.

❁ **الإنفاق على الساعي.**

قال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٨، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٢٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٤١٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال، رقم ٢٧٤٣، ٤/ ٢٠٩٩.

﴿يُخْلِفُهُۥ﴾ [سبأ:٣٩].

وعن أسماء رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا توكي فيوكى عليك) أي: لا تدّخري ما عندك، وتمنعي ما عندك، فينقطع الله عنك الرزق. والإيكاء: شد رأس الوعاء بالوكاء، وهو الرباط الذي يربط به، وفي رواية: (أنفقي ولا تحصي، فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك)[١].

- وفي اصطناع المعروف.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من نفّس عن مؤمن كربةً من كرب الدنيا، نفّس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة. ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه. ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)[٢].

- صلاح أحوال العبد.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ [محمد:٢]أي: أصلح دينهم ودنياهم، وقلوبهم وأعمالهم، وأصلح ثوابهم، بتنميته وتزكيته، وأصلح جميع أحوالهم. فإصلاح البال يجمع إصلاح الأمور كلها؛ لأن تصرفات الإنسان تأتي على حسب رأيه، والمعنى: أقام أنظارهم وعقولهم فلا يفكرون إلا صالحاً، ولا يتدبرون إلا ناجحاً[٣].

- حفظ أهل العامل وذريته.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف:٨٢].

قال ابن عباس رضي الله عنه: «حفظا بصلاح أبيهما، وقيل: كان بينهما وبين الأب الصالح سبعة آباء، قال محمد بن المنكدر: إن الله يحفظ بصلاح العبد ولده وولد ولده، وعترته وعشيرته وأهل دويرات حوله، فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم»[٤].

- ولاية الله تعالى للعبد ونصرته وإجابة دعائه.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾، رقم ٢٥٩١، ٣/ ١٥٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة باب الحث على الإنفاق وكراهة الإحصاء، رقم ١٠٢٩، ٢/ ٧١٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم ٢٦٩٩، ٤/ ٢٠٧٤.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٥١، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٢٩٠، لباب التأويل، الخازن ٤/ ١٣٩.

(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ١٠١، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢١١.

قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف:١٩٦].

فهذه الآية دليل على أنّ من سنّته سبحانه وتعالى أن ينصر الصّالحين من عباده ولا يخذلهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ [الشورى:٢٦] أي: إذا دعوه استجاب دعاءهم، وأعطاهم ما طلبوا وزادهم على مطلوبهم.

٢. جزاء السعي الممدوح في الآخرة.

❁ غفران الذنوب.

قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩﴾ [الإسراء:١٩]يعني: فمن فعل ذلك ﴿كَانَ سَعۡيُهُم﴾ يعني: عملهم بطاعة الله ﴿مَّشۡكُورٗا﴾ وشكر الله إياهم على سعيهم ذلك حسن جزائه لهم على أعمالهم الصالحة، وتجاوزه لهم عن سيئها برحمته، ويضعف لهم الحسنات، ويمحو عنهم السيئات، ويرفع لهم الدرجات[١].

قال القاضي ابن عطية: «وذلك كله مرتبط متلازم ثم شرط في مريد الآخرة أن يسعى لها سعيها، وهو ملازمة أعمال الخير وأقواله على حكم الشرع وطرقه، فأولئك يشكر الله سعيهم ولا يشكر الله عملاً ولا سعياً إلا أثاب عليه وغفر بسببه»[٢].

❁ دخول الجنة.

وقد أوضح تعالى هذا في آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤﴾ [النساء:١٢٤].

وقوله: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾ [النحل:٩٧].

وقوله: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٤٠﴾ [غافر:٤٠] إلى غير ذلك من الآيات[٣].

❁ أن نورهم يسعى بين أيديهم.

قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ

---

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٢٢٩، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٢٦، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١١٣.

(٢) انظر: المحرر الوجيز ٣/ ٤٤٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢١١، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٣٥٣، التفسير الوسيط، طنطاوي ٩/ ٩٢، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٩٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣١٩، أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٨١.

﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد:١٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التحريم:٨].

يقول تعالى مخبرًا عن المؤمنين المتصدقين أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة، بحسب أعمالهم، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «يسعى نورهم بين أيديهم على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرةً ويطفأ مرةً»[(١)].

❁ التنعم بنعمة الرضا.

قال تعالى: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [الغاشية:٩].

أي: لعملها الذي عملت في الدنيا من طاعة ربها راضية، وقيل: والمعنى: لثواب سعيها في الآخرة راضية، يعني: رأى ثوابه في الجنة، راضية مرضية، رضي الله عنه بعمله في الدنيا، ورضي العبد من الله تعالى في الآخرة، من الثواب في جنة عالية يعني: ذلك الثواب في جنة عالية، مرتفعة في الدرجات العلى[(٢)].

قال تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الغاشية:١٠-١٦].

قال الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [الغاشية:٩]: «فيه تأويلان:

أحدهما: أنهم حمدوا سعيهم واجتهادهم في العمل لله، لما فازوا بسببه من العاقبة الحميدة كالرجل يعمل العمل فيجزى عليه بالجميل، ويظهر له منه عاقبة محمودة فيقول، ما أحسن ما عملت، ولقد وفقت للصواب فيما صنعت فيثني على عمل نفسه ويرضاه.

والثاني: المراد لثواب سعيها في الدنيا راضية إذا شاهدوا ذلك الثواب، وهذا أولى، إذ المراد أن الذي يشاهدونه من الثواب العظيم يبلغ حد الرضا حتى لا يريدوا أكثر منه، وإما وصف دار الثواب»[(٣)].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٤٧٣، التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٤٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٩.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٣٨٥.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٤١، التفسير القرآني للقرآن، يونس الخطيب

ثانيًا: جزاء السعي المذموم في الدنيا والآخرة:

١ . جزاء السعي المذموم في الدنيا.

- **الزيغ والضلال.**

قال تعالى مخبرًا عن بني إسرائيل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

لما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة.

- **نسيان الله تعالى.**

قال تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

وقال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف:٥١].

وقال سبحانه: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ [السجدة:١٤]

ذوقوا العذاب بسبب تكذيبكم به وتناسيكم له، يقول الله تعالى ذلك من باب المقابلة؛ لأنّ الله تعالى لا ينسى شيئًا، ولا يضلّ عنه شيء. وقد حذّر الله تعالى عباده أن ينسوه فقال: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

- **مجازاتهم بعين صنيعهم.**

قال تعالى في المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة:١٤-١٥].

وقال تعالى في المنافقين: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة:٧٩].

وأما المكر: تدبير الأمر في خفية، والمكر من الله تعالى هو جزاؤهم بالعذاب مع مكرهم من حيث لا يشعرون. وقال سبحانه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠].

وقال: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل:٥٠].

- **الخزي في الحياة الدنيا.**

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة:١١٤].

- **القتل والتشريد وإقامة الحد عليهم.**

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟

٨/ ٧٨٦.

﴿مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٤﴾ [المائدة:٣٣-٣٤].

* إلقاء العداوة والبغضاء بينهم الى يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٦٤﴾ [المائدة:٦٤].

* الضلال في أعمال الدنيا.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۝١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ۝١٠٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ۝١٠٨﴾ [الكهف:١٠٤-١٠٨].

٢. جزاء السعي المذموم في الآخرة.

* أنهم أصحاب الجحيم.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝٥١﴾ [الحج:٥١].

وهو العذاب من رجز أليم: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥﴾ [سبأ:٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝٣٨﴾ [سبأ:٣٨].

وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩﴾ [الإسراء:١٨-١٩].

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل عليه، بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء، وهذه مقيدة لإطلاق ما سواها من الآيات، فإنه قال: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ أي: في الدار الآخرة ﴿يَصْلَىٰهَا﴾ أي يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿مَذْمُومًا﴾ أي: في حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الفاني على الباقي ﴿مَّدْحُورًا﴾ مبعداً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً[1].

* تحبط أعمالهم يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ۝١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٥٨.

﴿جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الكهف:١٠٤-١٠٦].

وقد أوضح جل وعلا هذا المفهوم في آيات أخر؛ كقوله في أعمال غير المؤمنين: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣].

وقوله: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم:١٨].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور:٣٩].

إلى غير ذلك من الآيات.

- أن عمل الكافر الذي يتقرب به إلى الله يجازى به في الدنيا، ولا حظ له منه في الآخرة.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود:١٥-١٦].

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى:٢٠][1]، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود:١٥-١٦].

وتوفيتهم أعمالهم، إنالتهم ثمراتها مكملةً في الدنيا، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾: لا ينقصون من جزائهم عليها بتحصيل المسببات التي توسلوا إليها بأسبابها. ثم في الآخرة تحبط تلك الأعمال فلا يكون عليها من جزاء ولا لها من ثمرة، لأنها كانت أعمالًا باطلةً لا ثبات لها[2].

موضوعات ذات صلة:

الرزق، السير، العمل، الكسب، المشي

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٨٢.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢٦٩، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٦٧، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٥١.





عناصر الموضوع

مفهوم السلام	١٧٢
السلام في الاستعمال القرآني	١٧٣
الألفاظ ذات الصلة	١٧٤
مكانة السلام	١٧٥
السلام الإلهي	١٨٢
سلام الملائكة	١٨٨
السلام شعار المؤمن	١٩٣
السلام مع المخالفين	١٩٧
أثر إفشاء السلام على المجتمع	٢٠٠

مفهوم السلام

أولًا: المعنى اللغوي:

السلام: اسم مصدر من الفعل «سلّم» يقال: سلّم تسليماً مصدر، وسلامًا اسم مصدر.

وأصل مادة «سلم» تفيد معنى السلامة من كل شر، قال ابن فارس: «السين واللام معظم بابه من الصحة والعافية، والشاذ عنه قليل»[(١)].

وقال الراغب: «السّلم والسلامة: التعري من الآفات الظاهرة والباطنة»[(٢)]. وقريب منه المعنى المحوري للمادة: «صحة جرم الشيء والتئام ظاهره في ذاته»[(٣)].

و(السلام) من أسماء الله الحسنى، لسلامته سبحانه من كل نقص.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

المعنى اللغوي للكلمة الذي ترجع إليه كل معانيها هو السلامة من كل عيب حسي أو معنوي.

ولا يختلف السلام في معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي ويمكننا أن نعرّفه فنقول: السلام اسم من أسماء الله تعالى يدل على معنى التحية والسلامة من كل سوء وشر.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٩٠.
(٢) المفردات ص ٤٢١.
(٣) المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، محمد حسن جبل ٢/ ١٠٦٣.



السلام في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سلم) في القرآن الكريم (١٤٠) مرةً، يخص موضوع البحث (٥٠) مرةً[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾[الأنفال:٤٣]
الفعل المضارع	٢	﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[النور:٢٧]
الفعل الأمر	٢	﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[النور:٦١]
المصدر	٤٥	﴿وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾[الأعراف:٤٦]

وجاء السّلام في الاستعمال القرآني على خمسة أوجه[٢]:

الأول: هو الله تعالى: ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣].

الثاني: الخير: ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾[الزخرف: ٨٩] يعني: وقل خيرًا.

الثالث: الثناء الحسن: ومنه قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الصافات: ٧٩].

الرابع: السلامة من الشر: ومنه قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾[هود: ٤٨] يعني: بسلامة من الشر والغرق.

الخامس: التحية التي يحيّي بها المسلمون بعضهم بعضًا، وهي تحية أهل الجنة: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، ص٦٣١-٦٣٤.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٦٣-٢٦٤، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٣٥٦-٣٥٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ التحية:

التحية لغة:

مصدر حيبى يحيى، وأصلها تحيية على وزن تفعلة، فأدغمت الياء في الياء، ، والتحية تأتي بمعنى : البقاء، يقال: التحيات لله، الملك والبقاء لله، وتأتي بمعنى : السلام، والتحية في كلام العرب ما يحيي بعضهم بعضًا إذا تلاقوا[(١)] .

التحية اصطلاحًا:

لا يختلف معناها الاصطلاحي عن معناه اللغوي.

الصلة بين التحية والسلام:

التحية تشترك مع السلام، وهي أعم، قال العسكري:«التحية أعم من السلام؛ يدخل في التحية حياك الله، ولك البشرى، ولقيت الخير»[(٢)] .

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٨٧، المفردات، الراغب ص ٢٦٩، لسان العرب ١٤/ ٢١٧.
(٢) الفروق اللغوية ص ٥٩.



مكانة السلام

أولًا: السلام اسم من أسماء الله الحسنى:

لقد ورد اسم الله السلام في قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾[الحشر: ٢٣].

وورد في السنة أيضًا؛ فعن عبد الله بن مسعود قال: كنا إذا صلينا مع النبي صلى الله عليه وسلم قلنا: السلام على الله قبل عباده، السلام على جبريل، السلام على ميكائيل، السلام على فلان وفلان، فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم أقبل علينا بوجهه فقال: (إن الله هو السلام، فإذا جلس أحدكم في الصلاة فليقل: التحيات لله)[(١)].

وعن ثوبان قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انصرف من صلاته، استغفر ثلاثًا وقال: (اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت ياذا الجلال والإكرام)[(٢)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب السلام اسم من أسماء الله تعالى، ٨/ ٥١، رقم ٦٢٣٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة، ١/ ٣٠١، رقم ٤٠٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، ١/ ٤١٤، رقم ٥٩١.

(السلام اسم من اسماء الله تعالى وضعه فأنشوه بينكم)[(٣)].

وفي معنى اسم السلام يقول ابن بطال: ومعناه السالم من النقائص والآفات الدالة على حدوث من وجدت به، متضمن لمعنى السلامة من ذلك كله[(٤)].

وقال الزجاج: «السلام هو الذي سلم من عذابه من لايستحقه»[(٥)].

وقيل: المسلم أولياءه.

وقيل: المسلم عليهم[(٦)].

وقيل: سلم الخلق من ظلمه، بمعنى أنه لا يتصف بالظلم.

وقيل: مسلم عباده من الهلاك.

وقيل: مسلم المؤمنين من العذاب.

وقيل: المسلم على مصطفي عباده بقوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل:٥٩].

وقيل: المسلم على المؤمنين في الجنة لقوله ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[يس:٥٨].

وقيل: لطول بقائه[(٧)].

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب السلام اسم من أسماء الله، ص٥٥٢، رقم ٩٨٩.
قال ابن حجر في التلخيص الحبير ٤/ ٢٥٠: إسناده جيد.

(٤) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ١٠/ ٤٠٩.

(٥) تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج ص ٣١.

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم ٤/ ١١٦.

(٧) شرح سنن أبي داود، بدر الدين العيني ٥/ ٤٢٢- ٤٢٣.

وكلها معان صحيحة يجوز إطلاقها عليه سبحانه ولا تعارض بينها، فهو سبحانه السلام في ذاته وصفاته وأفعاله، «بل هو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار؛ فعلم أن استحقاقه تعالى لهذا الاسم أكمل من استحقاق كل ما يطلق عليه.. فهو السلام من الصاحبة والولد والسلام من الشريك، وإذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلاماً مما يضادها؛ فحياته سلام من الموت، وكذلك قيوميته وقدرته»[(١)].

ثانيًا: من أسماء الجنة دار السلام:

أعد الله الجنة دارًا للمؤمنين خالدين فيها أبدًا، وغرس كرامتهم فيها بيده سبحانه؛ فكانت دار سلام وأمن لا فيها أذى ولا نصب، ومن أسمائها دار السلام.

قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٧].

وفي الآية وعد حسن من الله للقوم الذين يذّكرون بأن لهم دار السلام، ودار السلام هي الجنة إجماعًا، وفي تقديم ﴿لَهُمْ﴾ دلالة على اختصاصهم بالجنة، والسلام له معنيان: «أحدهما: ان السلام اسم من أسماء الله عز وجل، فأضاف الدار إليه هي ملكه وخلقه، والثاني أنه المصدر بمعنى السلامة، كما تقول : السلام عليك»[(٢)].

والظاهر رجحان المعنى الثاني؛ «فإنه لو كانت الإضافة إلى مالكها لأضيفت إلى اسم من اسمائه غير السلام وكان يقال: دارالرحمن أو دار الله.... وأيضًا فلأن المعهود في القرآن إضافتها إلى صفتها أو إلى أهلها؛ أماالأول فنحو دار القرار، دار الخلد.... وأما الثاني فنحو: دار المتقين ولم تعهد إضافتها إلى اسم من أسماء الله في القرآن، فالأولى حمل الإضافة على المعهود في القرآن»[(٣)].

وسميت الجنة دار السلام لسلامتها من كل آفة، وقيل: لأن من دخلها سلم من البلايا والرزايا أجمع، وقيل: لأنها سلمت من دخول أعداء الله، كيلا يتنغص أولياء الله فيها كما ينغص مجاورتهم في الدنيا وقيل: سميت بذلك لأن كل حاله من حالات أهلها مقرونه بالسلام»[(٤)].

وهذه دعوة من الله العلي الأعلى لعباده على لسان رسله وملائكته كي ينيبوا إلى ربهم ويفعلون ما يوصلهم إلى دار السلامة والكرامة، وفي الحديث عن أبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل**

(١) انظر بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٣٥.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٤٤.
(٣) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٣٤.
(٤) الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ١٩٠.

وكفى خيرٌ مما كثر وألهى. وأنزل الله في ذلك قرآناً في سورة يونس ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [يونس:٢٥][1].

وتتعدد مواطن السلامة في الجنة، فالدخول في الجنة بسلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر:٤٥، ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٖ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق:٣١- ٣٤].

وفي الآيتين حذف فعل القول، وهو في القرآن كثير، وتقدير المعنى: ويقال لهم: ادخلوها بسلام، والقائل: الله تعالى أو ملائكته الكرام، ومعنى بسلام، بسلامة من النار، أو بسلامة تصحبكم من كل آفة، أو بتحية من الله»[2].

ولفظ السلام يشمل كذلك السلامة من الغل والخصام والنزاع بدليل ما بعدها ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧].

والسلامة في الجنة من كل ما ينغص، وفي الحديث: (ينادي مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا)[3].

والتحية في الجنة هي : السلام.

قال تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس:١٠].

وقال تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم:٢٣].

وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب:٤٤].

إن التحية بالسلام نوع من الإكرام، وفيها السلامة من كل شر.

قال ابن القيم: «ولما كانت الجنة دار السلامة من كل عيب وشر وآفة، بل قد سلمت من كل ما ينغص العيش والحياة، كانت تحية أهلها فيها سلام، والرب يحييهم فيها بالسلام والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم»[4].

وإذا كانت الآيات السابقة قد أفادت أن

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ٨/ ١٢١ رقم ٣٣٢٩، والبيهقي في شعب الإيمان، ٥/ ٩٠، رقم ٣١٣٩، والطبري في التفسير ١٢/ ١٥٤. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٨٠٤، ٤٤٣.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٦١، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٣٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفه نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، رقم ٢٨٣٧.

(٤) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٤٥.

التحية في الجنة تكون بالسلام، فقد ورد في القرآن أن السلام في الجنة غير التحية، قال تعالى في ثواب عباد الرحمن: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ۝٧٥﴾ [الفرقان: ٧٥].

فعطف التحية على السلام، وفي الفرق بينهما يقول الزمخشري: «والتحية دعاء بالتعمير، والسلام دعاء بالسلامة»[١].

وقال العسكري: «والتحية أعم من السلام، والسلام مخصوص ويدخل في التحية: حياك الله، ولك البشرى، ولقيت كل خير»[٢].

وقال مقاتل: المراد بالتحية: سلام بعض على بعض، أو سلام الملائكة عليهم، والمراد بالسلام أن الله سلمهم مما يخافون وسلم إليهم أمرهم، وقيل: التحية من الملائكة أو من أهل الجنة والسلام من الله تعالى عليهم، وقيل: التحية من الله تعالى لهم بالهدايا والتحف، والسلام بالقول[٣].

ومن أوجه السلام في الجنة أن القول فيها سلام؛ قال تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ۝٦٢﴾ [مريم: ٦٢].

(١) الكشاف ٣/ ٢٩٧.
(٢) الوجوه والنظائر، العسكري ص ٢٥٨.
(٣) انظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل، زين الدين الرازي ص ٣٦٧.

وقال ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾[الواقعة: ٢٥- ٢٦].

ومن جملة النعيم الذي يحظى به أهل الجنة أنهم يسمعون الكلام الطيب، واستثناء السلام من اللغو في الآية الأولى ومن اللغو والتأثيم في الآية الثانية إنما هو من قبيل الاستثناء المنقطع الذي ليس من جنس المستثنى منه.

والمعنى: أن أهل الجنة لايسمعون أي كلام من اللغو أو الهذر الذي لا فائدة منه.

قال تعالى «﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا﴾» [النبأ: ٣٥].

وقال ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾[الغاشية: ١١].

و﴿لَٰغِيَةٗ﴾ نكرة في سياق النفي أفادت العموم، فلا لغو في الجنة بحال. بل يسمعون الكلام الطيب الذي يسلمون به.

قال الزجاج: «(وسلامًا) اسم جامع للخير متضمن للسلامة، فالمعنى: أن أهل الجنة لا يسمعون إلا ما يسلمهم»[٤].

ويرى الزمخشري أن الاستثناء في الآية متصل، وتقدير المعنى عنده، أي: إن كان تسليم بعضهم على بعض، وتسليم الملائكة عليهم لغوًا، فلا يسمعون لغواً إلا ذلك[٥]، فهو يعدها من قبيل تأكيد المدح بما يشبه الذم.

(٤) الكشاف ٣/ ٢٧.
(٥) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٣٣٧.

وفي قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦].

يقول ابن القيم: «وهذا فيه نفي لسماع اللغو والتأثيم، وإثبات لضده وهو السلام المنافي لهما: فالمقصود به نفي شيء وإثبات ضده»[١].

والتسليم من الله تعالى على عباده في الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ۝٥٦ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٥: ٥٨].

والمعنى«ولهم فيها ما يدعون، وذلك هو سلام من الله عليهم، بمعنى تسليم من الله»[٢].

والظاهر من سياق الكلام أنه سلام من الله بدون واسطة ملك. وقد روى من حديث جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم فقال : السلام عليكم يا أهل الجنة ، وذلك قول الله ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾[يس:٥٨]. قال: فينظر إليهم، وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم، ماداموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته في ديارهم)[٣].

وعن عمر بن عبد العزيز، قال: « إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار، أقبل في ظلل من الغمام والملائكة، قال: فيسلم على أهل الجنة فيردون عليه السلام». قال القرظي: «وهذا في القرآن ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾»[٤]. وسلام الملائكة ثابت في أكثر من آية وسيأتي.

ومن أوجه السلام على أهل الجنة ما يسلم به عليهم أهل الأعراف، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ۚ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾[الأعراف: ٤٦].

والأعراف مشتق من العرف؛ لأن كل مرتفع من الأرض عند العرب أعراف[٥].

وقد اختلف فيهم على أقوال متعددة؛ قال صديق خان: «وفي هذه الأقوال ما يدل على أن أصحاب الأعراف دون أهل الجنة في الدرجات وإن كانوا يدخلون الجنة

---

(١) بدائع الفوائد ٣/ ٦٩.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٦٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، ١/ ٦٥، رقم ٢١٨٤.
قال البوصيري في مصباح الزجاجة ١/ ٢٦: هذا إسناد ضعيف، لضعف الفضل بن عيسى ابن إبان الرقاشي.

(٤) تفسير القرآن، ابن وهب ٦/ ٥٨٤، جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٦٨، الرد على الجهمية، الدارمي ص رقم ١٤٦.

(٥) مجاز القرآن، أبو عبيدة ١/ ٢١٥.

برحمة الله تعالى، وفيها ما يدل على أنهم أفضل من أهل الجنة وأعلى منهم منزلةً وليس في الباب ما يقطع به من نص جلي وبرهان نير»[١].

وإن كانت دلالة لفظ الأعراف توحي أنهم في منزلة عالية يعرفون أهل الجنة ببياض وجوههم ويعرفون أهل النار بسواد وجوههم، وهم يطمعون في موضع الحال من ضمير الجماعة في ﴿يَدْخُلُوهَا﴾ ويكون المعنى لم يدخلوها في حال طمع بها، بل في حال يأس وخوف[٢].

قال القاسمي: «ولا يبعد عندي أن يكون ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ حالًا من ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ أي: نادوهم بالسلام وهم في الموقف على طمع دخول الجنة يبشرونهم بالأمان والفوز من العذاب إشارةً إلى سبق أهل الأعراف على غيرهم في دخول الجنة وعلو منازلهم على سواهم»[٣].

ومما سبق يتضح لنا أن الجنة دار السلام؛ يسلم فيها الرب جل في علاه على أهل الجنة، وتسلم عليهم الملائكة، ويسلم عليهم أصحاب الأعراف، والسلام تحيتهم فيما بينهم، وهو تحيتهم عند الدخول، وفي داخلها، وهو كلامهم فيما بينهم، فهم في سلام دائم.

(١) فتح البيان، القنوجي ٤/ ٣٦٥.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٠٥.
(٣) محاسن التأويل ٥/ ٦٢.

ثالثًا: السلام صفة شرع الله ودينه:

إن مادة (الإسلام) ومادة (السلام) ترجعان إلى أصل لغوي واحد هو السلامة والخلوص من كل ما يسوء، وما وحدة الأصل هذه إلا إشارة إلى وشائج قوية وصلة وثيقة بين الإسلام والسلام حتى صارت الجملة مثلًا سائرًا: (الإسلام دين السلام).

قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

فالنور هو القرآن، أو هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم لعطفه على الكتاب، وهو سبب الهداية لمن اتبع رضوان الله فيهتدي إلى طريق الجنة، قال الطبري: «سبل السلام سبيل الله الذي شرعه لعباده ودعاهم إليه، وبعث به رسله، وهو الإسلام الذي لا يقبل من أحد عملًا إلا به، لا اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية»[٤].

وإذا كان لفظ السبل جاء مجموعًا هنا فهو بمثابة شعب الإيمان الذي يجمعها جامع واحد، فكل هذه السبل للخير، كجداول الماء التي تخرج من النهر، أو كالشجرة التي يخرج منها أطايب الثمار فتؤتي أكلها كل

(٤) جامع البيان ٨/ ٢٦٥.

حين بإذن ربها.

والتعبير القرآني ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ يعتبر من الأوصاف الربانية العظيمة الدقيقة لهذا الدين الخالد، يقول سيد قطب:«وما أدق هذا التعبير وأصدقه، إنه (السلام) هو ما يسكبه هذا الدين في الحياة كلها.... سلام الفرد. وسلام الجماعة. وسلام العالم. سلام الضمير، وسلام العقل، وسلام الجوارح، وسلام البيت والأسرة، وسلام المجتمع والأمة، وسلام البشر والإنسانية. السلام مع الحياة والسلام مع الكون. والسلام مع الله رب الكون والحياة. السلام الذي لا تجده البشرية ولم تجده يومًا. إلا في هذا الدين وإلا في منهجه ونظامه وشريعته، ومجتمعه الذي يقوم على عقيدته وشريعته»[1].

ومن الألفاظ المقاربة التي جاءت بمعنى الإسلام قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾[البقرة: ٢٠٨].

فإن السلم هنا معناه : الإسلام عند جمهور المفسرين[2].

وللراغب تأويل لطيف لارتباط معنى السلم هنا بالطاعة فيقول : «عني بالسلم سلم العبد لله عز وجل، وذلك أن الإنسان في كفره وكفران نعمة الله كالمحارب له، وبهذا يسمى الكافر: المحارب، في نحو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المائدة: ٣٣].

وسلم العبد لله على ثلاث أضرب.... الإسلام الذي سلم به من الله أن يراق دمه...، واثنان بعد الإيمان أحدهما : أن يسلم من سخطه بارتسام أوامره وزواجره... والثاني : أن يكون سليماً من الشيطان وأوليائه وسليماً فيما يجري من قضائه، وبه يحصل دار السلام وهذا غاية ما ينتهي إليه العبد.... وهذا السلم هو المعنى بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[آل عمران: ١٩] »[3].

وهذا ربط جيد بين معاني لفظة السلام بمشتقاتها، فالمسلم مستسلم لربه، منقاد له بمحبة وإخبات، مسالم لكل ما حوله ومن حوله، سالم من شر الشيطان وشركه، ومصيره إلى دار السلام بسلام، وفي معنى السلام والاستسلام والانقياد تدخل كل مفردات ومشتقات مادة (الإسلام) بصيغها المختلفة.

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٨٦٢.

(٢) مجاز القرآن، أبو عبيدة ١/ ٧١، معاني القرآني، الأخفش ١/ ١٨٠، جامع البيان، الطبري ٣/ ٥٩٥، تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٢/ ١٠٢، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٤٠، محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٨٥.

(٣) تفسير الراغب ١/ ٤٣٢.

السلام الإلهي

إن من معاني اسم الله (السلام) أنه تبارك وتعالى هو المسلِّم على أوليائه سلام بر وإكرام ولطف وثناء حسن منه تعالى، وأمان منه لهم في كل أمورهم وأحوالهم، وفي القرآن الكريم سلام من الله تعالى على أنبيائه إجمالًا وعلى بعضهم تخصيصًا.

أولًا: سلام الله على أنبيائه ورسله:

فمن الأول قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

والآية خطاب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن قص عليه إهلاك الأمم المكذبة أمره أن يحمده على هلاك الظالمين، أو هي استفتاح الاعتبار بالحمد لله والسلام.

وقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ يعني أمنةً ثابتةً من الله لعباده المصطفين، وجملة ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ﴾ من الله تحتمل وجهين: «تحتمل أن تكون داخلة في حيز القول فتكون معطوفةً على الجملة الخبرية وهي الحمد لله، ويكون الأمر بالقول متناولاً للجملتين معًا.

وعلى هذا فيكون الوقف على الجملة الأخيرة ويكون محلها النصب محكية بالقول، ويحتمل أن تكون جملةً مستقلةً معطوفة على جملة الطلب، وعلى هذا فلا محل لها من الإعراب، وهذا التقدير أرجح وعليه يكون السلام من الله عليهم»[(١)].

والمصطفون هم الأنبياء كما ورد عن عبدالرحمن بن زيد[(٢)].

وورد عن عبد الله بن عباس والسدي والثوري أنهم الصحابه الكرام رضوان الله عليهم[(٣)].

قال ابن كثير: «ولا منافاة؛ فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى». وقال ابن جزي: «واللفظ يعم الملائكة والأنبياء والصحابة والصالحين»[(٤)].

وفي ختام سورة الصافات جاء قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

---

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ٣٤٩.
وفي كتاب بدائع الفوائد ٢/ ١٧٢ له قال: «الآية تتضمن الأمرين جميعاً.... فإن الرسول هو المبلغ عن الله كلامه.... والكلام كلام الرب تبارك وتعالى، فهو الذي حمد نفسه وسلم على عباده وأمر رسوله بتبليغ ذلك.... فهو سلام من الله ابتداءً ومن المبلغ بلاغاً ومن العباد اقتداءً وطاعة».

(٢) واختاره الطبري في تفسيره ١٨/ ٩٨.

(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٢١٨، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ١٧١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢٢٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٠١، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٠٥.

وفي السورة عرض لافتراءات المشركين على الملائكة وعلى الذات الإلهية ورد عليها، ثم تأتي الآية الكريمة في الختام وفيها الرد الإجمالي على كل مكذب، ففيها أولًا تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق، وسلامة رسله الكرام من كل افتراء وكيد ثم تختتم بالثناء الجميل على الله جل في علاه، وقد اقترن السلام على المرسلين بالتسبيح والحمد، وفي الآية السابقة اقترن السلام على المرسلين بالحمد.

وجاء التسبيح في الآية الأولى والحمد في الثانية، إذا التسبيح مقدمة الحمد، ففيه التنزيه وفي الحمد الثناء، وهو بعد التسبيح، فسبحان الله وبحمده؛ قال الماتريدي: «في هذه الأحرف الثلاثة جميع ما بينه الله تعالى من الحق على الخلق من التوحيد والثناء الحسن والحمد لنعمه، وجميع ما عليهم من الثناء الحسن والحمد له، وما ألزمهم من الثناء الحسن على جميع المرسلين»[(١)].

وفي الآية تعليم للأمة أن تصلي على جميع المرسلين، وفي الحديث: (صلوا على أنبياء الله ورسله، فإن الله بعثهم كما بعثني)[(٢)].

وفي آي القرآن تفصيل للسلام على بعض صفوة الله من خلقه صلوات الله عليهم أجمعين وهم:

١. السلام على نوح عليه السلام.

وذلك في موطنين، أولهما في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ [هود: ٤٨].

وجاءت الآية في ختام قصة نوح بعد إغراق قومه المكذبين في الطوفان ونجاته هو ومن معه من المؤمنين، فجاء النداء الإلهي بالانتشار في الأرض مصاحبًا للسلامة والأمن والتحية من الله له ولمن معه، وهم في أحوج حال إلى السلامة أثناء نزولهم إلى الأرض ليهنأ لهم العيش، وفي حاجة إلى البركة بعد نزولهم ليحدث التكاثر في ذريته وفي من معه من الكائنات. فالسلامة من الله النجاة من آثار الطوفان لنوح ولمن معه ولمن كانوا في صلبه، وإن لكل مؤمن نصيبًا من هذه السلامة، نحن ذرية من كان مع نوح، قال القرطبي: «دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة»[(٣)].

وفي استفتاح الزمرة الطيبة من صفوة خلق في سورة الصافات جاء السلام على نوح عليه السلام من الرب الجليل فقال

(١) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٥٩٦.
(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف، ٢/ ٢١٦، رقم ٣١١٨، والبيهقي في شعب الإيمان، ١/ ٢٧٧، رقم ١٣٠، عن أبي هريرة. قال ابن حجر في المطالب العالية ١٣/ ٨١٣: سنده حسن.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٤٣٨

تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾[الصافات: ٧٨- ٧٩].

ففي الآيات ثناء على نوح وإبقاء لذلك الذكر الطيب في كل عصر ومصر، فجملة ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ في محل نصب مفعول (تركنا) على الحكاية، كما تقول قرأت من القرآن ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[(١)].

فجميع العالمين يسلمون على نوح ويدعون له ويذكرونه بالخير، ويصلون عليه، ولم يأت ذكر ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾ مع نبي في السورة سواه، وذلك لأنه الأب الثاني للبشر، وأول رسول أرسل إلى الأرض، وهو من أولي العزم الذين صبروا على أذى قومهم وظل يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فاستحق أن يظل الثناء عليه باقياً في الأرض لا ينقطع.

ويرى الطبرى أن السلام على نوح أمنةً من الله له لنوح في العالمين أن يذكره أحد بسوء. وعلى هذا يكون قوله (سلام) مستأنفًا، مسلّم الله عليه ليقتدي بذلك البشر[(٢)].

٢. السلام على إبراهيم عليه السلام.

وجاء السلام عليه في قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[الصافات: ١٠٩- ١١١].

والسلام على إبراهيم عليه السلام ثابت وحاصل وممتد، فهو الخليل أبو الأنبياء، وهو الأمة الإمام المقتدى به، الذي تتشرف كل الأمم بالانتساب إليه. ومن جملة السلامة له ما حصل له من معجزة أثناء إلقائه في النار حيث نجاه الله تعالى، قال سبحانه: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

فكان السلام حافظاً له أن يؤذيه حرها أو بردها، قال ابن عباس: لو لم يتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من شدة بردها[(٣)].

٣. السلام على موسى وهارون عليهما السلام.

وثالث سلام في سورة الصافات على موسى وهارون.

قال تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[الصافات: ١٢٠- ١٢٢].

وموسى عليه السلام من أولي العزم الذين جاهدوا في الله وتحملوا أذى قومهم، وقد قام بدين الله خير قيام هو ووزيره هارون النبي، فنصرهما الله وآتاهما التوراة، وترك لهما في الآخرين الذكر الطيب والصلاة

(١) معاني القرآن، الفراء ٢/ ٣٨٨، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٩/ ٦١١١، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٨.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٦٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٠٦.

عليهما.

٤. السلام على إلياس عليه السلام.

إن إلياس عليه السلام من الأنبياء الذين أبقى الله لهم ثناءً ودعاءً، و(إل ياسين) على وزن إسماعيل، وهو إلياس على الصحيح أو إلياس وآله الذين آمنوا معه واتبعوه[١].

وفي التسليم على هؤلاء الأنبياء الكرام تنويه بفضلهم، وإشعار بحسن الثناء عليهم.

وفي تنكير (سلام) دلالة على التعظيم، وفي تقديم السلام على الاسم لفتة؛ ذلك «أن في الدنيا قدموا اسم الدعاء المحبوب الذي تشتهيه النفوس وتطلبه ويلذ السمع لفظه فيبدأ السمع بذكر الاسم المحبوب المطلوب ويبدأ القلب بتصوره فيفتح له القلب والسمع فيبقى السامع كالمنتظر لمن يحصل هذا وعلى من يحل فيأتي باسمه فيقول عليك أو لك فيحصل له من السرور والفرح»[٢].

٥. السلام على يحيى عليه السلام.

ومن السلام على الأنبياء ما ورد في قصة يحيى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم:١٥].

وهذه المواطن هي أشد مواطن على المرء فيحتاج فيها إلى الأمان والسلامة، فيسلم بها نزغة الشيطان المتحتمة لكل مولود ومن فتنة الشيطان عند الموت، ومن كرب وهول المطلع يوم القيامة.

قال سفيان بن عيينة: «أوحش ما يكون ابن آدم في ثلاثة مواطن: في يوم ولد فيخرج إلى دار همٍّ، وليلة يبيت مع الموتى فيجاور جيراناً لم ير مثلهم، ويوم يبعث فيشهد مشهدًا لم ير مثله قط، قال الله تعالى ليحيى ابن زكريا في هذه الثلاثة مواطن: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم: ١٥]»[٣].

والسلام هنا بمعنى الأمان عند الطبري وغيره، قال ابن عطية : «والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة، فهي أشرف وأنبه من الأمان»، ووفق الشنقيطي بين القولين فقال: «ومرجع القولين إلى شيء واحد؛ لأن معنى السلام: التحية والأمان والسلامة مما يكره، وقول من قال هو الأمان، يعني أن ذلك الأمان من الله، والتحية من الله معناها الأمان والسلامة مما يكره»[٤].

٦. السلام على عيسى عليه السلام.

وقد جاء السلام في حق عيسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا﴾ [مريم:

(١) انظر: معاني القرآن، الفراء ٢/ ٣٩١، مجاز القرآن، أبو عبيدة ٢/ ١٧٢.
(٢) بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ١٧٤.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٨٢.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٤٨١، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٨، أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٣٨١.

[٣٣].

وسلام يحيى من الله عليه، أما عيسى فقد أنطقه الله في المهد بالسلام عليه في نفس المواطن، وجاء سلام عيسى معرفًا بالألف واللام، قيل: لأنه لما جرى ذكر (سلام) قبل هذا الموضع بغير ألف ولام كان الأحسن أن يرد ثانية بالألف واللام[١].

فيكون المعنى: السلام الذي سبق على يحيى متوجه إليه أيضًا، وقيل: إن الأول من الله، والقليل منه كثير ، والثاني من عيسى والكثير منه لا يبلغ معشار سلام الله[٢].

ثانيًا: سلام الله على أهل الجنة:

وليس السلام الإلهي قاصرًا على الدنيا وأحوالها ولا على الأنبياء وحسب، وإنما يعم السلام جميع أهل الجنة وهم فيها، فالتحية في الجنة من الله بالسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٥: ٥٨].

ولفظ (سلام) جعله بعضهم مرتبطاً بما قبله.

قال الفراء: «ذلك لهم سلام قولًا، أي: لهم ما يدعوه مسلم خالص، أي: هو خالص، يجعله خبرًا لقوله لهم ما يدعون، خالص، ورفع على الاستئناف، يريد ذلك لهم سلام»[٣].

والأقرب الذي عليه الجمهور أن السلام خبر؛ فيكون المعنى أن السلام من الله عليهم، وهو التحية، والسلام «يجمع جميع النعم»[٤].

وبذلك يشمل التحية والسلام، قال ابن سعدي: «وإذا سلم عليهم الرب الرحيم، حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه وحصلت لهم التحية لا تحية أعلى منها ولا نعيم مثلها، فما ظنك التحية ملك الملوك الرب العظيم الرؤوف الرحيم لأهل دار كرامته»[٥].

وإذا كان السلام عند جماعة من المفسرين يحتمل أن يكون من الرب الرحيم مباشرة ويحتمل أن يكون من الملائكة فإن الأقرب والأولى بنظم الآية أن يكون من الله تعالى؛ فـ (من) هنا ابتدائية، فالسلام من السلام وهذا غاية الإكرام.

ومن سلام الله على عباده المؤمنين في الجنة قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩٠: ٩١].

وهذه السلامة تصحبهم في احتضارهم، وهم في الجنة، وقيل: المعنى: مسلم لك

(١) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٣٢٩.
(٢) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٤٨٣.
(٣) معاني القرآن، الفراء ٢/ ٣٨١.
(٤) نظم الدرر، البقاعي ١٦/ ١٤٩.
(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٩٧.

إنك من أصحاب اليمين[1].

ونلاحظ أن السلام هنا تعدى باللام ولم يتعد بـ(على) كما في غيره من المواضع، وفي تأويل ذلك يقول أبوالسعود:«إخبار من جهته تعالى بتسليم بعضهم على بعض، كما يفصح عنه اللام لا حكاية إفشاء سلام بعضهم على بعض، وإلا قيل عليك»[2].

ويقول ابن القيم: «﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾، أي: ثبت لك السلام وحصل لك، وعلى هذا فالخطاب لكل من هو من هذا الضرب، فهو خطاب للجنس، أي: فسلام لك يا من هو من أصحاب اليمين، كما تقول: هنيئًا لك يا من هو منهم»[3].

وهذا السلام الأقرب أنه بمعنى السلامة وإن كانت اللفظة تشمل كل إكرام وتبعد عن كل سوء وشر.. ويدخل في السلام الإلهي على أهل الجنة ما سبق من قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾[يونس:١٠٥].

وقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾[إبراهيم: ٢٣].

وقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب:٤٤].

وقوله: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾[ق: ٣٤].

وقوله: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥].

فكل هذا سلام إلهي سواءً كان من الرب الرحيم مباشرةً أو بواسطة الملائكة، فإنهم مبلغون عن الرب ذي الجلال والإكرام والفيض والإنعام على عباده سكان دار السلام.

(١) معاني القرآن، الفراء ٣/ ١٣١. وهو اختيار البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الواقعة، ٦/ ١٤٦.

(٢) إرشاد العقل السليم، ٨/ ٢٠٢.

(٣) بدائع الفوائد ٢/ ١٤٧.

سلام الملائكة

تتعدد مواقف الملائكة مع المؤمنين، فالملائكة يثبتون المؤمنين، ويدعون لهم، ويستغفرون لهم، ويحفظونهم من الأمر إلى غير ذلك. ومن المواقف الطيبة المباركة للملائكة مع المؤمنين: السلام عليهم وتتعدد مواطن ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: سلام الملائكة على الأنبياء:

وقد ورد في القرآن الكريم سلام الملائكة على إبراهيم عليه السلام وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾[هود: ٦٩].

وقوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾[الحجر: ٥١- ٥٢].

وقوله : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾[الذاريات: ٢٤- ٢٥].

وخلاصة تفسير هذه الآيات: أن الملائكة نزلوا على إبراهيم متلبسين أو مصاحبين بالبشرى وهي ولادة يعقوب، وقيل: بإهلاك قوم لوط[١].

ولا مانع من إرادة كليهما وإن كان الأول أقرب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١].

قال الشنقيطي: «لأن فيها التصريح بأن إخبارهم بإهلاك قوم لوط بعد مجيئهم بالبشرى، لأنه مرتب عليه بأداة الشرط التي هي لما»[٢].

وقد حيوه بالسلام، فقالوا: نسلم عليك سلامًا، فرد تحيتهم بأحسن منها، فقال: سلام عليكم. أو يكون التقدير: فأمري سلام.

قال ابن القيم: «فإن تحيتهم باسم منصوب متضمن لجملة فعلية تقديره: سلمنا عليك سلامًا، وتحية إبراهيم لهم باسم مرفوع متضمن لجملة إسمية تقديره: سلام دائم أو ثابت أو مستقر عليكم، ولا ريب أن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت واللزوم، والفعلية تقتضي التجدد والحدوث، فكانت تحية إبراهيم أكمل وأحسن»[٣][٤].

وللسهيلي في تأويل النصب من قولهم والرفع من قول إبراهيم عليه السلام تأويل لطيف حيث قال: «وحصل من الفرق بين الكلامين في حكاية هذا ورفعه ونصب ذلك، إشارة لطيفة وفائدة شريفة؛ وهو أن السلام من دين الإسلام، والإسلام ملة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٣٨٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٨٧.

(٢) الرسالة التبوكية ص ٦٦.

(٣) أضواء البيان ٢/ ١٨٥.

(٤) الرسالة التبوكية ص ٦٦.

إبراهيم عليه السلام، وقد أمرنا بالاتباع والاقتداء به، فحكي لنا قوله ولم يحك لنا قول أضيافه، إذ لا فائدة في تعريف كيفيته، وإنما الفائدة في تبيين قول إبراهيم وكيفية تحيته، ليقع الاقتداء به»[1].

ومن جملة تحية الملائكة للأنبياء ما ورد في حق يحيى عليه السلام: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا﴾[مريم: ١٥].

قال الرازي: «هذا السلام يمكن أن يكون من الله تعالى وأن يكون من الملائكة وعلى التقديرين فدلالة شرفه وفضله لا تختلف، لأن الملائكة لا يسلمون إلا عن أمر الله تعالى»[2].

ثانيًا: السلام ساعة الموت:

تمر على المرء لحظات شدة يحتاج فيها إلى البشارة، ومن أشد هذه الأوقات ساعة الاحتضار، ومقاساة شدائد نزع الروح وما في ذلك من كرب وألم وسكرات وغمرات، في وسط هذه الشدائد تنزل الملائكة على المؤمنين تبشرهم بالأمن والأمان.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣١ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

[النحل: ٣١- ٣٢].

وقد جاءت الآية بعد الحديث عن وفاة الكفار ظالمي أنفسهم وإخبارهم بدخولهم جهنم خالدين فيها، في مقابل هذا تأتي بشارة الملائكة في لحظة خروج الروح فالملائكة تتوفى المؤمنين وهم طيبون، وكلمة (طيبين) «كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة، وذلك لأنه يدخل فيه إتيانهم بكل ما أمروا به، واجتنابهم عن كل ما نهوا عنه ويدخل فيه كونهم موصوفين بالأخلاق الفاضلة مبرئين عن الأخلاق المذمومة»[3].

وقولهم:(سلام عليكم) يحتمل أن يكون بمعنى التحية ويحتمل معنى السلامة والأمن، ولها مانع من إرادة كليهما؛ قال محمد بن كعب القرظي: «إذا استنقعت نفس العبد المؤمن جاءه ملك فقال: السلام عليك ولي الله، الله يقرأ عليك السلام، ثم نزع بهذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾[النحل: ٣٢]»[4].

وقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ بشارة لهم بدخول الجنة.

ومن البشارات الطيبة للمؤمنين ساعة الموت قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾

[الواقعة: ٩٠- ٩١].

وهذا السلام من جملة مقول القول لهم، وتقدير المعنى: وأما إن كان من أصحاب

(١) نتائج الفكر، السهيلي ص٣١٩.
(٢) مفاتيح الغيب ٢١/ ٥١٨.
(٣) المصدر السابق ٢٠/ ٢٠٢.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢١٣.

اليمين فيقال: سلام لك من أصحاب اليمين، أي: تقول له الملائكة[1].

وقد ورد عن السلف في تفسير الآية ما يدل على هذا القول، فقال قتادة: سلام من عند الله وسلمت عليه ملائكة الله[2].

وقال الضحاك: عند قبض روحه في الدنيا يسلم عليه ملك الموت[3].

وهذا السلام جاء متعدياً بحرف اللام الذي يفيد الاختصاص، فالسلام مختص به، واصلٌ أثره إليه، فيه الأمن والسلامة وفيه التحية والبشارة.

ومما ورد في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣١].

قال مجاهد: ذاك عند الموت[4].

وقال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

قال ابن عباس في تفسيرها: إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة، فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا مات مشوا في جنازته...»[5].

ومن الأحاديث في ذلك ما ورد عن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها)[6].

ثالثاً: السلام في الجنة:

تتعدد وجوه النعيم والإكرام لأهل الجنة؛ ومن ذلك تسليم الملائكة عليهم؛ فان تحية الملائكة لهم تكون بالسلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

(١) التحرير والتنوير ٢٧/ ٣٤٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ١٦٢
(٣) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٤٦٧
(٤) تفسير مجاهد ص ٥٨٦.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٦٦٤، تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٤٥.
(٦) أخرجه مطولاً أحمد في مسنده، ٣٠/ ٥٠٣، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٦١٠.

[يونس: ٩، ١٠].

ففي الآية الكريمة بيان لتحية أهل الجنة، والتحية تحتمل أن تكون بين المؤمنين وبعضهم البعض أو من الله لهم أو من الملائكة؛ قال الألوسي: في تفسير الآية: «والفاعل إما الله سبحانه؛ أي: تحية الله تعالى إياهم ذلك، ويرشد إليه قوله عز وجل: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

أو الملائكة عليهم السلام، ويرشد إليه قوله سبحانه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ﴾ [الرعد: ٢٣].

يجوز أن تكون الإضافة إلى الفاعل بتقدير مضاف ، أي : تحية بعضهم بعض آخر ذلك»[١].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

قال ابن جريج: «الملائكة يسلمون عليهم في الجنة»[٢].

وقوله تعالى ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

قال الماتريدي: «جائز أن تكون تحية الملائكة عليهم سلام.... أوتحية بعضهم على بعض سلام»[٣].

وإذا كانت الآيات السابقة تحتمل أن تكون التحية لهم من الله تعالى أو من الملائكة أو من المؤمنين، فإن هناك آيات نصت صراحةً على أن الملائكة يسلمون على أهل الجنة؛ ومن ذلك قوله تعالى في جزاء أولي الألباب: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣- ٢٤].

فإن هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات الحميدة لهم جنات إقامة هم ومن آمن واستقام من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. وهذه تهنئة الدخول، تدخل الملائكة عليهم بالتهنئة بدخول الجنة، قائلين: سلام عليكم.

قال ابن عاشور: «وهذا من كرامتهم والتنويه بهم، فإن تردد رسل الله عليهم مظهر من مظاهر إكرامه، وذكر ﴿مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ كنايةً عن كثرة غشيان الملائكة إياهم بحيث لا يخلو باب من أبواب بيوتهم لاتدخل منه الملائكة. ذلك أن هذا الدخول لما كان مجلبة مسره كان كثيراً في الأمكنة، ويفهم منه أن ذلك كثير في الأمكنة فهو متكرر، لأنهم ما دخلوا من كل باب إلا لأن كل باب مشغول بطائفة منهم، فكأنه قيل: من كل باب

(١) روح المعاني، الألوسي ٦/ ٧٢.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٦٣٤.
(٣) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٨/ ٣٩٧.

في كل آن»[1].

ومن الأحاديث الواردة في تحية الملائكة لهؤلاء المؤمنين الصالحين ما ورد عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:(هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟) قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: (أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون، الذين تسد بهم الثغور ويتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره، لا يستطيع لها قضاء فيقول الله عز وجل لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك، وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عباداً يعبدوني، لا يشركون بي شيئاً، وتسد بهم الثغور، ويتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم، وحاجته في صدره، لا يستطيع لها قضاء قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب): ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤])[2].

ومن تحية الملائكة للعباد المتقين قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[الزمر: ٧٣].

وهذا تكريم مضاعف؛ فالملائكة تتلقى أولئك المتقين وهم يدخلون الجنة أفواجاً وجماعات، حتى إذا جاءوها والأبواب معدة مفتوحة لهم قبل وصولهم، عندئذ قال لهم خزنتها من الملائك : سلام عليكم تطهرتم من دنس المعاصي ومن كل خبث، والسلام يحتمل التحية ويحتمل السلامة والأمان، والآية جمعت بين وصفهم بأنهم طيبون وبين حلول السلام عليهم. وبهما معا تكمل الفرحة والنعيم، فالملائكة تتوفاهم طيبين بالسلام ويدخلون الجنة طيبين بالسلام.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور١٣/ ١٣٢ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١١/ ١٣٢، وابن حبان في صحيحه ١٦/ ٤٢٩، رقم ٧٤١٤. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/ ١٢٥، رقم ٢٥٥٩.

السلام شعار المؤمن

إن السلام شعار المؤمن في كل حياته، فهو تحيته التي اختارها الله له، ولذلك فإن من صفات غير المسلمين أنهم لا يحيون بهذه التحية.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾[المجادلة: ٨].

وقد حملها جمع من المفسرين على اليهود[١].

عن عبد الله بن عمرو أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: سام عليكم، ثم يقولون في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾[المجادلة: ٨] فنزلت هذه الآية[٢].

وذهب كثير من المفسرين إلى أنها تشمل اليهود والمنافقين[٣]، وهذا هو الأقرب.

وآيات السورة تتحدث عن الطائفتين وتبين موالاة المنافقين لليهود ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾[المجادلة: ١٤].

وقد كان المنافقون إذا دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم يخفتون لفظ (السلام عليكم) لأنه شعار الإسلام ولما فيه من جمع معنى السلامة، يعدلون عن ذلك، ويقولون: أنعم صباحًا، وهي تحية العرب في الجاهلية لأنهم لا يحبون أن يتركوا عوائد الجاهلية[٤].

بل جعل الله هذه التحية أمارةً على الإسلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

[النساء: ٩٤].

وورد في سبب نزولها عن عبد الله ابن عباس قال: كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون، فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غنيمته، فأنزل الله في ذلك ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٥].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٦٩، أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٣١٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٧٦، محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ١٦٨.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١١/ ١٦٠. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٢٢: إسناده جيد.
وبنحوه عند مسلم عن عائشة، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، ٤/ ١٧٠٧، رقم ٢١٦٥.

(٣) انظر: معاني القرآن، الفراء ٣/ ١٤٠، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٧٣٦٢، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٩١، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٤٥.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٧٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣١٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير

والمفسرون يحملون اللفظ هنا على ظاهره فيقولون: السلام بمعنى التسليم[1]. «أي: من خاطبكم بتحية الإسلام علامة على أنه مسلم»[2].

وحملها جماعة على معنى الاستسلام والانقياد، والجمع بينهما ممكن.

قال ابن عطية: «لأن سلامه بتحية الإسلام مؤذن بطاعته وانقياده»[3].

وهذا دليل واضح على أن السلام شعار يتميز به المؤمن عن غيره، بل يعصم دمه وماله، وما ذاك إلا لأنه دليل على المسالمة الذي هي الإسلام.

والتسليم لأمر الله وحكمه علامة الانقياد والاستسلام.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء: ٦٥].

قال الزجاج: «أي يسلّمون فيما يأتي من حكمك، لا يعارضونه بشيء»، و﴿تَسْلِيمًا﴾ مصدر مؤكد، والمصادر المؤكدة بمنزلة ذكر الفعل ثانيًا، كأنك إذا قلت: سلّمت تسليماً فقد قلت: سلّمت سلّمت»[4].

ومن الرسول للمؤمنين سلام، ومنهم له في كل عصر ومصر سلام، أما سلامه على المؤمنين ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤].

والآية حملها قوم على من جاء النهي عن طردهم من ضعفاء المؤمنين قبل هذه الآية[5].

وحملها آخرون على المذنبين من المؤمنين؛ لأن الكلام انتهى عن القوم السابقين[6].

والراجح أن لفظ الآية عام يشمل كل مؤمن.

قال الرازي: «والأقرب من هذه الأقاويل أن تحمل هذه الآية على عمومها، فكل من آمن بالله دخل تحت هذا التشريف»[7].

وفي الآية أمر من الله لرسوله أن يبتدأهم بالسلام أو يبلغهم سلام ربهم، وفيه التحية، وفيه السلامة من أثر الذنوب؛ فمن أسرف على نفسه وجهل قدر ربه ووقع في الذنب

القرآن باب ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ٦/ ٤٧، رقم ٤٥٩١، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، رقم ٣٠٢٥/ ٤/ ٢٣١٩.

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٢/ ١٤٣٣، الوجيز، الواحدي ص ٢٨٢، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٦٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٩١.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٦٧.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٩٦.

(٤) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٧١.

(٥) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٤٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤٥٣.

(٦) جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٧٢.

(٧) مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٥.

ثم تاب وأصلح فهو في دائرة السلامة والعفو من رب عفو رحيم.

ومن المؤمنين لرسولهم في كل وقت سلام؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٦].

لقد بدأ الله بالصلاة على رسوله، وثنّت الملائكة، ثم بعد ذلك جاء الأمر للمؤمنين بالصلاة والتسليم على النبي الكريم، وقد علّم النبي أصحابه كيف يصلون عليه، وفي الصلاة والسلام على سيد الأنام فضل عظيم وخير عميم، فبها تفرج الهموم وتغفر الذنوب، وترفع الدرجات وتزيد الحسنات، ويصلي الرب الجليل عشراً على من صلى على نبيه صلاةً واحدةً. ومن ترك الصلاة على النبي فهو من أبخل البخلاء.

والسلام شعار المسلم في كل وقت، يحيي به أهل بيته ويحيي به إخوته، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾[النور:٢٧].

والمعنى: يا من تحليتم بحلية الإيمان، ليس لكم أن تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم التي تسكنوها حتى تستأنسوا من الاستئناس، بمعنى: الأنس ،أي الاطمئنان، فلا بد لصاحب المنزل أن يأنس بدخولكم عليه احتراماً لخصوصيته، ولكي يتهيأ للقاء زائريه، والسلام أفضل مدخل يدخل به الإنسان إلى قلوب الناس وإلى بيوتهم.

وقال تعالى﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾[النور:٦١].

والمقصود بأنفسكم هنا أهل هذه البيوت كما ورد المعنى بذلك عن عبد الله بن عباس[1].

والتعبير بالأنفس عن أصحاب البيوت تنزيل لهم منزلة النفس، وهذا يبين شدة الاتصال وقوة الارتباط بين المسلمين وبعضهم البعض، فالمسلّم على أخيه إنما يسلم على نفسه بتحية من عند الله مباركةً طيبةً ويالها من منزلة عظيمة للسلام في دين السلام.

ويحتمل أن يكون المعنى إذا دخلتم بيوتاً ليس فيها غيركم فسلموا على أنفسكم. استجلابًا للسلامة والبركة واستشعاراً للأنس. وهذا الشعار الإيماني العظيم لا يكون من طرف واحد، بل يشترك فيه البادىء بالسلام ومن توجه إليه السلام، فإنه ينبغي عليه أن يرد بخير من التحية أو مثلها اتباعًا للأمر القرآني ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[النساء: ٨٦].

قال القرطبي: «والصحيح أن التحية ها

(١) انظر: شعب الإيمان، البيهقي ١١/ ٢٢٧.

هنا السلام»[1].

فأرشدت الآية أولًا إلى الأكمل وهو الرد بأحسن من السلام، فإن لم يكن فلا أقل من رد السلام بلا نقصان، وهذا تعليم وتوجيه رباني لحسن الأدب وحسن الرد.

وللسلام في الإسلام منزلة عظيمة، وقد رغبت فيه الآيات القرآنية، ووردت في شأنه الأحاديث النبوية، التي تبين فضله، حتى أفرد له المحدثون فصولاً وأبواباً في كتبهم المسندة تجمع أحكامه وآدابه، وورد في فضله عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنّ رجلاً سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أيّ الإسلام خير؟ قال: **(تطعم الطّعام، وتقرأ السّلام على من عرفت ومن لم تعرف)**[2].

والإسلام لا بطلب من أتباعه أن يسلم بعضهم على بعض وحسب، وإنما يطلب منهم في نصوص صريحة أن يفشوا السلام ويكثر حتى يصير سمةً بارزةً وشعاراً للمجتمع المسلم، ولا يقتصر على الأحياء وإنما يشمل السلام الأموات أيضاً فتعمهم السلامة وتغشاهم الرحمة، وقد علم النبي أصحابه ان يقولوا عند زيارة القبور: **(السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون)**[3]. لتكون التحية والسلامة واصلةً للجميع فيسلموا ويغنموا.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٢٩٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إفشاء السلام من الإسلام، ١/ ١٥، رقم ٢٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل، ١/ ٦٥، رقم ٣٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند القبور والدعاء لأهلها، ٢/ ٦٦٩، رقم ٩٧٤.

السلام مع المخالفين

إن السلام شعار المسلم، فهو في سلام مع نفسه، ومع كل من حوله، فهو في سلام مع الحيوانات لا يؤذيها ومع النباتات لا يقتلعها عبثًا، ومن أوجه السلام: السلام مع المخالفين، نتحدث عنها في النقاط الآتية:

أولًا: السلام مع المخالفين في الدين:

ورد في القرآن موقفان فيهما السلام على المشركين، وكلاهما من قصص الأنبياء السابقين، وورد أمر من الله لنبيه بقول السلام لغير المؤمنين؛ أما الموقف الأول فهو بين نبي الله إبراهيم وأبيه آزر[1].

وذلك في المحاورة التي انتهت بقول إبراهيم: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

وقد جاء هذا السلام في نهاية حوار إبراهيم معه، فحملها جمع من المفسرين على أنها تحية مفارقة ومتاركة، وعلى هذا القول فإنه يجوز تحية الكافر بها، وهو مذهب سفيان بن عيينه.

قال القرطبي: الأظهر من الآية ما قاله سفيان بن عيينة[2].

وقال السيوطي: استدل بها من أجاز ابتداء الكافر بالسلام[3].

وذهب جماعة إلى أن لفظ السلام من إبراهيم عليه السلام بمعنى السلامة، قال الطبري: أمنة مني لك[4].

وقيل: على الإضمار والتقدير: سلام عليك إذا أسلمت[5].

والآية الثانية أمر من الله تعالى لنبيه موسى وهارون عليهما السلام بالذهاب إلى فرعون لدعوته بالقول اللين ويطلبوا منه أن يرسل معهما بني إسرائيل فقال سبحانه: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧].

والسلام هنا بمعنى المسالمة والأمن، قال الزجاج: «ليس يعني به التحية، وإنما معناه أن من اتبع الهدى سلم من عذاب الله وسخطه، والدليل على أنه ليس بسلام أنه ليس ابتداء لقاء وخطاب»[6].

(١) يوجد خلاف بين المفسرين هل كان آزر أباه أم عمه؟ والذي عليه جمهورهم أنه أبوه حقيقة. والله أعلم.
وانظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٣١، روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٨٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٣١٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١١٢.
(٣) الإكليل في استنباط التنزيل، السيوطي ص ١٧٤.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٠٧.
(٥) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٧/ ٢٤٠.
(٦) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٣٥٨.
وقال بهذا القول جمع من المفسرين، انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٧/ ٤٦٤٧، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢٧٦، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٦٠.

ويحتمل أن يكون السلام هنا بمعنى التحية، قال أبو حيان: «فالسلام بمعنى التحية رغباً به عنه، وجرياً على العادة في التسليم عند الفراغ من القول»[(١)].

وهذا الوجه يقويه أن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم كان يبدأ كتبه للملوك والأمراء بهذه الصيغة، فقد كتب هرقل عظيم الروم: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، السلام على من اتبع الهدى أما بعد...)[(٢)].

والآية الثالثة في السلام على المخالفين في الدين ما ورد خطابًا لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾[الزخرف: ٨٨- ٨٩].

المعنى أن الله تعالى عنده علم الساعة وعلم قوله صلى الله عليه وسلم شاكياً قومه إن هؤلاء الذين أرسلت إليهم لا يؤمنون، ثم يلتفت الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم آمرًا إياه أن يصفح عنهم وأن يقول قولًا فيه المسالمة والمتاركة لهم.

قال ابن كثير: «﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾ أي: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيء، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلًا وقولًا»[(٣)].

وحملها بعضهم على معنى التسليم، قال الرازي: «احتج قوم بهذه الآية على أنه يجوز السلام على الكافر»[(٤)].

وفي المسألة خلاف بين أهل العلم؛ فجمهور الفقهاء على عدم الجواز لحديث أبي هريرة مرفوعًا: (لا تبدءو اليهود والنصارى بالسلام)[(٥)].

وذهب آخرون إلى جواز ذلك ابتداءً، وروى ذلك عن ابن عباس وأبي أمامة وابن محيريز، وذهب آخرون إلى جوازه ابتدائه للضرورة أو لحاجة أو لحقٍّ وسبب، ويروي ذلك عن علقمة وإبراهيم، وقال الأوزاعي: إن سلمت فقد سلم الصالحون، وإن تركت فقد ترك الصالحون[(٦)].

ثانيًا: السلام مع الجاهلين:

يأتي لفظ: (جهل) في القرآن ويراد السفاهة وسوء الخلق غالبًا، ومن الشواهد اللغوية على ذلك ما ذكره الزمخشري في مادة جهل: «فلان جهول، وقد جهل بالأمر،

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٣٣٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب كيف يكتب الكتاب إلى أهل الكتاب، ٨/ ٥٨، رقم ٦٢٦٠، عن عبد الله بن عباس.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٤٤.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٥٠.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، ٤/ ١٧٠٧، رقم ٢١٦٧.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١١٢، إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض ٧/ ٥٣.

وجهل حق فلان، وهو يجهل على قومه يتسافه عليهم، قال[١]:

ألا لا يجهلن أحد علينا

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ولو كان المقصود بالجهل في الاستعمال القرآني عدم العلم لأمرنا الله أن نعلمهم لا أن نعرض عنهم.

وفي القرآن الكريم آيتان كريمتان تذكران نماذج طيبة للمؤمنين الصادقين المتخلقين بأحسن الأخلاق الذين يواجهون الجهال السفهاء بالمسالمة والسلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[القصص:٥٥].

تتحدث الآيات عند طائفة من أهل الكتاب آمنو بالإسلام وبما قرئ عليهم من القرآن فأيقنوا أنه الحق من عند ربهم، فكان جزاؤهم أن يؤتوا أجرهم مرتين بما صبروا، فإذا سمعوا كلاما يؤذيهم أعرضوا عن اللغو وقالوا لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم سلام عليكم، لا نريد محاورة أهل الجهل والسفاهة. قال مجاهد: «كان ناس من أهل الكتاب أسلموا، فكان المشركون يؤذونهم، فكانوا يصفحون عنهم، يقولون ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[القصص: ٥٥]»[٢].

ويقال: إنها نزلت في نصارى قدموا على رسول الله فآمنوا به وصدقوه، فلما قاموا من عنده اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم[٣].

وجمهور المفسرين على أن السلام هنا سلام مفارقة ومتاركة[٤].

وهذا من حسن الأدب وترك الجدال.

قال السخاوي: «المراد بالجاهلين السفهاء، وهذه صفة محمودة باقية إلى يوم القيامة، وما زال الإغضاء عن السفهاء، والترفع عن مقابلة ما قالوه بمثله من أخلاق الفضلاء، وبذلك يقضي الورع والشرع، والأدب والمروءة»[٥].

والآية الثانية وردت في مدح عباد الرحمن؛ قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾[الفرقان: ٦٣].

تصف هذه الآية أقوامًا صالحين انتسبوا إلى ربهم بأعظم وأشرف نسبة، وهي نسبة العبادة، فهم أصحاب العبودية الخاصة للرحمن، وأول أوصافهم أن يمشون مشيةً

---

(١) أساس البلاغة، الزمخشري ١/ ١٥٣.
والبيت لعمر وبن كلثوم في ديوانه ص ٧٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٨١، تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٩٢، رقم ١٦٩٩٢.

(٣) انظر: سيرة ابن إسحاق ١/ ٢١٨، دلائل النبوة، البيهقي ٢/ ٣٠٦.

(٤) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ٢١٦، أحكام القرآن، ابن العربي ٣/ ٥١٢ أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٤/ ٣٣٥.

(٥) جمال القراء، السخاوي ص ٤٤١.

هينةً سهلةً لا كبر فيها ولا خيلاء، فهم أهل تواضع، ثم ذكر صفةً مناسبةً للتواضع وهي الحلم، فهم لا يتسافهون مع السفهاء ولا يجهلون مع الجاهلين، فإذا ما تعرض لهم جاهل بالأذى خاطبوه بقول لا إثم فيه ولا رد للاعتداء بل يقولون قولًا سلامًا، فسلامًا هنا صفه لمصدر محذوف والمعنى: سدادًا من القول[(1)].

وهذا خلق الأتقياء الذين لا تزيدهم شدة الجهل إلا حلمًا، ولا يجزون السيئة بالسيئة، بل يحلمون إذا جهل عليهم، ويصبرون على ما يصيبهم من أذى السفهاء ويدرؤون بالحسنة سيئة الجهال فاستحقوا بذلك عقبى الدار؛ عن النعمان بن مقرن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وسب رجل رجلًا عنده، فجعل الرجل المسبوب يقول: عليك السلام، قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم **(أما إن ملكاً بينكما يذب عنك كلما يشتمك هذا، قال له: بل أنت وأنت أحق به، وإذا قاله: عليك السلام قال: لا بل لك أنت، أنت أحق به)**[(2)].

(١) قاله مجاهد. جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٩٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣٩/ ١٥٤.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٧٥: رجاله رجال الصحيح غير أبي خالد الوالبي وهو ثقة.

أثر إفشاء السلام على المجتمع

ليس السلام مجرد كلمة تنطق بها الألسنة فقط، بل هو منهج تعامل واستفتاح بالمسالمة وضمان حفظ الدم والمال والعرض، وفيه - مع هذا - الدعاء بالسلامة في كل أمور الدين والدنيا. وإن لإفشاء السلام آثارًا طيبةً على المجتمع كله نوجزها فيما يأتي:

١. أنه مدخل المحبة بين أفراد المجتمع المسلم.

فبالسلام تسود المحبة؛ وهذا نص حديث النبي صلى الله عليه وسلم: **(لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولًا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم)**[(3)].

قال ابن عبد البر: «وفي ذلك دليل على فضل السلام، لما فيه من رفع التباغض وتوريث الود، ولقد أحسن القائل: قد يمكث الناس دهرًا ليس بينهم ود فيزرعه التسليم واللطف»[(4)].

وقال النووي: «والسلام أول أسباب التآلف، ومفتاح استجلاب المودة، وفي

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم ٩٣، ١/ ٥٣، عن أبي هريرة.

(٤) التمهيد ٦/ ١٢٨.
والبيت غير منسوب في ربيع الأبرار للزمخشري ٢/ ٤٢٤، وبهجة المجالس لابن عبد البر ١/ ٥٧.

إفشائه تمكن ألفة المسلمين بعضهم لبعض»[1].

٢. أنه إشعار بالأمان في الأرض.

فالسلام مع كونه يورث المحبة، فإنه كذلك يضفي على المجتمع إحساسًا بالسلم والأمان، فالسلام يتضمن اسماً من أسماء الجمال لله تعالى كما يتضمن الدعاء بالسلامة من كل ما يضر، مع زيادة حصول الخير بالرحمة وحصول دوامه وزيادته بالبركة، وهذا إشعار بالمسالمة ودوام الخيرية، ويصدق هذا قوله صلى الله عليه وسلم: (أفشوا السلام تسلموا)[2]، فإفشاء السلام يورث المجتمع الأمن والسلام.

٣. إفشاء السلام سبب للرفعة والعلو.

أكد القرآن الكريم أن التنازع سبب لذهاب قوة المجتمعات.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[الأنفال: ٤٦].

وفي المقابل فإن السلام باللسان مقدمة لتصافح القلوب ليكونوا عباد الله إخوانًا، فتقوى شوكتهم ويعلو أمرهم، عن أبي الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أفشوا السلام كي تعلوا)[3].

قال المناوي: «فإنكم إذا افشيتموه تحاببتم، فاجتمعت كلمتكم فقهرتم عدوكم وعلوتم عليه»[4].

٤. في السلام قهر وإغاظة للعدو.

إذ هو مظهر من مظاهر تآلف وتراحم المجتمع، ويعكس قوة ترابطه وشيوع الرحمة بين أفراده وذلك مما يغيظ أعداء المسلمين الذين يسعون إلى أن نظل متفرقين متنافرين، لذا فهم يحسدون المسلمين على أي رابطة جامعة بينهم، وفي الحديث: (ما حسدكم اليهود على شيء ما حسدوكم على السلام والتأمين)[5].

٥. إفشاء السلام دليل على الأخلاق الحسنة في المجتمع.

وإفشاء السلام يعكس وجود أخلاق طيبة بين أفراده؛ فالسلام يدل على وجود

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/ ٣٦.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٣/ ٤٩٤، والبخاري في الأدب المفرد، باب الغناء واللهو، رقم ١/ ٧٨٧ ٤٢١.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٤٦، رقم ١٠٨٧.
(٣) أخرجه الطبراني كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٣٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٤٦، رقم ١٠٨٨.
(٤) التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي ١/ ١٨٠.
(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب فضل السلام، ص ٣٤٢، رقم ٩٨٨، وابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة، باب الجهر بآمين ١/ ٢٧٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٠١، رقم ١٩٩٧.

خلق الكرم النفسي، وفي الحديث: **(أبخل الناس من بخل بالسلام)**[1].

ويدل على خلق التواضع وخفض الجناح للمؤمنين، وفي الصحيح عن عمار ابن ياسر: **(ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من إقتار)**[2].

والعالَم بفتح اللام[3]. وهذا أمارة على تحقق خلق التواضع ولين الجانب لجميع المؤمنين.

قال أبو الزناد: **«جمع عمار في هذه الألفاظ الثلاث الخير كله»**[4].

٦. إفشاء السلام دليل على وجود الخيرية في المجتمع.

لأن المجتمع الذي يفشو فيه السلام مجتمع تحوطه الرحمة والبركة، ولذلك فإن من علامات الساعة أن يكون السلام على من يعرفه المرء فقط، قال رسول الله: **(إن من أشراط الساعة أن يسلم الرجل على الرجل، لا يسلم عليه إلا للمعرفة)**[5].

وهذا دلالة على انشغال كلٍ بأمر نفسه، وعلى تفتت رابطة الإسلام الجامعة بين القلوب والأرواح، وهذا نذير شؤم، وإيذان بقرب حلول الساعة.

٧. في السلام تعاون على البر.

فالذي يلقى السلام مأجور، والذي يرد السلام مأجور أيضًا، والباديء بالسلام يقوم بدعوة عملية بين الناس للتذكير بسنّة عظيمة الأجر وفي الحديث عن أبي أمامة مرفوعًا **(إن أولى الناس بالله من بدأهم بالسلام)**[6].

موضوعات ذات صلة:

الاقتصاد، الحرب، السلم، السياسة

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم ١٠١٥، ص ٣٥١.
قال ابن حجر في فتح الباري ٩/ ٥٦٥: هذا موقوف صحيح على أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري معلقًا في كتاب الإيمان، باب إفشاء السلام من الإسلام، ١/ ١٥.
وصححه ابن حجر في تغليق التعليق ٢/ ٣٦ موقوفًا.

(٣) إرشاد الساري، القسطلاني ١/ ١١٣.

(٤) شرح صحيح البخارى، ابن بطال ١/ ٨٤.

(٥) أخرجه أحمد فى مسنده، ٦/ ٣٩٨ عن عبدالله ابن مسعود.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢/ ٢٤٨، رقم ٦٤٨.

(٦) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب أبواب النوم، باب في فضل من بدأ بالسلام، ٤/ ٣٥١، رقم ٥١٩٧.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٠٣، رقم ٢٠١١.





عناصر الموضوع

مفهوم السلم	٢٠٤
السلم في الاستعمال القرآني	٢٠٥
الألفاظ ذات الصلة	٢٠٦
مظاهر السلم في القرآن	٢٠٨
مقاصد السلم	٢١٨
من أساليب القرآن في الحديث عن السلم	٢٢٧
قواعد السلم مع غير المسلمين	٢٣٢
أثر السلم على الفرد والمجتمع	٢٣٧
السلم بين القرآن و المواثيق الدولية	٢٤٣

المجلد الثامن عشر

مفهوم السلم

أولًا: المعنى اللغوي:

يقول ابن فارس: «(سلم) السين واللام والميم معظم بابه من الصحة والعافية، ويكون فيه ما يشذ، والشاذ عنه قليل، فالسلامة: أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى»(١).

فمن معانيه: الحياد وعدم وجود العلاقة بين طرفين، والعافية والسلامة من الأذى والآفات، وعلامة المسالمة وعدم وجود الحرب، وقول سديد لا لغو فيه، وقيل: قالوا سلامًا أي سدادًا من القول وقصدًا لا لغو فيه، وبمعنى ضد الحرب، والاستسلام والانقياد وإظهار الخضوع(٢).

فأكثر المعاني تعود لباب الصحة والعافية والسلامة.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

أما في الاصطلاح الشرعي فقد عرفه الماوردي بقوله: «أمن عام تطمئن إليه النفوس وتنشر فيه الهمم ويسكن إليه البريء ويأنس إليه الضعيف»(٣).

وقال الراغب «السلم والسلامة: التعري من الآفات الظاهرة والباطنة»(٤).

وتعرف إحدى الباحثات السلم بأنه: «غياب المظاهر السلبية في المجتمعات الإنسانية وكل ما له علاقة بالعنف، أو بحضور المظاهر الإيجابية مثل: الهدوء والاستقرار، والصحة، والنماء»(٥).

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٩٠.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٢٨٩، جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٨٥٨، الصحاح، الجوهري ٥/ ١٩٥٠. تاج العروس، الزبيدي ٣٢/ ٣٧١.
(٣) أدب الدنيا والدين، الماوردي ١/ ١٤٢.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٢١.
(٥) لغة الحوار وأثرها على السلم الإجتماعي، مي عمر نايف ص ٣.

السلم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سلم) في القرآن الكريم (١٤٠) مرة، يخص موضوع البحث (٣) مرات[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
السِّلْم	١	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة:٢٠٨]
السَّلْم	٢	﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال:٦١]

وجاء السّلم في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

الأول: الصلح: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال:٦١].

الثاني: شرائع الدين: ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة:٢٠٨]. يعني: في الدين.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٣٥٥-٣٥٧.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٢٦٥-٢٦٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأمن:

الأمن لغة:

ضد الخوف، والفعل منه: أمن يأمن أمنًا[١].

الأمن اصطلاحًا:

عدم توقع مكروه في الزمان الآتي[٢]، وأصله: طمأنينة النفس وزوال الخوف[٣].

الصلة بين الأمن والسلم:

الأمن حالة من الاطمئنان ضد الخوف، سواء كان الخوف من الحاضر أو من المستقبل، وأكثر ما يستعمل في الأمن الداخلي، أما السلم فتعم السلم الداخلي والخارجي، فكلمة السلم أعم.

٢ الأمان:

الأمان لغة:

هو طلب الأمن وتأمينه للغير[٤].

الأمان اصطلاحًا:

وهو الذي يعطى للكافر الحربي فلا يجوز التعرض له، ويدخل دار الإسلام آمنًا، ويجب على المسلمين رعاية هذا الأمان ومقتضاه ما دام قائمًا[٥].

الصلة بين الأمان والسلم:

الفرق بينهما واضح بين، إن المستأمن يكون في حالة سلم لا يحارب ما دام في عقد الأمان، وطلب الأمان لا يكون للمسلم لعدم احتياجه إليه، فالعقد خاص بغير المسلم.

٣ الموادعة:

الموادعة لغة:

مأخوذ من مادة (و د ع) بمعنى الترك، «وادع بني فلان أي صالحهم وسالمهم على

(١) العين، الفراهيدي ٨/ ٣٨٨.
(٢) التعريفات، الجرجاني، ص ٣٧.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص ٦٣.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢١.
(٥) انظر: أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، عبدالكريم زيدان ص ٤٦-٤٧.

ترك الحرب والأذى، وحقيقة الموادعة المتاركة أي: يدع كل واحد منهما ما هو فيه»[1].

فالموادعة: المصالحة والمسالمة.

الموادعة اصطلاحًا:

وقد عرفت الموادعة بأنها ترك القتال. قال شهاب الدين الشلبي: «إنما سميت المصالحة موادعة لما فيها من ترك القتال. والودع الترك»[2].

الصلة بين السلم والموادعة:

الموادعة نوع من السلم تكون مع المحاربين، فالسلم أشمل وأعم.

٤ الحرب:

الحرب لغة:

نقيض السلم، ورجل محرب أي شجاع، وفلان حرب فلان أي يحاربه، وحرّبته تحريبًا أي حرّشته على إنسان فأولع به وبعداوته[3].

الحرب اصطلاحًا:

قال المناوي: «دفع بشدة عن اتساع المدافع بما يطلب منه الخروج فلا يسمح به ويدافع عنه بأشد مستطاع»[4].

وقال الجرجاني: «وهو القتال بين فئتين»[5].

الصلة بين السلم والحرب:

السلم ضد الحرب، ولا يجتمعان.

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٣٨٦.
(٢) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشلبي، الزيلعي ٣/ ٢٤٥
(٣) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ٢١٣.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ١/ ١٣٧.
(٥) التعريفات، الجرجاني ص ١٠٤.

مظاهر السلم في القرآن

أولًا: السّلم العقدي:

يقصد بالسلم العقدي كل ما يحقق للفرد المؤمن الحماية والسلامة والأمان والاطمئنان في نفسه ودينه ومجمتعه. ويتحقق هذا الأمان بمعرفة الحقائق الدينية المجموعة في أركان الدين الواردة في حديث جبريل عن أبي هريرة قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزًا يومًا للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله، وتؤمن بالبعث). قال: ما الإسلام؟ قال: (الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان). قال: ما الإحسان؟ قال: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك). قال: متى الساعة؟ قال:(ما المسئول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربها، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان في خمس لا يعلمهن إلا الله، ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]). ثم أدبر، فقال: ردوه. فلم يروا شيئًا. فقال: (هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم)[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[طه: ١٢٤].

وقد فسر البعض العذاب المذكور في الآية بعذاب القبر، ولكن العلامة السعدي يفسر الضنك الوارد في الآية «بما يصيب المعرض عن ذكر ربه، من الهموم والغموم والآلام، التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة، لإطلاق المعيشة الضنك، وعدم تقييدها»[(٢)].

فالتوافق مع الذات ومطابقة الظاهر للباطن وعدم التناقض بين عقيدة الإنسان وسلوكه اليومي من أهم سمات ومظاهر الإنسان السليم.

يقول سيد قطب: «إن الإسلام يبدأ محاولة السلام أولًا في الضمير، ثم في محيط الأسرة ، ثم في وسط الجماعة، وأخيرًا يحاوله في المحيط الدولي بين الأمم والشعوب الأخرى»[(٣)].

وقد خصص سيد قطب في كتابه (السلام العالمي والإسلام) مساحةً واسعة من كتابه لشرح أثر العقيدة الإسلامية في الإنسان سماه (سلام الضمير) و(المنطق والعقيدة) بين فيه ببساطة ووضوح العقيدة الإسلامية

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، رقم ٥٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥١٥.

(٣) السلام العالمي والإسلام، سيد قطب ص ٣٣.

في كافة المسائل بلا غموض ولا تعقيد وبدون ألغاز ومعميات، وقارن بينه وبين ما عند الكنيسة من الآراء الغامضة ودور رجال الدين الكهنة في إضلال الناس[1].

أثر التوحيد بأنواعه في السلم الداخلي:

مما لا شك فيه أن الإنسان المؤمن لا يعيش في صراع داخلي مع نفسه، وذلك راجع للتوحيد الذي يؤمن به.

يقول الدكتور القرضاوي: «عقيدة التوحيد سمت بأنفس المؤمنين... فلم يعد بشر يسجد لبشر أو ينحني لبشر أو يقبل الأرض بين يدي بشر، وهذا أصل الأخوة الإنسانية الحقة ، وأصل الحرية الحقة، وأصل الكرامة الحقة ؛ إذ لا أخوة بين عابد ومعبود، ولا حرية لإنسان أمام إله أو مدعي ألوهية، ولا كرامة لمن يركع أو يسجد لمخلوق مثله أو يتخذه حكمًا من دون الله»[2].

علامات صحة النفس:

ولصحة النفس وسلامتها من الآفات والأمراض، أمارات تعرف بها:

١. هداية القلب وراحة البال.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[التغابن: ١١].

يقول الطبري: «ومن يصدّق بالله فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذن الله بذلك يهد قلبه: يقول: يوفّق الله قلبه بالتسليم لأمره والرضا بقضائه»[3]. فراحة البال وهداية القلب متلازمان.

٢. الشعور بالأمن.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «أولئك لهم الأمن دون غيرهم من العقاب الديني المتعلق بأصل الدين وهو الخلود في دار العذاب»[4]. فعدم الوقوع في الشرك تتبعه الشعور بالأمن.

٣. السعادة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

يقول الزمخشري: «قد جاءتكم موعظة، أي: قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد، وهو فيه شفاء أي : دواء مما يجمعون صدوركم من العقائد الفاسدة ودعاء إلى الحق ورحمة لمن آمن به منكم»[5].

(١) انظر: المصدر السابق، ص٣٨.
(٢) الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي ص ٣١-٣٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٢١.
(٤) المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٤٨٤.
(٥) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٣٣٦

وفي معنى السعادة يقول الشيخ السعدي: «إذا حصل الهدى، وحلت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح، والربح والنجاح، والفرح والسرور ؛ ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك.. فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين، لا نسبة بينها، وبين جميع ما في الدنيا، مما هو مضمحل زائل عن قريب»[(١)]. فسعادة المرء دليل على صحة قلبه.

٤. **الاطمئنان على الرزق.**

قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

فالأرزاق تنزل من السماء فلا داعي للقلق، قال البغوي: «قال ابن عباس ومجاهد ومقاتل: يعني المطر الذي هو سبب الأرزاق، وما توعدون، قال عطاء: من الثواب والعقاب. وقال مجاهد: من الخير والشر»[(٢)].

٥. **الاطمئنان على الأجل.**

قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

جاء في تفسيره «لفظ عام في جميع الأشياء التي لها آجال، وذلك أنه ليس كائن منها إلا وله أجل في بدئه أو في خاتمته، وكل أجل مكتوب محصور فأخبر تعالى عن كَتْبِهِ الآجال التي للأشياء عامة. وقال الضحاك والفراء: المعنى لكل كتاب أجل»[(٣)].

ثانيًا: السّلم في العبادات:

شرع الله سبحانه العبادات للإنسان لكي يتقرب به إلى الله تعالى ، والعبادة كلمة جامعة لكل معاني الخير كما يقول شيخ الاسلام ابن تيمية[(٤)]. ومع ذلك فإن لكل عبادة أهدافًا وغايات أخرى تتحقق بالالتزام بتلك العبادة، وأحاول أن أركز على أهم العبادات وآثارها على إشاعة السلم والأمان في نفسية الفرد وفي المجتمع.

٦. **الصلاة والسلم.**

الصلاة لا تكون في تمام وطمأنينة إلا في ظل الأمن؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

يقول السعدي في تفسير الآية: «قوله ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. أي: ذليلين خاشعين، ففيه الأمر بالقيام والقنوت والنهي عن الكلام، والأمر بالخشوع، هذا مع الأمن والطمأنينة»[(٥)].

والمصلي يكتسب المناعة ضد كل سلوك جرمي وتقيه من الأمراض الفتاكة

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٦٦.
(٢) معالم التنزيل، البغوي، ٤/ ٢٨٤.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٢٠.
(٤) انظر: العبودية، ابن تيمية ص ٣٨.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٦.

بالفرد والمجتمع، وقال تعالى مبينًا هذه الحكمة من الصلاة ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فالمصلي إذا أدى الصلاة كما أمر، اكتسب طاقة روحية تقيه من كل فاحشة ومنكر.

والصبر مع الصلاة شعار سلمي يرفعه المسلم لمواجهة أعباء الحياة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والمسلم لا يخرج من الصلاة قبل التلفظ بعبارة السلام عليكم.

مما سبق تبين لنا متانة العلاقة بين عبادة الصلاة وبين السلم.

٧. الصوم والسلم.

قال تعالى مبينًا أثر عبادة الصوم في السلوك الإيجابي للمسلم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فالصيام يعد الناس ليصلوا إلى مرتبة التقوى. والوقاية هي ؛ «حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، فالتقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف»[١].

وينقل الشيخ محمد رشيد رضا بعضًا من حِكَم الصوم بقوله: «ومن وجوه إعداد الصوم للتقوى : أن الصائم عندما يجوع يتذكر من لا يجد قوتاً فيحمله التذكر على الرأفة والرحمة الداعيتين إلى البذل والصدقة، وقد وصف الله تعالى نبيه بأنه رءوف رحيم، ويرتضي لعباده المؤمنين ما ارتضاه لنبيه صلى الله عليه وسلم، ولذلك أمرهم بالتأسي به»[٢].

ومن ثمار الصوم أيضًا : توطيد العلاقات الاجتماعية بين المؤمنين، غنيهم وفقيرهم فهو يغرس في نفوس الموسرين روح البذل والعطاء حين يحسون وهم صائمون بالحاجة إلى الطعام، فيكون ذلك الجوع المؤقت مدعاةً لتذكّر جوعة الفقير الدائمة بسبب الحاجة والحرمان.

٨. الزكاة والسلم.

أصل الزكاة النمو والبركة[٣]، وهو أحد مباني ، الإسلام ولأهميتها قرنت في القرآن الكريم بالصلاة. وشرع الزكاة كما أشار إليه الآية الكريمة إلى التطهير والتزكية.

ولو أردنا أن نبين العلاقة بين فريضة الزكاة والسلم الداخلي أو السلم بين أفراد المجتمع، يجدر بنا أن نذكر أهم حِكَمِها. وقد ذكر العلماء لها حِكَمًا وفوائد، ونحن هنا نذكر فقط الحِكَم المتعلقة بالبحث:

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٨١.

(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ١١٩.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٢١٣.

الزكاة جزء من خطة الإسلام للقضاء على الفقر في المجتمع: ففي الزكاة دفع لحاجات الفقراء. وحول أهداف الزكاة يقول الدكتور القرضاوي: «ومن هذه الأهداف ما له صبغة اجتماعية، كمساعدة ذوي الحاجات والأخذ بأيدي الضعفاء من فقراء ومساكين وغارمين وأبناء سبيل، فإن مساعدة هؤلاء تؤثر فيهم بوصفهم أفراداً، وتؤثر في المجتمع كله باعتباره كيانًا متماسكًا»[1].

مكافحة الإجرام في المجتمع، وفي هذا يقول الدكتور الزلمي«أثبتت فلسفة التشريعات الجنائية بالاستقراء أن من أهم عوامل ارتكاب الجرائم (بوجه خاص الجرائم الاقتصادية)، عامل الفقر والحاجة. فتسديد حاجة المحتاجين ماديًا يقلل من ظاهرة الانحراف نحو السلوك الجرمي»[2].

فالزكاة تمنع الجرائم المالية، مثل: السرقات والنهب وما أشبه ذلك لاستغناء الفقراء عن هذه الجرائم بإعطائهم الزكاة أو بالصدقة والإحسان إليهم.

شيوع روح المحبة والألفة بين الفقراء والاغنياء: فمن أهداف الإسلام الكبرى بناء المجتمع السليم المتآخي البعيد عن أسباب الحقد والغضاء. وأداء الزكاة كفيل بتحقيق هذه الأهداف.

تطهير نفوس الأغنياء من الطغيان الذي سببه الغنى وكثرة المال. والطغيان من الرذائل الخلقية، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: ٦].

فالطغيان هو التعاظم والكبر، والاستغناء هو شدة الغنى، فمن طبع الإنسان أن يطغى ويتكبر ويتعاظم على غيره إذا أحس من نفسه الاستغناء[3].

٩. الحج والسلم.

الحج من أهم العبادات التي تتجلى فيها بوضوح معاني السلم، وتوضيح ذلك تكون من خلال:

الحج تدريب للمسلم على السلام، فوقوعها في أشهر حرمت فيها القتال، وفي بلد سمي ببلد الحرام، وفي حال تمنع فيه حتى الصيد، كل ذلك تمنح المسلم جوًّا تسوده السلام والأمن والأمان، إن الحج لا يتحقق إلا مع الأمن والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾[البقرة: ١٩٦].

وحذر القرآن الكريم من أكل أموال الناس بالباطل، وذلك من أجل بناء مجتمع متحاب.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم

(١) فقه الزكاة في الإسلام، يوسف القرضاوي ص ٨٨٠.

(٢) حكم أحكام القرآن، مصطفى الزلمي ص ٥٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣٠/ ٤٤٤.

﴿بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨].

والذي ينوي أداء الحج يجب عليه أن يؤدي الحقوق الواجبة عليه، قبل السفر إلى الديار المقدسة، وهذا الأداء يكون من خلال:

- إرضاء الخصوم برد المظالم إلى أصحابها وقضاء الديون ورد الأمانات والودائع. وهذا الحكم (رد الحقوق) عام، سواء كان الاعتداء بالقول كالسب والشتم أو الغيبة، أو بالفعل كالقتل والجرح.
- أن يترك لأهله ولده وزوجته ومن له حق النفقة عليه، ما يكفيهم ويقضي حاجاتهم ومتطلبات حياتهم ما يغنيهم في فترة غيابهم[١].
- الحج والتكافل الاجتماعي: من حِكَم الحج أنها وسيلة لاجتماع المسلمين في كافة أنحاء العالم.
- البعد عن الأذى في الحج: قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

والقرآن الكريم حريص على تهذيب سلوك الحاج أثناء أداء العبادة وتخليصه من السلوك المخل بالعبادة، ورتب شعائر الحج بطريقة تجعل الحاج في سلم شامل، ليس مع الناس فقط، بل مع كل شيء؛ الشجر والحجر والحيوان ومع الكون كله، تسليمًا لرب العالمين.

ثالثًا: السّلم في الأخلاق:

للأخلاق الإسلامية أثر كبير في إشاعة الأمن والاستقرار النفسي في نفسية المتخلق بها، «إنها تحقق للفرد الإحساس بالأمان؛ إذ هو يستعين بها على مواجهة ضعفه وضعف نفسه، ومواجهة التحديات والعقبات التي تواجهه في حياته، كما أنها تعمل على إصلاح الفرد نفسيًّا، وتوجهه نحو الخير والإحسان الواجب وكافة مكارم الأخلاق التي تضمن حياة نظيفة في الدنيا وجزاء أوفى في الأخرة»[٢].

فالأخلاق يمنح الإنسان السعادة ورضى الضمير، والبعد عن القلق والاضطراب وكثير من الأمراض النفسية.

أما عن أثر الأخلاق في الحفاظ على السلم الإجتماعي والاستقرار فيقول الدكتور الزلمي: «إن المتدبر في آيات الله يجد أن الروح السائدة في القرآن الكريم من أوله إلى آخره روح خيرة ورشيدة تدعو إلى العلم والعمل والحرية والمساواة والعدل والرحمة والهدى والحق والإحسان والإيثار

(١) انظر: المقاصد في المناسك، عبدالوهاب سليمان، ص ٥٣.

(٢) موسوعة نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين، ١/ ٨٥.

والإنفاق والتكافل والتضامن والصدق والأمانة والإخلاص ، إلى غير ذلك من الفضائل الإنسانية التي يجب أن يتحلى بها الإنسان»[١].

وهذه الأخلاق المذكورة كلها تسهم في بناء العلاقات الاجتماعية القوية، فالأخلاق ضرورة اجتماعية لا غنى عنها، ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيلة والرابط بين الناس، تفكك بناء المجتمع، فانهيار خلق من الأخلاق يقابله انقطاع رابطة من الروابط الاجتماعية.

فخلق الصبر مثلًا له أثر كبير في إدامة واستقرار العلاقة الزوجية.

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «فإن كرهتموهن لعيب في الخلق، أو الخلق مما لا يعد ذنبًا لهن، لأن أمره ليس في أيديهن، أو التقصير في العمل الواجب عليهن في خدمة البيت والقيام بشئونه مما لا يخلو عن مثله النساء وكذا الرجال في أعمالهم، أو الميل منكم إلى غيرهن، فاصبروا»[٢].

فالقرآن أمر بالصبر حتى إن أحس الزوج بالنفرة لزوجته.

(١) حكم أحكام القرآن، مصطفى الزلمي ص ٢٧.

(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ٣٧٤.

وفي قصة موسى مع العبد الصالح تعليم لنا أن على التلميذ التحلي بالصبر إذا أراد العلم، فالصبر في مجال العلاقات الإنسانية إحدى مجالات الصبر المأمورة بها المسلم.

وكذلك بقية مكارم الأخلاق المأمور بها، كل منها لها أثر كبير عند التحلي بها في إرساء دعائم السلام في المجتمع، والعكس صحيح. وإذا شاع بين الأفراد مكارم الأخلاق، ربط بينهم بأوثق الروابط من الألفة والثقة والتعاون ، ونشأ منهم مجتمع قوي فاضل ، متماسك كالبنيان، متعاطف كالجسد، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

ونستطيع أن نوجز أثر الأخلاق في تماسك المجتمع في جملة من النقاط:

- «تحفظ على المجتمع تماسكه، فتحدد له أهداف حياته، ومثله العليا، ومبادئه الثابتة المستقرة التي تحفظ له هذا التماسك والثبات اللازمين لممارسة حياة اجتماعية سليمة ومتواصلة.
- تساعد المجتمع على مواجهة التغيرات التي تحدث فيه، بتحديدها الاختيارات الصحيحة والسليمة التي تسهل على

الناس حياتهم، وتحفظ على المجتمع استقراره وكيانه في إطار موحد.

- تربط أجزاء المجتمع بعضها ببعض حتى تبدو متناسقة، كما أنها تعمل على إعطاء النظم الاجتماعية أساسًا إيمانيًّا وعقليًّا يصبح عقيدة في ذهن أعضاء المجتمع.
- تقي المجتمع من الأنانية المفرطة والنزعات والأهواء والشهوات الطائشة التي تضر به وبأفراده ونظمه.
- تزود المجتمع بالصبغة الملائمة التي تربط بين نظمه الداخلية من اقتصادية وسياسية وإدارية، وبالتالي تحوطه بسياج حام من التفكك والانحلال»[(١)].

رابعًا: السّلم في المعاملات:

المراد بالمعاملات: الأحكام الشرعية المنظمة لتعامل الناس في الدنيا، من بيع وشراء وإجارة ورهن وكتابة دين وغيرها[(٢)].

لا ريب أن القرآن الكريم أعطى أهمية لتنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع من بيع وشراء ورهن وكتابة دين وغيرهم. وقد اقتصر القرآن الكريم في ذكر المعاملات على العناصر الأساسية من الأحكام، وخول العقل البشري ما عداها في ضوء حاجاته ومتطلباته وفي حدود المبادىء التي حددها له القرآن الكريم.

أهم المقاصد التي أرساها القرآن الكريم في المعاملات المالية:

ولزيادة توضيح العلاقة بين المعاملات التي شرعها القرآن الكريم وأثرها في تحقيق السلم في المجتمع، لابد من ذكر أهم المقاصد في المعاملات المالية المتعلقة بالموضوع ، فقد أرسى القرآن الكريم دعائم أساسية لتثبيت السلم من خلال مبادىء مذكورة في آيات كثيرة:

١ . **مبدأ العدل.**

أي: تحقيق العدل والمساواة بين المتعاقدين البائع والمشتري في عقد البيع مثلًا.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «والقسط هو ميزان الحقوق، متى وقعت فيه المحاباة والجور لأي سبب أو علة من العلل زالت الثقة من الناس، وانتشرت المفاسد وضروب العدوان بينهم، وتقطعت روابطهم الاجتماعية، وصار بأسهم بينهم

---

(١) موسوعة نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين، ١/ ٨٦.

(٢) انظر: مقاصد الشريعة في المعاملات المالية عند ابن تيمية، ماجد العسكر، ص ٣٦.

شديدًا، فلا يلبثون أن يسلط الله تعالى عليهم بعض عباده الذين هم أقرب إلى إقامة العدل والشهادة بالقسط منهم، فيزيلون استقلالهم، ويذيقونهم وبالهم»[1].

ولما كانت المعاملات سببًا للمشاحنات، فقد اشتملت التجارات والمعاملات على ظلم وهضم للحقوق، فقد منع القرآن الكريم الظلم بجميع أنواعه وصوره. وإن من أعظم وسائل الشريعة في تحقيق مقصد العدل ومنع الظلم إباحة البيع وتحريم الربا، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ثم نبه سبحانه عند ختم آيات تحريم الربا على على المقصود الشرعي من إباحة البيع وتحريم الربا، وهو تحقيق العدل ونفي الظلم. ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

٢. **مبدأ الصدق والبيان في المعاملات المالية.**

والمراد به الصدق والبيان والتوضيح في جميع أجزاء العقد وفي كل مراحله، لما في الكتمان والكذب من مفاسد تهدد السلم الاجتماعي ويفضي إلى التنازع والخلاف[2].

ومن الأمثلة على تحريم الكذب في المعاملات:

- الأمر بكتابة الدين لتوثيقها كما في آية الدين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. قال البيضاوي: «وفائدة ذكر الدين أن لا يتوهم من التداين المجازاة ويعلم تنوعه إلى المؤجل والحال، وأنه الباعث على الكتبة ويكون مرجع ضمير فاكتبوه إلى أجل مسمى معلوم بالأيام والأشهر لا بالحصاد وقدوم الحاج. فاكتبوه لأنه أوثق وادفع للنزاع، والجمهور على أنه استحباب»[3].
- الأمر بالإشهاد على الحقوق المالية، كما في الآية الكريمة ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾[البقرة: ٢٨٢]. قال البيضاوي: «واطلبوا أن يشهد على الدين شاهدان من رجالكم من رجال المسلمين، وهو دليل اشتراط إسلام الشهود، وإليه ذهب عامة العلماء»[4].
- تشريع الرهن، وهو توثيق دين بدين،

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٢٢٦.
(٢) انظر: تفعيل المقاصد الشرعية في المالية الإسلامية: التأصيل والتطبيق، صالح محمد الفوزان، ص٥٠.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٦٤.
(٤) المصدر السابق ١/ ١٦٤.



﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة: ٢٨٣][1].

يقول الرازي: «اعلم أنه تعالى جعل البياعات في هذه الآية على ثلاثة أقسام: بيع بكتاب وشهود، وبيع برهان مقبوضة، وبيع الأمانة، ولما أمر في آخر الآية المتقدمة بالكتبة والإشهاد، واعلم أنه ربما تعذر ذلك في السفر إما بأن لا يوجد الكاتب، أو إن وجد لكنه لا توجد آلات الكتابة ذكر نوعًا آخر من الاستيثاق وهو أخذ الرهن، فهذا وجه النظم وهذا أبلغ في الاحتياط من الكتبة والإشهاد»[2].

٣. مبدأ تحقيق التعاون والاجتماع والائتلاف.

وهي من أعظم مقاصد الشريعة وخاصةً في المعاملات المالية.

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

ومن الأمثلة عليه:

تحريم الميسر؛ لكونه أعظم وسائل الشيطان للوقيعة بين المسلمين وشق صفهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [المائدة: ٩١].

يقول الشيخ المراغي: «إن الشيطان يريد لكم شرب الخمر ومياسرتكم بالقداح ليعادي بعضكم بعضاً ويبغّض بعضكم إلى بعض عند الشراب والمياسرة، فيشتت أمركم بعد تأليف الله بينكم بالإيمان، وجمعه بينكم بأخوّة الإسلام، ويصرفكم بالسكر والاشتغال بالميسر عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم، وعن الصلاة التي فرضها عليكم، تزكيةً لنفوسكم وتطهيرًا لقلوبكم»[3].

٤. مبدأ عدم التعدي على أموال الناس بالباطل، وتوفر عنصر الرضا وطيبة النفس.

وقد منع القرآن الكريم التعدي على أموال الناس وأكل أموالهم بالباطل، وذلك لتحقيق استقرار المجتمع وحماية مصالح أفراده.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

فكل عقد لم يتوفر فيه رضا الطرفين وحصل عنصر الإكراه والخداع والغش، فهو حرام بنص الآية الكريمة. وتحت باب

(١) انظر: المقاصد الشرعية وأثرها في فقه المعاملات المالية، رياض منصور الخليفي، ص ٣١-٣٣.

(٢) مفاتيح الغيب، الفخر الرازي، ٧/ ٩٩.

(٣) تفسير المراغي ٧/ ٢٣.

الأكل بالباطل تدخل كثير من المعاملات المالية، كالغصب والسرقة والخيانة، وعقود الربا والقمار ؛ لأنها من أكل أموال الناس بالباطل.

مقاصد السلم

أولًا: الاعتصام والوحدة:

الاعتصام في الاصطلاح يأتي بمعنى: التمسك بالدين والوثوق بوعد الله والالتجاء إليه في دفع شرور الكفار ومكايدهم. وهذه المعاني تربي من فهمها على أهمية الوحدة والاجتماع.

وقد اهتم القرآن الكريم ببناء العلاقات بين المسلمين وتمتينها باعتبارها ضرورةً دينية لا غنى للمسلم عنها، واستخدم أساليب عديدة لتأكيد هذه الوحدة.

أساليب القرآن الكريم في الحفاظ على الوحدة الإسلامية والاعتصام بحبل الله:

١ . التحذير من التنازع والاختلاف والتفرق؛ لأنه موجب لعذاب الله..

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

يقول الشيخ ابن عاشور: «وأولئك لهم عذاب عظيم مقابل قوله في الفريق الآخر: وأولئك هم المفلحون ، فالقول فيه كالقول في نظيره، وهذا جزاء لهم على التفرق والاختلاف وعلى تفريطهم في تجنب أسبابه»[(١)].

٢ . الحض على الإخاء بين المؤمنين

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٤٣.

وتقويته بشتى السبل.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقد أحاط القرآن الكريم هذه العلاقة بمجموعة من التدابير الوقائية للحفاظ عليها:

فقد نهى عن السخرية والتنابز بالألقاب والظن والتجسس والغيبة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١١-١٢].

فهذه الآيات كما يقول سيد قطب «تقيم سياجًا آخر في هذا المجتمع الفاضل الكريم حول حرمات الأشخاص به وكراماتهم وحرياتهم، بينما هي تعلم الناس كيف ينظفون مشاعرهم وضمائرهم، في أسلوب مؤثر عجيب»[1].

٣. النهي عن العصبية والتحذير من مكائد غير المسلمين من أهل الكتاب ومن غيرهم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠-١٠١].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «بعد ما وبخ أهل الكتاب على كفرهم وصدهم عن سبيل الله وهو الإسلام، آثر إقامة الحجج عليهم وإزالة شبهاتهم، ناسب أن يخاطب المؤمنين مبينًا لهم أن من كان هذا شأنهم في الكفر، وهذا شأن ما دعوا إليه في ظهور حقيقته، لا ينبغي أن يطاعوا ولا أن يسمع لهم قول، فإنهم دعاة الفتنة ورواد الكفر»[2].

٤. التحذير من الفرقة والاختلاف.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

قال الراغب الأصفهاني في سبب استحقاق أهل الكتاب العذاب: «نبه بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أن سبب

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٤٥.
(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ١٦.

استحقاقهم العذاب افتراقهم واختلافهم، تنبيهًا أنكم إن فعلتم فعلهم استحققتم العذاب استحقاقهم»[1].

نهى عن الخبائث المفضية إلى الفرقة والعداوة.

قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

والنهي هنا عن السحر، لدوره في إفساد الرابطة الزوجية، وقال تعالى في تحريم الخمر والميسر ذاكرًا الحكمة من التحريم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

لذلك فقد نهى القرآن الكريم عن كل ما يؤدي إلى إيغار الصدور والعداوة والبغضاء.

٥. أمر بإصلاح ذات البين.

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال: ١].

ويراد بالإصلاح هنا «إزالة المنازعات والخصومات، وإحلال الألفة والمودة بين الناس سواء بين الزوجين، أو الورثة أو الإخوة أو غير ذلك»[2].

٦. أمر في آيات كثيرة بإفشاء السلام وإطعام الطعام، وآداب أخرى كلها تحافظ على وحدة الأمة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾[النساء: ٨٦].

وفي إطعام الطعام أثنى عليهم فقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

وفي الاعتصام صلاح المرء، وهو يورث محبة الله والعباد، ويجنب الإنسان مسالك الشيطان، وفي الاعتصام قوة الأمة؛ لأن الجماعة رحمة والفرقة عذاب. وثمرة الاعتصام في الآخر سعادة الدارين.

ثانيًا: رفع الشقاق والتنازع:

فالصلح والسلم ليس رافعًا للنزاع فقط، بل مانع لوقوعه أيضًا، حيث يقوم بدور وقائي لمنعه، وإذا كان رفع النزاع والشقاق من أهم مقاصد السلم فقد بين العلماء معنى الصلح واشتقاقاته بأنه رفع النزاع والتخاصم.

فالإصلاح: «الوسائل المتنوعة المتعددة التي يزال بها الفساد أو النزاع أو الخصومة، أما المصالحة فهي العقد الذي يصل إليه المصلحون في جهودهم

(١) تفسير الراغب الأصفهاني، ٢/ ٧٧٩.

(٢) الإصلاح في القرآن الكريم، فايزة عدلي، ص ٥٦.

الإصلاحية، والصلح اسم منه، وهو التوفيق أو الاتفاق الذي يصل إليه المصلحون بعد إصلاحهم»[1].

والقرآن الكريم يبني السلم الاجتماعي الذي يقصد به «حالة الهدوء والاستقرار والوئام والاتفاق والانسجام، وفي العلاقة بين شرائحه وأفراده وقواه العديدة المختلفة»[2].

وذلك من خلال:

٧. رفع النزاع بين الورثة.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٢].

والآية واردة في كيفية رفع النزاع بين الورثة حال الوصية دون إضرار بالورثة ولا تبذير للوصية.

قال الطبري: «من معاني الإصلاح الإصلاح بين الفريقين، فيما كان مخوفًا حدوث الاختلاف بينهم فيه، بما يؤمن معه حدوث الاختلاف؛ لأن الإصلاح إنما هو الفعل الذي يكون معه إصلاح ذات البين، فسواء كان ذلك الفعل الذي يكون معه إصلاح ذات البين قبل وقوع الاختلاف أو بعد وقوعه»[3].

٨. رفع النزاع بين الزوجين.

قال تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٢٨].

فالآية واردة في الصلح بين الزوجين في حالة النشوز أو الإعراض، وكيفية رفع الخلاف بينهما.

قال الإمام القرطبي: «﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ ويدخل في هذا المعنى جميع ما يقع عليه الصلح بين الرجل وامرأته في مال أو وطء أو غير ذلك. خير أي خير من الفرقة؛ فإن التمادي على الخلاف والشحناء والمباغضة هي قواعد الشر»[4].

٩. رفع النزاع بين أفراد المجتمع.

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

«ومع أن الخلاف والصراع أمر محتمل الوقوع بين المؤمنين باعتبارهم بشرًا، لهم مصالح وأهواء، لكن المجتمع عليه أن يتدخل لوضع حد لهذا الصراع»[5].

فالخلاف أمر محتم، وسرعة العلاج

(١) المصالحة وخطابها، عبدالرؤوف أحمد عبدالغفور، ص ٥-٦.
(٢) دور الصلح العشائري في تحقيق السلم الاجتماعي، محمد سعيد صلاح، ص ٢٢.
(٣) جامع البيان، الطبري ٣/ ٤٠٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٤٠٦.
(٥) دور الصلح العشائري في تحقيق السلم الاجتماعي، محمد سعيد صلاح، ص ٣٢.

واجب.

١٠. رفع النزاع بين الحاكم والمحكوم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٨-٥٩].

قال أبو حيان: «فإن اختلفتم أنتم وأولوا الأمر في شيء من أمور الدين»[(١)].

وقد ذكر القرآن الكريم في هذه الآية كيفية رفع النزاع بين الحاكم الذي سمي (أولي الأمر) وبين المحكوم أو الرعية، وهي الرجوع إلى الله (القرآن الكريم ورسوله (السنة النبوية).

ولهذا يقول الشيخ السعدي: «أمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى الله وإلى رسوله أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما أو عمومهما، أو إيماءً، أو تنبيهًا، أو مفهومًا، أو عموم معنى يقاس عليه ما أشبهه؛ لأن كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما»[(٢)].

(١) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٣/ ٦٨٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٣.

ثالثًا: تحقيق الأمن:

الأمن في القرآن الكريم يراد به الأمن في الدنيا والآخرة، أما الأمن عند الآخرين فالمقصود فقط أمن الدنيا لا غير.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

يقول ابن كثير مبينًا ما ذكرنا من شمول الأمن في القرآن للدارين: «هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، لو لم يشركوا به شيئًا هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة»[(٣)].

الأمن وأنواعه في القرآن:

ذكر المختصون في هذا المجال أنواعًا كثيرة للأمن، أوصلها بعضهم إلى (٢٦ نوعًا)[(٤)].

والقرآن الكريم أشار إلى عدة أنواع من الأمن، كل نوع منها تندرج في حفظ أمن الفرد أو المجتمع، ونحن نذكر هنا بعضاً منها للتوضيح:

١. **الأمن الجماعي في القرآن.**

قال تعالى حاثًا المؤمنين على التمسك بدينهم الذي هو سر وحدتهم، والسبب الرئيسي لأمنهم واستقرارهم: ﴿وَاعْتَصِمُوا

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٩٤.
(٤) انظر: الأمن في ضوء القصص القرآني، سامي محمد بشير الجدبة ص ١٠.

﴿بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

أمن الدولة، والقرآن الكريم يذكرنا بدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام حين يدعو بالأمن والسلام لبلده وأهله ، وحمايتها من الأخطار الخارجية والداخلية.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

٢. الأمن الجنائي.

وقد ذكر القرآن الكريم في ذكره للحكمة من القصاص أنها وسيلة لردع المجرم حتى لا يرتكب قاتل آخر ما فعله الأول، وبذلك يأمن الناس من الاعتداء عليهم.

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

٣. الأمن الغذائي.

والقرآن الكريم يمن على قريش بأنهم يتمتعون بعيش آمن من خلال حصولهم على احتياجاتهم اليومية الغذائية دون خوف من أحد.

قال تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش: ١ - ٤].

٤. الأمن النفسي والشخصي.

كل فرد في المجتمع بحاجة للاطمئنان على عيشه وتأمين حياته، كي يكون في حالة توازن وتوافق، والقرآن الكريم يشير إلى هذا النوع من الأمن بقوله : ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

أهمية الأمن وكونها إحدى المقاصد في القرآن:

عند ذكرنا لأنواع الأمن في القرآن تبين لنا أهمية الأمن، ولتأكيدها فقد عد الأمن من أهم المقاصد في القرآن «فالله سبحانه وهب الإنسان نعمة الحياة، جعل حياطتها وحفظها كلًا وجزءًا مادةً ومعنىً في طليعة الأهداف التي أبرزها دينه الخالد ، وبعث بها رسله الأكرمين، ولذلك قرر لها من الحقوق والواجبات ما يحفظ لها ضروراتها الخمس المتمثلة في الدين والعقل والنفس والمال والعرض، ويكفل لها طمأنينتها ورخاءها»[1].

فتحقيق الأمن مقصد من مقاصد

(١) الأمن في الخطاب القرآني وفي شعر صدر الإسلام، فاطمة القاضي، ص ١٨١.

الشريعة، يقول صاحب كتاب المقاصد في المناسك عند ذكره المقاصد الاجتماعية: «المقصد الأول: الأمن على النفس والمال والعرض، مقصد عظيم من مقاصد الشريعة الإسلامية له أعظم الاعتبار ليس في شعيرة الحج فحسب، بل في كل أمر من أمور الحياة التعبدية والمعاملات والعادات وجميع أنواع الحياة البدوية والحضرية ... يعطي الشرع الشريف أهميةً كبيرةً على الحرص على الأمن على هذه المحاور الثلاثة في الاعتقادات والعبادات والمعاملات وفي كل أمور الحياة»[(١)].

وفي أثر الأمن على طلب العلم والعمل، يقول أبو حامد الغزالي: «لذا يجب أن نعلم أنه لا ينتظم الدين إلا بتحقيق الأمن، وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقًا بحراسة نفسه من الظلمة وطلب قوته من وجوه الغلبة، متى يتفرغ للعلم والعمل، وهما وسيلتاه إلى سعادة الآخرة»[(٢)].

رابعًا: معاداة الشيطان وعدم اتباع خطواته:

«الشيطان أو إبليس هو الجان الذي أبى السجود لآدم حين خلقه الله فاستحق لعنته، وطرد من جنته، ووجبت له النار بعد إنظار الله له إلى يوم القيامة، وأوتي من وسائل الإغواء ما لم يؤت أحد من العالمين»[(٣)].

وقد ذكر في القرآن الكريم في آيات كثيرة عداوة الشيطان لآدم وذريته، ومحاولته إغوائهم وصدهم عن السبيل وهدم مجتمعهم وتفكيكهم.

١. خطوات الشيطان في القرآن.

المراد بخطوات الشيطان : «المراحل الشيطانية الموقعة في المعصية بدءًا ببواعث تلك المعصية ودواعيها في النفس، ثم مرورًا بارتكابها واكتساب الإثم، ثم انتهاءًا بكون تلك المعصية مفتاحًا لما يتلوها من معاص تنتهي إلى غاية الشيطان الكبرى، وهي إيقاع الناس في الكفر والموت على ذلك»[(٤)].

وقد وردت في القرآن عبارة (خطوات الشيطان) أربع مرات، وهي:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

جاء في تفسيره «لا تتبعوا سبيله ولا تسلكوا طريقه ، لأن الخطوة اسم مكان، وهذا قول الزجاج وابن قتيبة، فإنهما قالا: خطوات الشيطان طرفه، وإن جعلت الخطوة بمعنى الخطوة كما ذكره الجبائي، فالتقدير:

(١) المقاصد في المناسك، عبدالوهاب أبو سليمان، ص ٦٩.
(٢) الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد الغزالي ص ١٢٨.
(٣) الشيطان خطواته وغاياته، وائل عمر علي بشير، ص ٦.
(٤) المصدر السابق، ص ١٠٢.



لا تأتموا به ولا تقفوا أثره ، والمعنيان مقاربان»[1].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

يقول الدكتور عمر سليمان الأشقر: «أمرهم بالعمل بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام ما استطاعوا، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان، فالذي يدخل في الإسلام مبتعد عن الشيطان وخطواته، والذي يترك شيئًا من الإسلام فقد اتبع بعض خطوات الشيطان، ولذلك كان تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، أو الأكل من المحرمات والخبائث»[2].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

يقول الألوسي: «معنى الآية استحلوا الأكل مما أعطاكم الله تعالى ، ولا تتبعوا في أمر التحليل والتحريم بتقليد أسلافكم المجازفين في ذلك من تلقاء أنفسهم المفترين على الله سبحانه خطوات الشيطان ، أي : طرقه فإن ذلك منهم بإغوائه واستتباعه إياهم ، إنه لكم عدو مبين أي ظاهر العداوة»[3].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ [النور: ٢١].

«والفحشاء كل فعل أو قول قبيح، والمنكر ما تنكره الشريعة وينكره أهل الخير»[4].

فمن وقع في الفحشاء والمنكر فقد اتبع خطوات الشيطان.

٢. مداخل الشيطان.

الشيطان له غاية كبيرة وهي تمزيق المجتمع وتفكيكه، وللوصول لغايته يستخدم وسائل عدة، وقد ذكرها القرآن الكريم لنحذرها حتى ننعم بالسلم والأمان، فهو يأمر بالسوء والفحشاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩].

قال الطبري: «والسوء الإثم، والفحشاء وهي كل ما استفحش ذكره، وقبح مسموعه»[5].

وهو ينزغ بين الناس ليفرق بينهم، لذلك يأمرنا الله سبحانه بالقول الأحسن حتى نتجنب نزغات الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ

(١) مفاتيح الغيب ، الرازي ٥/ ١٨٦.
(٢) عالم الجن والشياطين، عمر سليمان الأشقر، ص١٢٨.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٤/ ٢٨٢.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨/ ١٨٧.
(٥) جامع البيان، الطبري، ٣/ ٣٠٣.

﴿أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

قال الطبري: «إن الشيطان يسوء محاورة بعضهم بعضًا ينزغ بينهم، يقول: يفسد بينهم، يهيج بينهم الشر»[(١)].

ويخوفهم بالفقر وحثهم على عدم الإنفاق، وبذلك يحدث ثغرةً في بناء المجتمع، ويبعد الأغنياء عن الفقراء.

قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

قال البيضاوي: «الشّيطان يعدكم الفقر في الإنفاق، والوعد في الأصل شائع في الخير والشر، ويأمركم بالفحشاء ويغريكم على البخل»[(٢)].

ويوسوس إلى أوليائه بمجادلة الناس والإكثار من ذلك ليشغلهم عن ظهور الحق.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[الأنعام: ١٢١].

قال الفيومي في معنى المجادلة: «وجادل مجادلة وجدالًا إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب ، هذا أصله ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها ، وهو محمود إن كان للوقوف على الحق وإلا فمذموم»[(٣)].

وتأثير الجدل في هدم المجتمع واضح بين في تفكيك رباط المجتمع وزرع الحقد بينهم.

«والغضب مدخل من مداخل الشيطان، إذ به تحدث الجرائم وتتفكك الأسر ويضعف الإيمان وتضعف رابطة الأخوة، فهو شر تنبع منه شرورًا كثيرة»[(٤)].

(١) المصدر السابق، ١٧/ ٤٦٩.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ١٦٠.
(٣) المصباح المنير، الفيومي ١/ ٩٣.
(٤) البيان في مداخل الشيطان، عبدالحميد البلالي ص ١٠٣.

من أساليب القرآن في الحديث عن السلم

استخدم القرآن الكريم أسلوبين أساسيين وهما:

أولًا: أسلوب الأمر:

استخدم القرآن الكريم أسلوب الأمر بصيغ مختلفة تنطوي على أساليب بلاغية غاية في الروعة، لا تجاريها أسلوب بياني من غير القرآن الكريم الذي أنزله رب العزة، ومن هذه الصيغ المتعلقة بالآيات الواردة في السلم وما يتعلق بها:

١. فعل الأمر.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

قال الشيخ الطاهر بن عاشور: «صيغة الأمر في (ادخلوا) من أن حقيقتها طلب تحصيل فعل لم يكن حاصلًا أو كان مفرطًا في بعضه»[١].

فهنا أسلوب الأمر الحقيقي، باستخدام صيغة فعل الأمر (ادخلوا)، «والأصل في الأمر أن يراد به الحقيقة، بأن يكون لطلب الفعل على سبيل الاستعلاء والإيجاب، وذلك بأداء ما تضمنه الأمر حقًّا من غير تأويل بمعنى ثانوي»[٢].

٢. المضارع المجزوم بلام الأمر.

قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ [قريش: ٣].

يقول أبو حيان: «أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلة»[٣].

فصيغة الأمر هنا قوله ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾ وهو عبارة عن لام الأمر داخلة على الفعل المضارع يعبد.

٣. الإخبار بأن ترك الفعل كفر أو ظلم أو فسق.

مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

يقول الرازي: «﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قسم من الله تعالى على أنهم لا يصيرون موصوفين بصفة الإيمان إلا عند حصول شرائط، أولها: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول لا يكون مؤمنًا»[٤].

فهنا الأمر للوجوب كما ذكرنا من قبل.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٢٧٦.

(٢) أسلوب الأمر في سورة يوسف، أحمد فتحي رمضان و أحمد محمود عزو ص ٧.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ١٠/ ٥٤٨.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٢٨.

٤ . أسلوب الدعاء.

قال تعالى في دعاء إبراهيم عليه السلام أن ينعم على مكة بالأمن والأمان والسلام، ويرزقهم من أنواع الثمرات: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وأسلوب الأمر هنا مجازي يسمى الدعاء، مستعملًا فعل الأمر ﴿ٱجْعَلْ﴾. «إبراهيم الأواه الحليم القانت المستقيم، يتأدب بالأدب الذي علمه ربه، فيراعيه في طلبه ودعائه»[١].

٥ . أسلوب الأمر في سياق النهي، وتفيد معنى الأمر.

قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠].

قال ابن عاشور: «ولذلك أمر المؤمنين بكف أيديهم عن هؤلاء إن اعتزلوهم ولم يقاتلوهم»[٢].

وهذا الأسلوب وارد في اللغة العربية «فقد ترد صيغة الأمر في سياق النهي، والعكس في عدد من الآيات، ونحن نعلم أن النهي أمر في عدم الفعل، وهو في حقيقته أمر، إلا أنه ورد بأسلوب آخر.»[٣].

٦ . الأمر على سبيل الاستفهام.

وهو أمر غير صريح، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١].

وهذا الأمر من أبلغ أنواع الأمر، يقول الدكتور سعود بن غازي أبوتاكي: «والأمر عن طريق الاستفهام له دلالة تزيد عن الأمر بصيغه الصريحة، ومنها:

- الأمر عن طريق الاستفهام أولى بالقبول والإستجابة لما فيه من تلطف في الطلب.
- الأمر في الاستفهام، فيه مبالغة في الطلب.
- الأمر عن طريق الاستفهام يعطي ثباتًا للمعنى وتأكيدًا»[٤].

٧ . الأمر في صورة المصدر.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ١٧٨].

فكلمة ﴿فَٱتِّبَاعٌۢ﴾ هنا مصدر أناب معنى

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ١١٤.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٥٤.
(٣) أسلوب الأمر في سورة يوسف، أحمد فتحي رمضان و أحمد محمود عزو صالح ص ٦.
(٤) صور الأمر في العربية بين التنظير والتطبيق، سعود بن غازي أبو تاكي ص٢٣٥.

فعل الأمر (فاتبع).

يقول أحد الباحثين: «فسياق الآية الترغيب في المصالحة في الدماء، وذلك أمر عظيم لا تكاد تذل النفس العربية إليه سريعًا، ومعالجتها له جد عظيمة، فلا تكاد صيغة (افعل) أو (لتفعل) قائمةً فيه بما يراد فعدل عن قوله (فليتبعه) و(فليؤده) إلى اتباع وأداء، مقام فعلي الأمر، فإن في هذا العدول إلى المصدر دلالة على الثبات»[1].

ومن المعلوم أثر العفو عن القاتل في تمتين العلاقة بينه وبين أولياء المقتول، وذهاب الشحناء والبغضاء بينهما وبالتالي تقوية أواصر المحبة والسلم الاجتماعي.

ثانيًا: أسلوب النهي:

استخدم القرآن الكريم أسلوب النهي في حديثه عن السلم وضرورة قيامه في المجتمع. ومن هذه الأساليب المتعلقة بالآيات الواردة في السلم وما يتعلق بها:

١. لا الناهية مع الفعل المضارع.

وهذه الصيغة هي حقيقة في التحريم، بمعنى أنها تفيد تحريم الفعل المنهي عنه.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: ٩٤].

فصيغة النهي في الآية صريح وهي: لا الناهية الداخلة على الفعل المضارع ﴿تَقُولُوا﴾، ومعنى النهي للتحريم لتحذيره من قتل المؤمن.

قال أبو السعود العمادي: «نهيٌ عما هو نتيجةٌ لترك المأمور به وتعيينٌ لمادّة مهمّةٍ من الموادّ التي يجب فيها التبيين»[2].

وقال ابن عاشور: «استقصاء للتحذير من قتل المؤمن بذكر أحوال قد يتساهل فيها وتعرض فيها شبه»[3].

فقد استخدم القرآن الكريم هذه الصيغة ليحذر من قتل المؤمن، وقتله بغير حق يؤدي إلى تعكير السلم والأمن في المجتمع.

٢. الاستفهام الإنكاري أو التعجبي مقرونًا بالتهديد على الفعل.

قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦].

يقول الطاهر بن عاشور في معنى الآية: «انتقال من الاستدلال إلى التخويف؛ لأنه لما تقرر أنه خالق الأرض ومذللها للناس، وتقرر أنهم ما رعوا خالقها حق رعايته، فقد استحقوا غضبه وتسليط عقابه بأن يصير مشيهم في مناكب الأرض إلى تجلجل في طبقات الأرض ، فالجملة معترضة

(١) صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، محمود توفيق محمد سعد، ص ٥٥.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٢١٨.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٦٦.

والاستفهام إنكار وتوبيخ وتحذير»[1].

٣. كلمات اجتنبوا واتركوا التي تدل على طلب ترك الفعل.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱجۡتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٌ﴾[الحجرات: ١٢].

قال أبو حيان: «اجتنبوا كثيرًا من الظن: أي: لا تعملوا على حسبه، وأمر تعالى باجتنابه، لئلا يجترىء أحد على ظن إلا بعد نظر وتأمل وتمييز بين حقه وباطله»[2].

فهنا أسلوب النهي باستخدام كلمة تدل على ترك الفعل. ويدل على تحريم الظن أحاديث كثيرة منها:

عن أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا وكونوا إخوانًا، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى ينكح أو يترك)**[3].

٤. ما اشتق من كلمة النهي يفيد عموم الترك.

وهو أعم من أن يكون حرامًا أو مكروهًا. وهي من أبلغ ما ينتهي به كما يقول الرازي[4].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١].

فكلمة ﴿مُّنتَهُونَ﴾ مشتق من كلمة (نهى)، والتي تدل على النهي الحقيقي، فالخمر والميسر منهي عنه نهيًا حقيقيًّا لكونه يفضي شربه إلى هدم المجتمع وتهديد للأمن والاستقرار، وقد استخدم هذا الأسلوب في الحديث النبوي بكثرة، منها: عن جابر بن عبد الله، قال: **(نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كراء الأرض، وعن بيعها السنين، وعن بيع الثمر حتى يطيب)**[5].

٥. الخبر المعرب عن النهي.

وقد يقع النهي بالجملة الإنشائية، وهو أبلغ في النهي، وهذا كثير في القرآن.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٌ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُوا بِهِۦ﴾ [النساء: ٨٣].

والآية واردة في النهي عن نشر الإشاعة في حالتي السلم والحرب.

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «فخوض العامة في السياسة وأمور الحرب والسلم، والأمن والخوف، أمر معتاد وهو ضار جدًّا إذا شغلوا به عن عملهم، ويكون ضرره أشد

(١) المصدر السابق ٢٩/ ٣٣.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٩/ ٥١٩.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٥١٤٣، كتاب الجمعة، باب من انتظر حتى تدفن.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٢٥.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ١٥٣٦، كتاب البيوع، باب النهي عن المحاقلة والمزابنة وعن المخابرة، وبيع الثمرة قبل بدو صلاحها، وعن بيع المعاومة وهو بيع السنين.

إذا وقفوا على أسرار ذلك وأذاعوا به»[1].

يقول الدكتور محمود توفيق محمد سعد: «جمهور أهل العلم على أن الخبر المنفي قد يرد في سياق فيفيد النهي عما دخلت عليه أداة النفي أو لازم ما دخلت عليه، فلا يكون النفي على ظاهره»[2].

٦. العرض والتحضيض المراد به النهي.

قال تعالى مذممًا الذين يطففون في الكيل والوزن وينشرون الغش والخداع في المجتمع، فتشيع البغضاء والحقد بين أفراده ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾ [المطففين: ١-٥].

يقول الزمخشري مبينًا موضع النهي الوارد في الآية: «إنكار وتعجيب عظيم من حالهم في الاجتراء على التطفيف، كأنهم لا يحظرون ببالهم ولا يخمنون تخمينًا، ومحاسبون على مقدار الذرّة والخردلة.. وفي هذا الإنكار والتعجيب وكلمة الظن، ووصف اليوم بالعظم، وقيام الناس فيه لله خاضعين، ووصفه ذاته برب العالمين: بيان بليغ لعظم الذنب وتفاقم الإثم في التطفيف وفيما كان في مثل حاله من الحيف وترك القيام بالقسط، والعمل على السوية والعدل في كل أخذ وإعطاء، بل في كل قول وعمل»[3].

فكلمة ﴿أَلَا﴾ فيه معنى التحضيض المعرب عن معنى النهي.

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ٢٤٢.
(٢) صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، محمود توفيق محمد سعد ص ٨٤.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٢١.

قواعد السلم مع غير المسلمين

أرسى القرآن الكريم في علاقة المسلم بغيره عدة قواعد ومبادئ، يرجع إليها المسلم في بناء علاقته مع الغير، وقد سار الرسول الكريم والصحابة على هذه القواعد والمبادئ العامة، وسوف أتناول ذلك بالبيان فيما يلي:

أولًا: مبادئ وحدة الإنسانية والتكاليف والدين والمصير:

١ ـ الوحدة الإنسانية.

صرح القرآن الكريم في آيات كثيرة بهذه الوحدة، وهي أن الناس جميعًا أمة واحدة، وأن الاختلاف عارض منشؤه الهوى، فكل الناس سواء في الحقوق بغض النظر عن اختلاف اللون والقومية والجنس، ولا محل لنظرية الشعب المختار.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ١٣].

قال السعدي: «يخبر تعالى أنه خلق بني آدم من أصل واحد وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله تعالى بث منهما رجالًا كثيرًا ونساءً، وفرقهم وجعلهم شعوبًا وقبائل، أي: قبائل صغارًا وكبارًا، وذلك لأجل أن يتعارفوا»[١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النساء: ١].

«فالآية تصرح بأن بأن الأصل واحد، فقد خلق الله الناس جميعًا من نفس واحدة وخلق من هذه النفس زوجها، وتولد الناس من هذين الأبوين الكريمين»[٢].

٢ ـ وحدة التكاليف.

تتجه أوامر القرآن ونواهيه إلى كل الناس دون تفرقة بينهم، فأوامر القرآن الكريم يطالب بها كل الأجناس والطوائف من عرب وعجم وذكر وأنثى وأبيض وأسود، ورئيس ومرؤوس وغني وفقير.

يقول الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٢٣].

وقد خاطب الله سبحانه جميع البشر وأمرهم بالتقوى، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١].

وعبارة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وردت كثيرًا في القرآن الكريم والمخاطب بها بني آدم كلهم. فالجميع على مستوى من المسؤولية أمام الله، وأمام المجتمع.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٠٢.
(٢) العلاقات الدولية في الإسلام، محمد أبو زهرة، ص ٢١.

٣. وحدة الدين.

القرآن الكريم آخر الكتب السماوية وخاتمها، فكل كتاب سماوي سابق كانت مناسبةً للزمان والمكان الذي أرسلت فيه، وتلتقي الرسالات السماوية جميعًا في الأسس العامة، أما التفصيلات فإنها تختلف باختلاف ظروف كل شريعة، وفقًا للزمان والمكان الذي ظهرت فيه، والإسلام هو دين الأنبياء جميعًا، منذ وجد الإنسان على وجه الأرض.

يقول تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

يقول سيد قطب: «وبذلك يقرر حقيقة الأصل الواحد، والنشأة الضاربة في أصول الزمان»[(١)].

وهذا الشعور بالقربى يدعو إلى التعاون والتفاهم وإرساء السلام العميق، فالأصول الكلية واحدة والدين لدى الأنبياء كلهم هو الإسلام.

٤. وحدة المصير.

والمراد بها «عرض جميع الخلائق على ربهم في عالم الآخرة، مما يقتضيهم التزام أمر الله، واجتناب نهيه، فتحقق لهم السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، ولا داعي بعدئذ للتفرق والاختلاف في الدين»[(٢)].

فالبشرية مصيرهم واحد في أطوار حياتهم وفي نهايتهم.

يقول تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟﴾ [الحج: ٥].

وهذا الشعور بوحدة المصير تدفع المسلم إلى بناء علاقة سليمة مع غيره.

ثانيًا: القواعد والمبادئ التي على أساسها يتعامل المسلم مع غيره:

١. مبدأ التعاون الانساني.

التعاون مبدأ عام قرره القرآن الكريم، فقد حث على التعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان بقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

يقول ابن عاشور: «فهم وإن كانوا كفارًا يعاونون على ما هو بر؛ لأن البر يهدي للتقوى، فلعل تكرر فعله يقربهم من الإسلام»[(٣)].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣١٤٧.

(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١٦١٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٦/ ٨٧.

وانتماؤهم إلى أصل واحد أدعى إلى التعاون والتعارف، والتعارف لا يكون إلا بالتفاعل الإيجابي.

يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذا الأساس هو ما يتعامل به مع الناس فتكمل إيمانهم ويدخلون به ملكوت السماوات، وأساس هذا التعاون أن يتظافروا على دفع الاعتداء وإقامة الحق، أو ما يسمى بالتعايش السلمي، وهذا التعاون مطلوب في كل صوره حتى تختفي روح التناحر والنزاع.

٢. مبدأ الحرية.

الحرية مبدأ قرآني قرره في آيات عدة كمبدأ للتعامل والتعايش بين المسلم وغيره. «والحرية الحقيقية تبدأ بتحرير النفس من سيطرة الأهواء والشهوات، وجعلها خاضعة لسلطان العقل والإيمان»[(١)].

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[آل عمران: ٦٤].

وقد نص القرآن الكريم على حرية العقيدة باعتبار أنها لا تبنى بالإكراه والقوة، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فمنع أن يكون الإكراه طريقًا للدين، ومنع المؤمنين من أن يكرهوا أحدًا على الدين.

٣. مبدأ العدل.

وقد جاء الإسلام لتحقيق الحق وإبطال الباطل وإقامة العدل مع الجميع الصديق والعدو.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة: ٨].

فالعدل حق للأعداء كما هي للأولياء، والقرآن الكريم لم يعمم الحكم على الجميع بل أعطى لكل حقه، فقال عزو وجل: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

يقول الطبري: «يعني بذلك: أنهم غير متساوين. يقول: ليسوا متعادلين، ولكنهم متفاوتون في الصلاح والفساد، والخير والشر»[(٢)].

والعدالة شاملة للجميع، فلا تمييز بسبب دين أو لون أو عرق. ولإقامة العدل أثر كبير

(١) العلاقات الدولية في الإسلام، محمد أبو زهرة، ص ٢٩.

(٢) جامع البيان، أبو جرير الطبري، ٧/ ١١٨.

في بناء العلاقات السليمة البعيدة عن الحقد والكراهية والنزاعات.

٤ . مبدأ الوفاء بالعهد.

والوفاء بالعهد خلق رفيع، سمي بذلك «لما فيه من بلوغ تمام الكمال في تنفيذ كل ما عاهد عليه الله، وفي كل ما عاهد عليه الناس»[(١)].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١].

وقال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٤].

والوفاء بالعهد هو السبيل لاستقرار السلام بين الأفراد أو بين الجماعات، ولذلك حث القرآن على الوفاء واعتبرها قوة والنكث فيها ضعفًا، فمن وثق عهده باليمين فقد اتخذ الله كفيلًا، فلا يصح له الغدر والغش.

قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النحل: ٩١].

والقرآن الكريم لا يكتفي بمجرد الدعوة إلى الوفاء بالعهد، بل يجعلها من المبادىء السامية والقواعد الأساسية لإرساء السلم والسلام مع الغير[(٢)].

٥ . مبدأ الفضيلة.

وهي من الأسس المهمة التي أكد عليها القرآن في تنظيم العلاقة بين الأفراد أو بين الجماعات في حالتي السلم والحرب. والفضيلة حق لكل إنسان بحكم إنسانيته والتي هي وصف مشترك بين كل أبناء آدم. وهي من المبادىء الإسلامية السامية، لما فيها من محافظة على قيمه الرفيعة، ودعوة إلى إقامة مجتمع فاضل يستطيع النهوض بأعبائه.

ومراعاة للفضيلة فقد نهى عن التمثيل بالقتلى والتشويه بأجسادهم، وقتل الأطفال والشيوخ والنساء، ونهى عن التعذيب، حتى لو فعل الغير ذلك. ولا تقتل الأسير ولا يتم تجويعهم.

قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقد ذكر الشيخ السعدي رحمه الله في تفسيره تلك الأمور فقال: «أي: الذين هم مستعدون لقتالكم، وهم المكلفون الرجال، غير الشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال. والنهي عن الاعتداء، يشمل أنواع الاعتداء كلها، من قتل من لا يقاتل من النساء والمجانين والأطفال والرهبان ونحوهم، والتمثيل بالقتلى، وقتل الحيوانات، وقطع

(١) موسوعة نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين، ٨/ ٣٨٣٩.

(٢) انظر: العلاقات الدولية في الإسلام، محمد أبو زهرة ص ٤٣-٤٤، أسس العلاقات الإنسانية في الإسلام، محمد نجيب نصرات ص ١٨.

الأشجار ونحوها، لغير مصلحة تعود للمسلمين. ومن الاعتداء: مقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوها، فإن ذلك لا يجوز»[1]. وبمراعاة تلك الأسس الأخلاقية في الحروب تميز المسلمون عن غيرهم.

٦. مبدأ التسامح.

بتتبعنا لآيات القرآن الكريم لم نجد لفظة التسامح ومشتقاتها.

بل وردت لفظة الصفح والعفو، قال تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[البقرة: ١٠٩].

وكظم الغيظ، قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾[آل عمران: ١٣٤].

والصبر، قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ [الشورى: ٤٣].

ويهدف القرآن في إرساء هذا المبدأ في المجتمع إلى الدعوة للدخول في الإسلام، ونشر روح المحبة والسلام والوئام في المجتمع ونبذ التفرقة والاختلاف فيه.

ويتمثل تسامح القرآن مع مخالفيه في:

- عدم إكراه أحد على الدخول في الدين ابتداءًا، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

- إتاحة الفرصة للغير بإبداء آراءه شريطة عدم المساس بثوابت الدين وأمن المجتمع، وله أن يستخدم الأدلة والبرهان لإقناع الناس، قال تعالى﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥][2].

- الترفق بغير المسلمين في الخطاب والنداء، فقد ورد في كثير من الآيات: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٩.

(٢) انظر: التعايش السلمي في إطار التعددية المذهبية داخل المجتمع المسلم وتطبيقاته في التربوية في الأسرة والمدرسة، مزنة بنت بريك بن مبارك المحلبدي، ص ٣٤-٣٥.

أثر السلم على الفرد والمجتمع

للسلم أثر كبير وهام في حياة الفرد والمجتمع، سنتحدث عنها في النقاط الآتية:

أولًا: أثر السلم على الفرد:

للسلم أثر كبير في حياة الفرد، منها:

٣. حصول الاطمئنان النفسي وراحة البال، والانسجام بين الإنسان ونفسه وضميره.

والطمأنينة هي «الوثوق بالشيء أو سكون يقويه أمن صحيح شبيه بالعيان، وهي سكون نفس في استراحة عيان»[(١)].

فهي نفي الخوف والفزع عن الإنسان فردًا أو جماعةً، فالسلم يحقق راحة البال. وإلى هذا المعنى أشار الماوردي بقوله: «صلاح المرء وانتظامها في الدنيا بستة أشياء: أمن عام تطمئن إليه النفوس»[(٢)].

قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾[الأنفال: ١١].

يقول ولديورانت: «إن الحضارة تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق؛ لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ، لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهض للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها»[(٣)].

وفي السلم تحصل للنفس حالة التوافق الشخصي أي الرضا عن النفس، والتوافق الاجتماعي، ويحصل للمرء حالة من السعادة والراحة النفسية، لشعوره بالأمن والطمأنينة والثقة، ويشعر كذلك بالسعادة مع الآخرين، لما في علاقته معهم من الحب والاحترام والثقة المتبادلة بينهم، بسبب التكافل الاجتماعي.

٤. توفر الصحة والعافية للفرد، ببعده عن الصراعات والحروب، وسلامته من العاهات والآفات الظاهرة والباطنة.

قال تعالى على لسان ملكة سبأ موضحًا أثر الحروب على المجتمعات وتدميرها: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤].

يقول القاسمي: «إن الملوك إذا دخلوا قريةً أي عنوةً وقهرًا أفسدوها أي أخربوها وجعلوا أعزة أهلها أذلةً أي بالقهر والغلبة والقتل والأسر ونهب الأموال، وكذلك يفعلون تأكيد لما وصفت من حالهم، وتقرير

(١) السكينة وطمأنينة النفس في القرآن الكريم، صلاح الدين سليم محمد ص ١١.
(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ١٤٢.
(٣) قصة الحضارة، ول ديورانت ١/ ٣.

له بأن ذلك عادتهم المستمرة»[1].

ومن آثارها المجاعات والإعاقات بشتى أنواعها والموت والجرحى والدمار في الممتلكات والأمراض، وتشريد اللاجئين في البلدان المستسلمة بسبب الصراع.

ومن أخطار الحروب : الأسلحة الفتاكة التي اكتشفها العلم ودفعت بأيدي البشرية، مما يوجب استعمالها في الحرب نسف الحضارة، من غير فرق بين الحروب المحدودة والحرب العالمية.. وفي حرب العراق مع إيران قدر مجموع القتلى والجرحى من الطرفين بمئات الألوف، كما أن حرب الروس لأفغانستان خلفت أكثر من مليون قتيل وجريح، بالإضافة إلى أربعة ملايين مشرد، والحرب بالإضافة إلى الهلاك والتدمير، تخلف مشوهي الحرب، والجرحى الذين يتألمون طول حياتهم من ويلاتها، فإن الأسلحة الفتاكة توجب مختلف الأمراض والتشويهات في الإنسان والحيوان والنبات، وقد جاء في تقرير: أن روسيا اشترت خمسة وعشرين مليون عضوًا كاليد والرجل والعين الصناعية، لأجل المشوهين، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، هذا بالإضافة إلى أن الحرب تذر الديار بلاقع، لا تصلح لإنبات النبات إلى آماد بعيدة.

تلك هي حالة الناس في الحروب، والأمور تعرف بأضدادها، فالسلم يجنب الناس مآسي الحروب وويلاتها.

٥. تنشئة الفرد تنشئة صحيحة في حالة السلم.

الأسرة هي اللبنة الأولى في المجتمع، وهي نواته، ومنها تخرج الأجيال إلى المجتمع، فإذا ساد فيها السلم والوئام، كانت النتيجة تربية أناس أكفاء. وبوجود التنازع والشقاق في المؤسسة ينعكس ذلك على تربية الأفراد الموجودين فيها.

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

يقول الشيخ المراغي: «من آياته الدالة على البعث والإعادة: أن خلق لكم أزواجًا من جنسكم لتأنسوا بها، وجعل بينكم المودة والرحمة لتدوم الحياة المنزلية على أتم نظام»[2].

يتعاون الزوجان على بناء الأسرة وتحمل المسؤولية، فكل منهما يكمل الآخر، وبهذا التعاون يصلان إلى أفضل النتائج في تربية الأولاد في ظل المحبة والسلام والاستقرار، لأن من أهم عوامل نجاح التربية وجود بيئة صالحة خالية من النزاعات، يقول

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٤٩١.

(٢) تفسير المراغي ٢١/ ٣٧.

الدكتور عبدالرحمن المحلاوي: «إذا اجتمع الزوجان على أساس من الرحمة، والاطمئنان النفسي المتبادل، فحينئذ يتربى الناشئ في جو سعيد يهبه الثقة، والاطمئنان والعطف والمودة بعيدًا عن القلق وعن العقد والأمراض النفسية التي تضعف شخصيته»[1].

ولهذا يأمر القرآن الكريم أهل الزوجين بالسرعة في إيجاد الحل لمشاكل الأسرة عند وجود شقاق ونفرة بين الزوجين، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥].

ثانيًا: أثر السلم على المجتمع:

١. السلم وعلاقته بعمران المجتمع، تقدم ورقي المجتمع والتنمية المستدامة في المجتمع.

فإذا شعر الإنسان أن السلم والعدل قد شمل الكل، أدى ذلك إلى إقباله على العمل بجدية، وبذلك تكثر الأموال والخيرات، ولكن حينما يرى الاعتداء على الناس ولا يحس بالأمن، يحجم عن مزاولة الأعمال. نلاحظ أن الشريعة الإسلامية تربط ربطًا وثيقًا بين أهداف الإنتاج وتنميته وبين عدالة التوزيع بين الأفراد وعدم الطغيان.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

قال سيد قطب: «فالآية تقرر سنة الله، لقرية انها هالكة لأنها أخذت بأسباب الهلاك، فكثر فيها المترفون الذين نشروا الفاحشة واستهترت بالقيم والمقدسات والكرامات فلم تدافعهم ولم تضرب على أيديهم، فهي مسؤولة عما يجري لها على أيدي المترفين.»[2].

فكلما زاد الإحساس بالأمن لدى المجاميع الواسعة في أفراد الشعب من ناحية، كلما زادت مساحة العدل المتحققة في صوره المتعددة من ناحية ثانية، كل ما زاد التقدم الحضاري في ذلك المجتمع. «فالسلم هو المرتكز الأساس لكل عوامل البناء والتنمية، وتحقيق النهضة الشاملة في كافة المجالات. ولهذا ذكره الله إلى جانب الغذاء، فقال ممتنًا على أهل مكة: أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف. بل قدمه على الغذاء، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف»[3].

---

(١) أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، عبدالرحمن المحلاوي ص ١١٢.

(٢) في ظلال القران، سيد قطب ٤/ ٢٢١٧-٢٢١٨.

(٣) هدي النبي صلى الله عليه وسلم في إقامة الأمن والسلام، محمد سجاد يونس، مقال

يقول الدكتور محسن عبدالحميد: «بناء العلاقات على أساس السلم ستساعد كثيرًا على تنمية الحياة والمجتمع وإنجاح خطط التقدم الحضاري والاستفادة القصوى من الأمم المتقدمة، لأجل التغيير والبناء والتعويض عما فات من الخير»[(1)].

والتنازع والتخاصم يؤدي إلى انتكاسة في الاقتصاد، لأن الأموال تنفق في وجوه غير مشروعة من شراء السلاح، ودفع التعويضات للمتضررين. أما السلم فيحقق للمجتمع عمارتها وازدهارها، ويسرع تقدم عجلة التنمية.

٢. حصول العدالة والمساواة في المجتمع في حالة السلم، وعدم استئثار فئة على حقوق الآخرين، ويحصل بذلك الاتفاق والتراضي.

والمراد بالمساواة: «تشابه المكانة الاجتماعية والحقوقية والمسئوليات والفرص للناس في المجتمع على النحو الذي تقوم فيه الحالة المتماثلة فيما بينهم»[(2)].

وبناءً على هذه الصورة للمساواة فالحكام والمحكومون والراعي والرعية متساوون في نظر الشريعة الإسلامية من جهة الحقوق والواجبات الإنسانية، فلا امتياز من حيث الأصل والمنشأ، إنما التفاوت بحسب القدرة والكفاءة والطموح والإبداع والتفوق.

ومن المبادىء التي على أساسها تم السلم في المجتمع: الأخوة والمحبة بين الناس، لذلك أمر الله سبحانه بتوزيع الثروة بالعدل والمساواة، وهذا لا يتم إلا في أجواء الحب والإخاء والمحبة بين الناس.

قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٧-٨].

فالآية ترفض كل من ينادي بتغذية الصراع بين الأغنياء والفقراء، أو بين الطبقات بعضها مع بعض.

٣. الانسجام الاجتماعي بسبب التكافل والتضامن.

قال الماوردي رحمه الله: «العدل الشامل يدعو إلى الألفة، ويبعث على الطاعة وتعمر البلاد، وتنمو به الأموال ويكثر معه النسل

منشور على شبكة الألوكة.

(١) الإسلام والتنمية الاجتماعية، محسن عبدالحميد ص ١٣٤.

(٢) الإسلام والأمن الاجتماعي، محمد عمارة، ص ٩٢.

ويأمن به السلطان، فليس شيء أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق، من الجور ؛ لأنه ليس يقف على حد ولا ينتهي إلى غاية، ولكل منه قسط من الفساد حتى يستكمل»[1].

فالسلم يدعو إلى الألفة ويبعث على الطاعة وتعمر البلاد ، وما أجمل ذلك المشهد لتلك الأمة الجادة في عملها، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧].

يقول الرازي: «والمعنى أنه تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم. والحاصل أن عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك والكفر، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أساؤا في المعاملات وسعوا في الإيذاء والظلم»[2].

فلا يهلك الله أهل القرى بمجرد كونهم مشركين إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم، وعذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم مشركين فقط، بل إنما ينزل ذلك العذاب إذا أساؤوا في المعاملات وسعوا في الإيذاء والظلم، وهذا ما حدث في قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب لما حكى الله تعالى عنهم من إيذاء الناس.

(١) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص ١١٩.
(٢) مفاتيح الغيب ، الرازي، ١٨/ ٤١٠.

٤ . السلم والحرية وأثره في انتشار الدعوة الإسلامية.

من الآثار الهامة في السلم وجود حالة من الحرية تسمح للناس أن تسمع كلام الآخرين ومناقشتها وقبولها، وهذه الحالة لا توجد في الحرب والصراع. «إن حرية الإنسان في الرؤية الإسلامية هي فريضة اجتماعية وتكليف إلهي، تتأسس عليها أمانة المسؤولية ورسالة الاستخلاف، التي هي جماع المقاصد الإلهية في خلق الإنسان.

وفي الاصطلاح الإسلامي: الحرية ضد العبودية، والحر نقيض العبد والرق، وتحرير الرقبة عتقها من الرق والعبودية، فالحرية هي الإباحة التي تمكن الإنسان من الفعل المعبر عن إرادته في أي ميدان من ميادين الفعل أو الترك، وبأي لون من ألوان التعبير»[3].

وفي السلم يتمتع الناس بحرياتهم من غير ضغوط أو إكراه، ولذلك سمى الله سبحانه حالة السلم والهدنة مع قريش بالفتح بقوله : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١-٣].

يقول الزهري: «وما فتح في الإسلام فتح كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى

(٣) الإسلام والأمن الاجتماعي، محمد عمارة ص ٨٥.

الناس؛ فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمن الناس كلهم بعضهم بعضًا، فالتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه ، فلقد دخل في تينك السنتين في الإسلام مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر»[(١)].

فقد وضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس بعضهم بعضًا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة. وهذه هي حالة السلم في كل العصور، تتلاقى فيها الأفكار والمبادىء ويسمع الناس كل مة الحق بحرية ودون إكراه.

٥. دفع المفسدة وقمع الشرور، وقلة الجرائم المرتكبة في المجتمع.

ففي السلم حقن الدماء التي قد تراق بين المتنازعين، وحماية للنفس البشرية التي حرم الله الاعتداء عليها وقتلها إلا بالحق.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الإسراء: ٣٣].

يقول سيد قطب: «والإسلام دين الحياة ودين السلام، فقتل النفس عنده كبيرة تلي الشرك بالله، فالله واهب الحياة، وليس لأحد غير الله أن يسلبها إلا بإذنه وفي الحدود التي يرسمها»[(٢)].

ولتحقيق السلم شرع القصاص في القتلى ووصف بالحياة، وكذلك مبدأ العفو في القصاص له أثر في الحد من الجريمة وتقليلها.

ففي موضوع أثر العفو في التقليل من الجرائم يقول محمد أبو ركاب: «فشرعية القصاص فيها حياة لنفوس كثيرة، وفتح باب أخذ رأي أولي الدم يفتح بابًا للحياة وبابًا لسد المشكلات ونشر الأمن والاستقرار»[(٣)].

فالمجتمع الآمن هو الذي يأمن الناس فيه على النفس والعرض والممتلكات؛ لأن وجود الأمن والسلم في المجتمع يؤدي إلى الحد من ارتكاب الجريمة، بل كفيل بمنعها نهائيًا، وتجربة سيدنا عمر بن عبدالعزيز خير دليل على ما ذكرنا، حيث لم يرتكب الجريمة في عهده إطلاقًا[(٤)].

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٥٩.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٢٤.
(٣) المقاصد الاجتماعية من مشروعية القصاص في جريمة القتل العمد، محمد أبو ركاب ص ٣٦٦.
(٤) انظر: الأمن الاجتماعي في الإسلام، أسامة عبدالسميع، ص ١٦٦.

السلم بين القرآن و المواثيق الدولية

أولًا: مفهوم السلم بين الفكر الإسلامي والمواثيق الدولية:

١. مفهوم السلم في الفكر الإسلامي.

الفكر الإسلامي هو الفكر الذي ينطلق من الكتاب والسنة الصحيحة.

وقد بين علماؤنا الكرام من مفسرين وفقهاء ومحدثين وغيرهم قديمًا وحديثًا مفهوم السلم كما جاء في القرآن والسنة.

فقد بحثوا في كتاباتهم طبيعة العلاقة بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول: هل الأصل السلم أم الحرب؟ وتقسيم العالم إلى دار الإسلام ودار الحرب، كما حصل الآن من تقسيمه إلى دول وحكومات.

وبحثوا مسائل الأمان والمعاهدات وأنواعها، وأهل الذمة، ولم ينسوا مسألة أسرى الحرب ومصيرهم والجرحى وكيفية معاملتهم، وكذلك مسألة الضرائب والخراج والغنائم وأموال الحرب. وذكروا المسائل المتعلقة بانتهاء الحرب والصلح وأقسامه وشروطه.

استخدم علماؤنا مصطلح (السير) للدلالة على الأحكام المتعلقة بتنظيم العلاقة مع الغير في حالة الحرب. وأول من استعمل هذا المصطلح هو الإمام أبو حنيفة، ثم دون تلميذه محمد بن الحسن الشيباني هذه الأحكام في كتابين: السير الصغير والسير الكبير. فعلم السير هو «قواعد التعامل مع غير المسلمين في دار الكفر وفي دار الإسلام، وقت السلم ووقت الحرب»[(١)].

وهو ما يعرف بالقانون الدولي.

يقسم الفكر الإسلامي مصطلح السلم إلى أقسام، وهو ما يميز الفكر الإسلامي عن غيره:

١. السلم الداخلي.

ويعني به «إصلاح نفسية الفرد ليكون خاضعًا لله في حكمه وأمره، محبًّا للناس في عسره ويسره، عاملًا للخير في منشطه ومكرهه، بعيدًا عن الأذى في غضبه ورضاه»[(٢)].

٢. السلم الأسري.

والمراد به: «إقامة نظام الأسرة على حب تسكن إليه النفس، وسلم لا تشوبه محن ولا نزاع، وحقوق يتوازن بعضها مع بعض»[(٣)].

٣. السلم داخل المجتمع.

وتبنى السلم في المجتمع على أسس

(١) أصول العلاقات الدولية في فقه الإمام محمد بن الحسن الشيباني، عثمان جمعة ضميرية، ١/ ٢٤٠.
(٢) مفهوم السلم في الفكر الإسلامي، محمد بازياني، ص ٢٣٩.
(٣) المصدر السابق ص ٢٤٠.

العلم، وإعطاء الحقوق، ونشر الفضائل في المجتمع، وسيادة القانون. ووثيقة المدينة بين سكان المدينة من مسلمين وغيرهم خير شاهد على ذلك: فقد نظم العلاقة في مجموعة بنود تصب في صالح السلم والسلام في المجتمع على قاعدة الإخاء بين المهاجرين والأنصار، وأنهم أمة واحدة دون الناس، وأنهم كجسد واحد، وأن يدهم واحدة على من عاداهم. وعلى قاعدة العدل والمواطنة والحقوق والواجبات المتقابلة لغير المسلمين، كما أكدت على الحرية الدينية لكل الطوائف[1]. وسلم المجتمع بحاجة لإقامة حكومة عادلة تعمل على إقامة السلم في المجتمع بتربية النفوس على الخلق القويم، ومنع ما يؤدي إلى الاضطراب وتعكير صفو الأمن.

٢ . مفهوم السلم في الوثائق الدولية:

١ . السلم الخارجي والقانون الدولي العام.

يقصد بالقانون الدولي العام: «المواثيق والأعراف الدولية التي تطبق حال النزاعات المسلحة على اختلاف أقسامها، وتهدف إلى تقييد النزاع في حق استخدام أساليب القتال ووسائله، وحماية المتضررين من هذا النزاع، وتخفيف آثاره عنهم، وذلك حفاظًا على كرامة الإنسان وحقوقه الأساسية»[2].

وهذا القانون يشمل: قانون لاهاي (١٨٠٩-١٩٠٧) والذي ينظم حقوق وواجبات المقاتلين عند وقوع الحرب، وقانون جنيف والذي يستهدف حماية المدنيين الذين لا يشاركون في الحروب ومعاملتهم معاملة إنسانية (١٩٤٩)[3].

وقد مرت مفهوم السلم في العلاقات الدولية بعدة مراحل من خلال اتفاقيات، أهمها:

- معاهدة لاهاي عام ١٨٩٩م: اتفقت الدول الموقعة على أن محاولة التسوية السلمية أمر مرغوب فيه، وقطعت على نفسها عهدًا ببذل جهودها.
- إتفاقية لاهاي ١٩٠٧م: هذه الاتفاقية سدت الثغرات الموجودة في الإتفاقية الأولى، وأسهمت في تأصيل السلم وتفضيل وسائل التسوية في حل النزاعات بين الدول.
- عصبة الأمم بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى: قامت محمكمة دائمة للعدل الدولي، وتضمن مادته السادسة عشرة جزاءات توقع على الدول التي تلجأ

(١) انظر نص الوثيقة في: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مهدي رزق الله أحمد، ص ٣٠٥-٣٠٧.

(٢) أحكام القانون الدولي في الإسلام، محمد سليمان نصر الله الفرا، ص ٦.

(٣) انظر: الأسس والمباديء الاسلامية للعلاقات الدولية، علي محي الدين القرداغي، مؤتمر مكة ص ٢٢٤.

للحروب.

- مؤتمر الأمم المتحدة: بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عقد ممثلون عن ٥٠ دولة مؤتمرًا للمحافظة على السلام والأمن في العالم وتنمية الود بين الأمم، وتحقيق التعاون في حل المشكلات الدولية، وأن تكون مركزًا لتنسيق أعمال الأمم للوصول إلى تلك الغايات العامة.

٢. **يستند القانون الدولي في الحرب على مصادر، أهمها:**

- **العرف:** والمقصود به العرف المتبع بين الدول، والعدالة من الحق الطبيعي أو تعاليم الدين أو إملاء العقل والتأثر بآراء الفلاسفة والمفكرين والفقهاء ورجال السياسة. وتتبلور بقرارات هيئات التحكيم أو محاكم العدل الدولية.
- **الاتفاق:** فيبنى بوجه خاص على المعاهدات العامة ذات الصفة التشريعية، إلى جانب المعاهدات الخاصة والتعامل الفعلي المستمر[(١)].

فمفهوم السلم في القانون الدولي العام هي : إشاعة السلم بين الدول وحل المنازعات الدولية بالطرق السلمية والودية، ومراعاة قواعد الحرب أثناء اندلاع الحروب بين الدول والتعايش السلمي وصيانة السلم العالمي. وقد سبق الإسلام كل المواثيق الدولية وأكد الحقوق المنصوص عليها في تلك المواثيق.

ثانيًا: ضمانات تحقيق السلم بين القرآن والمواثيق الدولية:

١ . ضمانات تحقيق السلم في القرآن.

الضمان في الاصطلاح الشرعي هو: «ضم ذمة الضامن إلى ذمة المضمون عنه في التزام الحق، فيثبت في ذمتهما جميعًا، ولصاحب الحق مطالبة من شاء منهما، ويكون برد الشيء أو بدله، بالمثل أو بالقيمة.

أما في الاصطلاح القانوني فيراد به: رابطة قانونية، نكون بمقتضاها مجبرين على الوفاء بأمر ما طبقًا للقانون»[(٢)]. عندما يقر القرآن الكريم أمرًا أو تشريعًا فلا يكتفي بمجرد الدعوة إليها، بل يضع من الضمانات والأسس ما يجعلها على أرض الواقع.

ولتحقيق السلم في المجتمع، وضع ضمانات نذكرها في نقاط:

الضمانة الأولى: طاعة الله ورسوله ضمان لتحقيق السلم والأمان.

---

(١) انظر: مفهوم السلم في الفكر الإسلامي، محمد بازياني، ص ٢٧١-٢٨٥.

(٢) ضمانات الحقوق والحريات في المجتمع الإسلامي، ناظم عبدالله رشيد، ص ١٧-١٨.

في كثير من الآيات يربط القرآن الكريم بين حصول الأمن والسلام وبين اتباع أوامر الله سبحانه، وذلك ليؤكد لنا أن السلم يعني الدخول في الإسلام، كما أمر بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وربط دفع المضرة عنه وهو تحقيق السلم بتقوى الله، فقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢].

وبعكسه الذنوب والمعاصي تجلب الويلات للإنسان وتدمر أمنه وحياته، كما قال: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وإلى هذا المعنى أشار الرسول الكريم بقوله: (يا معشر المهاجرين: خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم)[(١)].

الضمانة الثانية: إقرار القرآن الكريم لمبادىء السلام.

السلام هو: اسم من أسماء الله الحسنى، والإسلام دين السلام، وتحية المسلمين هي السلام، ودار السلام هي الجنة. وقد أقر القرآن الكريم جملة من المبادىء تعتبر الالتزام بها جزءًا من الإيمان. فالناس جميعاً إخوة مهما اختلفت لغاتهم وأنسابهم وأوطانهم، فهم أبناء أب واحد وأم واحدة، والحب والتعاون وبذل الخير للناس جميعًا هو أساس الايمان. وفي كثير من الآيات المذكورة في ثنايا البحث فيها الإشادة بالسلام، فكل ما يؤدي إلى إيغار الصدور وإيقاع العداوة والبغضاء بين الناس حرام لا يجوز فعله، والأديان السماوية واحدة في أصولها وأهدافها العامة. هذه المبادىء وغيرها كفيل بتحقيق السلام في المجتمع ومع غير المسلمين[(٢)].

الضمانة الثالثة: التنمية بمعناها الشامل والتي تبناها القرآن الكريم أكبر ضمانة

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، رقم ٤٠١٩، كتاب الفتن، باب العقوبات.
وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/ ٤٦٨، رقم ٧٦٤.

(٢) انظر: مفهوم السلم في الفكر الإسلامي، الدكتور محمد بازياني ص ٢٣٠.

لتحقيق السلم، وعدم نشوب الحرب.

والتنمية هي: تلبية الحاجات المتمثلة بتحقيق النمو الاقتصادي والتوزيع العادل للثروات، وتحقيق التنمية الاجتماعية بين أفراد المجتمع، والمحافظة على البيئة وحمايتها، واحترام التنوع الثقافي في المجتمع، وتحقيق التوازن بين المدن والأرياف والتهيئة العمرانية[(١)].

والأصل فيها قوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

يقول الشيخ المراغي في معنى الآية: «وإنما حكمنا بذلك وجعلناه مقسمًا بين هؤلاء المذكورين، لئلا يأخذه الأغنياء ويتداولوه فيما بينهم، ويتكاثروا به، كما كان ذلك دأبهم في الجاهلية، ولا يصيب الفقراء من ذلك شيء»[(٢)].

وفي سبيل تحقيق العيش الكريم للفرد فقد ربط القرآن الكريم كثيرًا من العبادات والكفارات بالإطعام والكسوة، وحرم الافتخار بكثرة المال، وأكد على تواضع الأغنياء مراعاة للفقراء.

الضمانة الرابعة: ضمان حقوق الكل من المعاهدين والمقاتلين وأهل الذمة.

في المجتمع الإسلامي تعيش إلى جانب المسلمين من هو على غير دينهم وهم أهل الذمة من أهل الكتاب، وهؤلاء لهم حقوق وعليهم واجبات.

وقد تربط الدولة الإسلامية بغيره من الدول علاقات تترتب عليها مسؤوليات والتزامات، وقد ألزم القرآن الكريم في الحالتين الوفاء بالعهود والالتزامات، فالوفاء بها ضرورة دينية، وكذلك تعتبر الضمان لتحقيق السلم بين المسلمين وغيرهم.

«إن الضمان الوحيد لتكريس السلم في واقع أي مجتمع، هو ضمان حقوق أفراده، وهذا الضمان ليس من باب الإحسان أو المنة، وإنما هي واجبات على الدولة وحق مقرر لكل مواطن فيها بمقتضى العقد الاجتماعي»[(٣)].

وقد كفل القرآن الكريم لهم حرية الاعتقاد والعبادة، ومساواتهم بالمسلمين أمام القانون في كثير من المسائل، وضمن لهم حقوقًا عامة كسائر المسلمين مثل حق حفظ كرامتهم الإنسانية، وعصمة النفس بالإضافة إلى حقوقهم المالية مع وجوب البر والعدل معهم، ولهم الحق في تقلد الوظائف العمومية.

قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

يقول ابن عاشور: «وهي دليل واضح

---

(١) انظر: الأمن والتنمية، محسن بن العجمي عيسى، ص ٥٣.

(٢) تفسير المراغي ٢٨/ ٣٩.

(٣) ضمان حقوق الأقليات وأثره في السلم الاجتماعي، صايل أحمد حسن أمارة، ص ٣٥.

على إبطال الإكراه على الدين بسائر أنواعه، لأن أمر الإيمان يجري على الاستدلال، والتمكين من النظر وبالاختيار[(١)].

وإذا تعامل المسلمون مع هذا الاختلاف في مجتمعهم المتمثل بوجود أهل الكتاب، انعكس إيجابيًّا عليهم فيكونون عامل تطور وتقدم، وإذا أهملوها صارت عامل تفرق وتشرذم وصراع، تهدد سلمهم، فالحفاظ على حقوقهم مع كونه واجب شرعي، أكبر ضمانة لتحقيق السلم في مجتمعهم.

٢. ضمانات تحقيق السلم في المواثيق الدولية.

في بحث مفهوم السلم في المواثيق الدولية، ذكرنا أهم المعاهدات التي أدت إلى تأصيل مفهوم السلم في العالم. وتبعتها اتفاقيات أخرى بين الأعضاء، فقد عقدت اتفاقية السلم والتسامح في باريس من ٢٥ تشرين الأول -١٦ تشرين الثاني ١٩٩٥م، وحضرتها الدول الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة، وفي تحليل لنص الاتفاقية وضح لنا ما يلي:

- تأكيد الأعضاء على إيمانهم بحقوق الإنسان وعزمهم على العيش بسلام.
- ركزوا على دور التربية في تنمية التفاهم والتسامح والصداقة بين جميع الشعوب.
- الخوف من انتشار مظاهر الكراهية والعنف والإرهاب، وهي أعمال تهدد السلم.
- الإعلان عن مبادىء بشأن التسامح، موضحًا معنى التسامح، ودور الدولة في ضمان العدل وعدم التحيز.
- يجب أن تتخذ اليونسكو التدابير الكافية بضمان التساوي في الكرامة والحدود للأفراد والجماعات.
- التعليم هو أنجح الوسائل لمنع اللاتسامح، أي تعليم الناس الحقوق والحريات التي يتشاركون فيها مع غيرهم، وذلك لكي تحترم هذه الحقوق.
- الالتزام بالعمل على تعزيز التسامح عن طريق برامج ومؤسسات.[(٢)]

ونظرة على الوثيقة تبين لنا جانبًا من ضمانات تحقيق السلم في المواثيق الدولية، وهي:

- حفظ السلم عن طريق النصوص القانونية والمبادىء المقررة لضمان احترام القانون الدولي. إن الكم الهائل من الاتفاقيات الدولية في مجال القانون الدولي تعد شاهدًا ودليلًا على حرص المجتمع الدولي على إرساء قواعد قانونية ذات طابع دولي لحماية حقوق

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٦.

(٢) للاطلاع على نصوص الاتفاقية، انظر: موقع منظمة العدل للتنمية والإحسان.
وقد لخصنا أهم الفقرات الواردة فيما يخص السلم.

الإنسان، حيث تمثل هذه القواعد الجانب الموضوعي للحماية الجنائية الدولية لحقوق الإنسان، والتي تعد في نظري ضمانةً مهمةً لهذه الحماية، وإن كانت الصيغة عامةً.

ومن بين البنود المتعلقة:

- عدم خضوع مجرمي الحرب لنظام التقادم، وتشمل الجرائم ضد الإنسانية المقترفة في وقت الحرب أو السلم، وعدم امتداد الحصانات الداخلية والدولية لمجرمي الحرب.
- وجود آلية تضمن تطبيق تلك القواعد من قبل الدول، وهو ما سعت الأمم المتحدة إلى إنشائها، وتبين لنا في ثنايا هذه الدراسة بأن تلك الآليات منها ذات طبيعة وقائية (آلية الإشراف والرقابة) ومنها مالها طابع علاجي كآلية الحماية القضائية.
- نشر ثقافة السلم في الدول والمجتمعات، عن طريق التربية والتعليم والبرامج والمؤسسات.
- مرحلة الإنتقال من نصوص قانونية عقيمة، كثيرًا ما نجحت المصالح السياسية للدول العظمى في إيقاف دواليب وضعها حيز النفاذ، فرضتها الحاجة الإجتماعية للسلم. و يميّز ذلك عبر إحياء المعطيات الدينية والعقائدية التي تحث على السلم. ثقافة السلم تتطلب إقصاء العنف و القوة خارج الإطار الشرعي على المستوى الوطني كذلك. هذه السبل تضفي على مجهودات تحقيق السلم فاعلية واقعية ناجعة.
- القوة الإلزامية لقواعد القانون الدولي الإنساني تتميز بصفتها الآمرة، بمعنى أن قواعده ملزمة لجميع أعضاءه. فالطبيعة الآمرة لبعض قواعد القانون الدولي تجعلها في مرتبة أعلى، وتؤدي إلى إبطال كل ما يتعارض معها أو يخالفها من الاتفاقات التي تبرمها الدول و التي لا تتمتع أحكامها بنفس الطبيعة.[1]
- الجرائم في حق السلم من بين الأفعال التي تم تجريمها على المستوى الدولي، و يكون مرتكبها مذنبًا على المستويين، الدولي و الداخلي، و لا يمكن التذرع بالحماية الدبلوماسية، ولا الحصانة على أساس أن القائم بهذا النوع من الجرائم كان في خدمة دولته و اقتصرت مهمته على تنفيذ أوامر السلطة العامة في الدولة .

موضوعات ذات صلة

الجهاد، الحرب، القتال، القتل، السلام، السياسة

(١) انظر: آليات وضمانات تطبيق القانون الدولي الإنساني، أنس المرزوقي، مقال نشر في موقع الحوار المتمدن في ٨/ ١/ ٢٠١٤.



سليمان عليه السلام

عناصر الموضوع

التعريف بسليمان عليه السلام	٢٥٢
ذكر سليمان عليه السلام في القرآن	٢٥٤
فضائل سليمان عليه السلام	٢٥٥
خصائص ملك سليمان عليه السلام	٢٥٨
مواقف من سيرة سليمان عليه السلام	٢٦٤
شبهات حول سليمان عليه السلام	٢٧٥
موت سليمان عليه السلام	٢٨٠
تدبير سليمان عليه السلام لملكه	٢٨١
الهدايات المستفادة من قصة سليمان	٢٨٦

المجلد الثامن عشر

التعريف بسليمان عليه السلام

اسمه ونسبه:

سليمان بن داوود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن تخشون بن عمينا آداب بن إرم بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم [١].

ذلك ما يذكره المؤرخون من نسب سليمان عليه السلام، أما في كتاب الله فقد جاءت آيات تدل على أنه ابن لداوود عليه السلام وهي:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣].

والخطاب هنا سليمان عليه السلام [٢]؛ إذ الآل في اللغة يستعمل فيمن يختص بالإنسان اختصاصًا ذاتيًا إمّا بقرابة قريبة، أو بموالاة [٣]. ففي هذه الآية دلالة على أنه من أهله وقرابته.

والآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

فالمعنى أن الله تعالى وهب لداوود سليمان ابنًا [٤]، وكثيراً ما يذكر الله تعالى الأبناء بلفظ الهبة ، كما قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩] .

وقال تعالى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ولا يتعارض هذا مع ما ورد في سورة الأنعام من قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ [الأنعام: ٨٤].

وسواء أرجعنا الضمير إلى نوح عليه السلام أم إلى إبراهيم عليه السلام فلا تنافي بين كونه ابناً لداوود عليه السلام، وأما نوح عليه السلام فكل من جاء بعده فهو من ذريته كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧] ، وأما إبراهيم عليه السلام فهو جد لداوود كما رأينا في نسبه فهو من ذريته.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: ١٦].

فالأصل أن الولد يرث أباه؛ قال السعدي: «أي: ورث علمه ونبوته فانضم علم أبيه إلى

(١) انظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر ٢٢/ ٢٣١، قصص الأنبياء، ابن كثير ٢/ ٢٨٤.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٦٣.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٩٨.
(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٠٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٦٤.



علمه، فلعله تعلم من أبيه ما عنده من العلم مع ما كان عليه من العلم وقت أبيه»[١].

فظهر من مجموع دلالات هذه الآيات الثلاث أن سليمان عليه السلام ابن لداوود عليه السلام.

زمانه:

إن الناظر في سياق الآيات القرآنية التي تتحدث عن سليمان عليه السلام يجد أن السياق لا يخرج عن أحد ثلاثة أمور:

الأول: أن يكون ذكره مقترناً بأبيه داوود عليه السلام، ومن هذا الاقتران ما يدل دلالة قطعية على اجتماعهما في مكان واحد وزمن واحد، قال تعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾[الأنبياء: ٧٨].

فحكمهما في قضية واحدة في مكان واحد دليل على وجودهما في زمن واحد[٢].

الثاني: أن يذكر سليمان عليه السلام بعد ذكر أبيه داوود، ومثال ذلك ورود قصته بعد قصة أبيه في سورة ص.

الثالث: أن يذكر سليمان عليه السلام منفردا، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾[البقرة: ١٠٢].

ومن مجموع ما سبق يظهر لنا جليًّا أن سليمان عليه السلام عاش مدة من الزمن في حياة أبيه داوود عليه السلام، وبلغ من العمر ما يؤهله لأن يحضر مجلس قضاء والده، ويستدرك عليه بعض أحكامه، وبعد وفاة والده ورثه في الملك والنبوة، واستقل بذلك، قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[النمل: ١٦]، وما يهمنا هنا أن الوراثة لا تكون إلا بعد موت المورث[٣]، أما ماهية هذه الوراثة فسنذكره عند الكلام عن فضائله عليه السلام.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٠٢.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري١٦/ ٣٢٢، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٩٨.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٦٦.

ذكر سليمان عليه السلام في القرآن

ورد ذكر سليمان عليه السلام في القرآن الكريم (١٧) مرة، في (٧) سور.

وأما قصته عليه السلام فقد وردت في السور الآتية:

السورة	الآيات
البقرة	١٠٢
الأنبياء	٧٨-٨٢
النمل	١٥-٤٤
سبأ	١٢-١٤
ص	٣٠-٤٠

فضائل سليمان عليه السلام

حبا الله تعالى نبيه سليمان عليه السلام بفضائل جليلة، منها:

١ . العلم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾[النمل: ١٥].

وهو علم مخصوص غير النبوة؛منطق الطير والدواب، ومعرفة القضاء.

قال الطبري: «وذلك علم كلام الطير والدواب، وغير ذلك مما خصهم الله بعلمه»[١].

وقال السمعاني:« علم القضاء وعلم منطق الطير ومنطق الدواب »[٢].

٢ . وراثة النبوة.

قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[النمل: ١٦].

ولكن يا ترى ما هو هذا الميراث الذي ورثه هذا النبي الكريم ؟

إن هذا الميراث قد ذكره المفسرون عند كلامهم على هذه الآية، وفي ذلك يقول ابن جرير الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ﴾[النمل: ١٦] أباه داوود العلم الذي كان آتاه الله في حياته، والملك الذي كان خصه به على سائر قومه، فجعله له بعد أبيه

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٤.
(٢) تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٨١.

داوود دون سائر ولد أبيه»[٣].

فالوراثة إذن وراثة للعلم والملك؛ ولكن لم لا يكون ورث مع ذلك مال أبيه، مع أنه المتبادر إلى الأذهان من لفظ الوراثة والميراث؟

يجيب على ذلك الإمام ابن كثير ذلك بقوله: «وليس المراد وراثة المال؛ إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داوود، فإنه قد كان لداوود مائة امرأة، ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة؛ فإن الأنبياء لا تورث أموالهم، كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: (نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة)[٤]»[٥].

ومما يؤكد هذا ويؤيده أنه قد ورد الاستعمال القرآني للوراثة في وراثة العلم والدين دون المال في غير ما آية من كتاب الله تعالى منها:

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾[الأعراف: ١٦٩].

(٣) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفرائض، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا نورث ما تركنا صدقة) ٨/ ١٥٠، ٦٧٣٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا نورث ما تركنا فهو صدقة) ٣/ ١٣٧٩، رقم ١٧٥٨.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٢.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾[فاطر: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾[الشورى: ١٤].

فظهر مما تقدم أن سليمان عليه السلام ورث علم أبيه ونبوته وملكه.

٣. تعليم منطق الطير.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾[النمل: ١٦].

يقول ابن كثير: «أخبر سليمان بنعم الله عليه، فيما وهبه له من الملك التام، والتمكين العظيم، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضا، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر -فيما علمناه- مما أخبر الله به ورسوله»[1].

٤. الشكر.

وقد ذكر الله تعالى شكر هذا النبي في ثلاث آيات:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[النمل: ١٩].

قال الألوسي: «أي اجعلني أزع شكر نعمتك أي أكفه وأرتبطه لا ينفلت عني وهو مجاز عن ملازمة الشكر والمداومة عليه فكأنه قيل: رب اجعلني مداوماً على شكر نعمتك»[2].

وهنا كان شكره عليه السلام على سماع قول النملة، وفهم خطابها.

الثانية: قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾[النمل: ١٦].

قال الزمخشري: «قوله: إنّ هذا لهو الفضل المبين قول وارد على سبيل الشكر والمحمدة»[3].

فشكر ربه سبحانه على ما وهب له من علم وما آتاه الله من الملك.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[النمل: ٤٠].

قال الطبري: «هذا البصر والتمكن والملك والسلطان الذي أنا فيه حتى حمل إلي عرش هذه في قدر ارتداد الطرف من مأرب إلى الشام، من فضل ربي الذي أفضله علي وعطائه الذي جاد به علي ليختبرني ويمتحنني، أأشكر ذلك من فعله علي، أم

(١) المصدر السابق.

(٢) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٧٦.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٥٤.

أكفر نعمته علي بترك الشكر له؟»[1].

وفي هذا الموضع كان شكره على نعمة التسخير والتمكن من إحضار العرش بين يديه في زمن يسير جدًّا.

٥. الفهم.

قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[الأنبياء: ٧٩].

والفهم أخص من العلم[2].

قال الزبيدي: «فإن العلم مطلق الإدراك، وأما الفهم فهو سرعة انتقال النفس من الأمور الخارجية إلى غيرها»[3].

وفهم سليمان عليه السلام إمّا إنه قد جعل الله له من فضل قوّة الفهم ما أدرك به ما يعرض له من القضايا، وإمّا بأن ألقى ذلك في روعه إلهامًا، أو بأن يوحى إليه بوحي خاص[4].

وظهرت عليه هذه الصفة في زمان أبيه، وقد ذكر في القرآن الكريم ما يدل على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[الأنبياء: ٧٨، ٧٩].

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٧٤.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٢٧٤.

(٣) تاج العروس، الزبيدي ٣٣/ ٢٢٤.

(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٤٦.

فيذكر ربنا سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين قضية حدثت في زمان داوود عليه السلام، يلخصها العلامة السعدي بقوله: «إذ تحاكم إليهما صاحب حرث، نفشت فيه غنم القوم الآخرين، أي: رعت ليلاً فأكلت ما في أشجاره، ورعت زرعه، فقضى فيه داوود عليه السلام ، بأن الغنم تكون لصاحب الحرث، نظراً إلى تفريط أصحابها، فعاقبهم بهذه العقوبة، وحكم فيها سليمان بحكم موافق للصواب، بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث فينتفع بدرها وصوفها ويقومون على بستان صاحب الحرث، حتى يعود إلى حاله الأولى، فإذا عاد إلى حاله، ترادًا ورجع كل منهما بما له، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام»[5].

٦. الأوبة.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[ص: ٣٠].

قال السعدي: «أي: رجّاعًا إلى الله في جميع أحواله، بالتأله والإنابة، والمحبة والذكر والدعاء والتضرع، والاجتهاد في مرضاة الله، وتقديمها على كل شيء»[6].

وقد ذكر الله هذه الصفة تعليلًا لمدح

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٨.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٣٢٢، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٣٩٤.

(٦) تيسير الكريم الرحمن ص ٧١٢.

سليمان عليه السلام بكونه نعم العبد، فكل من كان كثير الرجوع إلى الله ناله حظه من هذا المدح الإلهي.

وفي هذا يقول الرازي: «وهذه الكلمة للتعليل، فهذا يدل على أنه إنما كان نعم العبد لأنه كان أوابا، فيلزم أن كل من كان كثير الرجوع إلى الله تعالى في أكثر الأوقات وفي أكثر المهمات كان موصوفا بأنه نعم العبد وهذا هو الحق الذي لا شبهة فيه»[(١)].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٨٩.

خصائص ملك سليمان عليه السلام

لا بد لكل نبي يرسل إلى قوم أن يؤيده ربه سبحانه ببرهان يظهر به صدقه ويكون عنوان هداية لمن يريد سبحانه أن يهديه سواء السبيل، فيلهمه رشده، وفي السنة ما يدل على ذلك.

فعن أبي هريرة، قال: قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: (**ما من الأنبياء نبيٌّ إلّا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الّذي أوتيت وحيًا أوحاه اللّه إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**)[(٢)].

وعموم هذا الحديث يدخل فيه نبي الله سليمان عليه السلام؛ فيا ترى ما هو برهان هذا النبي ودليل صدقه على نبوته ؟

لقد وهبه ربه جل في علاه ملكًا خصه فيه بخصائص تدل على نبوته، ولم تكن لغيره من بعده، وهي:

١ . تسخير الجن والشياطين.

وقد بين الله سبحانه وتعالى أن من سخر لسليمان عليه السلام نوعان:

النوع الأول: بعض الشياطين الذين هم

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف بنزل الوحي، ٦/ ١٨٢، رقم ٤٩٨١، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ١/ ١٣٤، رقم ١٥٢.

الكفار من الجن[1]، وهؤلاء كانوا على قسمين:

القسم الأول: من امتثل أوامر سليمان عليه السلام، فكان بعض هؤلاء الممتثلين يقومون بالغوص في البحار كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

أي: يغوصون في أعماق البحار لاستخراج اللآلئ و الدرر وغير ذلك مما يطلب منهم[2].

وصنف آخر منهم لهم عمل غير الغوص الذي هو البناء، قال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص:٣٧].

فهؤلاء يقومون ببناء المدن والقصور ويخترعون الصنائع العجيبة[3].

والقسم الثاني: هم العصاة المتمردون من الشياطين، وهؤلاء يقول الله فيهم: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٨].

قال ابن كثير: «أي: موثقون في الأغلال والأكبال ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى أو قد أساء في صنيعه واعتدى»[4].

والذي جعلنا نجزم بأن هؤلاء هم الكفار من الجن دليلان:

الأول: أن الكافر من الجن يسمى شيطانًا[5].

والثاني: في قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

يقول ابن كثير: «أي: يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل في قبضته وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه»[6].

فحراسة الله تعالى له عن أن يناله منهم سوء يدل على كفرهم إذ إن من يقدم ذلك يدل على بغضه للرسول ورسالته، وهذا من المكفرات المعلومة والله أعلم.

النوع الثاني: بعض مؤمني الجن.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢].

فبين تعالى أنه سخر بعضاً من مؤمني الجن للعمل بين يدي سليمان عليه السلام، وكانت أعمالهم ما ذكره الله في قوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ [سبأ: ١٣].

فهم يعملون له ما يلي:

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٨١.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٤٩٥.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٨٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٧٣.
(٥) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٦/ ١٠٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٠٠.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٥٩.

المحاريب: وهي جمع محراب، والمحراب: كل بناء حسن، وأشرف شيء فيه وصدره سواء كان مسجداً أم بيتاً أم مصلى[(١)].

التماثيل: وهي جمع تمثال، والتمثال: (كل ما صوّر على مثل صورة غيره من حيوان وغير حيوان)[(٢)].

الجفان: جمع جفنة، وهي: ما يوضع فيه الطعام، ولعظمها شبهها بالجواب التي هي جمع جابية، وهي البركة التي يجبى إليها الماء[(٣)].

القدور: ما يطبخ فيها الطعام، ولعظمها كانت ثابتة على الأثافي لا تنزل عنها[(٤)].

٢. تسخير الريح.

فقد سخر الله تعالى لسليمان عليه السلام الريح.

قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨١].

ووصفها الله تعالى بصفات:

الأولى: أنها ريح عاصفة، بمعنى أنها شديدة الهبوب[(٥)].

الثانية: أنها رخاء، قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[ص: ٣٦].

والمعنى: أنها ريح لينة لا تزعزع ولا تعصف[(٦)].

فإن قيل: كيف يمكن الجمع بين الوصفين المتناقضين؟

فالجواب: ذكر المفسرون للجمع وجوهًا:

الأول: إن المراد بالعاصفة أنها في قوة العاصفة ولا تعصف.

والثاني: إنها تكون تارة رخاء، وتارة عاصفة على ما يريده سليمان عليه السلام ويشتهيه[(٧)].

والظاهر من السياق أنها تكون بحسب ما يريده سليمان عليه السلام ، يقول ابن عاشور: (..وذلك باختلاف الأحوال فإذا أراد الإسراع في السير سارت عاصفة ، وإذا أراد اللين سارت رخاء، والمقام قرينة على أن المراد المواتاة لإرادة سليمان كما دل عليه قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ﴾ في الآيتين المشعر باختلاف مقصد سليمان منها كما إذا كان هو راكباً في البحر ؛ فإنه يريدها رخاء لئلا تزعجه ، وإذا أصدرت مملكته بضاعة أو اجتلبتها سارت عاصفة ، وهذا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٣٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٠٠.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ١٣٧.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ١٣٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٧٦.
(٤) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٤٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٠٠.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٠١.
(٦) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٤٩٧.
(٧) انظر: المصدر السابق.

بين بالتأمل»[1].

الثالثة: أنها تجري حيثما يريد سليمان عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[ص: ٣٦].

أي: إنها تجري حيثما أراد، وهذا يدل على التعميم في الأمكنة التي يريد الذهاب إليها[2].

ولكن في الآية الأخرى يقول تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١].

فظاهر هذه الآية أن جريها مخصوص بكونه إلى الأرض التي بورك فيها، فكيف الجمع بينهما ؟

يقول العلامة الشنقيطي: «قوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾[ص: ٣٦] يدل على أنها تجري بأمره حيث أراد من أقطار الأرض، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١]؛ لأن مسكنه فيها وهي الشام، فترده إلى الشام. وعليه فقوله: حيث أصاب في حالة الذهاب. وقوله: إلى الأرض التي باركنا فيها في حالة الإياب إلى محل السكنى، فانفكت الجهة فزال الإشكال»[3].

الرابعة: سرعة جري هذه الريح المسخرة،

وهذا ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾[سبأ: ١٢].

قال الطبري: «وسخرنا لسليمان الريح، غدوها إلى انتصاف النهار مسيرة شهر، ورواحها من انتصاف النهار إلى الليل مسيرة شهر»[4].

وقال ابن كثير: «من تسخير الريح له تحمل بساطه، غدوها شهر ورواحها شهر، قال الحسن البصري: كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغذى بها، ويذهب رائحاً من إصطخر فيبيت بكابل، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع»[5].

٣. إسالة النحاس.

قال تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾[سبأ: ١٢].

قال البيضاوي: «النحاس المذاب أساله له من معدنه فنبع منه نبوع الماء من الينبوع، ولذلك سماه عينًا وكان ذلك باليمن»[6].

٤. تعليمه منطق الطير.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٢٣.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٣٥.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٣٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٢٧.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٩٩.
(٦) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٤٣.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٢٩.

﴿الْمُبِينُ﴾[النمل: ١٦].

قال ابن كثير: «أخبر سليمان بنعم الله عليه، فيما وهبه له من الملك التام، والتمكين العظيم، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير. وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضا، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر -فيما علمناه- مما أخبر الله به ورسوله»[1].

٥. تنوع جنوده.

قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[النمل: ١٧].

فهذه الآية الكريمة تبين أن لسليمان عليه السلام أنواعاً من الجنود، جند من الإنس، وجند من الجن، وجند من الطير.

قال ابن كثير: «وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير يعني: ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس، وكانوا هم الذين يلونه، والجن وهم بعدهم يكونون في المنزلة، والطير ومنزلتها فوق رأسه، فإن كان حرًّا أظلته منه بأجنحتها، وقوله: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[النمل: ١٧]. أي: يكف أولهم على آخرهم؛ لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له»[2].

وقد ذكر الله تعالى نموذجًا واحدًا لكل نوع من هذه الجنود:

فمن الطير ذكر سبحانه الهدهد، قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠].

ومن الجن العفريت المذكور في قصة الملكة بلقيس، قال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾[النمل: ٣٩].

ومن هذه الآية يتبين لنا بعض صفات هذا العفريت وهي السرعة الفائقة، والقوة والأمانة[3].

ومن الإنس: الذي عنده علم من الكتاب، قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[النمل: ٤٠].

وأهم ما يتميز به هذا الجندي من الإنس: العلم ومعرفة اسم الله الأعظم وإجابة الدعاء[4].

وقبل أن ننهي الكلام على ملك سليمان عليه السلام وما اختصه الله تعالى به من خصائص نذكر مسألتين لهما به ارتباط:

المسألة الأولى: كم كان عمر سليمان عليه السلام حينما أصبح ملكاً؟

يذكر المؤرخون في ذلك قولين:

الأول: إنه آل إليه الملك، وهو ابن اثنتي

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٣.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٥، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٤٩٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٢.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٨٦.

عشرة سنة[١].

الثاني: كان عمره اثنتين وعشرين سنة[٢].

المسألة الثانية: إلى أي البلاد وصل ملك سليمان عليه السلام وما هي حدود مملكته؟

فالذي يمكن أن نجزم به أن هذا الملك كان على بني إسرائيل في فلسطين والشام إذ هي الأرض المباركة[٣]، والذي قد كان ورثه عن أبيه، وهذا ظاهر من قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١].

ووجه الاستدلال: أن حرف الجر (إلى) هنا لانتهاء الغاية في المكان[٤]، ويلزم من ذلك أن يوجد مكان هو ابتداء الجري منه، فتكون فلسطين هي مبدأ الرحلة والشام نهايتها، والفعل المضارع يدل على التجدد والحدوث[٥]، فليس هذه رحلة واحدة بل هي متكررة، ولا يمكن لملك عظيم حازم فضلاً عن نبي مؤيد بالوحي أن تكون رحلاته متجددة في التنزه، بل هي بتفقد الملك أليق وبه ألصق ، فإذا تقرر ما سبق فقد امتاز ملكه عليه السلام بتسخير الريح والجن والشياطين وغير ذلك مما ذكرناه سابقاً، لا بعظم رقعة الأرض.

أما ما يذكر من أنه عليه السلام ملك الأرض كلها، فهذا قول لا دليل عليه، وظاهر قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ يرده؛ إذ كيف يكون تحت ملكه من لا يعرف خبره إلا من هدهد مع سعة مملكة سبأ وعظمها وقربها النسبي، والله أعلم.

---

(١) انظر: البدء والتاريخ، ابن طاهر المقدسي ٣/ ١٠٣، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ١/ ٢٠٠.
(٢) تاريخ ابن خلدون ٢/ ١١٢.
(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ٩/ ٦٨.
(٤) انظر: همع الهوامع، السيوطي ٢/ ٤١٤.
(٥) انظر: الطراز لأسرار البلاغة، يحيى بن حمزة ٢/ ١٤٣، مفتاح العلوم، السكاكي ص ٢٠٧

مواقف من سيرة سليمان عليه السلام

بعد أن تكلمنا على خصائص ملك سليمان عليه السلام نذكر ثلاثة مواقف من سيرته في النقاط الآتية:

أولًا: قصة سليمان عليه السلام مع النملة:

ركب سليمان عليه السلام في تواضع لله سبحانه وجموع كثيرة من الإنس، وكانوا هم الذين يلونه، والجن بعدهم في المنزلة، أما الطير فتكون فوق رأسه، فإن كان حَرًّا أظلته منه بأجنحتها، وقد جعل لكل صنف من جنده من يكف أولهم على آخرهم؛ لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له[1].

قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧].

ثم انطلق بهذا الجيش العظيم، ولم يبين لنا سبحانه أين مقصدهم ولا جهتهم التي يقصدون ؛ إذ القصة مسوقة لبيان العبرة من قصة النملة فحسب.

واصل الجيش بقيادة نبي الله سليمان سيره حتى مر بمن معه من الجن والإنس والطير على وادي النمل.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ [النمل: ١٨].

وهذا الوادي قيل: إنه في الطائف، وقيل: إنه بالشام[2].

والذي يظهر من إضافة الوادي إلى النمل، أن هذا الوادي كثير النمل حتى كأنه مستحق للنمل دون غيرهم مما يعيش فيه[3].

وكما هي عادة النمل في النهار الانتشار لجلب رزقها، وقد جعلن لهن من يحرسهن عن أن يصل إليهن ما يضرهن ؛ إذ الغالب في الوادي أن يكون مسلوكاً كما يظهر من حراسة النملة لقومها، وهنا أحست هذه النملة، فقد أدركت مجيء الجيش، وأنه لسليمان وجنوده وأدركت كثرتهم، وأن عليها وعلى النمل أن يتجنبوا الطريق، ويدخلوا مساكنهم[4].

وهنا نادت، فقالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

فجمعت في هذه العبارة الوجيزة أحد عشر جنسًا من صنوف الكلام.

قال الزركشي: «فجمع في هذه اللفظة أحد عشر جنساً من الكلام نادت وكنت ونبهت وسمعت وأمرت وقصت وحذرت وخصت وعمت وأشارت وعذرت؛ فالنداء: (يا) والكناية: (أي)، والتنبيه: (ها)، والتسمية: (النمل)، والأمر: (ادخلوا)، والقصص: (مساكنكم)، والتحذير: (لا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٣.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٣٥٦.
(٣) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٦/ ٣٣٣.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٩.

يحطمنكم)، والتخصيص: (سليمان)، والتعميم: (جنوده)، والإشارة: (وهم)، والعذر: (لا يشعرون)»[1].

فلما سمع نبي الله سليمان هذا النداء تبسم، قال تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾[النمل: ١٩].

فإن قيل: لم تبسم نبي الله سليمان من قولها؟

ذكر المفسرون وجهين في ذلك:

الأول: إنما تبسم سروراً بما ألهمت من حسن حاله وحال جنوده في باب التقوى والشفقة ، وابتهاجاً بما خصه الله تعالى به من إدراك ما هو همس بالنسبة إلى البشر وفهم مرادها منه.

الثاني: أن يكون ذلك تعجباً من حذرها وتحذيرها واهتدائها إلى تدبير مصالحها ومصالح بني نوعها.

ورجح الألوسي الوجه الأول لمناسبته لما بعده من الدعاء الذي سأل فيه ربه أن يوفقه لشكر نعمته[2].

وبعد تبسمه عليه السلام قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

(١) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٢٢٧.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٧٥.

قال ابن كثير: «أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي، من تعليمي منطق الطير والحيوان، وعلى والدي بالإسلام لك، والإيمان بك، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾[النمل: ١٩] أي: عملًا تحبه وترضاه، ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[النمل: ١٩] أي: إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك»[3].

وقال أبو السعود: «أي: اجعلني أزع شكر نعمتك عندي واكفّه وأرتبطه بحيث لا ينفلت عنّي حتّى لا أنفكّ عن شكرك أصلًا»[4].

ثانيًا: قصة سليمان عليه السلام مع الهدهد:

تبدأ أحداث هذه القصة حينما ذهب سليمان عليه السلام يتفقد الطير؛ ليعرف من هو موجود منها ومن هو غائب، فلم ير الهدهد، فسأل عنه: لماذا لا أرى الهدهد ؟ أهناك شيء يستره مما هو أكبر منه حجماً أم هو غائب؟[5].

قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠].

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٣.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٧٩.
(٥) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٧٧.

فلما تيقن سليمان عليه السلام من غياب الهدهد، وكان غياباً بلا إذن كما هو ظاهر السياق توعده قائلًا: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[النمل: ٢١].

فأقسم على أن يعذبه عذابًا شديدًا، وكان تعذيبه للطير فيما ذكر نتف ريشه[1]، أو ليقتلنه أو ليأتينه بسلطان بين وحجة واضحة في عذره[2].

لم يمض على الهدهد زمان طويل في غيبته، بل جاء على وجه السرعة إلى سليمان عليه السلام[3].

قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾[النمل: ٢٢]. فعاتبه على مغيبه، فقال معتذراً: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾[النمل: ٢٢][4].

أي: عندي من العلم علم ما أحطت به على علمك الواسع وعلى درجتك فيه، وابتداء كلامه بذلك لترويجه عنده عليه السلام، وترغيبه في الإصغاء إلى اعتذاره واستمالة قلبه، قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[النمل: ٢٢].

أي: القبيلة المعروفة في اليمن بخبر خطير متيقن وشأن كبير[5]، فأعلم سليمان ما لم يكن يعلمه، ودفع عن نفسه ما توعده من العذاب والذبح[6].

ثم بدأ يفصل ما أجمل فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾[النمل: ٢٣].

أي: تتصرف بهم ولا يعترض عليها أحد[7].

وقال ابن عاشور: «وتنكير امرأة وهو مفعول أول لـ(وجدت) له حكم المبتدأ فهو كالابتداء بالنكرة إذا أريد بالنكرة التعجب من جنسها كقولهم: بقرة تكلمت، لأن المراد حكاية أمر عجيب عندهم أن تكون امرأة ملكة على قوم، ولذلك لم يقل: وجدتهم تملكهم امرأة»[8].

وقال: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[النمل: ٢٣]؛ أي: وأوتيت من كل شيء يؤتاه الملوك في عاجل الدنيا مما يكون عندهم من العتاد والآلة[9].

وقال: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[النمل: ٢٣]

أي: سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب، وأنواع الجواهر واللآلئ[10].

ولكن لماذا استعظم الهدهد عرش

(١) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٣.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٥، نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ١٥٠.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢٢٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٦.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٥٣.
(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٨٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٠٤.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٨١.
(٧) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٨٣.
(٨) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٥٢.
(٩) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٩.
(١٠) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٧.

بلقيس مع ما يشاهده من ملك سليمان؟

قال الألوسي: «واستعظام الهدهد لعرشها مع ما كان يشاهده من ملك سليمان عليه السلام إما بالنسبة إلى حالها أو إلى عروش أمثالها من الملوك، وجوز أن يكون ذلك، لأنه لم يكن لسليمان عليه السلام مثله وإن كان عظيم الملك فإنه قد يوجد لبعض أمراء الأطراف شيء لا يكون للملك الذي هم تحت طاعته. وأيًّا ما كان فوصفه بذلك بين يديه عليه السلام لما ذكر أولًا من ترغيبه عليه السلام في الإصغاء إلى حديثه، وفيه توجيه لعزيمته عليه السلام نحو تسخيرها ولذلك عقبه بما يوجب غزوها من كفرها وكفر قومها»[(١)].

ثم قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤].

قال أبو السعود: «أي: يعبدونها متجاوزين عبادة الله تعالى، وزين لهم الشيطان أعمالهم التي هي عبادة الشمس ونظائرها من أصناف الكفر والمعاصي، فصدهم بسبب ذلك عن سبيل الحق والصواب ؛ فإن تزيين أعمالهم لا يتصور بدون تقويم طرق كفرهم وضلالهم ، ومن ضرورته نسبة طريق الحق إلى العوج، فهم بسبب ذلك لا يهتدون إليه»[(٢)].

ثم قال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ [النمل: ٢٥].

أي: لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من شيء من الكواكب وغيرها[(٣)].

وقال: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥].

قال السعدي: «يعلم الخفي الخبيء في أقطار السماوات وأنحاء الأرض، من صغار المخلوقات وبذور النباتات وخفايا الصدور، ويخرج خبء الأرض والسماء بإنزال المطر وإنبات النباتات، ويخرج خبء الأرض عند النفخ في الصور وإخراج الأموات من الأرض ليجازيهم بأعمالهم»[(٤)].

وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥] ؛ أي: يعلم ما يخفيه العباد، وما يعلنونه من الأقوال والأفعال[(٥)].

وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[النمل: ٢٦].

أي: لا تنبغي العبادة والإنابة والذل والحب إلا له ؛ لأنه المألوه لما له من الصفات الكاملة والنعم الموجبة لذلك؛ ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[النمل: ٢٦].

الذي هو سقف المخلوقات ووسع

(١) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٨٥.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود٦/ ٢٨١.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٧.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٠٤.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٧.

الأرض والسماوات، فهذا الملك عظيم السلطان كبير الشأن هو الذي يذل له ويخضع ويسجد له ويركع، فسلم الهدهد حين ألقى إليه هذا النبأ العظيم وتعجب سليمان كيف خفي عليه[(١)].

وقال الخازن: «والمقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس وغيرها، من دون الله ؛ لأنه لا يستحق العبادة إلا من هو قادر على من في السموات والأرض، عالم بجميع المعلومات، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[النمل: ٢٦] أي: هو المستحق للعبادة والسجود لا غيره»[(٢)].

وقد أحسن الهدهد في انتقاله من خبر إلى خبر، وكان سرده لذلك في غاية الترابط.

قال أبو حيان: «وما أحسن انتقالات هذه الأخبار بعد تهدد الهدهد وعلمه بذلك:

أخبر أولًا: باطلاعه على ما لم يطلع عليه سليمان، تحصنا من العقوبة بزينة العلم الذي حصل له، فتشوف السامع إلى علم ذلك.

ثم أخبر ثانيًا: بتعلق ذلك العلم، وهو أنه من سبأ، وأنه أمر متيقن لا شك فيه، فزاد تشوف السامع إلى سماع ذلك النبأ.

ثم أخبر ثالثًا: عن الملك الذي أوتيته امرأة، وكان سليمان عليه السلام قد سأل الله أن يؤتيه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده.

ثم أخبر رابعًا: ما ظاهره الاشتراك بينه وبين هذه المرأة التي ليس من شأنها ولا شأن النساء أن تملك فحول الرجال، وهو قوله: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾[النمل: ٢٣] وكان سليمان له بساط قد صنع له، وكان عظيمًا.

ولما لم يتأثر سليمان للإخبار بهذا كله، إذ هو أمر دنيوي، أخبره خامسا: بما يهزه لطلب هذه الملكة، ودعائها إلى الإيمان، وإفراده بالعبادة فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[النمل: ٢٤]»[(٣)].

وقال ابن عاشور: «وقد جمع هذا القول الذي ألقي إلى سليمان أصول الجغرافية السياسية من صفة المكان والأديان، وصبغة الدولة وثروتها، ووقع الاهتمام بأخبار مملكة سبأ ؛ لأن ذلك أهم لملك سليمان إذ كانت مجاورة لمملكته يفصل بينهما البحر الأحمر، فأمور هذه المملكة أجدى بعمله»[(٤)].

وقال الشنقيطي: «ففي هذا السياق عشر قضايا يدركها الهدهد ويفصح عنها لنبي الله سليمان:

الأولى: إدراكه أنه أحاط بما لم يكن في علم سليمان.

الثانية: معرفته لسبأ بعينها دون غيرها،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٠٤.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٤٤.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان٨/ ٢٢٨.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ٢٥٤.

ومجيئه منها بنبأ يقين لا شك فيه.

الثالثة: معرفته لتولية المرأة عليهم مع إنكاره ذلك عليهم.

الرابعة: إداركه ما أوتيته سبأ من متاع الدنيا من كل شيء.

الخامسة: أن لها عرشًا عظيمًا.

السادسة: إدراكه ما هم عليه من السجود للشمس من دون الله.

السابعة: إدراكه أن هذا شرك بالله تعالى.

الثامنة: أن هذا من تزيين الشيطان لهم أعمالهم.

التاسعة: أن هذا ضلال عن السبيل القويم.

العاشرة: أنهم لا يهتدون»[1].

ولما فرغ الهدهد من كلامه، وأبدى عذره في غيبته، أخر سليمان أمره إلى أن يتبين له صدقه من كذب[2]، فقال: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧].

ولا يتسرع سليمان في تصديقه أو تكذيبه ولا يستخفه النبأ العظيم الذي جاءه به، إنما يأخذ في تجربته، للتأكد من صحته . شأن النبي العادل والملك الحازم[3].

فكان اختباره أن يرسل لهم كتاباً مع الهدهد، وينتظر الجواب، فإن جاءه الجواب

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٨.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢٣٢.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٣٩.

دل على صدقه وإلا فإنه يكون كاذباً، قال: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨].

أي: اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم، ثم تنح عنهم فكن قريباً منهم، فانظر ماذا يردون من الجواب[4].

ثالثًا: قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ:

امتثل الهدهد أمر سليمان عليه السلام، وحمل الكتاب إلى ملكة سبأ، فوجدها في حال خلوتها، فألقاه إليها وتنحى عنها لينظر ماذا يكون جوابها عنه طاعة لمن أرسله به[5].

ففتحت الكتاب، وقرأته وعرفت محتواه[6]، ثم خرجت من خلوتها إلى أشراف قومها، وأخبرت قومها بالكتاب ومحتواه: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٢٩ - ٣٠].

فهو كتاب مختوم حسن مضمونه وما فيه، ومن عند ملك كريم، ووصل على نهج غير معتاد[7].

(٤) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٠١.
(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٩٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٨٨.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٥٨.
(٧) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٦٣، إرشاد العقل السليم، أبو السعود٦/ ٢٨٣.

فاسم سليمان عنوان الكتاب وخاتمه[(١)]، أما مضمونه فهو تسمية الله، ثم نهاهم عن الامتناع عن إجابته؛ فإن ترك الإجابة من العلو والتكبر، وأمرهم المجيء إليه طائعين منقادين[(٢)].

وبعد أن عرفتهم محتوى كتاب نبي الله سليمان عليه السلام، استشارتهم فيم يكون العمل وكيف يكون الرد عليه: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾[النمل: ٣٢].

قال الألوسي: «أي: أشيروا عليّ بما عندكم من الرأي والتدبير فيما حدث لي وذكرت لكم خلاصته، وقصدت بما ذكرت استعطافهم وتطييب نفوسهم ليساعدوها ويقوموا معها ، وأكدت ذلك بقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾؛ أي: ما أقطع أمراً من الأمور المتعلقة بالملك إلا بمحضركم وبموجب آرائكم، والإتيان بـ(كان) للإيذان بأنها استمرت على ذلك، أو لم يقع منها غيره في الزمن الماضي فكذا في هذا»[(٣)].

فكان جوابهم ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾[النمل: ٣٣] ؛ أي: نحن ذوو القوة على القتال، والبأس الشديد في الحرب، وأرادوا بالقوة: قوّة الأجساد وقوّة الآلات والعدد، بالبأس: النجدة والشجاعة والبلاء في الحرب، والأمر أيتها الملكة إليك في القتال وفي تركه، فانظري من الرأي ما ترين، فمرينا نأتمر لأمرك[(٤)].

فكان ردها: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾[النمل: ٣٤] ؛ أي إذا دخلوا بلداً عنوة خربوه، وقصدوا من فيها من الولاة والجنود، والأشراف والكبراء فأهانوهم غاية الهوان، إما بالقتل أو بالأسر؛ كي يستقيم لهم الأمر[(٥)].

وهذا القول منها تزييف لما أحست منهم من الميل إلى المقاتلة بادعائهم القوى الذاتية والعرضية، وإشعار بأنها ترى الصلح مخافة أن يتخطى سليمان خططهم فيسرع إلى إفساد ما يصادفه من أموالهم وعماراتهم، ثم أن الحرب سجال لا تدري عاقبتها، فقد تكون الدائرة عليهم[(٦)].

وكان هذا القول منها رحمها الله صائبًا؛

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي٣/ ٣٦٠، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٥٩، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٥٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور١٩/ ٢٥٩.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٠٢، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٣٤٥.
(٣) روح المعاني، الألوسي١٠/ ١٩٢.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٠، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٦٤.
(٥) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٠٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٠.
(٦) أنوار التنزيل، البيضاوي٤/ ١٦٠.

ولهذا صدقها الله تعالى فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[النمل: ٣٤] أي: كما قالت هي يفعل الملوك[١].

ثم لما قدمت لهم هذه المقدمة، وبينت لهم ما في دخول الملوك إلى أرضهم من المفسدة، أوضحت لهم وجه الرأي عندها، وصرحت لهم بصوابه[٢]، قالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥].

قال البغوي: «أي: وإني مرسلة إليهم بهدية، والهدية هي العطية على طريق الملاطفة، وذلك أن بلقيس كانت امرأة لبيبة قد سيست وساست، فقالت للملأ من قومها: إني مرسلة إلى سليمان وقومه بهدية أصانعه بها عن ملكي وأختبره بها أملك هو أم نبي؟ فإن يكن ملكا قبل الهدية وانصرف، وإن كان نبيا لم يقبل الهدية، ولم يرضه منا إلا أن نتبعه على دينه»[٣].

وأما الهدية فقد ذكروا في تعيينها أقوالا مضطربة متعارضة، وذكروا من حالها ومن حال سليمان حين وصلت إليه الهدية، وكلامه مع رسلها ما الله أعلم به[٤].

ولعل أقرب ما قيل في ذلك ما ذكره ابن كثير بقوله: «ذكر غير واحد من المفسرين، من السلف وغيرهم: أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك. وقال بعضهم: أرسلت بلبنة من ذهب. والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب»[٥].

أخذ رسول الملكة بلقيس الهدية، واتجه بها إلى الشام حيث كان سليمان عليه السلام، فلما وصل إليه كان جوابه ما قصه الله تعالى عنه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾[النمل: ٣٦].

قال ابن كثير: «وقال منكرًا عليهم: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ أي: أتصانعونني بمال لأترككم على شرككم وملككم؟!

﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ أي: الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه.

﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ أي: أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف»[٦].

وقال أبو السعود: «﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾: إضراب عما ذكر من إنكار الإمداد بالمال إلى التوبيخ بفرحهم بهديتهم التي أهدوها إليه عليه الصلاة والسلام فرح افتخار وامتنان واعتداد بها»[٧].

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٠٢.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ١٥٩.
(٣) معالم التنزيل ٣/ ٥٠٢.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢٣٦.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٠.
(٦) المصدر السابق ٦/ ١٩١.
(٧) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٨٥.

ثم أردف استنكاره لفعلهم بالتهديد فقال عليه السلام: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧].

أي: ارجع أيها الرسول إلى بلقيس وقومها فو الله لنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة لهم على مقابلتها ولنخرجنهم من سبأ أذلة بعدما كانوا فيه من العز والتمكين، وهم أسارى مهانون [١].

رجع رسول الملكة بلقيس، وأخبرها برد سليمان عليه السلام، فتجهزت للمسير إليه إذ علمت أنه نبي ولا طاقة لها بقتاله، وقبل خروجها أحرزت عرشها، وغلقت عليه أبوابها ووكلت به حراسا ليحفظوه [٢].

فلما علم سليمان عليه السلام بقدومها إليه، وخروجها من بلدها، وكان في مجلس ملكه قال: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨].

أي: قبل أن يأتوني طائعين مستسلمين، فإن قيل: كيف رد الهدية، وطلب إحضار عرشها ؟

فالجواب: أن النبي سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهبه الله له من الملك، وسخر له من الجنود، الذي لم يعطه أحد قبله، ولا يكون لأحد من بعده. وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها؛ لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه. هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة [٣].

فأجابه أحد جنوده من الجن: ﴿قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩].

فأجابه رئيس من الجن مارد قوي: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلسك، وكان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس [٤].

وبين ما فيه من صفات تؤهله ليحظى بشرف خدمة نبيه سليمان عليه السلام، فقال: ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾ [النمل: ٣٩]؛ أي: قوي على حمله، أمين على ما فيه من الجوهر [٥].

لكن سليمان عليه السلام قال: أريد أعجل من ذلك وأسرع [٦]، ولعله عرف أنها قد باتت قريبة، والوقت لا يحتمل التأخير، وهنا قال آخر: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [النمل: ٤٠].

وهذا القائل رجل من الإنس يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا

(١) انظر: المصدر السابق ٦/ ٢٨٦.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٩٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٢.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٢.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٢.
(٦) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٣٦٣.

سئل به أعطي[1]: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

أي: ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك[2].

فلما عاين سليمان وملؤه ذلك، ورآه مستقرًّا عنده ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ [النمل: ٤٠].

أي: هذا من نعم الله علي ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾ أي: ليختبرني، ﴿ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾.

وقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

أي: هو غني عن العباد وعبادتهم، كريم في نفسه، وإن لم يعبده أحد، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد[3].

ثم أمرهم فقال: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١].

أي: غيروا سريرها إلى حال تنكره إذا رأته، سواء بالزيادة والنقصان منه أو جعل أعلاه أسفله وأسفله أعلاه أو بتغيير الألوان[4].

والسبب في ذلك هو اختبارها: ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٤١].

أي: ننظر أتعرف عرشها بعد تنكيرها فتكون معرفتها سبباً لإيمانها - لأن الإتيان به يكون معجزة دالة على نبوة سليمان عليه السلام- أم لا ؟ [5].

فلما جاءت بلقيس سليمان وقد كان العرش منكراً بين يديه[6]، ﴿قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل: ٤٢].

قال أبو حيان: «أي مثل هذا العرش الذي أنت رأيته عرشك الذي تركتيه ببلادك؟ ولم يأت التركيب: أهذا عرشك؟ جاء بأداة التشبيه، لئلا يكون ذلك تلقيناً لها.

ولما رأته على هيئة لا تعرفها فيه، وتميزت فيه أشياء من عرشها، لم تجزم بأنه هو، ولا نفته النفي البالغ، بل أبرزت ذلك في صورة تشبيهية فقالت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢] وذلك من جودة ذهنها، حيث لم تجزم في الصورة المحتملة بأحد الجائزين من كونه إياه أو من كونه ليس إياه، وقابلت تشبيههم بتشبيهها»[7].

وعندها قال سليمان عليه السلام: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢].

فهذا من تمام كلامه شكرًا لله على

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٨٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٢.
(٣) المصدر السابق ٦/ ١٩٣.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٠٦.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٦٩، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢٤٢، نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ١٦٧.
(٦) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ٢٠١.
(٧) البحر المحيط، أبو حيان٨/ ٢٤٢.

فضلهم عليها، وسبقهم إلى العلم بالله وبالإسلام. ومعناه: وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته، وبصحة ما جاء من عنده قبل علمها بذلك.

ثم بين الله تعالى سبب كفر هذه المرأة مع ما هي عليه من الفطنة والذكاء؛ فقال: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: ٤٣].

أي: عن الإسلام، وإلا فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرف الحق من الباطل ؛ ولكن العقائد الباطلة تذهب بصيرة القلب ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣].

فاستمرت على دينهم، وانفراد الواحد عن أهل الدين والعادة المستمرة بأمر يراه بعقله من ضلالهم وخطئهم من أندر ما يكون؛ فلهذا لا يستغرب بقاؤها على الكفر[(١)].

وكان سليمان عليه السلام قد أمر الشياطين قبل قدومها أن يبنوا له قصراً من زجاج أبيض، وأجرى من تحته الماء، ووضع سريره في صدره، فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والإنس، وإنما فعل ذلك ليزيدها استعظامًا لأمره، وتحققًا لنبوته، وثباتًا على الدين[(٢)].

فلما جاءت دعاها لدخول هذا القصر، قال تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وعندها حسبت القصر لشدة صفاء الزجاج واتصال الماء بسطحه الأسفل غمرة عظيمة من ماء، فعزمت على خوضها إظهارًا لتمام الاستسلام، وكشفت عن ساقيها؛ لئلا تبتل ثيابها فتحتاج إلى تغييرها.

وهنا بين لها سليمان الحقيقة فقال: إنه قصر مملس، من زجاج ليتصف بشفوفة الماء فيظن أنه لا حائل دونه[(٣)].

والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصرًا عظيمًا منيفًا من زجاج لهذه الملكة؛ ليريها عظمة سلطانه وتمكنه، فلما رأت ما آتاه الله، تعالى، وجلالة ما هو فيه، وتبصرت في أمره انقادت لأمر الله وعرفت أنه نبي كريم، وملك عظيم، فأسلمت لله عز وجل، وقالت: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [النمل: ٤٤].

أي: بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس من دون الله، وقالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

أي: متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده، لا شريك له، الذي خلق كل

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٠٥.
(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٧٠.
(٣) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٤/ ١٧١.

شيء فقدره تقديراً[1]، ووصفته بربوبية العالمين لإظهار معرفتها بألوهيته تعالى وتفرده باستحقاق العبادة وربوبيته لجميع الموجودات التي من جملتها ما كانت تعبده قبل ذلك من الشمس[2].

شبهات حول سليمان عليه السلام

جاء في تفسير بعض الآيات الواردة عن سليمان عليه السلام أقوال تقدح في مقام هذا النبي الكريم، وشبهات تنقص من قدرة نعرض لها في النقاط الآتية:

أولًا: إلقاء الجسد على كرسيه:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٥].

ونحن هنا سنعرض لأقوال المفسرين في هذه الآية، ونبين ما نراه صواباً وبالله المستعان، فيا ترى ما هو الجسد الذي ألقي على كرسي سليمان عليه السلام؟

ذكر المفسرون في هذا الجسد أقوالًا:

الأول: إن هذا الجسد شيطان تمثل بسليمان عليه السلام وغصبه ملكه[3].

الثاني: إنه ولد لسليمان ولد فاجتمعت الشياطين، فقال بعضهم لبعض: إن عاش له ولد، لم ننفكّ من البلاء، فسبيلنا أن نقتل ولده أو نخبله، فعلم سليمان، فأمر السّحاب فحمله، وعدا ابنه في السّحاب خوفاً من الشياطين، فعاتبه الحقّ تعالى على تخوّفه من الشياطين، ومات الولد، فألقي على كرسيه ميتًا جسدًا[4].

الثالث: إن الجسد هو سليمان عليه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩٧.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٢٨٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٨٧.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٠٥.

السلام نفسه مرض سليمان مرضاً كالإغماء حتى صار على كرسيه جسداً كأنه بلا روح[(١)].

الرابع: إن الجسد المذكور هو نصف إنسان ولد لسليمان[(٢)].

إلا أن القول الأول باطل من أوجه:

الوجه الأول: الاضطراب في سياق رواياته فمن ذلك:

الاختلاف في اسم هذا الشيطان قال الطبري: ﴿ولقد ابتلينا سليمان وألقينا على كرسيه جسدًا شيطانًا متمثلًا بإنسان، ذكروا أن اسمه صخر وقيل: إن اسمه آصف وقيل: إن اسمه أصر وقيل: إن اسمه حبقيق﴾[(٣)].

الاختلاف في سبب استيلاء هذا الشيطان على الخاتم على أقوال:

الأول: إن سليمان عليه السلام هو من أعطاه ذلك[(٤)].

الثاني: إن الشيطان تمثل بصورة سليمان عليه السلام، وجاء إلى امرأته فأخذ الخاتم[(٥)].

الثالث: إن سليمان عليه السلام طلب من هذا الشيطان أن يبين له كيف يفتن الناس؟ فطلب منه الشيطان أن يعطيه خاتمه لكي يعرفه بذلك، فدفعه له فرماه في البحر[(٦)].

الرابع: إن الخاتم سقط من سليمان عليه السلام في البحر فتسلط عليه الشيطان[(٧)].

الوجه الثاني: إنه ليس في جلوس الجن على الكرسي معنى الإلقاء إلا أن يتكلف.

الوجه الثالث: ما قاله القاضي عياض: «ولا يصح ما نقله الأخباريون من تشبه الشيطان به وتسلطه على ملكه وتصرفه في أمته بالجور، في حكمه ؛ لأن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا، وقد عصم الأنبياء من مثله»[(٨)].

إذاً تبين مما سبق أن القول المشهور بين المفسرين لا يمكن أن يكون صواباً لما سبق، فالأقوال الأخرى فليس فيها ما هو مرفوع سوى القول بالاستثناء فيتعين أنه الصواب، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(قال سليمان بن داوود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على مائة امرأة، أو تسع وتسعين كلهن، يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل، والذي نفس محمد بيده، لو قال:**

(١) البحر المحيط ٩/ ١٥٦.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٠٥، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٩٣.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٨٧.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٨٨.
(٥) المصدر السابق ٢٠/ ٩١.
(٦) المصدر السابق ٢٠/ ٨٨.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٤٢.
(٨) الشفا، القاضي عياض ٢/ ٣٨١

إن شاء الله، لجاهدوا في سبيل الله، فرساناً أجمعون)[(١)].

وقد قال بهذا جمع من المفسرين كأبي حيان وأبي السعود وغيرهما[(٢)].

ثانيًا: مسح سوق الخيل وأعناقها:

قال تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾[ص: ٣١].

في هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى أن سليمان عليه السلام عرض عليه في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات -وهي التي تقف على ثلاث أرجل وطرف حافر الرابعة- والجياد: السراع[(٣)].

وفي عدد هذه الخيل المعروضة قولان للمفسرين:

القول الأول: إنها عشرون فرساً ذات أجنحة[(٤)].

القول الثاني: إنها كانت الخيل التي شغلت سليمان عليه الصلاة والسلام عشرين ألف فرس، فعقرها[(٥)].

ولكن سياق الآيات يدل على أن القول الثاني هو الأشبه بالصحة، وذلك لأن العرض استمر من العصر إلى غروب الشمس، قال: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾[ص: ٣١].

والعشي يبدأ من العصر، واستمر هذا العرض إلى غروب الشمس كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ وهذا وقت طويل يقتضي خيلاً كثيرة، ما يجعل عرضها يستغرق هذا الوقت؛ ولهذا قال الإمام ابن كثير: «وهذا أشبه»[(٦)].

وقال تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾[ص: ٣٢].

والمعنى: آثرت حب الخيل واشتغلت بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً بل نسياناً[(٧)].

ثم قال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾[ص: ٣٣] أي: ردوا الخيل علي[(٨)].

ثم بين سبحانه ما فعل سليمان عليه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من طلب الولد للجهاد، ٤/ ٢٢، رقم ٢٨١٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب الاستثناء، ٣/ ١٢٧٦، ١٦٥٤.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ١٥٥، إرشاد العقل السليم، أبو السعود٧/ ٢٢٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٨١، تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٤٣٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٦٤.

(٤) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٨٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٤١.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٦٤.

(٧) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٤٣٩، زاد المسير، ابن الجوزي٣/ ٥٧٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٦٥.

(٨) تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٤٤٠.

السلام بهذه الخيل، فقال: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣].

وقد ذكر المفسرون هنا أقوالاً هي:

الأول: المراد أنه قطع عراقيبها وأعناقها، وهذا قول أكثر المفسرين[(١)].

الثاني: إن سليمان عليه السلام جعل يمسح عراقيبها وأعناقها بيده شفقة عليها.

الثالث: معناه أنه حبسها في سبيل الله وكوى سوقها وأعناقها بكي الصدقة.

وقد اعترض أصحاب القول الأول على القول الثاني بقولهم: أيّ مناسبة بين شغلها إيّاه عن الصلاة وبين مسح أعرافها حبًّا لها؟!.

ورد الآخرون على القول الأول: بأنه فاسد إذ لا ذنب للحيوان، فكيف وجّه العقوبة إليه وقصد التّشفّي بقتله، وهذا يشبه فعل الجبّارين، لا فعل الأنبياء[(٢)].

والذي يبدو لي أن الصواب هو القول الثاني لما يلي:

أولًا: الأصل في اللغة أن المسح باليد، أما أن يراد به القطع فهو مجاز والحقيقة مقدمة[(٣)].

ثانيًا: أنه قول ابن عباس نقله عنه ابن جرير وابن أبي حاتم[(٤)].

ثالثًا: ما قاله الطبري: «بأن نبي الله صلى الله عليه وسلم لم يكن إن شاء الله ليعذب حيواناً بالعرقبة، ويهلك مالاً من ماله بغير سبب، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها»[(٥)].

والله أعلم.

ثالثًا: قول اليهود: إن سليمان كان ساحرًا:

قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية قولين:

الأول: قالت اليهود: انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء، وإنما كان ساحراً يركب الريح. فأنزل الله عذر سليمان[(٦)].

الثاني: إن اليهود سألوا النبي - صلى الله عليه وسلم عن السحر وخاصموه به، فأنزل الله: واتبعوا ما تتلوا الشياطين إلى آخر

---

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٤٤٠.
وانظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٨٦، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٦٨، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٧٢.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٧٢.

(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٢٢، تاج العروس، الزبيدي ٧/ ١٢٠.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٨٧، تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٤١.

(٥) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٨٧.

(٦) انظر: المصدر السابق ٢/ ٣٢٧.

الآية[1].

إذن فاليهود عليهم لعنة الله يقولون: إن سليمان عليه السلام كان ساحرًا، فكيف ترد شبهتهم هذه؟

ترد هذه الشبهة من وجهين:

الوجه الأول: في قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ [البقرة: ١٠٢] تكذيب لمن زعم ذلك، وعبر عن السحر بالكفر ليدل على أنه كفر، وأن من كان نبيًا كان معصومًا منه[2].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ [البقرة: ١٠٢] تبرئة من الله لسليمان، ولم يتقدم في الآية أن أحدًا نسبه إلى الكفر، ولكن اليهود نسبته إلى السحر، ولكن لما كان السحر كفراً صار بمنزلة من نسبه إلى الكفر»[3].

الوجه الثاني: أن الله تعالى قد نص في كتابه أن سليمان عليه السلام نبي يوحى إليه.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾ [النساء: ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤].

إلى أن قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١/ ١٨٦.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٩٧، أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٣٩.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٤٣.

موت سليمان عليه السلام

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾[سبأ: ١٤].

ذكر الله سبحانه وتعالى أنه سخر الجن لنبيه سليمان عليه السلام يستعملهم في أعمال سبق أن ذكرناها، وقبل موته كلفهم بإتمام بيت المقدس، وفي زمان عملهم جاءه الموت.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سبأ: ١٤].

أي: فلما أمضينا قضاءنا على سليمان بالموت فمات[1]، فأخفى الله سبحانه وتعالى موته عنهم لسببين:

الأول: ليكملوا بناء المسجد الذي بدأ عملهم فيه؛ قال بعض المفسرين: كانت الجن تعمل لسليمان عليه السلام في بناء مسجد بيت المقدس؛ فقرب موت سليمان وقد بقي من العمل بقية، فقبض الله روح سليمان وهو متكئ على عصا، وكانوا يظنون أنه حي، ويجتهدون في العمل[2].

الثاني: أن الجن كانوا يدعون علم الغيب بقوله: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾[سبأ: ١٤].

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٣٧.
(٢) تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٣٢٢.

ولكن ما هو معنى: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾[سبأ: ١٤]؟

يذكر المفسرون أقوالاً في بيان معناها:

الأول: إن معنى تبين: بان وظهر، فيكون المعنى: تبينت الجن للإنس أنهم لا يعلمون الغيب، بمعنى بان أمرهم وافتضحوا في ادعائهم الغيب.

الثاني: بمعنى علم وأدرك، فيكون معنى الآية علمت الجن وعرفوا أنهم لا يعلمون الغيب، والمقصود من هؤلاء جمهور الجن وعامتهم ،فقد كان رؤساؤهم وكبارهم يوهمونهم أنهم يعلمون الغيب فيصدقونهم[3].

ومكث الجن في عملهم الشاق مدة طويلة قيل إنها سنة[4]؛ إذ إن أكل الأرضة لعصاه يستغرق وقتًا طويلًا، وهذا يدل عليه قوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾[سبأ: ١٤].

قال الطبري: «لم يدل الجن على موت سليمان إلا دابة الأرض وهي الأرضة وقعت في عصاه، التي كان متكئا عليها فأكلتها»[5].

أما مدة حياته عليه السلام فقد كانت

(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٣٢٤، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٦٧٥، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤١٢، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٥٣٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٠٣.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٣٧.

اثنتان وخمسون سنة، ملكه منها أربعون سنة، ذكر ذلك المؤرخون[1].

تدبير سليمان عليه السلام لملكه

كان سليمان عليه السلام ملكاً نبياً ساس مملكته وفق شرع الله تعالى ، وقد أبان الله تعالى معالم سياسة هذا الملك العظيم والنبي الكريم في كتابه تعالى ، ويمكن أن نبين شيئًا من ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: السياسة الداخلية:

ظهرت سياسته في شأن المملكة الداخلي فيما يلي:

١ . بناء دور العبادة.

قال تعالى: ﴿ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ ﴾ [سبأ: ١٣].

وقد ورد عن أئمة التفسير أن المحاريب هي المساجد، ومما يحسن ذكره هنا أنه عليه السلام جدد بناء المسجد الأقصى ، فعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: (قلت يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: (المسجد الحرام) قال: قلت: ثم أي؟ قال (المسجد الأقصى) قلت: كم كان بينهما؟ قال: (أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصله، فإن الفضل فيه)[2].

وعن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله

(١) انظر: تاريخ الرسل والملوك، الطبري ١/ ٥٠٣، قصص الأنبياء، ابن كثير ٢/ ٣١٤، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مجير الدين الحنبلي١/ ١٤٥، تتمة المختصر في أخبار البشر، ابن الوردي ١/ ٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، ٤/ ١٤٥، رقم ٣٣٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد، ١/ ٣٧٠، رقم ٥٢٠.

صلى الله عليه وسلم (أن سليمان بن داود، لما بنى مسجد بيت المقدس، سأل الله خلالاً ثلاثة: سأل الله حكماً يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله حين فرغ، من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه، أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه)[(1)]، ويجمع بين الحديثين بأن المراد من بناء سليمان عليه السلام لمسجد بيت المقدس تجديده لا ابتداء بنائه[(2)].

٢. صناعة أوعية الطعام لإطعام الرعية.

قال تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣]

٣. بناء البيوت والقصور.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [سبأ: ١٢].

وقد سبق بيان ذلك.

٤. استخراج اللؤلوء والجواهر من البحار.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾[الأنبياء: ٨٢].

٥. استخدام النحاس.

قال تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾[سبأ: ١٢].

٦. تخصيص مجلس لفض الخصومات.

قال تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩]. ويحكم بالقرائن.

٧. تنفيذ العقوبات فيمن يستحقها.

والعصاة من رعيته لهم عقوبات متنوعة من التعذيب أو القتل أو الحبس والتقييد.

قال تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾[النمل: ٢١].

وقال: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٨].

٨. إقامة العروض العسكرية.

قال تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾[ص: ٣١].

٩. توزيع الجنود وتصنيفهم.

قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[النمل: ١٧].

وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر دون سوق أواخرهم مع أن التلاحق يحصل بذلك أيضاً لأن في ذلك شفقة على الطائفتين، أما

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١١/ ٢٢٠، رقم ٦٦٤٤، والنسائي في سننه، كتاب المساجد، باب فضل المسجد الأقصى، ٢/ ٢٤، رقم ٦٩٣، وابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس، ١/ ٤٥٢، رقم ١٤٠٨. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٢٠، رقم ٢٠٩٠.

(٢) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٤٠٩.

الأوائل فمن جهة أن يستريحوا في الجملة بالوقوف عن السير، وأما الأواخر فمن جهة أن لا يجهدوا أنفسهم بسرعة السير[(١)].

١٠ . تشجيع الجنود وبث فيهم روح المبادرة للقيام بالمهام.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨].

١١ . شكر الله تعالى أمام الجنود؛ ليكون قدوة لهم في ذلك.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾ [النمل: ٤٠].

فلما رآه مستقرًا عنده جعل يشكر نعمة ربه بعبارة فيها تعليم للناس وهي عرضة للاقتداء بها والاقتباس منها[(٢)].

ويتفقد رعيته ليعرف الغائب من الحاضر ويعرف الضعيف وذا الحاجة.

قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾ [النمل: ٢٠].

أي: تعرف أحوال الطير تعرف الملك لمملكته، حسبما تقتضيه عناية الملك بمملكته، والاهتمام بكل جزء منها لا سيما الضعفاء منها[(٣)].

وفيه دلالة على تفقد الإمام أحوال رعيته والمحافظة عليهم[(٤)].

قال القرطبي: «في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته، والمحافظة عليهم، فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخف على سليمان حاله، فكيف بعظام الملك، ويرحم الله عمر فإنه كان على سيرته، قال: لو أن سخلة على شاطئ الفرات أخذها الذئب ليسأل عنها عمر. فما ظنك بوال تذهب على يديه البلدان، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان»[(٥)].

ويلحظ سيد قطب رحمه الله تعالى من هذا التفقد بعضاً من صفات سليمان عليه السلام فيقول: «كما ندرك من افتقاد سليمان لهذا الهدهد سمة من سمات شخصيته: سمة اليقظة والدقة والحزم، فهو لم يغفل عن غيبة جندي من هذا الحشر الضخم من الجن والإنس والطير، الذي يجمع آخره على أوله كي لا يتفرق ويتكث»[(٦)].

ويعلم الجميع من سؤال الملك عنه أنه غائب بغير إذن وحينئذ يتعين أن يؤخذ الأمر بالحزم، كي لا تكون فوضى. فالأمر بعد سؤال الملك هذا السؤال لم يعد سرًّا.

وإذا لم يؤخذ بالحزم كان سابقة سيئة لبقية الجند، ومن ثم نجد سليمان الملك

(١) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٧٠.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٦١.
(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ١٨٧.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان٨/ ٢٢٣.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ١٧٨.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٣٨.

الحازم يتهدد الجندي الغائب المخالف: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ [النمل: ٢١].

ولكن سليمان ليس ملكًا جبارًا في الأرض، إنما هو نبي. وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب، فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاء نهائياً قبل أن يسمع منه، ويتبين عذره.. ومن ثم تبرز سمة النبي العادل: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١].

أي: حجة قوية توضح عذره، وتنفي المؤاخذة عنه»[١].

وهو يعذر من يستحق العذر بعد أن يمتحن صدقه من كذبه، وقوله: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١].

أي: بعذر ظاهر[٢]، وفعل سليمان هذا بالهدهد إغلاظًا عن العاصين وعقابًا على إخلاله بنوبته ورتبته[٣].

قال القاسمي: «وأن في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧].

قبول الوالي عذر رعيته، ودرءه العقوبة عنهم، وامتحان صدقهم فيما اعتذروا به»[٤].

ويهتم بتنمية الزرع، وتربية الحيوان، ظهر هذا جلياً في حكمه في رعي الغنم للزرع.

(١) المصدر السابق.
(٢) تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٨٨.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٥٥.
(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٤٩٥.

قال سيد قطب: «ولكن حكم سليمان تضمن مع العدل البناء والتعمير، وجعل العدل دافعاً إلى البناء والتعمير. وهذا هو العدل الحي الإيجابي في صورته البانية الدافعة. وهو فتح من الله وإلهام يهبه من يشاء»[٥].

وهذه الحادثة وإن كانت في زمان أبيه داود عليه السلام، فلأن يكون مثل ذلك في زمان ملكه من باب أولى.

ثانيًا: السياسة الخارجية:

نبين في هذا المطلب شيئاً من سياسته تجاه خارج مملكته، والتي نأخذ منها سلوكه مع مملكة سبأ على سبيل الأنموذج المحتذى، وتمثلت سياسته تجاهها فيما يلي:

١. المراسلة بمعنى إرسال الكتب مع رسوله؛ ليدعوهم إلى التوحيد. قال تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨]؛ قال الألوسي: «وفي الآية دليل على جواز إرسال الكتب إلى المشركين من الإمام لإبلاغ الدعوة والدعاء إلى الإسلام»[٦]، وعلم رسوله سلوك الأدب مع من يرسله إليهم في قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾،

(٥) المصدر السابق ٤/ ٢٣٨٩.
(٦) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٨٨.

قال السمعاني: «علم الهدهد أدب الدخول على الملوك يعني: إذا دخل الداخل على الملك ينبغي أن لا يقف، بل يذهب في الحال ثم يرجع ويطلب الجواب»[(١)]، ويختار الرسول المناسب الذي يعلم شيئاً من حال المرسل إليه.

٢. التهديد لهم إن لم يذعنوا، ويجيبوا لدعوته إياهم للإيمان، قال تعالى: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧]. قال ابن عطية: «ثم توعدهم بالجنود والغلبة والإخراج أذلاء والمعنى إن لم يسلموا»[(٢)].

٣. تسيير الجيوش إليه إن لم ينفع معه التهديد، قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾ [النمل: ١٧]؛ قال الألوسي: «والظاهر أن هذا الحشر ليس إلا جمع العساكر ليذهب بهم إلى محاربة من لم يدخل في ربقة طاعته عليه السلام»[(٣)].

٤. لا يقبل المساومة مع العدو على الدين، ولا تفتنه الرشوة وإغراء المال، قال تعالى: ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦]. قال سيد قطب: «وفي الرد استهزاء بالمال، واستنكار للاتجاه إليه في مجال غير مجاله. مجال العقيدة والدعوة»[(٤)]. وقال ابن عاشور: «وقد أبى سليمان قبول الهدية؛ لأن الملكة أرسلتها بعد بلوغ كتابه ولعلها سكتت عن الجواب عما تضمنه كتابه من قوله: وأتوني مسلمين، فتبين له قصدها من الهدية أن تصرفه عن محاولة ما تضمنه الكتاب، فكانت الهدية رشوة لتصرفه عن بث سلطانه على مملكة سبأ»[(٥)].

٥. يستخدم الحيلة ليتبين حال العدو ويعرف مدى عقله وإدراكه وهذا ظاهر من قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١]. قال الرازي: «أراد أن يؤتى بذلك العرش فيغير وينكر، ثم يعرض عليها حتى أنها هل تعرفه أو تنكره، والمقصود اختبار عقلها»[(٦)]، وقوله: ﴿قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل: ٤٢]. قال الألوسي: «ولم يقل: أهذا عرشك لئلا يكون تلقيناً لها فيفوت ما هو المقصود من الأمر بالتنكير من إبراز العرش في معرض الإشكال والاشتباه حتى يتبين لديه عليه السلام حالها»[(٧)].

٦. الاستعانة في ما يريد تجاه العدو بالأتباع المؤهلين. قال تعالى: ﴿قَالَ

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٩٢.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢٥٩.
(٣) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٦٩.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٤٠.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور١٩/ ٢٦٨.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٥٥٦.
(٧) روح المعاني، الألوسي ١٠/ ٢٠١.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨]. قال أبو حيان: «فيه دليل على جواز الاستعانة ببعض الأتباع في مقاصد الملوك، ودليل على أنه قد يخص بعض أتباع الأنبياء بشيء لا يكون لغيرهم، ودليل على مبادرة من طلبه منه الملوك قضاء حاجة»[١].

الهدايات المستفادة من قصة سليمان

١. العلم أعظم من المال ؛ ولهذا نوه الله تعالى بوراثة سليمان لعلم أبيه.

٢. قيد النعمة شكر الله تعالى عليها ونسبتها إليه.

٣. الملك بيد الله تعالى يهبه لمن يشاء من عباده.

٤. الرجوع إلى الله تعالى والإنابة إليه من أرقى مراتب العبودية.

٥. الاستغفار سبب للتعرض لنعم الله تعالى ومننه ؛ فسليمان عليه السلام يستغفر ثم يطلب الملك.

٦. الأصل في معرفة الله تعالى أن تكون على بصيرة ودليل، فالهدهد يستدل عليها بقدرة الله على إخراج الخبء في السموات والأرض، ويعلمه بالسر والعلن.

٧. العلم يرفع الصغير، ويجل به الحقير ويجعله يرافق العظماء، فالهدهد عصفور صغير، منتن الريح وبالعلم بالله ارتقى لأن يصاحب أعظم ملك ذكره الله في كتابه.

٨. شرف العلم بأسماء الله تعالى، ومنها الاسم الأعظم.

٩. اعتذرت النملة لسليمان وجنده، وبنو البشر أحق في أن يلتمس بعضهم

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٢٣٩.

لبعض الأعذار ما أمكن.

١٠. عادة الأنبياء والصالحين في تقديمهم أمر دينهم على أمور دنياهم ؛ لذلك قدّم سليمان عليه السلام الاستغفار على طلب الملك.

١١. الإغلاظ على العصاة المذنبين ليرتدع من خلفهم أمر مطلوب ولكن بعد سماع عذرهم إن كان لهم عذر.

١٢. الشورى مبدأ أصيل في الحكم، وبه يتوصل إلى الصواب بعكس التفرد بالرأي.

١٣. إرسال العيون للتعرف على أحوال العدو وما يدور عنده من سياسة الأنبياء.

١٤. للهدية تأثير في قلب من أهديت إليه وتجعله يرق له ويحبه [١].

موضوعات ذات صلة:

بنو إسرائيل، الجن، داود عليه السلام، الرياح، الطير

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٩١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٠٥.



عناصر الموضوع

مفهوم السماء	٢٩٠
السماء في الاستعمال القرآني	٢٩١
الالفاظ ذات الصلة	٢٩٢
القسم بالسماء في بعض أحوالها	٢٩٤
اوصاف خاصة للسماء	٣٠١
السماء وضرب الأمثال	٣١٩
لمسات إعجازية في السماء	٣٢٤

مفهوم السماء

أولًا : المعنى اللغوي:

لفظ السماء مأخوذ من: سما يسمو سموًّا أي: علا، ومنه يقال: سمت همته إلى معالي الأمور إذا طلب العزّ والشرف، والسّماء المظلة للأرض، وهو على معنى السقف[(١)].

والسماء في اللغة: يقال لكل ما ارتفع وعلا قد سما يسمو، وكل سقف فهو سماء، ومن هذا قيل للسحاب: السماء، لأنها عالية[(٢)].

فهي كل ما علا وارتفع و كان فوق رأسك وأصلها السماء المعروفة.

ثانيًا : المعنى الاصطلاحي:

الأصل أن: سماء كلّ شيء: أعلاه[(٣)]، ومنه هذه السماء المعروفة التي فوقنا.

والسماء: اسم جنس للعالي لا يخص شيئًا، فهي متعبد الملائكة ومستقر الوحي وفيها أنوار الطاعات[(٤)]، فهي عمومًا كل ما في الجهة العليا فوق رءوسنا، وكل ما علاك فأظلك[(٥)]، يقال له سماء.

فكل أفق من الآفاق فهو سماء كما أن كل طبقة من الطباق سماء[(٦)].

(١) انظر: المصباح المنير، الفيومي ص ١٥١، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص ٤٥٢.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ١٣/ ١١٥.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٢٧.
(٤) الوابل الصيب، ابن القيم ص٥٣.
(٥) تفسير المراغي ١٠/ ١٠٩.
وانظر: فقه اللغة، الثعالبي ص ٢٧٥.
(٦) الكليات، الكفوي ص٧٨٠.



السماء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سمو) في القرآن الكريم (٣٨١) مرةً، ويخص موضوع البحث منها (٣١٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم (مفرد)	١٢٠	﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة:٢٢]
الاسم (جمع)	١٩٠	﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:١٢]

وجاءت السماء في القرآن على وجهين[٢]:

الأول: السماء المعروفة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ [الذاريات:٤٧].

الثاني: سقف البيت: ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج:١٥]. أي: فليمدد بحبل إلى سماء البيت.

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب السين ص٦٨٣-٦٤٤.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٢٦٢-٢٦٤، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص ٣٥٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ الفلك:

الفلك لغة:

كل شيء دائر، والفلك مجرى الكواكب وتسميته بذلك لكونه كالفلك، قال الله عز وجل: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣] وفلكة المغزل ومنه اشتق فلك ثدي المرأة، وفلكت الجدي إذا جعلت في لسانه مثل فلكة يمنعه عن الرضاع[١].

الفلك اصطلاحًا:

والفلك واحد أفلاك النجوم. وفي حديث ابن مسعود: (تركت فرسي كأنه يدور في فلك). كأنه لدورانه شبهه بفلك السماء الذي تدور عليه النجوم. قال ابن زيد: الأفلاك مجاري النجوم والشمس والقمر، وهي بين السماء والأرض[٢].

الصلة بين الفلك والسماء:

الفلك جزء كبير تحت السماء الدنيا ، فيه كل ما يزينها من نجوم وكواكب ، ويمكن أن يقال هو: ما يكون تحت السماء الدنيا مباشرة، التي يراها الناس ويبحثون فيها ويستكشفون ما بها وينظرون فيها ويطيرون تحتها ويهتدون بما فيها وغير ذلك.

٢ الأرض:

الأرض لغة:

الجرم المقابل للسماء، وجمعه أرضون، ولا تجيء مجموعة في القرآن، ويعبر بها عن أسفل الشيء، كما يعبر بالسماء عن أعلاه[٣].

الأرض اصطلاحًا:

يمكن القول أن أشمل تعريف هو ما ذكره علماء الجغرافيا والبيئة: «الأرض هي أحد الكواكب التسعة التي تدور حول الشمس، وهي الثالثة بالنسبة للقرب من الشمس، والثالثة من حيث درجة اللمعان إذا ما شوهدت من عند الشمس، والخامسة بين المجموعة الشمسية من حيث الحجم»[٤].

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٥٤، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ٤٧٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٢٨٦.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٣.
(٤) المدخل إلى علم الجغرافيا والبيئة، محمد محمود محمدين ص ١٠٩.



الصلة بين الأرض والسماء:

صلة السماء بالأرض من حيث إن الأرض مهبط لما ينزل من السماء، والسماء مصعد لما يرفع إليها من الأرض، وقد ذكرتا مقترنتين في القرآن الكريم بألفاظ متقاربة في مواضع كثيرة.

قال ابن القيم: «وأما الأرض فأكثر ما تجيء مقصودًا بها معنى التحت والسفل دون أن يقصد ذواتها وأعدادها، وحيث جاءت مقصودًا بها الذات والعدد أتى بلفظ يدل على البعد كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢].

وفرق ثان وهو أن الأرض لا نسبة لها إلى السموات وسعتها، بل هي بالنسبة إليها كحصاة في صحراء ، فهي وإن تعددت وتكبرت فهي بالنسبة إلى السماء كالواحد القليل فاختير لها اسم الجنس[1] .

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم ص ١٤٩.

القسم بالسماء في بعض أحوالها

القسم: هو أن يريد المتكلم الحلف على شيء فيحلف بما يكون فيه فخر له أو تعظيم لشأنه أو تنويه لقدره[1].

أولًا: السماء والطارق:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾ [الطارق:١-٣].

والطارق: النجم لأنّه يطلع بالليل، وما أتاك ليلًا فهو طارق، ثم فسره فقال: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ والثاقب: المضيء، والعرب تقول: أثقب نارك للموقد، ويقال: إن الثاقب: هو النجم الّذي يقال له: زحل، والثاقب: الّذي قد ارتفع على النجوم، والعرب تقول للطائر إذا لحق ببطن السماء ارتفاعًا: قد ثقب، كل ذلك جاء في التفسير[2]، والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواقب[3].

وأقسم ربنا بالسماء وبالطارق الذي يطرق ليلاً من النجوم المضيئة، ويخفى نهاراً، وكل ما جاء ليلاً فقد طرق وبنحو ذا قال أهل التأويل[4].

وأبهم الموصوف بالطارق ابتداء، ثم زيد إبهامًا مشوبًا بتعظيم أمره بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ثم بين بأنه: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ ليحصل من ذلك مزيد تقرر للمراد بالمقسم به وهو أنه من جنس النجوم[5].

فهي النجوم العالية التي تضيء وتتلألأ في الليل المظلم، وتختفي إذا طلعت شمس النهار، والفرق بين الطارق والطرائق: أن الطارق نجم، والطرائق هي السبع السماوات فكل سماء طريقة.

وإنما سمي النجم طارقاً؛ لأنه إنما يرى بالليل ويختفي بالنهار، ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح (نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً)[6]، أي: يأتيهم فجأة بالليل[7].

ثم تفسيره بالنجم الثاقب من تفخيم شأنه وإجلال محله ما لا يخفى على ذي نظر ثاقب، ولإرادة ذلك لم يقل ابتداء والنّجم الثّاقب مع أنه أخصر وأظهر، ولله عز وجل أن يفخم شأن ما شاء من خلقه لما شاء[8].

فالطارق الذي أقسم الله به نجم ساطع في الليل، وضوؤه ثاقب فهي له مزية خاصة به دون غيره.

---

(١) الاتقان، السيوطي ٢/ ٢٤٣.
(٢) معاني القرآن، الفراء ٣/ ٢٥٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٠٨٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٣٢.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٥٨.
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب كراهة الطروق، ٣/ ١٨٢٥، رقم ١٨٤
(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٠١٧، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٤٩٠.
(٨) انظر: روح المعاني ٢٩/ ٤٢٩، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٧٣.

ثانيًا: السماء ذات الرجع:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾ [الطارق:١١] أي: المطر ويسمى رجعاً لأنه تعالى يرجعه وقتًا فوقتًا إلى العباد، ولولاه لهلكوا وهلكت مواشيهم[(١)]، فهو يرجع من السماء وترجع به السماء، فترجع به الأرض إلى البهاء والحسن.

قال ابن عباس: الرجع المطر، وعنه: هو السحاب فيه المطر، وعنه: والسماء ذات الرجع تمطر ثم تمطر، وقال قتادة: ترجع رزق العباد كل عام ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم، وقال ابن زيد: ترجع نجومها وشمسها وقمرها يأتين من هاهنا[(٢)].

ثم أقسم قسمًا ثانيًا على صحة القرآن، فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ أي: ترجع السماء بالمطر كل عام، وتنصدع الأرض للنبات، فيعيش بذلك الآدميون والبهائم، وترجع السماء أيضًا بالأقدار والشئون الإلهية كل وقت، وتنصدع الأرض عن الأموات[(٣)]، فهي أمور ترجع بالسماء ومن السماء بين حين وآخر.

وافتتح الكلام بالقسم تحقيقًا لصدق القرآن في الإخبار بالبعث وفي غير ذلك مما اشتمل عليه من الهدى، ولذلك أعيد القسم بالسماء، كما أقسم بها في أول السورة، وذكر من أحوال السماء ما له مناسبة بالمقسم عليه، وهو الغيث الذي به صلاح الناس، فإن إصلاح القرآن للناس كإصلاح المطر، وفي الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا)**[(٤)].

وفي اسم الرجع مناسبة لمعنى البعث في قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ [الطارق:٨] وفيه محسن الجناس التام، وفي مسمى الرجع وهو المطر المعاقب لمطر آخر مناسبة لمعنى الرجع البعث، فإن البعث حياة معاقبة بحياة سابقة[(٥)]، فهي سماء ذات رجع لحياة الأرض بعد موتها ليدل على حياة أخروية دائمة لا تنقطع.

وللبدء في القسم بالطارق ثم بالرجع بيان للمفسرين وهو كما يأتي:

أنه قسم على الغيث الذي به صلاح الناس والقرآن مثل الغيث في إصلاحه كما

---

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٣٧٦، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٣٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٩، تفسير ابن كثير ٤/ ٢٠١٨، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٥٦٠، تفسير المراغي ١٠/ ١١٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٠٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٠٨٥.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث النبي صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم، ٤/ ١٧٨٧، رقم ٢٢٨٢.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٦٦.

تقدم.

مجموع قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ أي: إنزال المطر، وإنبات النبات وهو إحياء الأرض بعد موتها، مناسب لأن يكون الإقسام على تحقق البعث[1].

وخلاصة ذلك : أن : قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ [الطارق:١١-١٢].

هذا هو القسم الثاني للسماء، والقسم الأول ما كان في أول السورة، فهناك قال: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾﴾ [الطارق:١-٣].

وهنا قال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ والمناسبة بين القسمين -والله أعلم : أن الأول فيه إشارة إلى الطارق الذي هو النجم، والنجم ترمى به الشياطين الذين يسترقون السمع، وفي رمي الشياطين بذلك حفظ لكتاب الله عز وجل، أما هنا فأقسم بالسماء ذات الرجع أن هذا القرآن قول فصل، فأقسم على أن القرآن قول فصل، فصار القسم الأول مناسبته : أن فيه الإشارة إلى ما يحفظ به هذا القرآن حال إنزاله، وفي القسم الثاني الإشارة إلى أن القرآن حياة، يعني يقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ الرجع هو المطر، يسمى رجعًا؛ لأنه يرجع ويتكرر، ومعلوم أن المطر به حياة الأرض. ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ الصدع هو : الانشقاق يعني التشقق بخروج النبات منه، فأقسم بالمطر الذي هو سبب خروج النبات، وبالتشقق الذي يخرج منه النبات، وكله إشارة إلى حياة الأرض بعد موتها، والقرآن به حياة القلوب بعد موتها، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

فسمى الله القرآن روحًا؛ لأنه تحيى به القلوب[2].

فهو في القسم الأول حفظ للقرآن من السماء حتى يصل إلى الأرض، وهو في القسم الثاني بيان لما يفعله القرآن من صلاح وإصلاح حين يعمل به في الأرض، والله أعلم.

ثالثًا: السماء ذات البروج:

جاء في القرآن الكريم أن للسماء بروجاً، وورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر:١٦].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان:٦١].

وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ [البروج:١].

---

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٤٩٦.

(٢) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، جزء عم، ص ١٥١.

والبروج: القصور، الواحد: برج، وبه سمّي بروج السماء لمنازلها المختصة بها، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١﴾ [البروج:١].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان:٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨].

ويصح أن يراد بها بروج في الأرض -أي: البروج المشيدة وهو الأقرب-، وأن يراد بها بروج النجم، ويكون استعمال لفظ المشيدة فيها على سبيل الاستعارة -لتكون دليلاً على معنى آخر- وثوب مبرّج: صوّرت عليه بروج، واعتبر حسنه، فقيل: تبرّجت المرأة أي: تشبّهت به في إظهار المحاسن، وقيل: ظهرت من برجها، أي: قصرها، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣].

وقوله: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ [النور:٦٠].

والبرج: سعة العين وحسنها تشبيها بالبرج في الأمرين[١][٢]، فهي منازل ظاهرة الحسن كاملة الخلق عالية المكان.

ومناسبة القسم لما أقسم عليه: أن المقسم عليه تضمن العبرة بقصة أصحاب الأخدود، ولما كانت الأخاديد خطوطًا مجعولة في الأرض مستعرة بالنار؛ أقسم على ما تضمنها بالسماء بقيد صفة من صفاتها التي يلوح فيها للناظرين في نجومها ما سماه العرب بروجًا، وهي تشبه دارات متلألئة بأنوار النجوم اللامعة الشبيهة بتلهب النار[٣].

فحينما خدوا الأخاديد موقدة بالنار، جعلوها كالسماء حينما تكون بادية البروج ليلاً يعاينها الناظرون.

ونقل ابن جرير أقوالاً ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال: معنى ذلك: والسماء ذات منازل الشمس والقمر، وذلك أن البروج جمع برج، وهي منازل تتخذ عالية عن الأرض مرتفعة[٤].

أي: ذات المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر، والكواكب المنتظمة في سيرها ، على أكمل ترتيب ونظام دال على كمال قدرة الله تعالى ورحمته، وسعة علمه وحكمته[٥].

وهذه البروج هي في التحقيق: سموت تقابلها الشمس في فلكها مدة شهر كامل من أشهر السنة الشمسية يوقتون بها الأشهر والفصول بموقع الشمس نهارًا في المكان

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١١٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٠١١، الدر المنثور، السيوطي ٥/ ٥٥٢.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٣٧.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥١٩، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٧٣٠.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٨٣.

الذي تطلع فيه نجوم تلك البروج ليلًا [1].

فأقسم سبحانه بما فيه غيب وشهود، وهو السماء ذات البروج، فإن كواكبها مشهود نورها، مرئيّ ضوؤها، معروفة حركاتها فى طلوعها وغروبها، وكذلك البروج نشاهدها وفيها غيب لا نعرفه بالحس، وهو حقيقة الكواكب وما أودع الله فيها من القوى وما فيها من عوالم لا نراها ولا ندرك حقيقتها [2].

فهو قسم عظيم من الله، ونحن لا نقسم إلا بالله، ولا نعلم من ذلك إلا ما علمنا من علم الله.

والقسم بالسماء بوصف ذات البروج يتضمن قسمًا بالأمرين معًا لتلتفت أفكار المتدبرين إلى ما في هذه المخلوقات وهذه الأحوال من دلالة على عظيم القدرة وسعة العلم الإلهي ؛ إذ خلقها على تلك المقادير المضبوطة لينتفع بها الناس في مواقيت الأشهر والفصل [3].

فهو قسم ومعجزة ونعمة ودليل كبير -لمن كان له قلب- على نعم الله وقدرته وحكمته.

رابعًا: السماء ذات الحبك:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ [الذاريات:٧-٩].

وهي ذات الطرائق ، فمن الناس من تصور منها الطرائق المحسوسة بالنجوم والمجرة، ومنهم من اعتبر ذلك بما فيه من الطرائق المعقولة المدركة بالبصيرة، وإلى ذلك أشار بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران:١٩١] [4].

يقول تعالى ذكره: والسماء ذات الخلق الحسن وعنى بقوله: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات:٧]: ذات الطرائق... وبنحو ذا قال أهل التأويل، وإن اختلفت ألفاظ قائليه فيه [5].

قال ابن عباس رضي الله عنه: ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء [6].

وهذه الحبك في معناها ومدلولها، وبيان خلقها وإعجازها سيأتي في آخر البحث بكلام أبين وأوسع.

ومناسبة هذا القسم للمقسم عليه في وصف السماء بأنها ذات حبك، أي طرائق

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٣٨.
(٢) تفسير المراغي ١٠/ ٩٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ٢٣٧.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢١٧.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٤٤، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٩٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٢، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١١٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٥٣.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٧٣.

لأن المقسم عليه: إن قولهم مختلف طرائق قددًا؛ ولذلك وصف المقسم به ليكون إيماء إلى نوع جواب القسم[1].

خامسًا: السماء وما بناها:

جاء في القرآن الكريم الحديث عن بناء السماء، ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات:٤٧]. وقوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾﴾ [النازعات:٢٧].

وقوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾﴾ [الشمس:٥].

يقال: بنيت أبني بناء وبنية وبنى... ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾﴾ [الشمس:٥].

والبنيان واحد لا جمع؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:١١٠].

وقال بعضهم: بنيان جمع بنيانة، فهو مثل: شعير وشعيرة، وتمر وتمرة، ونخل ونخلة، وهذا النحو من الجمع يصح تذكيره وتأنيثه[2].

يقول جل ثناؤه: والسماء ومن بناها، يعني: ومن خلقها، وبناؤه إياها: تصييره إياها للأرض سقفاً ، وبنحوه قال أهل التأويل[3].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٣٤٠.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١٤٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٦٠١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٥٠.

فبناء الأرض والسماء في غاية الإحكام حتى صارت السماء كأنها سقفاً ثابتاً للأرض.

فينظرون ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ قبة مستوية الأرجاء، ثابتة البناء، مزينة بالنجوم الخنس، والجوار الكنس، التي ضربت من الأفق إلى الأفق في غاية الحسن والملاحة، لا ترى فيها عيبًا، ولا فروجًا، ولا خلالاً ولا إخلالاً، يقول تعالى مبينًا لقدرته العظيمة: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أي: خلقناها وأتقناها، وجعلناها سقفًا للأرض وما عليها ﴿بِأَيْيدٍ﴾ أي: بقوة وقدرة عظيمة، ويقول: ﴿ءَأَنتُمْ﴾ أيها البشر ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ ذات الجرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر ﴿بَنَاهَا﴾ الله ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي: جرمها وصورتها، ﴿فَسَوَّاهَا﴾ بإحكام وإتقان يحير العقول، ويذهل الألباب، ويقول: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ يحتمل أن «ما» موصولة، فيكون الإقسام بالسماء وبانيها، الذي هو الله تبارك وتعالى، ويحتمل أنها مصدرية، فيكون الإقسام بالسماء وبنيانها، الذي هو غاية ما يقدر من الإحكام والإتقان والإحسان[4].

فهو بناء ثابت مزين حسن مليح لا عيب فيه ولا خلل، وبناؤه بقوة وقدرة عظيمة، فهي أعظم من خلق الناس وأكرم، ولله في

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٤٨، ٩٥٧، ١٠٧٢، ١٠٩٢.

خلقه شئون، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤].

وكلاهما متلازم[١] -موصولة أو مصدية-، فيكون الإقسام بالسماء وبانيها، الذي هو الله تبارك وتعالى، ويحتمل أنها مصدرية، فيكون الإقسام بالسماء وبنيانها، الذي هو غاية ما يقدر من الإحكام والإتقان والإحسان[٢].

ولذا جاء في السنة ما يبين قوتها وشدتها وقدرتها على حمل ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فقد روى أبو ذر رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط؛ ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم؛ لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولا تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم على أوالي الصعدات تجأرون إلى الله)[٣].

فأما حقيقة السماء فلا ندريها ،وهذا الذي نراه فوقنا متماسكاً لا يختل ولا يضطرب تتحقق فيه صفة البناء بثباته وتماسكه، أما كيف هو مبني، وما الذي يمسك أجزاءه فلا تتناثر وهو سابح في الفضاء الذي لا نعرف له أولًا ولا آخرا؛ فذلك ما لا ندريه وكل ما قيل عنه مجرد نظريات قابلة للنقض والتعديل[٤].

فبناء السماء بناء محكم متقن، جملها الله بالنجوم والكواكب التي هي بروج فيها، وجعل فيها طرائق لما فيها من مخلوقات عظيمة تسير فيها وفق نظام لطيف، ويرجع منها لما يحيي الأرض مرة بعد مرة، ليدل على أن السماء بما فيها أصل لحياة الأرض، وأن الحياة الحقيقية في السماء ولا تكون حياة في الأرض إلا بما يأتيها من السماء، فهي مصدرها في كل شيء والمصير إليها.

وفي الاستدلال بخلق السماء بهذه العظمة، دلالة عظيمة على قدرة الله العظيم في خلق الناس من العدم، كما قال عز وجل: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [الإسراء:٩٩].

بل وعلى سهولة رجوعهم بعد الموت كما قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف:٣٣].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٠٣٥.
(٢) تيسر الكريم الرحمن السعدي ص ١٠٩٢.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب لو تعلمون ما أعلم، ٤/ ٥٥٦، رقم ٢٣١٢.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩١٦.

أوصاف خاصة للسماء

للسماء أوصاف عديدة في القرآن الكريم، منها ما هو متعلق بذات السماء، ومنها أوصاف خارجة عنها، نوضحها فيما يأتي:

أولًا: أوصاف السماء الذاتية:

١. السماء بناء.

وذلك في قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢].

وقوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر:٦٤].

فبناء السماء على الأرض كهيئة القبة وهي سقف على الأرض[١]، أي: سقفًا للأرض[٢].

وإنما ذكر الله عز وجل السماء والأرض فيما عدّد عليهم من نعمه التي أنعمها عليهم، لأن منهما أقواتهم وأرزاقهم ومعايشهم، وبهما قوام دنياهم، فأعلمهم أنه الذي خلقهما وخلق جميع ما فيهما وما هم فيه من النعم[٣]، فهي بناء محكم متقن، بني بقوة، ويمسكه الله سبحانه فهو القائم عليه ليعبد وحده.

فجعل لكم الأرض فراشًا تستقرون عليها، وتنتفعون بالأبنية، والزراعة، والحراثة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من أنواع الانتفاع بها، وجعل السماء بناء لمسكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم، كالشمس، والقمر، والنجوم[٤].

٢. السماوات عددها سبع.

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر هذا العدد في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة:٢٩].

وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ [المؤمنون:١٧].

وقوله عز وجل: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:١٢].

وقوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢].

وقوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ١٩٨، تفسير ابن أبي حاتم ١/ ٧٩، الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٧٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٠٩.

(٣) جامع البيان، الطبري ١/ ١٩٨.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص٣٤.

﴿طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك:٣].

وقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥﴾ [نوح:١٥].

وجاء في التفصيل بأنها سبع سماوات مع ذكر ما فيها في حديث أنس رضي الله عنه لقصة المعراج أن رسول الله قال: (ثم عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب بي، ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية... ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم صلى الله عليه وسلم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى السدرة المنتهى...) الحديث[1].

وقد اقتنع الناس منذ القدم بأنها سبع سماوات[2].

وجاءت مضافة في القرآن الكريم بأوصاف مختلفة وبيانها كالآتي:

❁ سبع طرائق.

والطريق : السبيل الذى يطرق بالأرجل أي يضرب ،وأطباق السماء يقال لها طرائق، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ [المؤمنون:١٧][3] .

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ [المؤمنون:١٧]يعنى السموات كلّ سماء طريقة[4] .

يقول تعالى ذكره: ولقد خلقنا فوقكم أيها الناس سبع سماوات بعضهن فوق بعض؛ والعرب تسمي كل شيء فوق شيء طريقة، وإنما قيل للسماوات السبع سبع طرائق، لأن بعضهن فوق بعض، فكل سماء منهن طريقة ، وبنحو ذا قال أهل التأويل[5] .

فهي السماوات السبع كل سماء فوق سماء، وقيل لها طريقة لذلك ولأنها طرق للملائكة.

والطرائق: السموات، لأنه طورق بعضها فوق بعض كمطارقة النعل، وكل شيء فوقه مثله فهو طريقة: أو لأنها طرق الملائكة ومتقلباتهم[6] .

❁ سبع طباق.

وهذا في قوله عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله، ١/ ١٤٥، رقم ٢٥٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٣٠١.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٠٣.
(٤) معاني القرآن، الفراء ٢/ ٢٣٢.
(٥) جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٠٦.
(٦) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٧٩.

﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾ [الملك:٣].

وقوله عز وجل: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥﴾ [نوح:١٥]، أي: بعضها فوق بعض، والطباق: مصدر من قولهم: طابقت مطابقة وطباقا. وإنما عني بذلك: كيف خلق الله سبع سموات، سماء فوق سماء مطابقة[١]، أي: واحدة فوق واحدة... أي: فاوت بينهما في الاستنارة فجعل كلاً منهما أنموذجاً على حدة[٢].

وقد تضافرت الأدلة على أن السماوات بعضها فوق بعض بمسافات ولكل سعتها.

* سبع شداد.

كما في قوله عز وجل: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ١٢﴾ [النبأ:١٢].

يعني السموات السبع في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها وتزيينها بالكواكب الثوابت والسيارات[٣].

وإنما تشير هذه الآية إلى أن هذه السبع الشداد متينة التكوين، قوية البناء، مشدودة بقوة تمنعها من التفكك والانثناء، وهو ما نراه ونعلمه من طبيعة الأفلاك والأجرام فيما نطلق عليه لفظ السماء فيدركه كل إنسان... كما تشير إلى أن بناء هذه السبع الشداد متناسق مع عالم الأرض والإنسان[٤].

٣. السماء سقف محفوظ.

وجاء ذلك في قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ٣٢﴾ [الأنبياء:٣٢].

والسقف طول في انحناء تشبيهاً بالسقف[٥]، أي عالياً محروساً أن ينال، أو محفوظاً من التغير بالمؤثرات، مهما تطاول الزمان[٦]، فكان محفوظًا من أن يقع ويسقط على الأرض، دليله قوله تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ [الحج:٦٥]. وقيل: محفوظًا بالنجوم من الشياطين، دليله قوله تعالى: ﴿وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ١٧﴾ [الحجر:١٧]

وقيل: محفوظاً من الهدم والنقض، وعن أن يبلغه أحد بحيلة، وقيل: محفوظاً فلا يحتاج إلى عماد، وقال مجاهد: مرفوعاً، وقيل: محفوظاً من الشرك والمعاصي[٧].

(١) جامع البيان ١٢/ ٢٥٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٩٤٩.
(٣) المصدر السابق ٤/ ١٩٨٢.
وانظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٦٨٥، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٤٣٢، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٨٣.
(٤) في ظلال القرآن ٦/ ٣٨٠٦.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤١٥.
(٦) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٢٠١.
(٧) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٢، الكشاف، الزمخشري ٣/ ١١٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٢١٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٦٠٩.

٤ . السماء واسعة.

وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾ [الذاريات:٤٧].

والسعة تقال في الأمكنة وفي الحال وفي الفعل كالقدرة والجود ونحو ذلك... وقوله ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ فإشارة إلى نحو قوله ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٥٠].

ووسع الشيء اتسع والوسع الجدة والطاقة، ويقال ينفق على قدر وسعه، وأوسع فلان إذا كان له الغنى، وصار ذا سعة، وفرس وساع الخطو شديد العدو[(١)]، والوسع المراد سعة الباني سبحانه ووسع المبني.

لذو سعة بخلقها وخلق ما شئنا أن نخلقه وقدرة عليه...فأوسعها جلّ جلاله[(٢)]، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لأرجائها وأنحائها، وإنا لموسعون أيضاً على عبادنا، بالرزق الذي ما ترك الله دابة في مهامه القفار، ولجج البحار، وأقطار العالم العلوي والسفلي، إلا وأوصل إليها من الرزق، ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يغنيها، فسبحان من عم بجوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي وسعت رحمته جميع البريات[(٣)].

٥ . السماء كانت دخانًا.

وورد ذلك في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فصلت:١١].

والدخان كالعثان المستصحب للهيب، قال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾، أي: هي مثل الدخان إشارة إلى أنه لا تماسك لها[(٤)].

وكان ذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس، فجعلها سماء واحدة، ثم فتقها فجعلها سبع سموات[(٥)].

٦ . السماء مرفوعة بغير عمد.

وجاء هذا في قوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢﴾ [الرعد:٢].

وقوله عز وجل: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠﴾ [لقمان:١٠].

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٨٠.
(٢) جامع البيان، الطبري ١١/ ٩٢.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٥٧. وانظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٤٠٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٧٨، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١٢١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٦.
(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣١٠.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٦٥٢، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٦٦٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٧٧ .

يقال عمدت الشيء إذا أسندته، وعمدت الحائط مثله، والعمود خشب تعتمد عليه الخيمة وجمعه عمد وعمد... والعمدة كل ما يعتمد عليه من مال وغيره وجمعها عمد، وقرئ (في عمد) والعميد السيد الذى يعمده الناس[1].

فنفى عنها ما تعتمد عليه لكمال البناء، وحكمة من بناها وقدرته وقوته على ذلك.

فهي مرفوعة بغير عمد نراها، كما قال ربنا جل ثناؤه، ولا خبر بغير ذلك، ولا حجة يجب التسليم لها بقول سواه[2].

ويخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعداً لا تنال ولا تدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية...

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ روي عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد أنهم قالوا: لها عمد ولكن لا ترى، وقال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة، يعني بلا عمد، وكذا روي عن قتادة، وهذا هو اللائق بالسياق.

والظاهر من قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج:٦٥] فعلى هذا يكون قوله: ترونها تأكيداً لنفي ذلك، أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة[3]، فليس لها عمد، ولو كان لها عمد لرئيت، وإنما استقرت واستمسكت، بقدرة الله تعالى[4].

والحقيقة الواردة في الآيتين في «الرعد» و «لقمان» حول السماء هو ذكر العمد، وذكر المفسرون تأويلين للآيات:

فمنهم من أثبت أن للسماوات أعمدة إلا أنها لا ترى، وجعل جملة ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفة لـ ﴿عَمَدٍ﴾ والضمير يعود إلى عمد.

ومنهم من ذهب إلى أن ليس للسماوات عمد أصلًا، ويكون معنى الآية: الله الذي رفع السماوات كما ترونها، بغير عمد، وذلك بجعل جملة ﴿تَرَوْنَهَا﴾ حالاً من السماوات ويعود الضمير إلى السماوات.

ويميل علماء الفلك المعاصرون إلى التأويل الأول فيقولون: إن الأجرام السماوية كلها قد بناها الخالق سبحانه وتعالى وجعل كل جرم فيه بمثابة لبنة من بناء شامخ، ورفع هذه الأجرام كلها بعضها فوق بعض

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٨٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٢٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩٧٢.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٧٧.

بقوى هي نوع القوة الطاردة المركزية، كما ربطها في نفس الوقت برباط الجاذبية العالية، والجاذبية تتعادل مع القوى الطاردة المركزية الناجمة عن الدوران في مسارات شبه دائرية أو قطاعات ناقصة، وهي بمثابة الأعمدة المقامة بالفعل.

ورغم أننا لا نبصرها بأعيننا إلا أن ذلك لا يعني أن تلك الأعمدة غير موجودة بحال من الأحوال، فنحن نستطيع أن نتصورها في مجال كل جسم مادي وربما إذا منح شخص منا حاسة أخرى زيادة على ما لدينا من حواس يستطيع ذلك الشخص أن يرى تلك الأعمدة أو يحسبها تماماً كما ندرك بحواسنا العادية أيّ جسم مادي عادي[1].

والذي يظهر -والله أعلم- أن قول ابن كثير أنها بلا عمد هو الأقرب لدلالته على كمال العظمة، وكمال القدرة.

فلو كانت بعمد فهذا من إتقان صنع الله، ولو كانت بغير عمد فهو أقوى لتوافر الأدلة على كمال قدرة الله، والله أعلم بالصواب.

٧. السماء لها أبواب.

ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأعراف:٤٠].

وقوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ [القمر:١١].

وقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾﴾ [النبأ:١٩].

وفي السماء قولان:

أحدهما: أنها السماء المعروفة، وهو المشهور.

والثاني: أنّ المعنى: لا تفتح لهم أبواب الجنة ولا يدخلونها، لأن الجنة في السماء، ذكره الزجاج[2].

وهو شامل للقولين فلا تفتح أبواب السماء لأعمالهم وأرواحهم ولا تفتح لهم أبواب الجنة.

وفي الآية الأولى ثلاث قراءات سبعيات(لا يفتح لهم أبواب السماء) وهي قراءة حمزة، والكسائي.(لا تفتح لهم أبواب السماء) وهي قراءة أبي عمرو . (لا تفتّح لهم أبواب السّماء) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وعاصم، وابن عامر[3] وهذه القراءات الثلاث معناها واحد... وفي عدم فتح أبواب السماء لهم أقوال متقاربة معروفة، لا يكذب بعضها بعضًا، وهي كلها حق، قال بعض العلماء: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ فيرفع لهم منها عملٌ صالح؛ لأن أعمالهم مردودة إلى

(١) مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ١٧٢.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٥٦.

(٣) انظر: إتحاف فضلاء البشر، الدمياطي ص ٢٢٤.

الله، كما قال الله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠].

والكفار ليس عندهم عملٌ صالح يرفع كلمهم، وليس عندهم كلمٌ طيب، قالوا: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ لترفع أعمالهم الصالحة إلى الله، وقال بعض العلماء: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ لاستجابة دعواتهم؛ لأن دعواتهم مردودة ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد:١٤].

وقال بعض العلماء: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: لا تنزل إليهم البركات والرحمات من الله (جل وعلا) نازلة مفتحة لها أبواب السماء لكفرهم، وكل هذه الأقوال حق، وذهب جماهير من المفسرين أن معنى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ﴾ لأرواحهم عند الموت ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ والآية تشمل هذا كله[(١)].

٨. السماء قائمة بأمر الله.

وقد ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم:٢٥].

فقوام السماء بما فيها وما هو من شأنها وكذلك الأرض بيد الله، ولذا قال عن نفسه ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾.

ومن آياته العظيمة :أن قامت السماوات والأرض واستقرتا وثبتتا بأمره فلم تتزلزلا ولم تسقط السماء على الأرض، فقدرته العظيمة التي بها أمسك السماوات والأرض أن تزولا يقدر بها أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض إذا هم يخرجون[(٢)]، فقيام السماء والأرض بأمره، أي: هي قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيره إياها[(٣)].

٩. السماء والأرض خلقتا في ستة أيام.

وقد ذكر ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤][(٤)].

يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة -وفيه اجتمع الخلق

(١) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٣/ ٢٤٢.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٩٠، محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٥٩٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٥١.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٤٣٤.

(٤) وورد أن الله خلقها «في ستة أيام» في سورة يونس الآية ٣، وسورة هود الآية ٧، وسورة الفرقان الآية ٥٩، وسورة السجدة الآية ٤، وسورة ق الآية ٣٨، و سورة الحديد الآية ٤.

كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام، واختلفوا في هذه الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان ؟ أو كل يوم كألف سنة، كما نص على ذلك مجاهد، والإمام أحمد بن حنبل، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس؟ فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت، وهو القطع[1].

فهو سبحانه خلقهما والأرض في ستة أيام مع كل ما فيهما، ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت:١٢].

وكل هذا الأمر العظيم لحكمة يعلمها وهو القادر ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]؛ ولذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف:٣٣]

واليوم: من طلوع الشمس إلى غروبها، قيل: هذه الأيام من أيام الدنيا وقيل: من أيام الآخرة، وهذه الأيام الست أولها: الأحد، وآخرها: الجمعة، وهو سبحانه قادر على خلقها في لحظة واحدة، يقول لها كوني فتكون، ولكنه أراد أن يعلم عباده الرفق والتأني في الأمور، أو خلقها في ستة أيام لكون شيء عنده أجلاً، وفي آية أخرى : ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب[2].

ثانيًا: الأوصاف الخارجية للسماء:

وردت في القرآن الكريم أوصاف للسماء لكنها لا تتعلق بذاتها بل هي خارجة عنها وهي كالآتي:

١ . للسماء بروج.

والبروج: القصور، الواحد: برج، وبه سمي بروج السماء لمنازلها المختصة بها.

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ [البروج:١].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان:٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨] فيصح أن يراد بها بروج في الأرض، وأن يراد بها بروج النجم[3].

والمراد بها: السماء الدنيا ففيها منازل للشمس والقمر، وهي كواكب ينزلها الشمس والقمر، أي: وزينا السماء بالكواكب لمن نظر إليها وأبصرها، وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: هي قصور في السماء[4]، لأن البروج والأبراج معروفة بعلوها وإحكامها.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٧٣٥.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٩٧.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١١٥.
(٤) جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٠٤.

٢. الكواكب زينة للسماء.

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾ [الصافات:٦].

وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [الانفطار:١-٢].

والكواكب: هي النجوم البادية، ولا يقال: لها كواكب إلا إذا بدت، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا﴾ [الأنعام:٧٦] وقال: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [الصافات:٦]. ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [الانفطار:٢]

ويقال: ذهبوا تحت كل كوكب: إذا تفرقوا، وكوكب العسكر: ما يلمع فيها من الحديد[١].

يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض ﴿بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾، قرئ بالإضافة وبالبدل[٢]، وكلاهما بمعنى واحد، فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوءها جرم السماء الشفاف، فتضيء لأهل الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾[٣][الملك:٥].

والمراد التزيين في رأي العين، فإن الكواكب تبدو للناظرين كأنها جواهر متلألئة[٤]، وأيًّا مّا كان فإقحام لفظ زينة تأكيد، والباء للسببية، أي زيّنا السماء بسبب زينة الكواكب فكأنه قيل: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ تزييناً فكان ﴿بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ في قوّة: بالكواكب تزييناً، فقوله: ﴿بِزِينَةٍ﴾ مصدر مؤكد لفعل زيّنا في المعنى ولكن حوّل التعليق فجعل «زينة» هو المتعلق ب «زيّنا» ليفيد معنى التعليل ومعنى الإضافة في تركيب واحد على طريقة الإيجاز، لأنه قد علم أن الكواكب زينة من تعليقه بفعل «زيّنا» من غير حاجة إلى إعادة «زينة» لولا ما قصد من معنى التعليل والتوكيد[٥]، فكما أن النجوم أمنة للسماء، فالكواكب زينة حين تبدوا للناظرين.

٣. للسماء سكان.

فالسماء جعلها الله عز وجل ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾ [الصافات:٧].

أي: وحفظنا السماء من كل شيطان متمرد عات يرمون بالشهب، لا يسمّعون إلى الملإ الأعلى يعني: إلى الملائكة والكتبة؛ لأنهم سكان السماء وذلك أن الشياطين يصعدون إلى قرب السماء فربما سمعوا كلام الملائكة؛ فيخبرون به أولياءهم الإنس ويوهمون بذلك أنهم يعلمون الغيب فمنعهم الله من ذلك بهذه الشهب[٦].

وذكر الطبري عن قتادة، قال: «بلغنا أن

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٩٥.
(٢) انظر: إتحاف فضلاء البشر، الدمياطي ص٣٦٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٥٧٣.
(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٨١.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٨٨.
(٦) لباب التأويل، الخازن ٤/ ١٥.

جبرئيل عليه السلام لما أصبح نشر جناحه، فانتسف به أرضهم بما فيها من قصورها، ودوابها، وحجارتها، وشجرها وجميع ما فيها، فضمها في جناحه، فحواها وطواها في جوف جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا، حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض منكوسة، دمدم بعضها على بعض، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجيل»[(١)].

٤ . للسماء حرس يحرسونها.

وذلك في قوله تعالى حاكياً عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ [الجن:٨].

والحرس، واحدهم حارس، وهو الرقيب، شديداً: أي قوياً[(٢)]، فلما أخبر الله أن الملائكة تنزل بالوحي من السماء، بين أنه حرس السماء عن استراق السمع بعد أن زينها بالكواكب[(٣)]، ليخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه القرآن، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً، وحفظت من سائر أرجائها، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك؛ لئلا يسترقوا شيئاً من القرآن، فيلقوه على ألسنة الكهنة، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق، وهذا من لطف الله بخلقه ورحمته بعباده، وحفظه لكتابه العزيز.

ولهذا قال الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ [الجن:٨] أي: من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً مرصداً له، لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يمحقه ويهلكه[(٤)].

ونقل الطبري عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨﴾ [الجن:٨] حتى بلغ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن:٩].

فلما وجدوا ذلك رجعوا إلى إبليس، فقالوا: منع منا السمع، فقال لهم: إن السماء لم تحرس قط إلا على أحد أمرين: إما لعذاب يريد الله أن ينزله على أهل الأرض بغتة، وإما نبي مرشد مصلح[(٥)].

فحراس السماء هم الملائكة والنجوم تحرسها وترسل الشهب على من يسترق السمع.

ثالثًا: أمور أسندت للسماء:

هناك أمور وأفعال ذكرت مسندة إلى السماء، وكأنها هي من قامت بها وهي

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٩٦.
(٢) تفسير المراغي ١٠/ ٩٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٤٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٩٥٣.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٦٦.

كالآتي:

١ . إنزال الماء.

ذكر الله عز وجل امتنانه بإنزال الماء من السماء في مواضع كثيرة، فالله (جل وعلا) ينزل الماء من السماء؛ لأن إنزال الماء من السماء فيه غرائب وعجائب، يجب على الإنسان تأملها[١].

وأعظم دليل على إنزال الماء من السماء، قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾ [هود:٤٤] ومعلوم أن المعنى: أقلعي عن إنزال الماء[٢].

وذكر جل وعلا، في أول سورة الجاثية ستة براهين من براهين التوحيد الدالة على عظمته وجلاله، وكمال قدرته، وأنه المستحق للعبادة وحده تعالى ، وجاءت موضحة في آيات كثيرة جدًا كما هو معلوم ، الخامس منها هو: إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض به وإنبات الرزق فيها المذكور في قوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية:٥].

فقد جاء موضحًا أيضًا في آيات كثيرة من كتاب الله كقوله تعالى في البقرة: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ إلى قوله: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ وهو المطر النازل من السحاب، ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فأظهرت من أنواع الأقوات، وأصناف النبات، ما هو من ضرورات الخلائق، التي لا يعيشون بدونها... ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي: نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة، ما هو دليل على قدرته وعظمته، ووحدانيته وسلطانه العظيم، وسخرها للناس، ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع، فمنها: ما يأكلون من لحمه، ويشربون من دره، ومنها: ما يركبون، ومنها: ما هو ساع في مصالحهم وحراستهم، ومنها: ما يعتبر به[٣].

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس:٢٤-٣٢].

وإيضاح هذا البرهان باختصار : أن قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ وهذا أمر من الله تعالى لكل إنسان مكلف أن ينظر ويتأمل في طعامه كالخبز الذي يأكله، ويعيش به من

(١) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٢/ ١٨، والآيات في هذا تصل إلى قرابة ٢٠ آية.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٦٠٥.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٧٤.

خلق الماء الذي كان سببًا لنباته[1].

وإنما تعلق النظر بالطعام مع أن الاستدلال هو بأحوال تكوين الطعام، إجراءً للكلام على الإيجاز ويبينه ما في الجمل بعده من قوله: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ إلى آخرها.

فالتقدير: فلينظر الإنسان إلى خلق طعامه وتهيئة الماء لإنمائه وشق الأرض وإنباته وإلى انتفاعه به وانتفاع مواشيه في بقاء حياتهم[2].

٢. إنزال البركات من السماء.

والبركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، قال تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

وسمي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة[3].

قرأ هذا الحرف عامة القراء غير ابن عامر: (لفتحنا) بالتخفيف، وقرأه ابن عامر: (لفتّحنا عليهم) بالتشديد[4]، والبركات: الخيرات، وبركات السماء: ما ينزل منها من الأمطار[5]؛ لأرسل عليهم السّماء مدرارًا ولأنبت لهم من الأرض من رزقي ما يغنيهم[6]، كان ذلك دليلًا على حلول البركة، وليست العبرة بالنعمة ؛ إنما العبرة بالبركة في النعمة، ولذا لم يقل أضعفنا لهم النعمة ولكنه قال: باركنا لهم فيما خوّلنا[7]، ولا ينال ذلك إلا بالتقوى.

فلما ذكر تعالى أن المكذبين للرسل يبتلون بالضراء موعظة وإنذاراً، وبالسراء استدراجاً ومكراً، ذكر أن أهل القرى، لو آمنوا بقلوبهم إيماناً صادقاً صدقته الأعمال، واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً بترك جميع ما حرم الله، لفتح عليهم بركات السماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدراراً، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم، في أخصب عيش وأغزر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كد ولا نصب[8].

٣. إنزال الرجز.

وأصل الرجز: الاضطراب... وقوله: ﴿عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [سبأ:٥].

فالرجز هاهنا كالزلزلة، وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [العنكبوت:٣٤][9]، والرجز العذاب[10].

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ١٨٢.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٣٠.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ١١٩.
(٤) انظر: إتحاف فضلاء البشر، الدمياطي ٢٢٧.
(٥) العذب النمير، الشنقيطي ٣/ ٢٩٦.
(٦) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٢٧.
(٧) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٥٥٣.
(٨) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٣٦.
(٩) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٤١.
(١٠) جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٣٨.

وهو عذاب وغضب وموت فجأة وأوجاع وأسقام عذب الله بها بني إسرائيل لما بدلوا غير ما قيل لهم.

والرجز: العذاب، ويحتمل أن المراد به: الطاعون، كما قاله كثير من المفسرين، ويحتمل أن يراد به ما تقدم من الآيات: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، فإنها رجز وعذاب[1].

ويمكن أن يقال: إن إضافته للسماء؛ لبيان أنه مما لا يمكن لأحد دفعه أو الهروب من وقوعه[2].

٤ ـ المائدة التي أنزلت من السماء.

والميد: اضطراب الشيء العظيم كاضطراب الأرض ويقال: مادني يميدني، أي: أطعمني، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة:١١٤].

قيل: استدعوا طعاماً، وقيل: استدعوا علماً، وسماه مائدة من حيث إن العلم غذاء القلوب كما أن الطعام غذاء الأبدان[3].

وهذا الخبر يحكيه الله تعالى عن عيسى عليه السلام في طلب قومه منه مائدة من السماء.

واختلفت القراء[4] في قراءة قوله: (يستطيع ربك)، فقرأ ذلك جماعة من الصحابة والتابعين: (هل تستطيع) بالتاء، (ربك) بالنصب، بمعنى: هل تستطيع أن تسأل ربك، وهل تستطيع أن تدعو ربك، أو هل تستطيع وترى أن تدعوه؟ وقالوا: لم يكن الحواريون شاكين أن الله تعالى ذكره قادر أن ينزل عليهم ذلك، وإنما قالوا لعيسى: هل تستطيع أنت ذلك؟[5].

والقصة كاملة:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة:١١٢].

أي: مائدة فيها طعام، وهذا ليس منهم عن شك في قدرة الله، واستطاعته على ذلك. وإنما ذلك من باب العرض والأدب منهم.

ولما كان سؤال آيات الاقتراح منافياً للانقياد للحق، وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين ربما أوهم ذلك، وعظهم عيسى عليه السلام فقال: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن المؤمن يحمله ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى، وأن ينقاد لأمر الله، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها شيئًا.

فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى، وإنما لهم مقاصد صالحة،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٤١.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٣٤٥.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٨٣.
(٤) انظر: إتحاف فضلاء البشر، الدمياطي ص ٣٠٤.
(٥) جامع البيان، الطبري ٥/ ١٢٩.

ولأجل الحاجة إلى ذلك فـ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ وهذا دليل على أنهم محتاجون لها، ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ [المائدة:١١٣] ، بالإيمان حين نرى الآيات العيانية، فيكون الإيمان عين اليقين، كما كان قبل ذلك علم اليقين، كما سأل الخليل عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠].

فالعبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت، ولهذا قال: ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أي: نعلم صدق ما جئت به، أنه حق وصدق، ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة:١١٣].

فتكون مصلحة لمن بعدنا، نشهدها لك، فتقوم الحجة، ويحصل زيادة البرهان بذلك.

فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك، وعلم مقصودهم، أجابهم إلى طلبهم في ذلك، فقال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ﴾ [المائدة:١١٤].

أي: يكون وقت نزولها عيداً وموسماً، يتذكر به هذه الآية العظيمة، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات وتكرر السنين.

كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكرًا لآياته، ومنبهاً على سنن المرسلين وطرقهم القويمة، وفضله وإحسانه عليهم. ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي: اجعلها لنا رزقًا، فسأل عيسى عليه السلام نزولها وأن تكون لهاتين المصلحتين، مصلحة الدين بأن تكون آية باقية، ومصلحة الدنيا، وهي أن تكون رزقًا.

قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة:١١٥].

لأنه شاهد الآية الباهرة وكفر عنادًا وظلمًا، فاستحق العذاب الأليم والعقاب الشديد، واعلم أن الله تعالى وعد أنه سينزلها، وتوعدهم -إن كفروا- بهذا الوعيد، ولم يذكر أنه أنزلها، فيحتمل أنه لم ينزلها بسبب أنهم لم يختاروا ذلك، ويدل على ذلك، أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصارى، ولا له وجود، ويحتمل أنها نزلت كما وعد الله[1] ، والله لا يخلف الميعاد، ويكون عدم ذكرها في الأناجيل التي بأيديهم من الحظ الذي ذكروا به فنسوه.

أو أنه لم يذكر في الإنجيل أصلاً وإنما ذلك كان متوارثاً بينهم، ينقله الخلف عن السلف، فاكتفى الله بذلك عن ذكره في الإنجيل، ويدل على هذا المعنى قوله:

(١) ظاهر القرآن يدل على أنه أنزلها استجابة لدعاء عيسى عليه السلام ولأنه طلب أن تكون آية ورزقاً والله ذو الفضل العظيم والله أعلم، والأصل أن الله أنزلها لكل ما جاء من رغبتهم في ذلك ودعاء نبيهم لذلك تلبية لرغبتهم.

﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ والله أعلم بحقيقة الحال(١).

فهذه قصة المائدة، وإليها تنسب السورة فيقال: «سورة المائدة»(٢)، وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى، عليه السلام، لما أجاب دعاءه بنزولها، فأنزلها الله آية ودلالة معجزة باهرة وحجة قاطعة، وقد ذكر بعض الأئمة أن قصة المائدة ليست مذكورة في الإنجيل، ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين، فالله أعلم(٣).

وهذه المائدة نزلت من السماء جاهزة بكل ما فيها معجزة من الله لرسوله وإجابة لدعائه.

ولعلنا لا نستغرب عندما نجد القرآن الكريم يصرف أنظار قريش المطالبين بالآيات المادية وغيرها من المقترحات ويلفت أنظارهم إلى ما هو الأجدى والأليق والأرحم ، وكان في هذا الصرف رحمة بهم، فقد جرت سنّة الله سبحانه وتعالى في رسالاته إلى الناس أن القوم إن أجيبوا إلى مطالبهم من المعجزات المادية الباهرة القاهرة ثم نكصوا على أعقابهم فكفروا بعد ذلك، جرت سنّة الله أن يكون العذاب المستأصل حظّهم في الدنيا والعذاب المهين مصيرهم في الأخرى، وهذا ما يتجلى في الآيات التي تحكي مصائر الأمم والشعوب(٤).

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٧٥.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٢٩٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٤٥.

رابعًا: أحوال السماء عند قيام الساعة:

١ . تشققها بالغمام.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان:٢٥].

وقوله: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمن:٣٧].

وقوله: ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحاقة:١٦].

وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ [الانشقاق:١].

والتشقق: التفتح، قرأ عاصم والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي وأبو عمرو، تشقق بتخفيف الشين، وأصله تتشقق، وقرأ الباقون، بتشديد الشين على الإدغام(٥).

واختار القراءة الأولى أبو عبيد، واختار الثانية أبو حاتم، ومعنى تشققها بالغمام: أنها تتشقق عن الغمام، قال أبو علي الفارسي: تتشقق السماء وعليها غمام... وقيل: إن السماء تتشقق بالغمام الذي بينها وبين الناس، والمعنى: أنه يتشقق السحاب بتشقق

(٤) مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ص٣١-٣٥.
(٥) انظر: إتحاف فضلاء البشر، الدمياطي ص٣٢٨.

السماء، وقيل: إنها تتشقق لنزول الملائكة كما قال سبحانه بعد هذا: ونزّل الملائكة تنزيلاً ، وقيل: إن الباء في بالغمام سببية، أي: بسبب الغمام، يعني بسبب طلوعه منها كأنه الذي تتشقق به السماء، وقيل: إن الباء متعلقة بمحذوف، أي: ملتبسة بالغمام(١).

وإذا جاء يوم القيامة تصدعت السموات واختلت نظمها، وتبعثرت أجرامها وكواكبها عن مداراتها، واحمر لونها وأذيبت حتى صارت كأنها الزيت ونحوه مما يدّهن به(٢).

وأما ما يصنع بالسماء، فإنها تضطرب وتمور وتتشقق ويتغير لونها، وتهي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعجها، وكرب جسيم هائل أوهاها وأضعفها(٣).

فيخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظيمة، فمنها : انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام، وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الأبصار، ونزول ملائكة السموات يومئذ، فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر، ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء(٤).

ولما علم الله أن قلوب أوليائه الذين يعقلون هذه الأوصاف عنه، وتتراءى لهم تلك الأهوال لا تتمالك؛ لطف بهم فنسب (الملك) إلى أعم اسم في الرحمة فقال (الرحمن) ليلاقي هذا الاسم تلك القلوب التي يحل بها الهول فيمازج تلك الأهوال، ولو كان بدله اسماً آخر من عزيز وجبار لتفطرت القلوب(٥).

٢. طيّها وانفطارها وانشقاقها.

أولًا: الطّيّ: ضد النشر: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء:١٠٤].

وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر:٦٧]

طويت الشيء طيًّا، وذلك كطي الدرج وعلى ذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾(٦).

ونقل الطبري أقوالًا ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: السجل في هذا الموضع الصحيفة، لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب، ولا

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٧٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٨، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٩٦.
(٢) تفسير المراغي ٩/ ١٢٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٤٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٣٣٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٨٠.
(٥) انظر: البرهان، الزركشي ١/ ٢٩٠.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٢٣.

يعرف لنبينا صلى الله عليه وسلم كاتب كان اسمه السجل، ولا في الملائكة ملك ذلك اسمه. فإن قال قائل: وكيف تطوى الصحيفة بالكتاب إن كان السجل صحيفة؟ قيل: ليس المعنى كذلك، وإنما معناه: يوم نطوي السماء كطي السجل على ما فيه من الكتاب، ثم جعل نطوي مصدراً، فقيل: (كطي السجل للكتاب) واللام في قوله (للكتاب) بمعنى: على، واختلف القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء الأمصار، سوى أبي جعفر القارئ: (يوم نطوي السماء) بالنون. وقرأ ذلك أبو جعفر: (يوم تطوى السماء) بالتاء وضمها، على وجه ما لم يسم فاعله ، والصواب من القراءة في ذلك ما عليه قراء الأمصار، بالنون، لإجماع الحجة من القراء عليه، وشذوذ ما خالفه، وأما السجل، فإنه في قراءة جميعهم بتشديد اللام، وأما الكتاب، فإن قراء أهل المدينة، وبعض أهل الكوفة والبصرة قرءوه بالتوحيد: (كطي السجل للكتاب)، وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة: (للكتب) على الجمع، وأولى القراءتين عندنا في ذلك بالصواب: قراءة من قرأه على التوحيد للكتاب لما ذكرنا من معناه، فإن المراد منه: كطي السجل على ما فيه مكتوب[(١)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٩٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٢٣٣.

فيخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماوات على عظمها واتساعها كما يطوي الكاتب للسجل أي: الورقة المكتوب فيها، فتنتثر نجومها، ويكور شمسها وقمرها، وتزول عن أماكنها[(٢)].

فالسماوات على سعتها وعظمها مطويات بيمينه فكأنها بعد أن كانت عظيمة تصبح لا شيء ؛ لأنها سوف تتبدل غير ما كانت.

٣. الانفطار.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾ [الانفطار:١].

وأصل الفطر: الشق طولاً، يقال: فطر فلان كذا فطرًا، وأفطر هو فطورًا، وانفطر انفطارًا.

قال تعالى: ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك:٣].

أي: اختلال ووهي فيه، وذلك قد يكون على سبيل الفساد، وقد يكون على سبيل الصلاح قال: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨﴾ [المزمل:١٨][(٣)].

يقول تعالى ذكره ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾: أي: السماء مثقلة بذلك اليوم متصدعة متشققة، وانفطرت: انشقت[(٤)].

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٣١.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٦٤٠.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري١٢/ ٢٩١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٠٠٠.

أي: إذا انشقت السماء وانفطرت، وانتثرت نجومها، وزال جمالها، أي: انفطرت وتمايز بعضها من بعض، وانتثرت نجومها، وخسف بشمسها وقمرها[(١)].

فهذا من الأحداث والأهوال التي ستكون عند قيام الساعة فيما يختص بالسماء.

والظاهر أن هذا الانفطار هو المعبر عنه بالانشقاق أيضًا في سورة الانشقاق[(٢)].

٣. الانشقاق.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ [الانشقاق:١].

والشق: الخرم الواقع في الشيء يقال: شققته بنصفين قال تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ۝٢٦﴾ [عبس:٢٦].

وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗا﴾ [ق:٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [الحاقة:١٦].

وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾[(٣)].

فهو شق غائر ليفصل بين الشيء بعضه عن بعض، ويحمل معنى الانفطار كذلك.

يقول تعالى ذكره: إذا السماء تصدعت وتقطعت في يوم القيامة فكانت أبوابًا[(٤)].

وقد ذكر هذا الانشقاق في مواضع أخرى، حيث قال عز وجل: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾ [الرحمن:٣٧].

وقال عز وجل: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ۝١٦﴾ [الحاقة:١٦].

وقال عز وجل: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ [الانشقاق:١].

فانشقاق السماء حقيقة من حقائق ذلك اليوم العصيب، أما المقصود بانشقاق السماء على وجه التحديد فيصعب القول به، كما يصعب القول عن هيئة الانشقاق التي تكون، وكل ما يستقر في الحس هو مشهد التغير العنيف في هيئة الكون المنظور، وانتهاء نظامه هذا المعهود، وانفراط عقده، الذي يمسك به في هذا النظام الدقيق[(٥)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٨١.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٧١.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٥٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٧٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٠٠٧.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨٤٦.

السماء وضرب الأمثال

وفائدة الأمثال: أنها تصور المعاني كتصور الأشخاص؛ فإن الأشخاص والأعيان أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس، بخلاف المعاني المعقولة فإنها مجردة عن الحس؛ ولذلك دقت ولا ينتظم مقصود التشبيه والتمثيل إلا بأن يكون المثل المضروب مجربًا مسلمًا عند السامع، وفي ضرب الأمثال من تقرير المقصود ما لا يخفى إذ الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والشاهد بالغائب(١).

أولًا: المستحيل أو الشعور بالضيق:

وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]

والصعود: الذهاب في المكان العالي، والصعود والحدور لمكان الصعود والانحدار، وهما بالذات واحد، وإنما يختلفان بحسب الاعتبار بمن يمر فيهما، فمتى كان المار صاعدًا يقال لمكانه: صعود، وإذا كان منحدراً يقال لمكانه: حدور، والصعد والصعيد والصعود في الأصل واحد، لكن الصعود والصعد يقال للعقبة، ويستعار لكل شاق ، وقوله: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:١٢٥] ، أي: يتصعد. وأما الإصعاد فقد قيل: هو الإبعاد في الأرض، سواء كان ذلك في صعود أو حدور، وأصله من الصعود، وهو الذهاب إلى الأمكنة المرتفعة(٢).

وكلما ارتفع عن المكان المنخفض شعر بالضيق واشتدت عليه عملية التنفس.

وهذا مثل من الله تعالى ذكره، ضربه لقلب هذا الكافر في شدة تضييقه إياه عن وصوله إليه، مثل امتناعه من الصعود إلى السماء وعجزه عنه؛ لأن ذلك ليس في وسعه(٣).

وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رجلًا من الأعراب من أهل البادية من مدلج: ما الحرجة؟ قال هي الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية، ولا وحشية، ولا شيء. فقال عمر ، رضي الله عنه: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير(٤).

فقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: يتكلف الصعود في جهة السماء، وطبعه يهبط إلى الأرض، فشبه للمبالغة في ضيق صدره، بمن يزاول أمراً

(١) انظر: البرهان، الزركشي ١/ ٣٠١، الاتقان، السيوطي ٢/ ٣٤٨.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٨٣، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٢٥١.
(٣) جامع البيان، الطبري ٥/ ٣٣٩ .
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٩٦.

غير ممكن، لأن صعود السماء مثل فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة، وتضيق عنه المقدرة، وقيل: معناه كأنما يتصاعد إلى السماء نبوًّا عن الحق، وتباعداً في الهرب منه[1].

فمن يقدر الله له الضلال -وفق سنته الجارية من إضلال من يرغب عن الهدى ويغلق فطرته عنه- ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، فهو مغلق مطموس يجد العسر والمشقة في قبوله، ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، وهي حالة نفسية تجسم في حالة حسية، من ضيق النفس، وكربة الصدر، والرهق المضني في التصعد إلى السماء[2].

وأثبت العلم الحديث أنه كلما كان الصعود قلت نسبة الهواء فيؤدي للاختناق والضيق.

ثانيًا: مثل الحياة الدنيا كماء أنزل من السماء:

وورد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤].

وقوله عز وجل: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: ٤٥].

وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتًا قصيرًا، فإذا استكمل وتم اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها[3].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ معنى الآية التشبيه والتمثيل، أي صفة الحياة الدنيا في فنائها وزوالها وقلة خطرها والملاذ بها كماء... وقالت الحكماء: إنما شبه تعالى الدنيا بالماء ؛ لأن الماء لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعاً منبتاً، وإذا جاوز المقدار كان ضاراً مهلكاً، وكذلك

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٤٩٧.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٠٣.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤١٥.

الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر... ولذا ورد في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه)[١]، فأصبح، أي النبات، هشيماً أي: متكسراً من اليبس متفتتاً، يعني بانقطاع الماء عنه، فحذف ذلك إيجازاً لدلالة الكلام عليه[٢].

فالحياة وما فيها مشبهة للناس بما ينزل من ماء السماء على تراب الأرض، فيحدث فيها اهتزاز للتغير إلى الأفضل فيزهوا ويغتر به محبوه ثم يصبح عند انقطاع الماء عنه قبل استوائه غير ما كان عليه من النضرة والبهاء، وقد يتغير قبل حصاده بسبب من الأسباب فلا ينتفع به.

فشبّه الحياة الدنيا بالماء المنزّل من السماء ينبت به النبات وتخضرّ الأرض وتظهر الثمار، ويوطّن أربابها عليها نفوسهم، فتصيبهم جائحة سماوية بغتة، وتصير كأن لم تكن[٣]، فمن وطّن النّفس على الدنيا وبهجتها غرته بأمانيها، وخدعته بالأطماع فيها، ثم إنها تخفي الصّاب-أي: المرّ- في شرابها، والحنظل في عسلها، والسراب في مآربها تعد ولا تفي بعداتها، وتوفى آفاتها على خيراتها، نعمها مشوبة بنقمها، وبؤسها مصحوب بمأنوسها، وبلاؤها في ضمن عطائها؛ فالمغرور من اغترّ بها، والمغبون من انخدع فيها[٤].

والتشبيه في الآيات المذكورة عند البلاغيين من التشبيه المركب، لأن وجه الشبه صورة منتزعة من أشياء، وهو كون كل من المشبه والمشبه به يمكث ما شاء الله، وهو في إقبال وكمال، ثم عما قليل يضمحل ويزول، والعلم عند الله تعالى[٥].

فإذا كان النبات بعد نزول الماء قد اخضر وألبس الأرض حللاً وزادها جمالاً ثم ينتهي ذلك كأن لم يكن، فإن السماء مع ما فيها من زينة وبهاء ستنتهي يوماً كالنبات وتبدل شيئاً آخر.

ثالثًا: تمثيل الوحي بالماء المنزل من السماء:

ورد في القرآن الكريم أن الله عز وجل أنزل من السماء الماء، وذلك في مواطن كثيرة، ومن الآيات التي أشير بها إلى الوحي كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة، ٢/ ٧٣٠، رقم ١٠٤٥.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٢٦٨.
(٣) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٨٨.
(٤) المصدر السابق ٢/ ٣٩٨.
(٥) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٤٠، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١٥٣.

﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝١٧﴾ [الرعد:١٧].

وهذا مثل ضربه الله للحق والباطل، والإيمان به والكفر، يقول تعالى ذكره: مثل الحق في ثباته والباطل في اضمحلاله مثل ماء أنزله الله من السماء إلى الأرض، يقول: فاحتملته الأودية بملئها، الكبير بكبره، والصغير بصغره، فاحتمل السيل الذي حدث عن ذلك الماء الذي أنزله الله من السماء زبداً عالياً فوق السيل، فهذا أحد مثلي الحق والباطل، فالحق هو الماء الباقي الذي أنزله الله من السماء، والزبد الذي لا ينتفع به هو الباطل[١].

ولما ذكر الله عز وجل في سورة البقرة أنه أنزل من السماء ماء ليدلهم على عبوديته؛ أعقب ذلك بأنه نزّل على عبده الوحي المبارك؛ ليدل إنزال الماء من السماء لحياة الأرض، على إنزال الوحي من السماء لحياة العبودية الحقة، التي يضمن بها العباد سعادتهم في الدارين والله أعلم.

ويمكن أن يستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف:٥٨].

فلما أمر الله جل وعلا ونهى في هذه الآية الكريمة، وبين عظائم آياته وبرهان عبادته وربوبيته أنه الرب وحده، والمعبود وحده، وبين أنه أنزل إلى هذه الخلائق كتاباً فصله على علم هدى ورحمة، بين هنا أن الناس الذين أنزل عليهم هذا الكتاب لهم شبه بعنصرهم الأول وهو الأرض، وشبه الوحي الذي أنزله على نبينا صلى الله عليه وسلم بالمطر.

فالوحي كثيراً ما يشبه بالمطر[٢]، فكما أن المطر يحيي الله به الأرض بعد موتها وينبت به النباتات والزروع والثمار، وينعش به الحيوانات، ويهيئ به لبني آدم مصالحهم الدنيوية، فكذلك القرآن هو مطر أرض القلوب، إذا نزل مطر القرآن على أرض القلوب أثمرت القلوب ثمراتها الرائعة اليانعة...

وكل خصلة حسنة يثمرها مطر القرآن في قلب المؤمن؛ كالخشية من الله، والتوبة عند الزلات، والإنابة إليه، والسخاء والشجاعة والرضا بقضاء الله، والإيثار وعدم الشح، إلى غير ذلك من خصال الإسلام الكريمة

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٩٦.

(٢) ورد ذلك حديث أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن مثل ما بعثني الله به عز وجل من الهدى، والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة، قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

الجميلة[1].

فالوحي يحيي القلوب ويوقظها ويجعلها قريبة من ربها، فمن ابتعد عن الوحي كان فيه من آثار الموت بقدر ابتعاده وربما كان كالميت تماماً، وكلما كان الإنسان قريباً من الوحي كانت حياته على قدر قربه ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر:٣٢].

رابعًا: تمثيل المشرك بمن يخر من السماء فتخطفه الطير:

وذلك في قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج:٣١].

ويجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق، فإن كان تشبيهًا مركبًا فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة حال من خرّ من السماء فاختطفته الطير، فتفرق مزعاً في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة، وإن كان مفرقًا.

فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذي يطوّح به في وادي الضلالة بالريح التي تهوى بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة[2].

وهذا المثل لمن أشرك بالله تعالى، فهو يسقط من العلو الذي بوأه الله وهو عبوديته؛ فلما رفض العلو والكرامة سقط من مكانته فاختطفه الشركاء المضلون لدنياه وأخراه فتشتت وتتلاشى، ولو نجا منهم لسقط إلى قاع مظلم لا راحة ولا طمأنينة فيه.

فضرب الله للمشرك مثلاً في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سقط منها، ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾، أي: تقطعه الطيور في الهواء، ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ أي: بعيد مهلك لمن هوى فيه[3].

ولهذا جاء في حديث البراء: **(وأما الفاجر فإذا كان في قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا أتاه ملك الموت فيقعد عند رأسه وينزل الملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيقعدون منه مد البصر، فيقول ملك الموت: اخرجي أيتها النفس الخبيثة إلى سخط**

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٤٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٤٨١، في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٠٠، العذب النمير، الشنقيطي ٣/ ٤٣٠.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٥٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٢٥٠.

من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده فينقطع معها العروق والعصب كما يستخرج الصوف المبلول بالسفود ذي الشعب، قال: فيقومون إليه فلا يدعونه في يده طرفة عين فيصعدون بها إلى السماء فلا يمرون على جند من الملائكة إلا ، قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ قال: فيقولون: فلان بأقبح أسمائه، قال: فإذا انتهي به إلى السماء غلقت دونه أبواب السماوات، قال: ويقال اكتبوا كتابه في سجين، قال: ثم يقال: أعيدوا عبدي إلى الأرض فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فيرمى بروحه حتى تقع في جسده، قال: ثم قرأ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ قال: فتأتيه الملائكة فيقولون: من ربك؟ قال: فيقول: لا أدري، فينادي مناد من السماء أن قد كذب فأفرشوه من النار وألبسوه من النار وأروه منزله من النار...) الحديث [(١)].

لمسات إعجازية في السماء

من الدلالات التي ذكرت في الآيات التي تحدثت عن السماء، آيات فيها لمسات إعجازية من حيث خلق السماء وما فيها ومدلولاتها وهي كالآتي:

أولًا: السماء وهي دخان:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١].

أي: هي مثل الدخان، إشارة إلى أنه لا تماسك لها [(٢)].

أصل السماء هو ذلك الكائن المشبه بالدخان، أي أن السماء كونت من ذلك الدخان... فتكون مادة السماء موجودة قبل وجود الأرض [(٣)]، وهو: بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض [(٤)]، و قد ثار على وجه الماء [(٥)].

لما خلق تعالى الأجزاء التي لا تتجزأ، فقبل أن خلق فيها كيفية الضوء، كانت مظلمة عديمة النور، ثم لما ركبها وجعلها سموات وكواكب وشمساً وقمراً، وأحدث صفة الضوء فيها، فحينئذ صارت مستنيرة، فثبت أن تلك الأجزاء، حين قصد الله تعالى

(١) أخرجه مطولًا أحمد في مسنده، ٣٠/ ٥٠٣، والبيهقي في شعب الإيمان ١/ ٦١٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٤٤، رقم ١٦٧٦.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ٣/ ١٤٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٤٦.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٦٥٢، روح المعاني، الألوسي ٥/ ٥٨.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٧٧.

أن يخلق منها السماوات والشمس والقمر، كانت مظلمة؛ فصح تسميتها بالدخان، لأنه لا معنى للدخان إلا أجزاء متفرقة، غير متواصلة، عديمة النور ثم قال: فهذا ما خطر بالبال في تفسير الدخان. والله أعلم بحقيقة الحال[1].

وفي الآيات الكريمة إشارة إلى حقائق كونية: منها : أن : أصل الكون المادي من الدخان، لم يصل العلم الحديث للآن إلى معرفة أصل الوجود المادي للكون على الرغم من توصل العلم إلى نجاحات كبيرة في المسائل التطبيقية والاستفادة من دراسة خصائص المادة واستخدام الطاقات الكونية المختلفة، وهذه الحقيقة لا يستطيع العلم البشري أن يصل إليها إلا من طريق الوحي من خالق السماوات والأرض، لأن وسائل البشر محدودة فلا يستطيع أن يخترق بوسائله المادية حجب غيب الماضي ليعرف تكوين الأجرام الكونية والسابق منها عن اللاحق[2].

فسبحان من يخلق من أصغر الأشياء؛ أكبر الأشياء وأعظمها.

ثانيًا: السماء ذات الحبك:

تقدم معنا الحديث حول تفسيرها، وأنها ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء.

فمعنى ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات:٧].

ذات المجاميع من الكواكب المربوط بعضها ببعض... ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ [الذاريات:٨] أي متخالف متناقض، قال ابن زيد: يتخرصون يقولون: هذا سحر ويقولون: إن هذا إلّا أساطير الأوّلين، يؤفك أي يصرف عنه من أفك ، أي صرف عن الحق الصريح الصرف التام، إذ لا صرف أشد منه.

وقد ذكر في مناسبة المقسم به للمقسم عليه، هو تشبيه أقوالهم في اختلافها، وتنافي أغراضها، بالطرائق للسموات في تباعدها، واختلاف غاياتها[3].

والحبك: بضمتين جمع حباك ككتاب وكتب ومثال ومثل، أو جمع حبيكة مثل طريقة وطرق، وهي مشتقة من الحبك بفتح فسكون وهو إجادة النسج وإتقان الصنع، فيجوز أن يكون المراد بحبك السماء نجومها ، لأنها تشبه الطرائق الموشاة في الثوب المحبوك المتقن، وروي عن الحسن وسعيد بن جبير ، وقيل الحبك: طرائق المجرّة التي تبدو ليلًا في قبة الجو.

وقيل: طرائق السحاب، وفسر الحبك بإتقان الخلق، روي عن ابن عباس وعكرمة وقتادة، وهذا يقتضي أنهم جعلوا الحبك

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٩٠-٩١.

(٢) انظر: مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ص١٦٥-١٦٧.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٨٨.

مصدرًا أو اسم مصدر، ولعله من النادر، وإجراء هذا الوصف على السماء إدماج أدمج به الاستدلال على قدرة الله تعالى مع الامتنان بحسن المرأى[1].

وقرأ الجمهور: الحبك بضم الحاء والباء، وقرئ بضم الحاء وسكون الباء وبكسر الحاء وفتح الباء، وبكسر الحاء وضم الباء، قال ابن عطية: هي لغات، والمراد بالسماء هنا هي المعروفة، وقيل: المراد بها السحاب، والأول أولى[2].

وفيه للعلماء أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضًا: ذات الطرائق، ذات الخلق الحسن المحكم ،وعلى هذا القول فالحبك مصدر، لأن كل عمل أتقنه عامله وأحسن صنعه، وذات الشدة والزينة، والآية تشمل الجميع، فكل الأقوال حق[3].

وكأنه -والله أعلم-أراد بذلك السماء التي فيها الكواكب الثابتة، وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، وهو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة، شديدة البناء، متسعة الأرجاء، أنيقة البهاء، مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات[4].

فالقسم العظيم بالأمر العظيم على أمر عظيم، ذكره الله لنا وهو العلي العظيم.

وما يكاد القسم الأول ينتهي حتى يعقبه قسم آخر بالسماء: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾، فيقسم بالسماء المنسقة المحكمة التركيب، كتنسيق الزرد المتشابك المتداخل الحلقات، وقد تكون هذه إحدى هيئات السحب في السماء حين تكون موشاة كالزرد مجعدة تجعد الماء والرمل إذا ضربته الريح، وقد يكون هذا وضعاً دائماً لتركيب الأفلاك ومداراتها المتشابكة المتناسقة، يقسم بالسماء المنسقة المحبوكة على أنهم في قول مختلف[5].

ثالثًا: سعة السماء:

وتقدم معنا في أوصاف السماء أنها واسعة، ومنه قوله عز وجل: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات:٤٧]

الموسع: ذو الوسع والسعة، والمعنى: إنا لذو سعة بخلقها وخلق غيرها لا نعجز عن ذلك، وقيل: لقادرون، من الوسع بمعنى الطاقة والقدرة، وقيل: إنا لموسعون الرزق بالمطر. قال الجوهري: وأوسع الرجل: صار ذا سعة وغنى[6].

فيكون قوله ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ حالًا مؤكدة أو تذييلًا إثباتًا لسعة قدرته كل شيء

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٣٤١.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١١٠.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٤٣٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٧٤.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٦٧.
(٦)

فضلاً عن السماء أو لموسعون السماء أي: جاعلوها واسعة أو ما بينها وبين الأرض أو الرزق على خلقنا ؛ لقوله تعالى ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾، وفيه إشارة إلى أن وسعة البيت والرزق من تجليات الاسم الواسع[1].

وبالنظر في قول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات:٤٧].

نجد أن بناء الكون المادي المترامي الأطراف المشتمل على بلايين المجرات التي تحتوي كلّ مجرة منها بلايين الشموس والنجوم وما يتبع كل شمس أو نجم من كواكب وأقمار، وكل ذلك إلى جانب ما يعجّ به الفضاء من طاقات وإشعاعات مختلفة القدر والصفات، وقد اتسعت له مقدرة الخالق عزّ وجلّ، ولديه أكثر وأكثر يضاف إلى ذلك.

قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ السماء حين خلقنا الكون ابتداء على اتساع لا نهاية له، ولذلك فهو يتسع لكل المجرات مهما تباعدت عن بعضها بعضاً، ومن الوجهة العلمية لم يثبت حجم الكون على حال منذ راح العلماء يقيسون أبعاده. ولقد جعل العلماء للنجوم أقداراً بحسب درجات بريقها أو لمعانه، وعدد النجوم التي يمكن أن ترى في القبة السماوية وتلمع بدرجات متفاوتة القدر بالنسبة للعين المجردة لا تزيد عن نحو ستة آلاف نجم تقريباً[2].

وهي في أصلها واسعة الأرجاء فلا يعلمها إلا الله، كما ذكر ذلك جمع من المفسرين.

قال ابن القيم رحمه الله مبينًا شأن هذه الآية الكونية: «ولهذا قل أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها إما إخباراً عن عظمها وسعتها، وإما إقساماً بها، وإما دعاءً إلى النظر فيها، وإما إرشاداً للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها، وإما استدلالًا منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة، وإما استدلالاً منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذي لا إله إلا هو، وإما استدلالاً منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته»[3].

وقال: فتأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لا تصعد علواً كالنار ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة ، ولا عمد تحتها وعلاقة فوقها ؛ بل هي ممسوكة بقدرة الله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج ، ثم تأمل ما

(١) روح المعاني، الألوسي ٩/ ٢٠٣.

(٢) مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ص١٧١.

(٣) مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ٢٠٢.

وضعت عليه من هذا اللون الذي هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له حتى أن من أصابه شيء أضر ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد، وقال الأطباء: أن من كلّ بصره فإنه من دوائه أن يديم الاطلاع إلى إجانة خضراء مملوءة ماء، فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المتقلبة فيه ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه أضعاف ذلك[1].

فهي في وسعها وعظيم سعتها تضع المسلم في إيمان متين وثبات على صراط الله المستقيم؛ ليتصل المرء بها ويتخذ فيها موطنا حسنا قبل الانتقال إليها.

رابعًا: السماوات والأرض كانتا رتقًا ففتقناهما:

وذلك في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء:٣٠].

وهي: حقائق كونية في غاية الوضوح.

والرتق: الضم والالتحام، خلقة كان أم صنعة أي: منضمتين، والفتق: الفصل بين المتصلين، وهو ضد الرتق[2].

وهذا شروع في آياته الكونية، الدالة على وحدته في ألوهيته، التي عمي عنها المشركون، فلم يروها رؤية اعتبار وتدبر، ومعنى قوله: كانتا رتقًا أي لا تمطر ولا تنبت ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ أي بالمطر والنبات، فالفتق والرتق استعارة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ [الطارق:١١-١٢].

و(الرجع) لغة هو الماء و (الصدع) هو النبات؛ لأنه يصدع الأرض أي يشقها.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾﴾ [عبس:٢٤]. أي: كيف انفردنا في إحداثه وتهيئته ليقيم بنيته.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾ [عبس:٢٥]. أي: من المزن بعد أن لم يكن.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ [عبس:٢٦].

أي: ثم بعد أن كانت الأرض رتقاً متماسكة الأجزاء، شققناها شقًّا مرئيًّا مشهودًا، كما تراه في الأرض بعد الريّ. أو شقًّا بالنبات[3].

ثم إن قوله تعالى: ﴿كَانَتَا﴾ يحتمل أن تكونا معًا رتقًا واحدًا بأن تكون السماوات والأرض جسمًا ملتئمًا متصلًا، ويحتمل أن تكون كل سماء رتقًا على حدتها، والأرض رتقًا على حدتها وكذلك الاحتمال في قوله تعالى: ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾.

---

(١) المصدر السابق ١/ ٢١٣.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٤١.

(٣) انظر: محاسن التأويل ٧/ ١٩٦.
وذكره ابن كثير في تفسيره عن ابن عباس ٣/ ١٢١٣، وقال: رجحه الطبري، ومال إليه الشنقيطي في أضواء البيان ٤/ ١٤١.

وإنما لم يقل نحو: فصارتا فتقًا؛ لأن الرتق متمكن منهما أشدّ تمكن كما قلنا ليستدل به على عظيم القدرة في فتقهما، ولدلالة الفعل على حدثان الفتق إيماء إلى حدوث الموجودات كلها وأن ليس منها أزلي، والرتق يحتمل أن يراد به معان تنشأ على محتملاتها معان في الفتق.

فإن اعتبرنا الرؤية بصرية ، فالرتق المشاهد هو ما يشاهده الرائي من عدم تخلل شيء بين أجزاء السماوات وبين أجزاء الأرض، والفتق :هو ما يشاهده الرائي من ضد ذلك حين يرى المطر نازلًا من السماء ويرى البرق يلعج منها والصواعق تسقط منها فذلك فتقها، وحين يرى انشقاق الأرض بماء المطر وانبثاق النبات والشجر منها بعد جفافها، وكل ذلك مشاهد مرئي دال على تصرف الخالق، وفي هذا المعنى جمع بين العبرة والمنة[1].

فكان هذا الرتق أمر دال على عظيم قدرة الله وإتقان خلقه للسماوات والأرض.

وقد يشير القرآن أحياناً إلى حقائق كونية كهذه الحقيقة التي يقررها هنا: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء:٣٠].

ونحن نستيقن هذه الحقيقة لمجرد ورودها في القرآن، وإن كنا لا نعرف منه كيف كان فتق السماوات والأرض، أو فتق السماوات عن الأرض، ونتقبل النظريات الفلكية التي لا تخالف هذه الحقيقة المجملة التي قررها القرآن، ولكننا لا نجري بالنص القرآني وراء أية نظرية فلكية، ولا نطلب تصديقاً للقرآن في نظريات البشر، وهو حقيقة مستيقنة! وقصارى ما يقال: إن النظرية الفلكية القائمة اليوم لا تعارض المفهوم الإجمالي لهذا النص القرآني السابق عليها بأجيال[2].

ولذا كان خلق الناس بما أودع الله فيهم من العظمة أمر مهول، وقد ذكّر الله به بقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات:٢١].

وأعظم من خلق الإنسان خلق السماوات والأرض وما أودع الله في السماوات من أسرار وفي الأرض من أغوار، ما يبهر العقول وتحار فيه الأبصار ، كما قال ربي القادر القهار: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [غافر:٥٧].

والقرآن الكريم يحث المسلم على التفكير في خلق السماء والأرض: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ٥٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٧٦.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١][1].

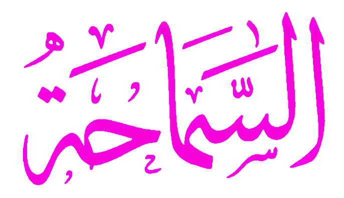
والله أعلم وعليه اعتمادنا وهو المستعان فهو حسبنا ونعم الوكيل.

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، الأرض، الجبال، الرياح، السحاب، الماء

(١) مباحث في علوم القرآن للقطان ص٢٧٩.





عناصر الموضوع

مفهوم السماحة	٣٣٢
الألفاظ ذات الصلة	٣٣٣
السماحة في الدين	٣٣٥
السماحة مع المخالفين للدين	٣٥٥
سماحة الإسلام في العلاقات الاجتماعية	٣٥٩
السماحة في الخصومات	٣٦٥
جزاء أهل السماحة في الدنيا والآخرة	٣٦٨

المجلد الثامن عشر

مفهوم السماحة

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (س م ح) تدل على «سلاسة وسهولة. يقال: سمح له بالشيء. ورجل سمح، أي: جواد، وقوم سمحاء ومساميح. ويقال: سمح في سيره، إذا أسرع»[(١)].

فالسَماحُ والسَماحَةُ: الجود. وسَمَحَ به: أي جاء به. وسَمَحَ لي: أعطاني[(٢)].

ومعنى الحَنِيفِيَّة السَّمْحَةُ: ليس فيها ضيق ولا شدّة[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفها الجرجاني بقوله: «السماحة هي بذل ما لا يجب تفضّلًا»[(٤)].

وعرفها الشيخ فالح الصغير بقوله: «تطبيق الأحكام الشرعية بصورة معتدلة، كما جاءت في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، من غير تشدّد يحرّم الحلال، ولا تميّع يحلّل الحرام»[(٥)].

وهو تعريف جميل، ويحمل معاني قوية حاسمة لمدلول هذا المصطلح؛ لكنه -وإن كان عامًّا- إلا أن القارئ يستشعر من هذا التعريف أنه يختص بالأحكام الشرعية، وبجوانب تتعلق بالعبادات والمعاملات، غير أن البحث الذي نحن بصدده يتعلق بالسماحة كخلق تهذيبي للنفس، وبالتالي فإن هذا التعريف لم يظهر هذا الجانب بوضوح وجلاء.

ويمكن أن يقال في تعريف السماحة في الاصطلاح: التطبيق العملي لمنهج الإسلام، بما يضمن بيان مقاصد الدعوة إلى الله تعالى، التي تحث على الاعتدال من غير تشدّد يحرّم الحلال، ولا تميّع يحلل الحرام في شتى مناحي الدين الإسلامي.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٩٩.
(٢) الصحاح، الجوهري ١/ ٣٧٦.
(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ٢٠١.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٢١.
(٥) اليسر والسماحة في الإسلام ص٧.



الألفاظ ذات الصلة

١ اليسر:

اليسر لغة:

تدل كلمة اليسر في اللغة على السهولة واللين والانقياد[(١)].

اليسر اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، قيل: عمل فيه لين وسهولة وانقياد ، أو هو رفع المشقة والحرج عن المكلف بأمر من الأمور لا يجهد النفس ولا يثقل الجسم[(٢)]، وقيل: «التخفيف في الأحكام الشرعية، في أصلها أو بسبب ما طرأ عليها».

الصلة بين اليسر والسماحة:

يشتركان في معنى السهولة والسلاسة ورفع الحرج والضيق والمشقة، وربما يكون اليسر من السماحة.

٢ العفو:

العفو لغة:

العفو مصدر عفا يعفو عفوًا، والعفو يطلق على معنيين أصليين: أحدهما: ترك الشيء، والآخر: طلبه[(٣)].

العفو اصطلاحًا:

هو التجافى عن الذنب، ومن ذلك قولهم في الدعاء: أسألك العفو والعافية . أي: أسألك ترك العقوبة، وأسألك السلامة[(٤)].

وقيل: كفّ الضّرر مع القدرة عليه، وكلّ من استحقّ عقوبة فتركها، فقد عفا[(٥)].

الصلة بين العفو والسماحة:

قيل: العفو هو إسقاط العقوبة بدون إسقاط الذنب. والمسامحة: هو إسقاط المؤاخذة واللوم بغض النظر عن إسقاط العقوبة عن المذنب؛ وذلك أن أصل المسامحة هو السماح،

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٢/ ٤٢٢، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٤٩٩.
(٢) تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٤٨٤.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٥٦، جمهرة اللغة، ابن دريد ٢/ ٩٣٨.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٣٩.
(٥) انظر: الكليات، الكفوي ص ٥٣، ٥٩٨.

أي: الجود، فالمسامح قد جاد على المذنب بأن ترك المؤاخذة.

٣ الصفح:

الصفح لغة:

يعني ثلاثة معانٍ، وهي: الجانب، والإعراض والترك، والعفو[(١)] .

الصفح اصطلاحًا:

هو التجاوز عن المذنب تماماً بترك مؤاخذته وعقابه.

وقيل: «هو ترك التأنيب»[(٢)] .

الصلة بين الصفح والسماحة:

أصل الصفح هو إبداء صفحة جميلة من الوجه ومنه قلب الصفحة أيضًا؛ لذا قيل: «الذي يصفح كأنه يولي بصفحة العنق»، إعراضًا عن الإساءة، فالصفح أعلى من العفو والمسامحة.

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٥٣٩.

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٤٥٧.



السماحة في الدين

أولًا: السماحة في الاعتقاد:

عرض القرآن الكريم مفهوم السماحة في الاعتقاد، عبر أروع جوانبها، وذلك على النحو الآتي:

١. ذكرٌ أمين لأقوال الكفار.

بما فيه مؤامرات مبيّتة على الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته، ومن ثم الرد المطوّق لكافة ادّعاءاتهم، وكلّ هذا بأسلوب الرد الدعويّ، الذي ينير الطريق، ولا يقف عند الأحقاد.

ومثال هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٢-٧٦].

فإن هذه الآيات ذكرت مدلولات عظيمةً للسماحة في الاعتقاد، وذلك أن الآية الثانية والسبعين تذكر أن اليهود قال بعضهم لبعض: أظهروا الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم أول النهار، واكفروا به آخره؛ ليتم التشكيك بدعوة الإسلام.

ومن ثمّ -حسب أمانيّ اليهود- يرجع هؤلاء الموحدون عن إيمانهم، ونصرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم يمارس أولئك اليهود أحقادهم الخفية، وذلك بأمرهم لأتباعهم ألّا يتأثروا بدعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما يكون الإيمان لمن تبع دينكم، فيأتي الرد الربانيّ بأن الهدى الحقيقي هو هدى الله تعالى ونحن عليه.

«فالمعنى أن علماء اليهود قالت لهم: لا تصدقوا بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، أي لا إيمان لهم ولا حجة، فعطف على المعنى من العلم والحكمة والكتاب والحجة والمن والسلوى وفلق البحر وغيرها من الفضائل والكرامات، أي: أنها لا تكون إلا فيكم فلا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا من تبع دينكم»[١] حتى تكون لهم حجة عند الله تعالى.

فيكون الرد أن سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم مأمور من الله تعالى أن يقول

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١١٣.

لهم بأن الفضل والتكرم بيد الله تعالى، لا بيد غيره، والله واسع عليم، فله اختصاص الرحمة لمن يشاء من عباده، والله ذو الفضل العظيم، ويشعر بذلك من يهتدي إلى الحق[1].

وتأمّلنا في تلك الألفاظ يجعلنا نعيش مع جمال أسلوب الدعوة مع المتآمرين، ثم يبين الله تعالى لنا منهجية الإنصاف في الحكم عليهم، فإن من أهل الكتاب، من يؤمّن في المال ولو بقنطار وما دونه؛ فهو يؤدّيه إلى صاحبه دون مماطلة، ومنهم -وهم الأكثرون- من إن أمّنته بدينار من المال؛ فإنه يبقى مماطلًا إلا إذا طالبت ولازمت، وألححت لاستخلاص حقك، وإن الذي جعلهم يجحدون الحقوق أنهم ظنّوا -كذبًا- أنّه لا حرج عليهم أن يفعلوا ذلك مع الأميين، -وهم العرب-، مدّعين أن الله أحلها لهم، فهم يعلمون علم اليقين بأنهم كذّابون في ادّعائهم[2].

ثم تستطرد هذه الآيات مبينةً سماحة الإسلام العظيم، وذلك ببيان أنه ليس الأمر كما قالوا، ولفظة (بلى) لمجرد نفي ما قبلها، وعلى هذا فإن من أوفى بعهده والتزاماته، فإن الله تعالى يحب المتقين، وهي صفة إيمانية تقرّب قلوب الحيارى منهم إلى الدين[3].

لا يجبر الإنسان على الإيمان شرط ألّا يكون محاربًا، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٥٦].

فإن هذه الآية الكريمة قد اختلف في تفسيرها[4].

وذكر ابن كثير بأنّ المعنى: «لا تكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيّنٌ واضحٌ جليٌّ دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحدٌ على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهًا مقسورًا»[5].

وقد ذكرت كتب التفسير عددًا من الأحداث التي كانت سببًا لنزول هذه الآية، وكلها سليمة الدراية، لكننا سنذكر حدثًا واحدًا ذكره الواحدي، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت المرأة من نساء الأنصار تكون عندها مشكلة في الإنجاب، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٢٣.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٦٠.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٦١.
(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٩٧، فتح القدير، الشوكاني ١/ ٣١٥.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٨٢.

تهوده، فلما أجليت النضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

الرخصة لمن أكره على الكفر شرط ألّا ينشرح الصدر به، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾ [النحل: ١٠٦].

حيث إنه لمّا بيّنت الآية السابقة الذين لا يؤمنون مطلقًا، بل إن من صفاتهم أنهم عريقون في الكذب ظاهرًا وباطنًا؛ تذكر هذه الآية الكريمة صنفًا من هؤلاء الكاذبين الكفار، فهم أشد خطرًا، سواء أكانوا مؤمنين بالفعل ثم كفروا، أو أنهم أقيمت الحجة عليهم عبر الأدلة الكثيرة الموجبة للإيمان، ولكن هذا الكافر جحد بالله تعالى، واستكبر على آياته الكونية والمتلوة، لكن سماحة الإسلام تتضح هنا، وذلك من خلال أن الذي كفر من لسانه خوفًا على حياته، فإنه معفوٌّ عنه، مع أولوية الأخذ بالعزيمة، إن كان في ذلك إغاظة لأعداء الله تعالى، ويشترط لمن أكره على الكفر ألّا يكون صدره منشرحًا بذلك، فإن من كان كذلك، فهو الكاذب، وعليه غضب من الله تعالى، ولهم عذاب عظيم[2].

«قال ابن عباس: نزلت في عمار بن ياسر، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسرًا، وأمه سمية، وصهيبًا، وبلالًا وخبابًا، وسالمًا؛ فعذّبوهم، فأما سمية فإنها ربطت بين بعيرين، وجيء قُبُلَها بحربة، وقيل لها: إنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت، وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين قتلا في الإسلام، وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهًا، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم، بأن عمارًا كفر، فقال: (**كلا، إن عمارًا ملئ إيمانًا من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه**)، فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكي، فجعل رسول الله عليه الصلاة والسلام يمسح عينيه، وقال: (**إن عادوا لك فعد لهم بما قلت**)[3]، فأنزل الله تعالى هذه الآية»[4].

٢. الدين يؤاخي بين المؤمنين.

ومثل هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص٨٣.

(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١١/ ٢٥٨.

(٣) ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله أن هذا الحديث مرسل، ورجاله ثقات.
انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٢/ ٣١٢.
وورد موصولًا في المستدرك للحاكم عن محمد بن عمار عن أبيه رقم ٣٣٦٢ قال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم.

(٤) أسباب النزول، الواحدي ص٢٨١.

«أي: إنما المؤمنون إخوة في الدين؛ فأصلحوا بينهم إذا اقتتلوا؛ بأن تحملهم على حكم كتاب الله عز وجل»[(١)]، وإن الأسلوب هنا أسلوب حصريٌّ، يحصر ضابط أخوة الدين على المؤمنين، وإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض؛ لأنهم يتعاونون على جامع الخير، وينتهون عن جامع الشر، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

٣. وجوب إجارة المستجير.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

فقد ذكرت الآية الكريمة أنه إذا استجار أيٌّ من المشركين الذين أمر النبي محمد صلى الله عليه وسلم بقتالهم، فإنه يؤمر بتأمينه، حتى يسمع كلام الله، ويقرأ عليه النبي صلى الله عليه وسلم القرآن، ويذكر له شيئًا من جوانب الدين وسماحته، ثم يبقى حتى يبلغ المكان الآمن، فهم لا يعلمون شيئًا عن الدين[(٢)]، عن ابن عبّاسٍ، عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يدٌ على من سواهم، يسعى بذمّتهم أدناهم، ويردّ على أقصاهم)[(٣)].

٤. وجوب استقامة العهد مع الذين عوهدوا من قبل المسلمين.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧].

حيث تبين هذه الآية الكريمة أن من بقي ملتزمًا بعهده، -رغم نقض الآخرين كبني كنانة، وبني ضمرة يوم الحديبية-؛ فإن الدين يلزمنا أن نستقيم بالعهد مع من كان مستقيمًا بالعهد من المشركين، فإن الله تعالى يحب المتقين[(٤)].

٥. شرح آيات القرآن الكريم أصول الاعتقاد.

حتى يبقى المنهج الإسلامي واضحًا لا يعتريه أيّ نقص أو اختلاف، فهو من عند

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١١/ ٧٠٠١.

(٢) انظر: التفسير الحديث، محمد عزت دروزة ٩/ ٣٥٨.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في السرية ترد على أهل العسكر، ٣/ ٨٠، رقم ٢٧٥١، وابن ماجه في سننه، كتاب الديات، باب المسلمون تتكافأ دماؤهم، ٢/ ٨٩٥، رقم ٢٦٨٣.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١١٣٧، رقم ٦٧١٢.

(٤) انظر: التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص١٨٨.

عليم حكيم، ولذلك فقد تم الخلوص إلى نتيجة، وهي أن جوهر الاعتقاد سماحة، وصدق الله تعالى، حيث يقول: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

ثانيًا: السماحة في التشريع:

إن الشريعة المقصودة، هي تلك الممارسة الإيمانية الصادقة للاعتقاد الرباني، وقد توسّع الخطاب القرآني في بيان سماحة الإسلام في كل تشريع من التشريعات الإسلامية، وهذه بعضها:

١. عدم تحميل النفس ما لا تطيق.

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

حيث تبدأ هذه الآية بجملة استئنافية على الأرجح؛ لتقرر أن الله تعالى هو الذي يقول: بأنه لا يكلف الله تعالى نفسًا بما لا تطيق، فإن ثمرة التزام الصحابة بما لا يستطيعون أن الله تعالى صرف عنهم الحرج، ورفع عنهم ما لا يطيقون[1].

٢. آيات كثيرة تتحدث عن الرخص.

منها قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

حيث ذكر الإمام السيوطي نقلًا عن الإمام الشافعي أن هذه الآية لا تعني أن الحرام من المطعومات فقط في هذه الآية، وإنما تعني أن الكفار كانوا على المحادة والمضادة، كأن تقول لواحد: لا تأكل اليوم حلاوة، فيقول لك: لا آكل اليوم إلا حلاوة، وفي ذلك يقول إمام الحرمين: ولولا سبق الإمام الشافعي لما استطعنا أن نستجيز مخالفة الإمام مالك في جواز أكل الكلاب[2].

وإن هذه الآية -كما آيات الرّخص- تذكر بوضوح عظمة السماحة التي تميّزت بها الشريعة السمحة، وذلك أن الشريعة لم تأت لتحريم كل شيء، وإنما لضبط المنفعة في الدنيا والآخرة، بما يكفل سعادة حقيقية دائمة للفرد والمجتمع.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٣٤، الموسوعة القرآنية، إبراهيم الأبياري ٩/ ٢٠٤.

(٢) انظر: الاتقان، السيوطي ١/ ١١٠.

٣. التدرج في التشريع.

وقد حفل القرآن الكريم بشواهد كثيرة للتدرج، بما يعزز مفهوم السماحة، ومدلولها من الناحية العملية، ومثال هذا آيات الخمر، حيث ذكرت الآيات الأربعة، وتوضيح ذلك:

أن الآية الأولى نزلت في مكة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٧].

حيث بيّنت هذه الآية المكية أنّ السكر مبغضٌ إلى أهل الإيمان، ولكن الله تعالى أشار إلى ذلك؛ تركًا للزمان، فهو في هذه الأزمان كان محل عفو(١).

وقد جاءت الآية الثانية في المدينة في أول الهجرة؛ وهي قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

حيث ذكرت هذه الآية المفاسد وتركت للخلق الحكم عليها؛ إذ كانت الخمر جزءًا لا يتجزأ من عاداتهم التي ألفوها(٢).

ثم جاءت الآية الثالثة؛ لتضع تطبيقًا عمليًّا تدريجيًّا لمنع الخمر، -إذ إن هذا بإلف عادتهم-، فقامت بحصر الأوقات، وتضييقها؛ لمنع الخمر وتعاطيها(٣).

وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

وما إن تهيّأت النفوس، حتى جاء الخطاب القرآني الحاسم بمنع الخمر، وتحريم تعاطيها، بل ومعاقبة من يفعل ذلك في الدنيا قبل الآخرة، فنزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

عندها ما كان من المسلمين إلا أن تخلّصوا من الخمر التي في بيوتهم؛ فأضحت شوارع المدينة وديانًا من الخمر(٤).

وهذا التدرج، وكل أمثلته مما لم نذكره

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤٢١٢.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ٢/ ٩٣٨.
(٣) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٢٥٧.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٣.

دالٌّ على سماحة الإسلام في تشريعاته.

٤ . رفع الحرج في التشريعات.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

ذكر الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى خمسين حكمًا فقهيًّا مستنبطًا من هذه الآية، جلّها يبين عظمة السماحة القرآنية(١).

وقد سبقت الإشارة أنّ السماحة تكون في كل تشريعٍ من التشريعات؛ حتى في القتال، فهو وإنْ بدا في ظاهره أنه قتال؛ إلا أنه لأجل الرحمة بالعموم، وهي مدلولٌ عظيمٌ لسماحة الإسلام.

ثالثًا: السماحة في الدعوة إلى الله:

١ . الرحمة واللين في الدعوة.

إن سماحة الإسلام تقتضي أن يكون توجيه طاقات المسلمين إلى الدعوة إلى الله تعالى؛ حتى لا يبقى شقيٌّ ولا محروم من الدعوة في هذه الأرض، وبالتالي فإن الرحمة واللين في الدعوة يجب أن يكونا سمة الداعية، وقد حفل الكثير من الآيات القرآنية ببيان السماحة في الدعوة إلى الله تعالى، من خلال بيان الرحمة واللين في الدعوة إلى الله تعالى، وهذه أمثلة من ذلك:

أولًا: رحمة القلب الداعي إلى الله تعالى بالخلق جميعًا.

وقد شهد القرآن الكريم مواقف عظيمة للقلب الرحيم، المتمثل في النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومنها:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

حيث تبدأ الآية بلام موطئة للقسم، وبـ(قد) التي تفيد التحقيق، وكل هذا لخطاب المؤمنين، بأنه جاءكم رسول من العرب، تعرفون نسبه وحسبه، فليس في قبيلة من قبائل العرب إلا وللرسول فيها نسب، والله تعالى شديد عليه إذا شقّ عليكم، ولكن حاشاه أن يكون كذلك، فهو حريص على هدايتكم من الضلال، وهو

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٢٢.

بالمؤمنين كلهم رءوف رحيم[1]، ونلاحظ أن هذه الآية الكريمة بينت بشكل واضح جوانب عديدة من السماحة التي ملأت قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ومنها أنه لا يملك إلا أن يكون شفوقًا عليكم، ومنها أن الله تعالى منحه اسمين، مليئين بالسماحة الدالة على كل خير.

بينت آيات عديدة أن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم يحترق قلبه خوفًا على الناس جميعًا من غضب الله تعالى، ومنها قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

حيث تبين هذه الآية الكريمة مدى استعداد النبي محمد صلى الله عليه وسلم للتضحية لأجل الدعوة إلى الله تعالى، لدرجة أنه قارب على هلاك نفسه، وقتلها على أثر عدم إيمان هؤلاء الكفار بهذا القرآن؛ حزنًا وغضبًا على كفرهم، وهذا الحزن أتى بعد وصول الكفار إلى أبشع أنواع التبجح بالكفر، والتكذيب للرسالة، وقد جاء في القرآن الكريم مثل هذا المدلول، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ١٢٧].

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨][2]، وهذا يبين عظيم سماحته صلى الله عليه وسلم، فهو لا يبحث عن نفسه، إنما يبحث عن إنقاذ كل كافر من إنس وجان، والأخذ بأيديهم إلى رحمة الله تعالى.

أمر الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن يحبس نفسه، ويقضي جل أوقاته الدعوية مع الداعين إلى الله تعالى بغض النظر عن أوضاعهم الاجتماعية، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية والتي قبلها، عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: جاء المؤلفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وأهاليهم، فقالوا: يا رسول الله، إنك لو جلست في صدر المجلس، ونحّيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم -يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف لم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٥٨٤، تفسير السمرقندي ٢/ ١٠٠، تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٦/ ١٩١٧.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٥٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٣٧.

يكن عليهم غيرها- جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، والتي قبلها، والتي بعدها[1]، وعلى هذا فإن الآية تأمر رسولنا محمدًا صلى الله عليه وسلم، بأن يحبس نفسه مع هؤلاء الفقراء الداعين إلى الله تعالى حبس ملازمة لهم، فهم الذين لا ينفكون عن الدعاء إلى الله تعالى ليلًا ونهارًا، يبتغون وجه الله تعالى، ولا تعد عيناك عنهم، أي: لا تعرض عنهم، ولو بأن تنتبه إلى غيرهم تريد زينة زائفة من هؤلاء المستكبرين الكفار[2].

يقول ابن عاشور: «وهذا الكلام تعريض بحماقة سادة المشركين الذين جعلوا هممهم وعنايتهم بالأمور الظاهرة، وأهملوا الاعتبار بالحقائق والمكارم النفسية؛ فاستكبروا عن مجالسة أهل الفضل والعقول الراجحة والقلوب النيرة، وجعلوا هممهم الصور الظاهرة»[3].

ثم يذكر القرآن الكريم في آية قرآنية أخرى ما يحصّن هؤلاء المستضعفين، وبقائهم في الرعاية الشرعية، وذلك بأسلوب النهي عن طردهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

حيث تنهى هذه الآية الكريمة نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم، أن يطرد الفقراء المسلمين الداعين إلى الله تعالى صباح مساء مبتغين وجه الله تعالى عن مجالسته، فكلٌّ له حسابه عند الله تعالى، ولست من يحاسبهم، أو يحاسب عنهم، فإن طردتهم؛ فإنك ساعتها تكون من الظالمين[4].

ولا شكّ أن هذه الألفاظ قاسية على النبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم لمجرد أن نفسه حدّثته بمجاملة سادة قريش طمعًا في الإسلام، فإن السماحة يجب أن تقتضي الرحمة بأولئك الضعفاء المساكين، الذين لا يدّخرون جهدًا في نصرة هذا الدين، وبالتالي فإن ضابط الرحمة في الدعوة كونه ليس مرتبطًا بردة فعل، وإنما تكون السماحة والرحمة سجية عند الداعية المسلم، سيما وأنها علامة على رحمة الإسلام، وبالتالي فإن الدعاة ليسوا محاسبين على النتيجة، شرط ألّا يدّخروا أي جهد قلبيًّا كان أو قوليًّا أو عمليًّا في ميدان الدعوة.

وعلى هذا فإن الالتزام بما يأمر الله تعالى من رحمة، ولين في القول أولى بكثير من الاجتهاد فيما لا يجوز الاجتهاد فيه، وصدق

(١) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص٢٩٧، لباب النقول، السيوطي ص١٣٠.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٦٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٠٥.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٥٧.

الله تعالى حيث يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الحجرات: ١].

حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يكون كل الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم مؤمنين، وهذا يوضحه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

حيث تذكر هذه الآية في معرض الرحمة بالرسول صلى الله عليه وسلم الرحيم، الذي يحرص على هداية كل مخلوق من إنس وجان، فإنه صلى الله عليه وسلم لو حرص وتهالكت نفسه لهداية الخلق؛ فإنه لا يكون مؤمنًا إلا القليل[1].

وهذا الجانب دالٌّ على معنًى عظيم من السماحة والرحمة في الدعوة إلى الله تعالى، فإن السواد الأعظم من الناس كفار، بل إن من المؤمنين خلقًا لا يفعلون ما يرضي الله تعالى، ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى لا يؤاخذهم بما كسبوا، بل يؤخرهم إلى أجلٍ معلوم، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾ [فاطر: ٤٥].

حيث إن هذه الآية تبين للناس -عمومًا- شيئًا من عظيم رحمة الله تعالى وفضله، فهي دعوة إلى أولئك الذين اغتروا بتأخير حساب الله تعالى، حتى حسبوه عجزًا، أو رضًا من الله تعالى بما هم فيه، وفحوى مقتضى الدعوة أن يرجعوا إلى الله تعالى، فإن الله تعالى يمنحكم أيها الطغاة كل فرصة في هذه الدنيا[2] -حتى العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر-؛ لعل الطغاة يرجعون، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

من رحمة الله تعالى أنه أنزل أمانين لهذه الأمة، وهما ما جاء في القرآن الكريم، حينما قال الكفار: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢].

عندها نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقد أخرج الشيخان «عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السّماء أو ائتنا بعذابٍ أليم. فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ

(١) انظر: الموسوعة القرآنية، إبراهيم الأبياري ١٠/ ١٤٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٣٣٩.

فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣-٣٤]»[1].

وعلى هذا فإن الله تعالى أنزل أمانين لهذه الأمة، فالأمان الأول: هو وجود الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم حيًّا، والأمان الآخر: هو الاستغفار.

من صفات الداعية الحق سيما الرسول صلى الله عليه وسلم أنه سمحٌ في رحمته ولين في قوله، سيما مع من أساء الأسلوب.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أي: فبرحمة من الله تعالى وفضله، كان اللين في القول منك لهم، رغم عدم الطاعة منهم، فلو كان الرسول صلى الله عليه وسلم فظًّا في القول غليظًا في القلب؛ لتركوه وحده، وما جاء إليه الناس، وبالتالي فإن الله تعالى يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعفو عنهم، وأن يستغفر لهم الله تعالى، ثم أن يشاورهم في الأمور التي تحتاج إلى مشاورة؛ فإن ذلك أطيب لأنفس القوم، وإذا وصلت إلى قرار بعد المشاورة؛ فامض به، وتوكّل على الله تعالى، فإن الله تعالى يحب المتوكلين عليه حق التوكل[2].

ثانيًا: القول اللين من الدعاة حتى مع رءوس الكفر.

فقد حفل القرآن الكريم بذكر هذا الجانب، عبر الحديث عن الأنبياء وخطابهم لقومهم، وتوضيح ذلك فيما يأتي:

ورد أمر رباني لسيدنا موسى وهارون عليهما السلام بالقول اللين مع فرعون لعله يتذكر أو يخشى، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٢-٤٤].

حيث إنه بعد أن بينت الآية السابقة أن الله تعالى اصطنع سيدنا موسى عليه السلام لرسالته، تبين هذه الآيات المذكورة، أن الله تعالى أمر سيدنا موسى وأخاه هارون عليهما السلام بألّا يفترا أو يضعفا في حمل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك)، ٦/ ٦٢، رقم ٤٦٤٨، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله: (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم)، ٤/ ٢١٥٤، رقم ٢٧٩٦.
وانظر: المحرر في أسباب نزول القرآن، خالد المزيني ١/ ٥٦٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ٣٣٠.

الرسالة، أن يذهبا إلى فرعون، فقد تجاوز كلّ الحدود، فقولا له قولًا لطيفًا رقيقًا؛ لعله يرجع إلى الصواب والحق، أو يخشى من عقاب الله تعالى[1].

ورد في آيات كثيرة قول بعض الأنبياء لأقوامهم يا قوم إني أخاف عليكم، كما في قوله تعالى في حديثه عن قصة سيدنا نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

ثم الرد من قبل سيدنا نوح عليه السلام على اتهاماتهم اللاذعة بمزيد من الحكمة، ولين الجانب، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٦٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٠-٦٤].

حيث إن سيدنا نوحًا عليه السلام يرد على تلك الاتهامات الموجهة بأنه ليس به ضلالة (والضلالة أخص من الضلال)، ويبين بأساليب التوكيد أنه رسول من رب العالمين، يبلغ شريعة الله تعالى السمحة، وهو لقومه ناصح لا يدخر جهدًا، ولا وسيلة في هدايتهم، ويركز على ما يدور في خلجات صدورهم بقوله: هل تعجبتم أن تأتي رسالة الله تعالى على يد رجل منكم؛ ليحذركم ويخوفكم من عقاب الله تعالى، حتى تكون المحصلة رحمةً كبيرةً من الله تعالى[2].

وإن قصة سيدنا نوح عليه السلام وحالة السماحة والرحمة الدعوية في الخطاب، ومن ثم لين الجانب، هي نموذج قرآني من مخزون نماذجه -سيما في الحديث عن الأنبياء-، سيما سيدنا صالح عليه السلام، وسيدنا هود عليه السلام، وكل أنبياء الله عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

كما أن منبر السماحة الدعوية في الرحمة ولين الجانب مما ذكر في القرآن الكريم لم يقتصر فقط على الأنبياء، وإنما تعدّى إلى ذكر الدعاة الغيورين، ومثل ذلك قصة الرجل الصالح، الذي خلّد القرآن الكريم ذكر مسيرته الدعوية الغيورة على الدين في سورة يس، حيث جاء من أقصى المدينة يسعى في الخير شفقة منه على هؤلاء

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٤٠٤، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٣٣١.

(٢) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٢٩٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٣٢.

المكذبين بالرسل، فاستخدم أجمل الألفاظ وأطيبها، حرصًا منه على أن يعافوا من العقاب الرباني جزاء تكذيبهم.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس: ٢٠-٢٧].

وهذه الآيات الكريمة تبين لنا نموذجًا عظيمًا لداعية إلى الله تعالى، هو حبيب النجار الذي آمن برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وبينهما ستمائة سنة - ومثله في الإيمان تبّع الأكبر، وورقة بن نوفل-.

فلقد سمع هذا الداعية الغيور نبأ تكذيب القوم لرسلهم، فما كان منه إلا أن جهر بدعوته، بعد قطع مسافة من أقصى المدينة إلى حيث يسكن القوم، فقال محاكيًا لطريقة الرسل في تبليغهم: يا أهلي، ويا ربعي، إني أرشدكم إلى ما ينفعكم في دنياكم وآخرتكم، فالأمر سهل ومليء بالسعادة التي لا تنتهي، وهو لا يعدو عن كونكم تلتزمون قلبًا وقولًا وعملًا باتباع كل ما جاء به المرسلون، فهؤلاء لا يطلبون منكم أيّ مالٍ، أو شهرةٍ، أو جاهٍ، ومع ذلك فهم مهتدون إلى الحق.

ثم يتساءل هذا الداعية الغيور سؤالًا تحريضيًّا على حسن الاتباع، بقوله: ولم لا أعبد الذي خلقني منذ الولادة على فطرة التوحيد، والمرجع والمصير كله إلى الله تعالى، فماذا سأردّ على سؤاله تعالى لي؟!

وهو أسلوب بالغ في الحكمة الدعوية؛ إذ إنه يتكلم عن نفسه، ثم يوجّه الإشارة إليه في العاقبة التي يمكن أن تحل عليهم، دونما فقد لسيطرته عليهم، عبر استفزاز كرامتهم، بالسباب والشتم وما إلى ذلك، فهو مجتهد بعد خلوص نيته، في أنجع الطرق التي تردّهم إلى دين الله تعالى.

وتلك هي السماحة والرحمة ولين القول في الدعوة إلى الله تعالى، ثم يستطرد هذا الداعية دعوته إليهم بسؤالٍ آخر افتراضيٍّ، وذلك بقوله: أأتخذ من دون الله تعالى آلهةً لا تضر ولا تنفع أعبدها، فإني أعلمكم أن الله جل جلاله إذا أراد بي ضرًّا؛ فلا تنفعني شفاعة هذه الآلهة شيئًا، ولا يستطيعون أن ينصروني، ولا حتى إنقاذي، وعندها فإني أكون من الضالين عن طريق الخير، وما ينفعني في الدنيا والآخرة.

ثم يجهر بالتمسك بالدين، وذلك بإعلان إيمانه بالله تعالى، حيث قال تلطفًا بهم

(بربكم)، وقال بعد ذلك فاسمعوا مقالتي الإيمانية هذه واستجيبوا لنداء الحق، وفي هذا تحدٍّ ضمنيٌّ بأنه متصلّب في دعوته، فماذا سيفعلون إلا ما كتب الله تعالى له، فما كان من القوم إلا أن قتلوه، فقيل له من قبل الله تعالى إكرامًا له : ادخل الجنة، فإذا بهذا الداعية الشفوق الرحيم الحنون يقول حال كونه خائفًا على قومه من العذاب: (يا ليت قومي يعلمون، بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين)[1].

وهناك موقف آخر لرحمة داعية ولينه في القول، وهي تلك القصة الرائعة لمؤمن آل فرعون، حيث جاء في سورة غافر- وتسمّى أيضًا سورة المؤمن نسبةً له-، حيث إنه غار على رسول الله موسى عليه السلام، عندما رأى ذلك التآمر الكبير من فرعون وقومه على قتل سيدنا موسى عليه السلام.

ففي تلك اللحظات الحرجة كان لا بدّ لهذا الداعية أن يتحرّك، فما عاد كتم الإيمان ينفع، وتوجّب عليه رحمه الله تعالى أن يصدع بالحق، فسلك أسلوبًا دعويًا رائعًا مليئًا باللين والرحمة بهم، مع عدم المجاملة والخديعة لهم، وذلك كما يلي:

رغم أنه من آل فرعون، إلا أن مواجهته لأهله وقومه كانت في بداية الأمر بإعطائهم السبب الذي من أجله آمن هذا الداعية، وهو أن سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم كان يقول ربي الله، وأنه صلى الله عليه وسلم قد جاء بكل الدلائل والبينات المادية والمعنوية الدالة على إثبات أحقية ما يقول، ومن عظيم إخلاص هذا الرجل أن الله تعالى علّمه فقه المناظرة.

وذلك أنه يخبر أن سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم إن كان كاذبًا فلستم مؤاخذين على كذبه، وإن كان صادقًا فمن المؤكّد أنه سيصيبكم ببعض ما وعدكم، ثم ردّهم إلى الله تعالى، بقوله إن الله عز وجل لا يهدي ولا يوفّق المسرف الكذاب، وها نحن نرى أمره سديدًا، ومنهجه مستقيمًا، وبالتالي هي إشارة -بعد الحجة والبيان- إلى تصديقه[2].

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨].

ثم يستطرد بذكر النصائح تلو النصائح، ومنها: استخدام لفظة (يا قوم)، وبيان قوتهم الحالية، وأنهم يوم أن يأذن الله تعالى لا حول لهم ولا قوة، ورغم إجرام فرعون

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٥٠٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ١٧، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٦٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٤١.

وتجبّره إلا أنه يستمر في تذكيرهم بمن كان قبلهم من الأقوام الغابرة، وما حلّ بهم؛ لعلهم يرجعون عن الباطل، ثم تذكيرهم بيوم القيامة، واستخدام الألفاظ التي تجعل القلوب القاسية رحيمة(1).

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٢٩-٣٣].

ثم التذكير بما جاء به سيدنا يوسف عليه السلام من البينات، وبمجرد أن مات عليه السلام إذ أنتم تقولون لن يبعث الله من بعده رسولًا، ثم يبين العاقبة تلو العاقبة في الدنيا والآخرة على من لم يتبع الحق والهدى، ورغم أن فرعون ماضٍ في علوّه وتكبره الذي بلغ كل وصف، واستعلاؤه الذي لا يماثله استعلاء؛ إلا أن مؤمن آل فرعون يحثهم على اتباع الحق والإيمان، شفقة منه ورحمة عليهم.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٤-٣٨].

ثم يذكّر قومه بأن الدنيا زائلة، وأن الآخرة هي الباقية، وإن من رحمة الله تعالى وفضله، أنه لا يجزي بالسيئة إلا مثلها، ويجزي بالحسنة أضعاف الأضعاف، قال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٣٩-٤٠].

ثم يتحرك قلبه خوفًا عليهم وشفقة بهم، بتذكيره لهم قبل فوات الأوان، بأنه يدعوهم إلى النجاة من غضب الله، ويكون ردّهم

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٣٦.

بأنهم يدعونه إلى النار، ويكون هذا بدعوتهم له للكفر بالله تعالى، والإشراك به إلهًا آخر، رغم أن دعوته لهم إنما هي لله الذي من صفاته العزة والمغفرة، ولا شك أن دعوتهم إلى الشرك ليس فيها دعوة مستجابة، ولكن مردّنا جميعًا إلى الله، وإن من أسرف من خلال شركه بالله تعالى فهو صاحب النار[1]، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤١-٤٣].

ثم يتوعّدهم وعيدًا يحمل في طياته نصحًا من مشفق عليهم، وذلك بقوله: ستذكرون قولي عند حلول العذاب، ثم فوّض أمره إلى الله تعالى بعد القيام بكل واجباته، معتقدًا هذا الداعية المجاهد اعتقادًا جازمًا بأن الله بصير بالعباد، وكانت النتيجة الحتمية أن الله تعالى حماه من مكرهم وكيدهم، وهم الذين ذاقوا الويلات جزاء كفرهم وتكذيبهم[2].

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٤-٤٥].

وبعد، فقد خلص البحث مما تقدّم أن باب السماحة في الدعوة كله يحمل في طياته رحمة، وإن أعظم الواعظين بالرحمة في دعوتهم هم الأنبياء المرسلون، ثم الصالحون، فلا تحكمهم في دعوتهم ردة فعل، وإنما تبلغ رحمتهم حدًّا لا يوصف، سيما مع من يخالفهم أو يعلن الحرب عليهم، فلا يفقدون لين القول، ولا شفقة القلب مهما بلغ الخصم من حد السفه، والفساد، والطغيان، وصدق الله تعالى حيث يقول في كتابه العزيز: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

٢. الصبر على الأذى.

لا شكّ أن الصبر على الأذى بنوعيه القولي والفعلي سمة الداعية الحق الذي يعيش مع الإسلام وسماحته في الدعوة، وبالتالي سيقف البحث عند بعض النماذج التي تدلل على روعة السماحة في صبر الداعية على أذى المعاندين لدعوة الحق، وهي كما يأتي:

أولًا: الصبر على الأذى القولي.

ويمكن تلخيص ذلك من خلال النقاط التالية:

---

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٥٩، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٢٣١.

(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٦٢، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٢١٤.

جاء في سورة المزمل أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على إيذاء كفار مكة بالقول اللاذع منهم، مع تسليته ببيان عاقبتهم في الآخرة إن لم يرجعوا عن طغيانهم، ومحاولات استفزازهم لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزّمل: ١٠-١٣].

فقد ذكرت هذه الآيات أنه لما اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم ربّه جل جلاله وكيلًا وحسيبًا؛ فإنه يتوجب عليه أن يحبس نفسه عن الضجر مما يقولون، كما أمر من الله تعالى؛ فهذا تمام التفويض بإصلاح أمره على نحوٍ أعظم من إصلاحه أمور نفسه، ثمّ أمر الرسول صلى الله عليه وسلم من قبل الله تعالى أمرًا آخر، وهو أن يترك مخالطة أولئك الذين يتلسّنون عليه صلى الله عليه وسلم؛ فذلك هو الهجر الجميل، ومثله آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩].

وقد اختلف المفسرون في نسخ هذه الآية من عدمها، ويميل البحث إلى رأي من قال: إنها غير منسوخة، وإنها محمولة على مقتضيات مصلحة الدعوة بما يتلاءم مع روح السماحة.

ثم بيّن الله تعالى أنه لا حاجة بذلك القول الذي بدر من المكذبين من أهل التنعّم، ومهّلهم مدة قليلة إلى يوم بدر، فتحتمل كلمة (ذرني)، معنى: ارض بي يا محمد لعقابهم، وهذا يبين عظيم سماحة الإسلام مع المؤذين له، ثم ذكر ربنا جل جلاله كيفية عذابهم عنده فقال: إن لدينا في الآخرة ما يقابل تنعّمهم في الدنيا، فأولها- القيد الثقيل عليهم، وثانيها- الجحيم، وثالثها: الطعام الذي يغصّ الإنسان، وهو طعام الزقّوم والضريع، ورابعها: سائر أنواع العذاب[(١)].

وكلّ هذا الوعيد هو في الآخرة؛ لما يترتب على ذكره في الآية من بيان روعة السماحة، عبر الصبر على الأذى، ففي الآيات الكريمة توضيح لا تأويل فيه، بأنّ الله تعالى أمهلهم في الدنيا إلى غزوة بدر، وإلى الآخرة؛ لإعطائهم الفرصة الكافية للتوبة.

حاول أولئك المشركون التشكيك في الدين الإسلامي، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أنه لجأ إلى الله تعالى أن يبين الحق، وأن تمضي الدعوة على خير وجه، ولم يكن في بال الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدعو على قومه، أو

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٨٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٤٥.

يدعو الله تعالى أن يهلكهم، وهذا كان عبر آيات عديدة.

منها قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

حيث جاء في سبب نزولها عن البراء بن عازب -رضي الله عنهما-، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلّى نحو بيت المقدس، ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يوجه إلى الكعبة، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] فتوجه نحو الكعبة».

وقال السفهاء من الناس، وهم اليهود: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢].

فصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم رجل، ثم خرج بعد ما صلى، فمر على قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس، فقال: هو يشهد: أنه صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه توجه نحو الكعبة؛ فتحرف القوم، حتى توجهوا نحو الكعبة»[(١)].

وإن سبب نزولها كافٍ لبيان عظيم السماحة التي حظيت بها شخصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فإنهم يشككون في تبعيته صلى الله عليه وسلم لربه جل جلاله، وذلك من خلال توجهه صلى الله عليه وسلم جهة بيت المقدس في القبلة، على اعتبار أنها هي قبلتهم، وكأنه صلى الله عليه وسلم يتبع لهم، فما كان من رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم إلا أن دعا الله تعالى متوجهًا نحو السماء، بأن تكون القبلة نحو المسجد الحرام، وإذا باليهود يطعنون في ذلك، عبر سفهائهم من الناس، وهم مشركو العرب، من خلال قولهم ما الذي جعلهم يحوّلون قبلتهم التي كانوا عليها؟!

فتجيب الآية القرآنية في أروع معاني السماحة، دونما سبٍّ، أو قذف، بأنه لله تعالى ما في المشرق وما في المغرب، وأنه عز وجل يهدي إلى الاستقامة الحقة من يشاء من عباده، سواءً أكانت هداية إرشاد أم هداية توفيق، وبعد تشكيكهم بأنه لا أجر للصلاة التي أقامها المسلمون حال كونهم متجهين نحو بيت المقدس في أكثر من سبعة عشر شهرًا، بيّن الله تعالى أنه لا يضيع الصلاة،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التوجه نحو القبلة حيث كان، ١/ ٨٨، رقم ٣٩٩.

حيث سمّاها القرآن (إيمانكم)[1].

ثانيًا: الصبر على الأذى الفعلي:

بيّنت آيات عديدة جوانب من صبر الدعاة على الأذى الذي وقع فعلًا أو كاد أن يقع عليهم، وسنقف إن شاء الله على نموذج قرآنيٍّ منها؛ فقد جاء في سورة النحل، التخيير بين المماثلة في العقوبة لمن عاقب بعضًا من المسلمين، أو تسبب في إيذائهم، وبين حبس النفس عن تلك المماثلة في العقوبة، وذلك من خلال الصبر على ذلك، واحتساب الأجر من الله تعالى وحده، على أن يكون الصبر ناتجًا عن إرادة حقيقية ممن وقع عليه الأذى، أو أراد بذلك مصلحة دعوية مرجوة، فعندها يكون الصبر خيرًا وأعظم أجرًا.

ثم أكّدت الآيات أن الصبر مأمور به خير الدعاة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأن صبره ملتصق بحكمٍ دعوية، لا حصر لها، ثم يبين الله تعالى جانبًا قلبيًّا رحيمًا للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الحزن العميق على أحوال أولئك المكذبين، ومآلهم في الدنيا والآخرة.

وقيل: الحزن على قتلى أحد.

ثم بيان الرحمة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم بألّا يضيق ذرعًا في أقواله وأفعاله وأحواله من المكر الذي يمارسه الأعداء المكذبون، الذي إن كان مكرهم لتزول منه الجبال[2].

والآيات هي: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٦، ١٢٧].

وعلى هذا تكون الآيات مدنية، وقال الكثيرون: إنها منسوخة بالآية التي بعدها[3].

والراجح أنها غير منسوخة، وإنما هي محمولةٌ على التخيير مع أفضلية الصبر، وبقاء مصلحة الدعوة ضمن الضوابط الدينية الدعوية مقياسًا صالحًا في التخيير بين مماثلة العقوبة، أو الصبر على تلك العقوبة.

٣. الإحسان إلى المسيء.

إن الإحسان إلى من يسيء إلى الداعية -سواء أكانت شخصية، أم قادحةً في دعوته ضمن الضوابط- سمة الأنبياء الصالحين، والأولياء المخلصين.

وتناولت آيات قصة ابني آدم بعض صور الإحسان إلى المسيء في طياتها، حينما

---

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ١٠٤، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ١٨٣.

(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٢/ ١٩٠.

(٣) انظر: تفسير القرآن، العز بن عبد السلام ٢/ ٢٠٨، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٩٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٠١، لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٠٧.

تقبّل الله تعالى قربان أحدهما، ولم يتقبّل من الآخر.

فبدل أن يبارك الآخر للذي تقبّل الله تعالى منه، ومن ثم يراجع حساباته مع ربه، إذ به يفكّر في القتل والاستئصال للآخر، الذي هو أخوه، فأقسم له أنه سيقتله بأساليب توكيد متنوعة، فإذ بهذا الطيب، يقول: إنما يتقبّل الله تعالى من المتقين الذين خافوه، وعملوا له حسابًا.

ثم يقول هذا الطيب الذي تقبل الله تعالى قربانه لذلك المجرم مقسمًا له: إن بسط إليه يده -كناية عن القتل مع سبق الإصرار والترصد-؛ فلن يماثل هذا الإجرام، والسبب عظيمٌ جدًّا، وهو الخوف من الله تعالى رب العالمين، فإنه يريد أن ينال هذا المجرم إثمه مع إثم ذات المجرم؛ فعندها يكون من أصحاب النار.

ثم يبين ذلك الطيب أن ذلك العقاب جزاء كل ظالم، فما كان من ذلك المجرم إلا أن قتله، رغم هذه الدعوة التي تظهر أروع معاني الإحسان إلى من يفكر في أسوأ معاني الإساءة، وهي القتل العمد، وهناك كان الخسران المبين(1).

والآيات هي: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٧-٣٠].

ولقد مرّ -في معرض الآيات السابقة- الحديث بالتلميح أو التصريح عن ذلك الإحسان إلى المسيء، الذي يعدّ جزءًا لا يتجزأ من سماحة الإسلام الشاملة لجميع مناحي الدين، ولا عجب؛ فهي تطبيق عمليٌّ لرسالة الإسلام، بما يعزز حب الدين في قلوب الناس جميعًا.

---

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٧٨، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٢.

السماحة مع المخالفين للدين

أولًا: المفاصلة العقدية:

إن الإسلام يحمل في ثنايا روحه سماحةً حتى مع المخالفين للدين، ومن ذلك أن المفاصلة العقدية، وعدم المداهنة أو المجاملة لهم، تحمل في طياتها سماحة.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ① لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ③ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦].

جاء في سبب نزول السورة عدة أقوال، وكلها سليمة الدراية؛ لأن المعنى حمّالٌ لها، وهي تناسب السياق.

وسنذكر إن شاء الله سببًا، وهو: «أنّ قريشًا قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم: إن سرّك أن نتبع دينك عامًا، وترجع إلى ديننا عامًا؛ فنزلت هذه السورة»[(١)].

واختلف المفسرون في هذه الآيات، سيما الآية السادسة في نسخها من عدمه، والذي يترجّح أن هذه الآيات غير منسوخة، وإنما هي محمولة على المفاصلة العقدية.

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وبالتالي فإن المعنى يكون: بأن السورة تبدأ بنداءٍ من الله تعالى إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأجل أن يخاطب الكافرين، وإن كان في هذا الخطاب استهزاء ضمني؛ بما آلوا إليه من كفر، وبالتالي عاقبة وخيمة من جهة، إلا أن هذا الخطاب يحمل السماحة في إعطاء فرصة الخطاب الدعوي الرباني من جهة أخرى.

ثم إن فحوى رسالة الخطاب هو المفاصلة العقدية، وذلك من خلال أن سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم لا يسلك عبادتهم ولا يقتدي بها، ثم يوجه الخطاب مباشرة لهم من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم، بما أمر به من قبل الله تعالى، وذلك أن هؤلاء الكفار لا يعبدون ما يعبد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فهم لا يقاتلون في الدنيا، طالما التزموا بالضوابط المتفق عليها، مع عدم رفع العقاب عنهم يوم القيامة.

ثم يرجع التذكير لهم؛ لقصد التفاتهم إلى الحق، بأنّ سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم لا يعبد ما يعبدون، مهما كانت المدة، فذلكم ولاء وبراء، ليس بيده أن يتنازل، وليس من حقه أن يتعاطى في تلك القضية المفصلية، ثم تعيد الآية لأجل الترسيخ

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٩٩.

في القلوب والأذهان، بأنهم لا يريدون أن يعبدوا ما يعبد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ثم تحمل الآية الأخيرة من السورة تهديدًا ضمنيًا لهم، مع سماحة عظيمة عبر الإمهال؛ لأجل أن يتوبوا، فيقول الحق تبارك وتعالى: لكم شرككم الكفري، ولي توحيدي الإسلامي، وبالتالي فإن الكل سيقف بين يدي الله تعالى، فليحرص على حجته، وكيف سيرد على خالقه جل جلاله[(١)].

ثانيًا: البر والقسط:

عالج القرآن الكريم جوانب عظيمة، تدلل على عظيم الأخلاق التي دعا إليها الدين، ومن بين هذه الأخلاق التي عالجها البر والقسط.

فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

وقد خصّ القرآن الكريم الأمر بالقسط مع المخالفين للدين، وذلك كما ورد في سورة الممتحنة الأمر الربانيّ بالبر والقسط لأهل الكفر، فقد قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، -٩].

فقد ذكرت الآيتان أن الله تعالى لا يحضنا على قتل المسالمين من الكفار من أهل مكة وغيرها، الذين لم يخرجونا من ديارنا، ونحن مطالبون تجاههم أن نبرّهم ونقسط إليهم، فعلينا أن نفرق بين المعتدي والمخرج من الديار، وبين المسالم، فذلك هو القسط الذي أمرنا الله تعالى به، فالمعتدي والظالم وجبت على المسلمين مماثلتهم بعداوتهم، والبار والمقسط وجبت مماثلتهم بالبر والقسط[(٢)].

ونلاحظ في هاتين الآيتين أن الآية الأولى ذكرت المسالمين مقترنًا معها البر والقسط، وذكر في الآية الثانية المعتدين مقترنًا معها النهي عن توليهم، رغم أن التولي لهم منهيٌّ عنه مع المسالمين أيضًا؛ لأن البطش والظلم الذي قد يقع من المعتدي؛ يجعل إمكانية التولي لهم عند مرضى القلوب واردة.

وإن كلتا الآيتين تبينان عظيم سماحة

(١) انظر: الصحيح المسبور، حكمت بن بشير بن ياسين ٤/ ٦٧٦، أوضح التفاسير، محمد الخطيب ص٧٦٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٣٢٢، لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٥٧٢.

الإسلام العظيم، سيما مع المخالفين لدين الإسلام؛ مما يعزز في قلوبنا جميعًا وجوب الافتخار بهذا الدين.

الفرق بين السماحة والولاء مع المخالفين للدين:

أهل الحق عمومًا قائمون على تبليغ رسالة الإسلام، وتعليمه للناس كافة، وتطبيقه في شتى مجالات الحياة، وليس معنى هذا أن يستكين المؤمن إلى أولئك المرجفين أو الأفّاكين، أو أن يداهنهم، فإن السماحة تعني: الصبر على الأذى مع علم أهل الحق أن الله تعالى على نصرهم لقدير، وفي حال قوتهم؛ فإن العفو سلاحهم، مع وعيهم بضرورة هيبة الدعوة إلى الله تعالى، وسيركز البحث هنا على بيان الفرق بين السماحة والولاء مع المختلفين في الدين، وذلك فيما يأتي:

- سبقت الإشارة إلى أنه جاء في سورة آل عمران الحديث عن مساومة مكريّة عرضها يهود خيبر على يهود المدينة، بأن يظهروا الإيمان بالقرآن أول النهار، ويكفروا آخره، مع طمأنة يهود خيبر ليهود المدينة؛ بأنه لم يؤت أحد من الخلق جميعًا مثل ما أوتي اليهود، وبالتالي فإن يهود خيبر أحاطوا ذلك المكر بشتى مقومات السلامة على حسب ترتيبهم من أن يتأثر أحد من اليهود المطلوب منهم أن يخادعوا المؤمنين بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، ودعوته الحقّ، فلم يكن الرد القرآني مداهنة، ولا تنازلًا، وفي المقابل لم يكن الرد قاصمًا لكل جوانب الدعوة لهم، وإنما عالج تلك المساومة من خلال أن هذا القرآن هو هدىً من الله تعالى، مبيّنًا زيف ما يقولون، ثم بيّن الله تعالى عبر خطابه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن فضل الله -الذي هو الإسلام- إنما هو بيد الله تعالى، يؤتيه من يشاء، والله واسع عليم[1]، وبالتالي فإن وضوح الرؤية -بين حال المخادعين، وحال المؤمنين- لم يمنع من دعوتهم إلى الله تعالى، رغم ما يمكرون من جهة، ولم يجعل السماحة تنجرّ إلى مسامحة الباطل ومداهنته من جهة أخرى، فالميزان الإيماني حسّاس، لا يقدّره إلا من أنار الله تعالى قلبه بالإيمان.
- جاء في مطلع سورة القلم البيان الواضح للخلق العظيم الذي تمتع به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد استغلّت الكفار ذلك بمحاولات جعله يلين لهم، فعندها يلينون، كونهم حققوا

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ٢٩٥، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، الواحدي ١/ ٢١٧.

ما يريدون، وذلك في الآيات التالية:
﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٧ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ [القلم: ١-١١]. حيث تبدأ السورة بذكر النون الذي قيل عنه: الحوت الأعظم الذي على ظهره الأرضون السبع، وقيل: إنه من الحروف المقطعة التي استأثر الله تعالى بعلمه. ويقسم تعالى بالقلم الذي تكتب به الملائكة كتب الأعمال وما يؤمرون به، أو بالقلم الذي يكتب به البشر ما نزل من الكتب السماوية، وما وصلوا إليه من علوم، ثم يأتي جواب القسم من الله تعالى بأن سيدنا محمدًا ليس بنعمة ربه، -وهي الهداية إلى الإسلام- بمجنون، وهو ردٌّ ضمنيٌّ على كفار قريش، حينما رموه بالجنون، وتستكمل الآيات التسلية للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك كونه له أجر غير منقطع، وأنه على خلق عظيم. ونلاحظ هنا أن أساليب التوكيد كثيرة؛ لزيادة طمأنة قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ثم يبين الله تعالى للنبي محمد صلى الله عليه وسلم بأنه شتان بينك وبين أولئك الكفار البعداء، فستبصر يا محمد صلى الله عليه وسلم أنت وأمتك بأيكم الذي فتن؟، والجواب في الآية التي بعدها بأن ربك هو الأعلم بالذي ضل عن سبيله، وأن الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وما دام الأمر قد وضح لك يا محمد صلى الله عليه وسلم ولأمتك؛ فلا تطع أولئك المكذبين من كفار قريش وغيرها، فهم قد ودّوا لو يلاينهم أو يداريهم؛ فعندها يميلون أيضًا إلى قوله ودينه، ولكن الدين لا يقبل التفاوض، ولا المداراة، فلا مجال للتغيير، أو التنازل عن الحق، فلا تطع يا محمد صلى الله عليه وسلم - والخطاب منسحب إلى أمته- كثير الحلف، كثير الإهانة من غيره، بأن يسودّ وجهه؛ فتكون عاقبته الذل والإهانة، فهو كثير الهمز، يعيب في شخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم في غيبته، وهو يمشي بين الناس بالنميمة(١).

وهذه الآيات -كما كثير من النماذج القرآنية المماثلة- توضح لنا الدقة القرآنية في التعبير بما لا ينقص من قدر السماحة،

---

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٤٥.

فهي منهج قرآني، لا انفكاك عنه، ومع ذلك فإن الولاء لله تعالى منضبط جدًّا، لا يستطيع أحدٌ أن يتقدم عليه إلا بما يرضي الله تعالى.

سماحة الاسلام في العلاقات الاجتماعية

سبقت الإشارة إلى أن سماحة الإسلام استوفت شتى المناحي، من بينها الاجتماعية، من خلال الحديث عن طبيعة العلاقة مع الوالدين، أو الآداب المرجوة من الأسرة، أو المجتمع، بما يظهر جانب السماحة في الإسلام، وسيدور الكلام هنا حول سماحة الإسلام في هذين الجانبين.

أولًا: سماحة الإسلام مع الأسرة:

وردت سماحة الإسلام في القرآن الكريم مع الأسرة عمومًا، إلا أنها أعطت مساحة بالدرجة الأولى للوالدين، وذلك في السياقات التالية:

١. في سياق الاقتضاء الرباني بوجوب عبادة الله تعالى وحده، وبالوالدين إحسانًا.

فقد ورد ذلك في سورة الإسراء، في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٥].

حيث تبين هذه الآيات الكريمة أروع

جوانب السماحة، فقد قضى ربّنا جل جلاله وأمر وألزم وأوجب ألّا يعبد أحدٌ إلا الله تعالى، وقرن الوالدين -قبل الأمر بالإحسان إليهما- ملتصقًا بذات الله تعالى؛ لأن الله تعالى هو الذي أوجد الإنسان، وهيّأ له السبب في وجوده، وهو الوالدان، وقد خص البر بالكبر أحدهما أو كليهما؛ لأنهما في تلك المرحلة العمرية بأمس الحاجة إلى المساعدة؛ وبالتالي فإن التشديد في هذه الآية في التقدير والتكريم للوالدين دالّ على عظيم السماحة، مع أولى الخلق بالرعاية والبر والإحسان.

إذ إنه لا يحق لأحد أن يتلفظ بأصغر ألفاظ التضجر، وهي أفٍّ، وما فوقها أولى بالنهي، وبالتالي فإنه ينبغي القول الكريم الطيب، وأن يتذلل وينكسر لهما، ويخفض الجناح، كناية عن الذل والخنوع، وأن يترحّم عليهما، كما ربياه حال كونه صغيرًا.

ثم ذكر أن الربّ جل جلاله هو الأعلم بما في النفوس، من اعتقاد الرحمة بهما، والحنان عليهما، أو من غير ذلك من العقوق، فإن يكن هؤلاء الأولاد صادقين في نية البر للوالدين، فإن الله تعالى كان غفورًا للزلات، التي قد تصدر من الأولاد شرط الصلاح والتوبة[(1)].

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ١٣٧.

ولفظة (قضى) بمعنى أمر، وبمعنى وصّى، كما ورد في القراءات التفسيرية لابن عباس، وابن مسعود، وأبي بن كعب رضي الله عنهم أجمعين، وكما ورد في آيات أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾[العنكبوت: ٨].

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾[الأحقاف: ١٥][(2)].

وتظهر روعة السماحة، في أهمية حفظ الفضل لمن كانا سبب وجود الإنسان، وهما الوالدان، اللذان أوضح القرآن الكريم كل جوانب البر لهما في كتابه، كما بينت هذه الآية والآيات الأخرى، التي ذكرنا شطرها في اللطيفة السابقة.

٢. في سياق بنود الميثاق، الذي أخذ على بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: ٨٣].

حيث تبين هذه الآية الكريمة أن البند

(2) انظر: المصدر السابق.

الثاني من الميثاق هو الإحسان إلى الوالدين إحسانًا، وذلك بعد توحيد الله تعالى في ألوهيته، ومن الجميل في هذه الآية أن إعراب (إحسانًا) في هذه الآية أنها منصوبة على المصدرية، فهي مفعول مطلق للفعل المحذوف المقدّر بـ (تحسنوا)، المعطوف على الجملة (لا تعبدون إلا الله)، المضمر (أن) فيها، فيكون التقدير في الآية: (وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل بألّا تعبدوا إلا الله، وبأن تحسنوا إلى الوالدين إحسانًا).

وفي سياق الآية حذف؛ لحكم يعلمها الله تعالى، وقد جاء في بيان سبب ذكر الله تعالى، بعدها مباشرة، بأن الله تعالى هو الذي هيّأ الأسباب، وهي الوالدان[1].

٣. في سياق بيان المحرّمات.

جاء الأمر بالإحسان إلى الوالدين، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

حيث جاء ذكر المحرمات التي حرّمها الله تعالى بصيغة النهي، في كل الجوانب المحرّمة المذكورة، إلا الوالدين، فإنها جاءت بالأمر بالإحسان إليهما، إذ لا يكفي أن يخبر به كعقوق محرّمة، بل ينبغي أن يبين حقهما بالكامل، عبر الإحسان إليهما، وليس مجرّد الأداء[2].

وأما باقي أفراد الأسرة، فقد ذكر القرآن الكريم الأمر بإعطائهم حقوقهم، ومن ذلك: قوله تعالى في حق وأد البنات: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨-٩].

حيث تذكر هاتان الآيتان الكريمتان خطر الوأد للبنات؛ فالموقف خاص بيوم القيامة، وبالتالي فإن التحذير من الوأد يأتي ببيان العاقبة الأخرويّة، ومن ثمّ يغلب على طابع السياق مخاطبة للضمير الإنساني.

وقد ذكر هذا التحذير في أكثر من موضع من القرآن الكريم، في سياقات متعددة، منها، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

ولا تقتلوا أولادكم، سيما البنات بسبب الفقر؛ فإن الله تعالى تكفّل للآباء بالرزق في الكبر حالة الشيخوخة، وبالتالي للأولاد حالة الشباب؛ إذ إنه تكون البنت -بعد فضل الله تعالى سببًا لرزق الآباء[3]، كما جاء في

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٩٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١٣.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٩١، مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ١٧٧.

(٣) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي

سورة الإسراء بيان الكفالة الثانية للأولاد حالة الطفولة، إذ يكون الآباء شبابًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

فالنهي عن قتل الأولاد خشية الفاقة والفقر؛ فإن قتلهم كان إثمًا عظيمًا[١].

وجاء في حق الأقارب عمومًا، برفع الحرج عن إبداء زينة المرأة عند بعضهم: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

فإن هذه الآية تبين جوانب من السماحة في العلاقة بين الأرحام؛ لأجل ألّا تشيع الرذيلة، وبالتالي إذا أمنت -عبر المحارم، وضمن الضوابط التي ذكرتها الآية وشرحتها السنة-؛ فعندها ما جعل الله علينا في الدين من حرج، فإن هذه الآية الكريمة عالجت الأمراض القلبية، والفعلية، وكافة أشكال المتاعب التي تنجم عن تلك المحظورات، بما يعزز السماحة في شتى مناحيها[٢].

ويمكن الوصول في خاتمة هذه الجزئية إلى نتيجة، وهي: أن القرآن الكريم عالج جانب السماحة مع الأسرة في شتى الجوانب، وترك للسنة النبوية شرح ما أجمل ذكره، ولأن دراستنا هذه تفسيرية قرآنية؛ فإننا اكتفينا بذكر ما أوضح القرآن ذكره، ومقاصده العامة، مع اليقين التام بأنه لم يخل جو السماحة في الأسرة، حتى في القسوة الظاهرة، فهي لأجل الرحمة.

ثانيًا: سماحة الإسلام مع المجتمع:

بيّن الله تعالى في كتابه أن المؤمنين الذين يحبّهم ويحبونه، من أخص خصوصياتهم أنهم أذلة على المؤمنين؛ لكنهم في نفس الوقت أعزة على الكافرين.

وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

(١) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٥/ ٢٧٨. ٥/ ٢١٨.

(٢) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٦٠٧.

إن الله تعالى أنبأ في هذه الآية الكريمة عن قصة أبي بكر الصديق البطولية في حرب أهل الردة، فإن هذه الآية تفترض أنه إن ارتدّ أحدٌ عن الإسلام، -كالذين فرّقوا من المرتدين بين الصلاة والزكاة-؛ فإن الله تعالى سوف يأتي بقوم، أمثال أبي بكر الصديق، ومن تبعه بعد عزمه الأكيد، هؤلاء القوم يتمتعون بصفات، منها: أنهم أصفياء الصدور، ملتصقون بالله تعالى في شتى مناحي حياتهم.

وبالتالي فإن الله تعالى يحبهم، وتحصيل حاصل فإنهم يحبون الله عز وجل، وهم مع ذلك ليّنوا الجانب، في أقوالهم وهيئاتهم مع المؤمنين، وبالتالي يحافظون على سلامة المجتمع من التفكك، وتحصين الجبهة الداخلية للمؤمنين، وهم يتعالون عن الهفوات، التي قد تصدر من البعض.

وفي مقابل ذلك، فهم أشداء في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم على الكفار، فلا مداهنة ولا مجاملة لأولئك البعداء، ودليل ذلك أنهم يجاهدون في سبيل الله تعالى وحده، ولا يخافون لومة لائم من الناس عمومًا، وكل هذه الشمائل والصفات الخيّرة إنما هي بفضل من الله تعالى وحده، والله واسع عليم[(١)].

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٤٧، تفسير الراغب ٤/ ٣٧٩، الكشاف، الزمخشري ١/ ٦٤٣.

وهذه الآية لا تتكلم عن جانبٍ حدث، أو سيحدث في حياته، وإنما تتكلم عن جانبٍ سيحدث بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، وبالتالي فإن هذه الآية مدحٌ ضمنيٌّ لسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومن ثم الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

وجاء في لفظة (يرتدّ) قراءتان، هما (يرتدد) حيث قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي، و(يرتدّ) التي ذكرناها، حيث قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر[(٢)].

وكلتاهما لغتان؛ حيث إنه من شدّد الدال وأدغمها؛ قرأ بها على لغة من لغات العرب، وكذلك من خفف الدال، ولم يدغمها، وحرّك الدّالين[(٣)].

ويلاحظ أن هذه الآية فسّرت الرحمة المذكورة في آية الفتح بأنها الذلة، ففي قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩].

دليلٌ عمليٌّ على ضرورة أن يغلب على المجتمع المؤمن الرحمة فيما بينهم، والتي تعني الذلة، بأن يعفو بعضهم عن زلات

(٢) انظر: السبعة في القراءات، ابن مجاهد ص٢٤٥، المبسوط في القراءات العشر، ابن مهران الأصبهاني ص١٨٦.

(٣) انظر: معاني القراءات، الأزهري ١/ ٣٣٤، الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه ص١٣٢، الحجة للقراء السبعة، أبو علي الفارسي ٣/ ٢٣٢.

بعض، فهم فيما بينهم أولياء لبعضهم بعضًا.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وإن الرجولة الحقيقية كما تذكر الآية ليست في العزة على المؤمنين، بل في الذلة لهم، ومن ثمّ الشدة على الكفار، وعدم الخوف من لوم الناس لهم في جهادهم ضد الباطل، وبهذا تتجسّد السماحة بحقيقتها في المجتمع المسلم؛ إذ إن المؤمن يجتهد في أن تكون دعوته إلى ربه تعالى مشتملة على شتى معاني الحب والحنان والاحترام لكل أبناء المجتمع الإسلامي.

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١١-١٣].

فالقرآن الكريم منع الاستهزاء من المؤمنين لبعضهم بعضًا، ولا التنابز بالألقاب؛ فقد يكون ذلك موصلًا إلى الفسوق، ومنع كذلك الظن السوء بالمجتمع المسلم، مع ما يجره من تجسس، وغيبة.

وبالتالي فإن هذا كله يودي بحياة مجتمع الفضيلة، ولذلك فإن القرآن يستدرك ببيان أن معيار الأكرم هو الأتقى، وبالتالي لابدّ من التوحد بين أوساط المجتمع، فإن تقسيم المجتمع إلى شعوب وقبائل، لا يجمعه إلا الإيمان.

وعلى ذلك فإن جانب السماحة لا بد أن يسود هذا المجتمع؛ حتى يسود النظام الإسلامي الذي يستوفي شتى متطلباته عن طيب نفس من الجميع[1]، وهذا هو تحكيم الشريعة على حقيقتها.

لقد سطّر الإسلام أروع معاني إحسان الظن، والعفو عمّن أساء الظن، وليس أدلّ على ذلك من حادثة الإفك، وبالتالي فإن الله تعالى خلّد ذكر هذه القصة بتفصيلاتها في سورة النور، ومنها قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٩٧، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٤/ ٢٦٣.

السماحة في الخصومات

أولًا: مقابلة الإساءة بالإحسان:

المجتمع المسلم متسامح فيما بينه بطبعه، ومن علامات السماحة، أنه يقابل الإساءة بالإحسان، وسيمثل هذا المطلب إن شاء الله نموذجًا قرآنيًا يوضح معالم الإحسان في مقابل الإساءة، وذلك في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

حيث تبين هذه الآية أنه في سياق بناء المجتمع الإسلامي على أروع معاني إرساء الفضيلة، تبين هذه الآية الكريمة خلقًا عظيمًا، وهو العفو، فكما بينت الآية السابقة أن الكفار إن يدعوا من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم، لا يسمعوا، وهم ينظرون إليه صلى الله عليه وسلم، ولكنهم لا يبصرون الحق، وبالتالي عدم الالتزام في القلب، ولا في القول، ولا في العمل للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته.

وتأتي هذه الآية الكريمة لتأمر النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم، على وجه الإلزام والإيجاب بالعفو، الذي هو من ألفاظ الأضداد، فهو محو سيئاتهم من ذاكرته صلى الله عليه وسلم، وفتح صفحة جديدة، وهو أيضًا العفو الذي هو بمعنى الفضل والزيادة، فالمقصود إذًا في هذه الآية الكريمة أن يأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم الخير من حياة الناس في أخلاقهم وأعمالهم، في كافة أوساط المجتمع المسلم، وذلك بعد التصفية والتنقية، عليك أن تأمر بالمعروف كله، وحتى لا تتأثر نفسية الداعية سلبًا تجاه أهل السوء يجب الإعراض عن الجهلة، الذين يفسدون المجالس بسوء نية أو بسوء عملٍ، أو بكليهما[(١)].

ثانيًا: السماحة في الحقوق:

إن السماحة ما تركت مجالًا من المجالات إلا كانت الركن الأساس في روحه وجوهره، ومن ذلك الحقوق، وفيما يأتي ذكرٌ للسماحة في بعض الفروع الحقوقية:

١ . القصاص.

من سماحة الإسلام أنه جعل القصاص حقًّا لمن وقع عليه الظلم بما يوجب حدًّا؛ لكنه ذكر ضابط القصاص، وهو ما يعني المماثلة في العقاب دون إسراف، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

فقد بينت الآية أنه لا يجوز قتل النفس

---

(١) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ١٦٢، تفسير السمرقندي ١/ ٥٧٦.

عمومًا، فكلها حرّم الله قتلها إلا بحقها، وحق النفس في قتلها لا يكون إلا بإحدى ثلاث.

وهو ما ذكر في الحديث المتفق عليه، عن عبد اللّه، قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: (**لا يحلّ دم امرئٍ مسلم، يشهد أن لا إله إلّا اللّه وأنّي رسول اللّه، إلاّ بإحدى ثلاثٍ: النّفس بالنّفس، والثّيب الزّاني، والمارق من الدّين التّارك للجماعة**)[1].

وتبين الآية أيضًا أن الذي يقتل عمدًا من غير هذه المسوغات الثلاثة، فقد جعل الله تعالى له وليًّا، وهو ورثته مهما تعددت، وبالتالي يكون القاضي هو السلطان، يخير الأولياء بين القصاص من القاتل نفسه دون إسراف إلى غيره، أو الدية، وتسمى الدية في هذه الحالة عفوًا؛ لأنها محوٌ لحكم القتل الذي هو قصاص[2].

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

فالعفو هنا ترك الدم، وبقاء الدية[3]، فالأمر حينها لأهل القاتل العمد بالأداء الحسن لهذه الدية، واتباع المعروف، أي: المطالبة بالدية من أهل المقتول[4].

٢. الدعاوي والقضاء.

قصة بني أبيرق، التي تدلل على عظيم سماحة الإسلام، وبقيت الآيات الاثنتا عشرة شاهدًا حيًّا على تلك السماحة، في أروع قسطٍ عرفه التاريخ.

وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: (أن النفس بالنفس)، ٩/ ٥، رقم ٦٨٧٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب ما يباح به دم المسلم، ٣/ ١٣٠٢، رقم ١٦٧٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٤٠، أحكام القرآن، الكيا الهراسي ٤/ ٢٥٩.

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٢٤٨.

(٤) انظر: المصدر السابق.

بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ
مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ
وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ
ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ
وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا
خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ
أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَن
يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا
﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا
بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٠٥-١١٦].

عن قتادة بن النّعمان رضي الله عنه، أن بني أبيرقٍ بشرًا وبشيرًا ومبشّرًا، وكان أحدهم منافقًا يهجو بشعره أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ثمّ ينحله بعض العرب، ثمّ يقول: قال فلانٌ كذا وكذا، فإذا سمع أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ذلك الشّعر قالوا: واللّه ما يقول هذا الشّعر إلّا هذا الخبيث، أو كما قال الرّجل، وقالوا: ابن الأبيرق قالها، قال: وكانوا أهل بيت حاجةٍ وفاقةٍ، في الجاهليّة والإسلام، وقد ابتاع رفاعة بن زيدٍ بضاعةً، فلمّا أصبح أتى رفاعة إلى قتادة بن النعمان، فقال: يا ابن أخي إنّه قد اعتدي علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مشربتنا فذهب بطعامنا وسلاحنا. قال: فتحسّسنا في الدّار وسألنا فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرقٍ استوقدوا في هذه اللّيلة، ولا نرى فيما نرى إلّا على بعض طعامكم.

قال: وكان بنو أبيرقٍ قالوا ونحن نسأل في الدّار: واللّه ما نرى صاحبكم إلّا لبيد بن سهلٍ، رجلٌ منّا له صلاحٌ وإسلامٌ، فلمّا سمع لبيدٌ اخترط سيفه وقال: أنا أسرق؟

فواللّه ليخالطنّكم هذا السّيف أو لتبيّننّ هذه السّرقة، قالوا: إليك عنها أيّها الرّجل فما أنت بصاحبها، فسألنا في الدّار حتّى لم نشكّ أنّهم أصحابها، فقال لي عمّي: يا ابن أخي لو أتيت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له.

قال قتادة: فأتيت رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقلت: إنّ أهل بيتٍ منّا أهل جفاءٍ، عمدوا إلى عمّي رفاعة بن زيدٍ فنقبوا مشربةً له، وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردّوا علينا سلاحنا، فأمّا الطّعام فلا حاجة لنا فيه، فقال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: (سآمر في ذلك).

فلمّا سمع بنو أبيرقٍ أتوا رجلًا منهم يقال له: أسير بن عروة فكلّموه في ذلك، فاجتمع في ذلك ناسٌ من أهل الدّار، فقالوا: يا رسول اللّه إنّ قتادة بن النّعمان وعمّه عمدا إلى أهل بيتٍ منّا أهل إسلامٍ وصلاحٍ،

يرمونهم بالسّرقة من غير بيّنةٍ ولا ثبتٍ، قال قتادة: فأتيت الرسول صلى الله عليه وسلم فكلّمته، فقال: (عمدت إلى أهل بيتٍ ذكر منهم إسلامٌ وصلاحٌ ترميهم بالسّرقة على غير ثبتٍ وبيّنةٍ).

قال: فرجعت، ولوددت أنّي خرجت من بعض مالي ولم أكلّم رسول اللّه صلى الله عليه وسلم في ذلك، فأتاني عمّي رفاعة فقال: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، فقال: اللّه المستعان، فلم يلبث أن نزل القرآن بهذه الآيات[(١)].

وقد حفل القرآن الكريم بذكر جوانب عديدة من السماحة في الخصومات، بما يعزز جانب الأخلاق الرفيعة التي حظيت بها دعوة الإسلام.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة النساء، ٥/ ٢٤٤، رقم ٣٠٣٦.
وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/ ٢٢٦.

جزاء اهل السماحة في الدنيا والأخرة

باستعراض ما سبق يظهر أن روح السماحة كان في الجو العام للآيات القرآنية، وكان من الطبيعي أن يورث هذا الموضوع ثمرات لمن يلتزمون خط السماحة في دراستهم القرآنية، وفيما يأتي الحديث عن جزاء أهل السماحة في الدنيا والآخرة.

أولًا: الجزاء في الدنيا:

١. السمعة الطيبة، والمناقب الحسنة.

وهو ما يوضحه قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فإن مفهوم المخالفة أن السمعة الطيبة والمناقب الحسنة، كانت بسبب سماحة الرسول صلى الله عليه وسلم، في تعامله مع المسلمين، رغم مخالفتهم لاجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم في قضية القتال داخل المدينة، أو خارجها يوم أحد، فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم درسًا عمليًّا مؤلمًا بوجوب الالتزام بأمره صلى الله عليه وسلم، وعدم النزول عند آرائهم؛ لأنها النبوة، وما أن تكشّفت نتائج المعركة؛ حتى

لان في القول، وأصبح يخفف عنهم، ويؤمر بالعفو عنهم والاستغفار، ومن ثمّ معاودة مشاورتهم؛ لكن إذا عقد العزم على القيام بالمهمة، فليقم بها، وليتوكل على الله تعالى وحده[1].

٢. دفع الأذى بجميع مناحيه عن أهل السماحة.

ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٤-٩٥].

فإن الصدع بالحق، والالتزام بما أُمر به النبي صلى الله عليه وسلم أكبر دليل على السماحة، فهم قد تجرؤوا في ارتكاب الباطل كثيرًا، والتبجح، ومع ذلك فالأمر للنبي محمد صلى الله عليه وسلم بالانضباط العالي بتعاليم الحق، والبشرى له صلى الله عليه وسلم بأن الله تعالى كفاه المستهزئين، فذلك ثمرة من ثمرات السماحة التي تحلى بها خير الخلق، وحبيب الحق محمد صلى الله عليه وسلم[2].

٣. زيادة الإيمان في القلب.

فإن الصحابة رضي الله عنهم في حمراء الأسد حينما قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم، وهم كفار قريش، لم يضعف أملهم في الانتقام مما حدث في غزوة أحد، أو يداخلهم الرعب، وإنما لجأوا إلى الله تعالى، واكتفوا بالله تعالى حسيبًا ونصيرًا، فكانت النتيجة أنهم أصيبوا بالنعم الجمة، ولا يمسهم السوء، وأنهم هدوا إلى رضوان الله تعالى[3].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

الهداية إلى القول الحسن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٣-٢٤].

٤. الوقاية من المكر الذي يحيكه الكفار.

كما في قصة مؤمن آل فرعون.

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٤٠، الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ١٩٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ٣٩٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٣/ ٨١٧.

ثانيًا: الجزاء في الآخرة:

٤. الهداية إلى صراط الحميد، كما ذكرت الآية السابقة.

٥. الدخول في الجنة، كما سبقت الإشارة في قصة حبيب النجار.

٦. الرضا من الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧-٨].

وغير ذلك من الفضائل التي تدلل على أن القرآن الكريم بيّن ثمرات أهل السماحة في الآخرة، كما بيّنها في الحياة الدنيا.

موضوعات ذات صلة:

الرحمة، العفو، اليسر



عناصر الموضوع

مفهوم السمع	٣٧٢
السمع في الاستعمال القرآني	٣٧٣
الألفاظ ذات الصلة	٣٧٤
اقتران السمع والبصر	٣٧٧
السمع في حق الله عز وجل	٣٧٩
مسؤولية السمع	٣٨٠
أساليب ذكر السمع في القرآن الكريم	٣٨٣
مجالات السمع	٣٨٧

مفهوم السمع

أولًا: المعنى اللغوي:

السمع: مصدر سمع، والسمع: حِسّ الأذن[1]، يقول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[الأعراف: ١٩٥].

يقال: «سمعته وسمعت به، واستمعوه وتسامعوا به، واستمع إلى حديثه، وألقى إليه سمعه، وملأ مسمعيه ومسامعه وسامعته، وهو مني بمرأى ومسمع. وسمّع به: نوّه به. وفعل كذا رياء وسمعة، وإنما يفعل هذا تسمعة وترئية، وذهب سمعه في الناس: صيته»[2].

والاستماع: الإصغاء بقصد الفهم، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ﴾ [الأعراف: ٢٠٤][3]، ومنه التسمّع: الإصغاء خفية؛ وهو مصدر تسمّع؛ أي: أصغى إليه خفيةً[4].

ويعتبر أحد الحواس الخمس المعروفة: السمع، البصر، الذوق، اللمس، الشم.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

وقد جاء تعريفه في كتب الاصطلاح أنه: «قوة في الكائن الحي تدرك بها الأصوات بواسطة الأذن»[5].

وهذا على عمومه في الكائنات الحية، أما باعتبار تخصيص الإنسان فيمكن تعريفه بأنه: الحاسة التي وهبها الله للإنسان؛ ليتمكن بها من إدراك الكلام والأصوات.

(١) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ١/ ٥١١.
(٢) أساس البلاغة، الزمخشري١/ ٤٧٤.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٩.
(٤) ٤ انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة أحمد مختار عبد الحميد عمر ٢/ ١١٠٨.
(٥) ٥ انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ٢٢، التعريفات، الجرجاني، ص ١٦١.



السمع في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سمع) في القرآن الكريم (١٨٥) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣٤	﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧﴾ [الملك:٧]
الفعل المضارع	٦١	﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾ [الزخرف:٨٠]
الفعل الأمر	١٣	﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾ [يس:٢٥]
المصدر	٢٢	﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩﴾ [السجدة:٩]
اسم الفاعل	٣	﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ٢٢﴾ [فاطر:٢٢]
اسم المفعول	١	﴿وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ﴾ [النساء:٤٦]
الصفة المشبهة	٤٧	﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى:١١]
صيغة المبالغة	٤	﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ [المائدة:٤٢]

وجاء السمع في القرآن على ثلاثة أوجه[(٢)]:

الأول: سمع الصوت: ومنه قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ [الفرقان: ١٢].

الثاني: سمع القلب وفهمه: ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ [الكهف: ١٠١] يعني: لا يستطيعون سمعًا بقلوبهم وفهمًا للحق.

الثالث: الإجابة والقبول: ومنه قوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٨] يعني: مجيب الدعاء.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٥٨-٣٦١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب السين ص٦٣٤-٦٣٨.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ٢٦١-٢٦٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٢٥٧-٢٦٠، نزهة الأعين النواظر، ص٣٤٥-٣٤٦، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٢٢١-٢٢٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ البصر:

البصر لغة:

قوة في الكائن الحي تدرك المرئيات بواسطة العين[١].

البصر اصطلاحًا:

هو تلك القوة الربانية التي أوجدها الله في عيني الإنسان ليدرك بها ما حوله، وأودعها في قلبه وعقله ليميز بين الخبيث والطيب، ويختار لنفسه الطريق الصحيح.

الصلة بين السمع والبصر:

هناك فرقان بارزان بين السمع والبصر:

الأول: فرق في الآلة فهي في السمع: الأذن، وفي البصر: العين، وكلاهما يحتاج إلى العقل المدرك؛ ليدلا على الاصطلاح القرآني لهما، وبدونه تكون الدلالة فيهما على المعنى اللغوي فقط.

الثاني: في المدركات بهما؛ فالمدركات بالسمع الكلام والأصوات، والمدركات بالبصر الصور الهيئات.

٢ الاستماع:

الاستماع لغة:

سماع الكلام بقصد، والإقبال عليه؛ للاستفادة منه[٢].

الاستماع اصطلاحًا:

الإقبال بالسمع؛ للتفهم والاعتبار[٣].

الصلة بين السمع والاستماع:

في اللغة السمع يكون بدون قصد، بينما الاستماع مصحوبًا بقصد.

وقيل: السمع هو صفة موهوبة، والاستماع فعل مكتسب[٤].

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٤٦.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٩.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٩، معجم الصواب اللغوي أحمد مختار عمر ١/ ١١٧.
(٤) انظر: المصادر السابقة.

٣ الإنصات:

الإنصات لغة:

يدل على السكوت والاستماع للحديث، يقال أنصت: إذا سكت سكوت مستمعٍ[١].

الإنصات اصطلاحًا:

هو سماع للكلام المؤدي إلى النظر والاستدلال، والاهتداء بما جاء في القرآن[٢].

الصلة بين السمع والإنصات:

يزيد الإنصات عن السمع؛ بكونه مصحوبًا بالنظر والاستدلال، زيادة على الفهم الأوليّ، فقد يفهم المرء الكلام فهمًا نافعًا بعد سماعه، لكنه إذا تأمله ونظر فيه؛ خرج منه بفوائد وأحكام زائدة.

٤ الإصغاء:

الإصغاء لغة:

والإصغاء: الإمالة[٣]، وكل شيء مال إلى شيء أو معه[٤]، ويقال: أصغى إليه برأسه وبأذنه: أمالها يسمع، والإناء: أماله؛ ليصب ما فيه[٥].

الإصغاء اصطلاحًا:

هو ميل القلب وهواه للكلام[٦].

الصلة بين السمع والإصغاء:

السمع هو القوة التي يسمع بها المرء الأصوات، من غير ميل سابق لمعناها، أما الإصغاء فهو استماع لما يهواه المرء.

وقيل: السمع: هو الصفة التي يستطيع المرء بها فهم الكلام النافع، وتدبره والانتفاع به، أما الإصغاء: فهو استماع كلام الباطل، والميل له ومحبته.

(١) الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٣٨.
(٣) العين، الفراهيدي ٤/ ٤٣٢.
(٤) كتاب الأفعال، ابن القطاع ٢/ ٢٥٦.
(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١/ ٥١٥.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٩.

٥ الصمم:

الصمم لغة:

الصمم آفة تمنع من السمع، وتضعفه، وأصله الصلابة، ومنه الحجر الأصم[(١)].

الصمم اصطلاحًا:

انعدام سماع الحق والخير والهدى على سبيل الاتباع والانتفاع[(٢)].

الصلة بين الصمم والسمع:

هي علاقة تناقض، فهو على النقيض من السمع لغة واصطلاحًا.

٦ الوقر:

الوقر لغة:

هو الثقل في الأذن، ويطلق على الثقل المحمول[(٣)]، «ويقال للذي يسمع بعض السمع، في أذنيه وقر»[(٤)].

الوقر اصطلاحًا:

ثقل عن فهم ما يتلى عليهم من القرآن، وما يدعوهم إليه النبي من الإيمان[(٥)] فهمًا ينفعهم.

الصلة بينه الوقر وبين السمع:

علاقة تضاد، فقد يجتمع للإنسان سمع ضعيف، وصمم ضعيف؛ فيكون سببه الوقر، وهو الثقل في الأذن، وفي الاصطلاح: يسمع الإنسان القرآن ويفهمه، لكن لا ينتفع به؛ فيكون بسبب ما جعله الله من الوقر في أذنه بسبب إعراضه.

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ٨٨، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٣٤٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٥١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٣٣١.

(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ٢١٥، الصحاح، الجوهري ٢/ ٨٤٨، مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٣٢.

(٤) المخصص، ابن سيده ١/ ٩٢.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٠٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٠.



اقتران السمع والبصر

قرن الله عز وجل في القرآن ذكر السمع مع البصر المتعلقان بالإنسان في (٣٨) آية كريمة.

وقد قدم القرآن ذكر السمع على البصر في أكثر الآيات، مما يدل على الأهمية الكبرى للعمل الذي يقوم به السمع في حياة الإنسان تعلّمًا وتعليمًا.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل:٧٨].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة:٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١﴾ [يونس:٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [المؤمنون:٧٨].

وغيرها من مواضع.

وقد استنبط العلماء المعاصرون من تقديم السمع على البصر حِكَمًا عديدة، منها:

١. فضل السمع على البصر إذ تعتبر حاسة السمع أهم للإنسان من حاسة البصر؛ لأن الفرد الأعمى يعتبر معزولًا عن عالم الأشياء، أما الأصم فإنه يعتبر معزولًا عن عالم البشر[(١)].

٢. تأكيد الدور الذي تقوم به الأذن؛ إذ إن الاحساسات الصوتية التي يسمعها الإنسان بأذنيه تصل مستوى الوعي أحسن من تلك التي تصله عن غير طريقهما كالبصر مثلًا، والذاكرة السمعية أرسخ من الذاكرة البصرية[(٢)]، وما أجمل الوصف القرآني للدور الإيجابي الذي تقوم به الأذن في وعي المؤمن إذ يقول تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢﴾ [الحاقة:١٢].

٣. وفي تقديم السمع على البصر لمحة إعجازية طبية إذ ثبت علميا أن «جهاز السمع يتطور ويتكامل جنينيًّا قبل جهاز

(١) انظر: الإدراك الحسي البصري والسمعي، السيد علي سيد أحمد وفائقة محمد بدر، ص: ٢٥٣.

(٢) انظر: الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في السمع والبصر، صادق الهلالي، مجلة الإعجاز، ص: ٩-١٠.

البصر»[1]، فبعد تبصرنا في الحقائق العلمية التي عرفت حديثًا في علوم الأجنة والتشريح والفيزولوجيا والطب اتضح لنا الإعجاز العلمي في الآيات الكريمة التي تقدم فيها السمع على البصر، وخلاصة ما قاله العلماء في هذا المجال: هو أن القرآن الكريم قدم حاسة السمع على حاسة البصر ليشير إلى حقيقة علمية تتعلق بزمن تكون حاسة كل منهما وتشكلها، فحاسة السمع تتكون وتتشكل قبل حاسة البصر حسب الآتي:

- جهاز السمع يتطور جنينيًّا قبل جهاز البصر، ويتكامل وينضج حتى يصل حجمه في الشهر الخامس من حياة الجنين الحجم الطبيعي له عند البالغين، بينما لا يتكامل نضوج العينين إلا عند السنة العاشرة من العمر.
- يبدأ الجنين بسماع الأصوات وهو في رحم أمه وفي الشهر الخامس من حياته الجنينية، ولكنه لا يبصر النور والصور إلا بعد ولادته.
- تتطور وتنضج كل المناطق والطرق السمعية العصبية قبل تطور ونضوج مثيلاتها البصرية بفترة طويلة نسبيًّا.

فكل الآيات التي تشير إلى خلق الإنسان ونشأته وذكر فيها السمع والبصر، قدم السمع على البصر؛ قد يكون -والله أعلم- الغاية منه إظهار هذا الإعجاز العلمي الذي لم نهتد لمعرفته إلا مؤخرًا بعد سبر غور الحقائق العلمية الحديثة التي أثبتت قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ [فصلت:٥٣][2].

ويلاحظ أيضًا أن القرآن الكريم يفصل عند كلامه عن السمع والبصر بين أداة الحس (العين والأذن)، وقوة الإدراك (السمع والبصر)، فعند كلامه عن أداة الحس العين والأذن يقدم العين على الأذن، وذلك لأن العين تقع أمام الأذن في صنعة الله في رأس الإنسان، وهما أداتان لنقل الإشارات الحسية السمعية والبصرية إلى حيث يتم إدراكها وفهمها داخل مراكز السمع والبصر في المخ.

فمثلًا يقول الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾ [المائدة:٤٥].

وأما إذا تكلم القرآن عن السمع والبصر

---

(١) انظر: المصدر السابق ص٧.

(٢) انظر: الإعجاز العلمي في السمع والبصر في القرآن الكريم، صادق الهلالي، وحسين اللبيدي، هيئة الإعجاز العلمي، جدة ١٤٢٧/ ٢٠٠٦، ط٣، ص: ١٧-٢٨.

كقوى مدركة فيقدم السمع، وذلك لأن مركز السمع يتقدم على مركز البصر داخل المخ البشري، وهنا موطن الإعجاز في تطابق الإخبار عن هذين الأمرين.

وخلاصة القول في الإعجاز المتعلق بآيات السمع والبصر: أن هذه الآيات «فصلت بين الأعضاء (العين والأذن)، وبين القوى المدركة (السمع والبصر) وفي صنعة الله ما يطابق ذلك، فهناك أعضاء حس لاستقبال المؤثرات الحسية، وهناك مراكز داخل المخ البشري تتم فيها عملية الإدراك والفهم لهذه المؤثرات الحسية.

وأيضًا من ناحية الترتيب نجد أن الحق سبحانه رتب الآيات : العين قبل الأذن، والسمع قبل البصر، في غالب القرآن وها هو العلم اليقيني قد أثبت أنه بينما تتقدم العين الأذن في رأس الإنسان، فإننا نجد عكس ذلك الترتيب بالنسبة للمراكز، فمركز السمع يتقدم مركز الإبصار في قشرة المخ البشري. إذن طابق كلام الله صنعة الله، إنه الإعجاز: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ①﴾ [هود:١]»[١].

السمع في حق الله عز وجل

من صفات الله تعالى وأسمائه السميع، وهذا الأمر من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، وقد دل على ذلك آيات كثيرة في القرآن الكريم، وقد ذكر الله تعالى هذا الاسم الكريم في القرآن الكريم ثمان وثلاثين مرة بصيغة فعيل منكرًا ومعرفًا: (سميع).

وذكر هذا الوصف بصيغة الماضي (سمع) والمضارع (يسمع) و (نسمع)، وصيغة التعجب (أسمع).

وقد جاء ذكر سمع الله تعالى مقترنًا بأمور هي:

١. اقترنت صفة السمع في معظم آيات القرآن بصفة العلم، بل تقدمت عليها[٢]، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة:١٢٧].

٢. اقترنت أحيانًا صفة السمع بالبصر كما في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى:١١].

٣. اقترنت صفة السمع بالقرب، كما

---

(١) انظر: الإعجاز العلمي في السمع والبصر في القرآن الكريم، صادق الهلالي، وحسين اللبيدي، هيئة الإعجاز العلمي، ص ٥١.

(٢) انظر: معجم كلمات القرآن العظيم، محمد عدنان سالم و محمد وهبي سليمان، ص ٦٠٧-٦٠٨.

في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠﴾ [سبأ:٥٠].

ولعل اقتران صفة السمع بصفات البصر والعلم والقرب للدلالة على حضور هذه الصفة في كل آن وفي كل مكان، فكما أن الله تعالى يرى ويعلم كل شيء، وهو قريب من كل شيء، فهو كذلك يسمع كل شيء، سبحانه ما أعظم شأنه وما أجل سلطانه.

وقد ذكر الإمام البيهقي في كتابه الأسماء والصفات في: باب ما جاء في إثبات صفة السمع، أحاديثَ عديدة دالة على ثبوت صفة السمع لله تعالى[1].

ومنها: عن عائشة رضي الله عنها قالت: (الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١])[2].

(١) انظر: الأسماء والصفات، البيهقي، ص ٢٨٨-٢٩٢.

(٢) علقه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (وكانه الله سميعًا بصيرًا)، ٩/ ١١٧، وأخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، ١/ ٦٧، رقم ١٨٨.
وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٧/ ١٧٥.

مسؤولية السمع

إن الله تعالى وهبنا نعمًا كثيرة لا تحصى، ومنها نعمة السمع التي تستحق منا شكره عليها، ولكن قليلًا من الناس من يشكر الله على هذه النعم.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [المؤمنون:٧٨].

وقد حملنا الله مسؤولية تجاه هذه النعمة التي سيسألنا عنها، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء:٣٦].

لذا فمسؤوليتنا تجاه السمع تكون بأن نستخدمه في الأمور النافعة لنا في دنيانا وأخرانا، وأن نصونه عما يضرنا في دنيانا وأخرانا.

أولًا: استخدام السمع في الأمور النافعة:

ومن ذلك:

- استخدام السمع في التعلم والتدبر وأخذ العبرة.

جعل الله السمع وسيلة أساسية في التعلم وتلقي العلوم، ولولاه لما استطاع الإنسان أن يتعلم العلم النافع. وجعل الله السمع أيضا وسيلة لإدراك عظمة الله وأخذ العبرة عبر إدراك آياته في الأنفس وفي الآفاق أو

في التاريخ، فقال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الروم:٢٣].

فالنوم ليلًا أو نهارًا هو من الآيات الدالة على قدرة الخالق سبحانه، وطريقة معرفة كونه آية من آيات الله هو الاستماع لأهل العلم والاختصاص، ولا يتم ذلك إلا بحاسة السمع، وكذلك فمن لم يتأمل آيات الله في النوم فهو كالنائم الذي لا يسمع.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة:٢٦].

فقال: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ لأن طريقة معرفة إهلاك القرون الأولى إنما وصل إليهم عن طريق السمع، وليس عن مجرد التفكير والاستنباط، فمن كانت له أذن واعية يتعظ ويهتدي.

* حث المؤمنين على الاستماع للقرآن الكريم وطاعة أوامر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

أي كتاب أجدر من كتاب الله تعالى بالاستماع إليه والتأمل فيه وتدبره والعمل به؟

ولا يكون ذلك إلا بالاستماع إلى آياته، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف:٢٠٤].

ومدح الله المؤمنين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر:١٨].

ومدح الله تعالى وفد النجاشي الذين استمعوا للقرآن وآمنوا به، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٨٣].

وبالمقابل ذم الله تعالى الذين لا يستمعون للقرآن فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾ [الجاثية:٧-٨].

وقال أيضًا: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنبياء:٢].

وإن قسمًا من هؤلاء الكافرين ينهى عن الاستماع للقرآن، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت:٢٦].

ومن سمات المؤمنين أنهم بمجرد سماع أوامر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فإنهم يطيعون.

قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ

﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ [التغابن:١٦].

وقال تعالى أيضا: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور:٥١].

خلافًا للكافرين الذين ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة:٩٣].

ثانيًا: صيانة استخدام السمع في الأمور الضارة:

❁ صيانة السمع عن الغيبة وإشاعة الأخبار الكاذبة.

جعل الله عرض المسلم محرمًا على غيره من المسلمين، فلا يجوز قدح المؤمنين وذمهم وخصوصًا عند غيابهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات:١٢].

فمن سمع الغيبة يشترك مع المغتاب في أكل لحم أخيه ميتًا.

ومن باب الحفاظ على عرض المسلم أن لا يتكلم المرء بكل ما ينقل له عن المسلمين، بل عليه أن يتأكد ويتحرى قبل أن ينقل أي كلام، ولهذا قال الله تعالى معاتبًا الذين سمعوا حادثة الإفك وأشاعوها، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور:١٦].

وكذلك فإن المسلم عليه أن يتحرى كل ما ينقل إليه من الناس الفاسقين.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات:٦].

وقد مدح الله نبيه صلى الله عليه وسلم لما ذمه المنافقون بأنه يصدق كل ما يقال له، فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ [التوبة:٦١].

فالمؤمن أذن خير ينقل الخير ولا ينقل الشر، ويتحرى في نقله.

❁ صيانة السمع عن الاستماع للخائضين في ذم الدين الإسلامي.

نهى الله تعالى المؤمنين أن يجلسوا في مجلس فيه كفر بالله وآياته، أو فيه استهزاء بأي شيء متعلق بالإسلام، فقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [النساء:١٤٠].

فالمسلم يصون سمعه عن مجالسة المفسدين في الأرض الذين يذمون الإسلام والمسلمين بإعلامهم الكاذب، ويحبون

أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين، ويذيعون الأخبار الكاذبة عنهم، ويخوفون المؤمنين من تطبيق أحكام الشريعة وغيرها، قال الله تعالى يذم المنافقين الذين يفشون أسرار المؤمنين لأعدائهم: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء:٨٣].

ومن هؤلاء الأشرار ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان:٦] فيصد الناس عن دين الله وطاعته، وما يقرّب إليه من قراءة قرآن وذكر الله، وذلك بالغناء والاستماع له، وبكل ما كان من الحديث ملهيا عن سبيل الله مما نهى الله عن استماعه أو رسوله، فعن مجاهد: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ قال: الغناء والاستماع له وكل لهو.

وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قال: هؤلاء أهل الكفر، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [لقمان:٧].

فليس هكذا أهل الإسلام، فسمع المؤمن يشبه النحلة التي تقع على الزهور فتخرج منها عسلا صافيا فيه شفاء للناس، وأما المنافق والكافر فسمعه كالذباب لا يقع إلا على الأوساخ.

أساليب ذكر السمع في القرآن الكريم

تنوّعت أساليب القرآن الكريم في الحديث عن السمع، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: أسلوب المدح:

قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

فقد مدح الله تعالى أصحاب العقول والحجا، الذين يستمعون القول، ويفهمون ما سمعوه، ويستثمرون فهمهم في العمل الصالح، ويتبعون أرشده وأهداه، وأدله على توحيد الله والعمل بطاعته، ويتركون ما سوى ذلك من القول الذي لا يدل على رشاد، ولا يهدي إلى سداد، فأولئك وفقهم الله للرشاد وإصابة الصواب، لا الذين يعرضون عن إصابة الحق ويعبدون ما لا يضر ولا ينفع[1].

وجعل القرآن من صفة المؤمن الإجابة لحكم الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم، ويتعرض للتعبير عن ذلك بقولهم: سمعنا وأطعنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

(١) جامع البيان ٢٢/ ٢٤٥.

[النور: ٥١].

ومن صفات المؤمنين: التأثر والخشوع عند سماع القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

ثانيًا: أسلوب الذم:

ذم القرآن أولئك الذين لا يعملون بما سمعوه من حق، وجعلهم كالصمK بل في دركة أدنى من الحيوان ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

بل جعل القرآن من لا يؤمن بما سمع من الحق كالميتK قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨٠-٨١]، فالله تعالى يعلم نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بأنه ليس بهادٍ عن الضلالة من أعماه الله عن الهدى والرشاد، وأمات قلبه، ولا يمكنه أن يسمع إلا من يصدق بآياته؛ فهم مسلمون مطيعون مستجيبون لما دعوتهم إليه[1].

وقال الواحدي: «إنهم لفرط إعراضهم عما يدعون إليه من التوحيد؛ كالميت الذي لا سبيل إلى إسماعه، وكالصم الذين لا يسمعون، وما أنت بمرشد من أعماه الله عن الهدى وأعمى قلبه عن الإيمان»[2].

ثالثًا: أسلوب الأمر:

أتى ذلك في آيات عديدة مثل قوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ٩٣].

ففي هذه الآية أمر الله تعالى بني إسرائيل بالأخذ بما نزل في كتابهم بثبات وعزم وفاعلية، ثم أمرهم بالسمع الذي يفيد الطاعة المباشرة، واختلف السياق حينما تحدث القرآن عن المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالأسلوب نفسه فقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: ١٦] فالفرق هنا أن الأمر بالسمع جاء بعد الأمر بالتقوى بقدر الاستطاعة.

وأما خطاب بني إسرائيل فكان الأمر فيه مشددًا ومؤكدًا بتذكيرهم بعهد الله عليهم بالأخذ بأوامر التوراة بقوة ونشاط وجد والاستماع والطاعة لما فيها من أوامر إلا أن بني إسرائيل تعنتوا في طاعة نبيهم موسى عليه السلام فقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾

---

(١) قال ابن جزيّ الغرناطي: «أكد عدم سماعهم بقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾؛ لأن الأصم إذا أدبر وبعد عن الداعي، زاد صممه وعدم سماعه بالكلية».
انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزيّ ٢/ ١٠٧.

(٢) الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٨٤.

[البقرة: ٩٣].

ويأمر الله تعالى المؤمنين بالاستماع والإنصات إلى آيات الله عند ما تتلى عليهم؛ ليتدبروها، ويتفكروا بها؛ طمعًا في أن تتنزل عليهم رحمة الله تعالى فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وكذلك يأمر الله تعالى الناس مؤمنهم وكافرهم أن يستمعوا المثل من أمثاله العجيبة، التي يضربها الله تعالى في القرآن؛ لإثبات وحدانيته وقدرته على الخلق والإبداع؛ فيؤمن به المؤمنون، وتقوم به الحجة على الكافرين، وليثبت لهم انتفاء ألوهية من سواه سبحانه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

فالخلق كلهم ليسوا فقط عاجزين عن خلق ذباب، بل هم أضعف من ذلك، إن سلبهم الذباب شيئًا لا يستطيعون إرجاعه؛ لأنه تحلل بمجرد امتصاص الذباب له، فمن عجز عن فعل ذلك؛ فهو عاجز -من باب أولى- أن يخلق، فإن ثبت عجزه؛ ثبت أنه ليس بإله، فكيف له أن يدعي الألوهية من دون الله تعالى ؟! ومن هنا كان جديرًا بكل الناس أن يستمعوا لهذا المثل؛ ليعتبروا.

رابعًا: أسلوب النهي:

ورد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

فجاء النهي عن أن يكون المؤمن مثل أولئك الذين أنعم الله عليهم بنعمة السمع، بيد أنهم عطلوها؛ بعدم اتباعهم للحق؛ فكأنهم لا سمع لهم أصلًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٣].

أما المؤمنون فمن صفاتهم سماع أوامر الله تعالى وطاعة تلك الأوامر؛ ولهذا مدح الله المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

خامسًا: أسلوب التوكيد:

ورد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

أكد كلامه عن وسائل المعرفة الإنسانية السمع والبصر والفؤاد بـ(إن)، و(كل)، والجملة الاسمية؛ وذلك لتمكين المعنى في نفوس المخاطبين، وهو أن وسائل المعرفة والإدراك العظيمة هذه سيسأل عنها الإنسان يوم القيامة.

ونجد أسلوبًا آخر للتوكيد في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

فقد أكد الجملة بضمير الشأن (هو)؛ ليفيد القصر والاختصاص بأنه تعالى وحده وهب الإنسان وسائل المعرفة «وإنما خص السمع والأبصار والأفئدة؛ لأنه يتعلق بها المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها، ومقدمة منافعها أن يعملوا أسماعهم وأبصارهم في آيات الله وأفعاله، ثم ينظروا ويستدلوا بقلوبهم، ومن لم يعملها فيما خلقت له؛ فهو بمنزلة عادمها، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

ومقدمة شكر النعمة فيها الإقرار بالمنعم بها، وأن لا يجعل له ندّ ولا شريك»[١].

سادسًا: أسلوب الاستفهام الإنكاري:

ورد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

فهنا أنكر على المشركين عدم استثمارهم لنعمة السمع في إدراك الحقائق الكونية والتفكر فيها، ومعرفة السنن الإلهية؛ كي يتعظوا بها، ولا سيما أن حاسة السمع جاءت في سياق الحديث عن الليل الذي تستخدم فيه هذه الحاسة أكثر من غيرها من الحواس.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

فقد أنكر على الكافرين عدم أخذهم العبرة والعظة[٢] بما سمعوه من قصص الأمم السابقة، التي أهلكها الله تعالى؛ لعصيانها وإنكارها رسالة الأنبياء عليهم السلام.

سابعًا: أسلوب القصر بـ(إنما):

ورد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦].

فهنا استخدم أسلوب القصر بإنما؛ لحصر الاستجابة لأوامر الله تعالى في الذين يستفيدون من نعمة السمع حق الاستفادة، ويوظفونها في معرفة المعبود جل جلاله وعبادته كما شرع، أما الكفار الذين حرص النبي على هداهم؛ فلا وسيلة كي يستجيبوا ويؤمنوا به؛ لأنهم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون؛ فهم موتى القلوب كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠].

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٩٨- ١٩٩.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٢٣.

فكما أن الله تعالى هو وحده قادر على أن يبعث الموتى من قبورهم، فهو وحده تعالى قادر على إحياء قلوب هؤلاء الكفار بحياة الإيمان، أما أنت يا محمد؛ فلا تقدر على ذلك.

وأما وجه تشبيه الكفرة بالموتى؛ فلأن حياة الروح بالعلم ومعرفة الخالق سبحانه وتعالى كما أن حياة الجسد بالروح[1].

ثامنًا: أسلوب النفي:

ورد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[الأعراف: ١٧٩].

نفى الحق سبحانه وتعالى عن أن يكون للكافرين سمع يرشدهم لمعرفة الحق، واتباعه، وجاءت صيغة الفعل بالمضارع للدلالة على تجدد هذا الأمر، وحدوثه عند هذا الصنف من الناس الذين ستروا نعمة الله بالكفر.

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٠.

مجالات السمع

تعددت مجالات السمع في القرآن، وهذا ما سوف نبينه فيما يأتي:

١ . ذكر السمع في مجال ذكر نعم الله على الإنسان.

فجعل الله له السمع والبصر والفؤاد؛ وذلك حتى يشكره هذا الإنسان، لا أن يكفره.

وتأتي أهمية سمع الإنسان في فهمه لأوامر الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم؛ ولهذا بين القرآن الكريم لنا نوعين من الناس:

النوع الأول: المؤمنون الذين يستمعون للقرآن وللنبي صلى الله عليه وسلم، ويتبعونهما فيما أمرا ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[النمل: ٨١].

وإذا ما استمع هؤلاء المؤمنون للقرآن يتلى؛ خشعوا، أو بكوا؛ ولهذا يكون جزاؤهم الجنة، حيث لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا ولا كذابًا، ولا يسمعون حسيس جهنم، وهم عنها مبعدون.

ومن صفات هؤلاء المؤمنين أنهم إذا استمعوا لشيء نافع؛ يتبعونه ويطبقونه فورًا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[الزمر: ١٨].

وهم أيضًا أبعد ما يكونون عن سماع

الغيبة أو النميمة أو غيرها، مما حرمه الله تعالى، فآذانهم آذان واعية، تصغي للحق وتعمل به، قال الله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢].

وقال تعالى يمدح مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١٣].

والنوع الثاني: الكفار والمنافقون والفاسقون، الذين يسمعون للقرآن وللنبي صلى الله عليه وسلم، ولا يعملون بما سمعوه، ويستهزئون بما سمعوه وبالنبي صلى الله عليه وسلم، وينهون غيرهم عن سماع هذا القرآن، ويأمرونهم بأن يلغوا فيه، ولهذا كان سمعهم نقمة عليهم؛ فشبههم الله تعالى بالدواب والموتى وأصحاب القبور.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

وعاقبهم في الآخرة بسماعهم لزفير جهنم، وعندها يندمون؛ لأنهم لم يستفيدوا من أسماعهم، ولا تحين مندم.

٢. الأمر بالاستماع إلى آيات الله المتلوة وتدبرها.

قد أمر الله تعالى المؤمنين في كتابه العزيز بأن يتلوا القرآن حق تلاوته، وأن يستمعوا له وينصتوا، وهذا الاستماع هو استماع تدبر وفهم، يتبعه عمل وخشية من الله تعالى ومحبة له سبحانه وتعالى، ومن ثمّ ينتج عن ذلك أمة؛ تكون خير أمة أخرجت للناس، إنها أمة الشهادة ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وأمة الحضارة؛ لأن الحضارة الحقيقية هي بالإنسان الصالح وبالعمل الصالح.

وقد حث الله المؤمنين في آيات كثيرة على تدبر القرآن، والتدبر يأتي بعد الاستماع، والتدبر هو: التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة[1]، وأول الآيات الآمرة بالتدبر نزولاً قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

ورقمها حسب النزول هو ثمان وثلاثون، ونشير إلى آيات أخرى حول موضوع التدبر دون ذكر نصها، وهي: المؤمنون: رقم نزولها: أربع وسبعون، رقم الآية: ثمان وستون، والنساء: رقم نزولها: اثنان وتسعون، ورقم الآية: اثنان وثمانون.

ومدح القرآن الكريم المؤمنين الذين إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وهدى، ومدحهم أيضًا في أماكن عديدة أنهم تلين قلوبهم وجلودهم إلى ذكر الله، وتقشعر جلودهم من خشية الله، ويخرون للأذقان سجدًا يبكون، ويزيدهم خشوعًا.

هذه هي الصورة الرائعة التي يعرضها علينا القرآن الكريم عن طائفة السعداء الذين أنعم الله عليهم من ذرية آدم.

وفي المقابل يعرض علينا القرآن صورة

(١) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، عبدالرحمن حبنكة ص ١٠.

المغضوب عليهم، وموقفهم المعادي للقرآن الكريم؛ فهم لا يستمعون لهذا القرآن، ويلغون فيه، ويستهزئون بآيات الله تعالى، ويجعلون القرآن عضين، ويقولون إنه أساطير الأولين؛ فهم لم يروا فيه الحقائق الناصعة، بل زادهم ضلالة وإثمًا وعمى؛ لأن قلوبهم مقفلة، لا يدخلها نور القرآن ولا هداه؛ بما كانوا يكسبون من أعمال فاحشة منكرة، وببغيهم وطغيانهم في الأرض؛ فأضلهم الله عن صراطه المستقيم، وأعمى أبصارهم عن نوره المبين، وأصم آذانهم عن سماع الحق والقرآن الكريم.

٣. الأمر بالاستماع إلى آيات الله الكونية (بمعنى تدبرها والاعتبار بها).

أما المجال الرئيس الآخر لاستخدام السمع بعد الاستماع لكتاب الله المسطور، والأمر بالعمل به واتباعه، والخشوع له عند سماعه، فهو توجيهه نحو الاستماع إلى آيات كتاب الله المنظور في الكون؛ لتدبرها، وأخذ العبرة منها[1].

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧].

فالله الذي يستحق العبودية وحده، هو الذي له ما في السماوات والأرض، وهو الذي فصل بين الليل والنهار؛ لتسكنوا في الليل من عناء النهار، وإنما قال في الآية: ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ «لأن المراد منه: الذين يسمعون هذه الحجج، ويتفكرون فيها؛ فيعتبرون بها ويتعظون، ولم يرد به الذين يسمعون بآذانهم، ثم يعرضون عن عبره وعظاته»[2].

والقرآن الكريم قد حث المؤمنين في آيات كثيرة على التفكر في ملكوت الله تعالى، وفي الكون؛ وذلك لإدراك عظمة الخالق سبحانه، والإذعان لقدرته وسلطانه، وقد قدر العلماء عدد الآيات التي تتناول أمورًا علمية بألف وأربعمائة آية، من مجموع آي القرآن، البالغ عددها ستة آلاف ومائتي آية، أي ما يعادل عشرين بالمائة من مجموع الآيات القرآنية.

والقرآن الكريم مليء بآيات تحث المؤمنين على التفكر والتعلم، مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [محمد: ٢٤].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وغيرها من آيات كثيرة تأمر باستخدام العقل؛ لاكتشاف قوانين الكون، وتسخيرها لمصلحة الإنسان.

٤. الأمر بالاستماع إلى قصص الماضين للاعتبار.

إن الله عز وجل قص علينا في كتابه العزيز أحسن القصص، وذكر كثيرًا من

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٨٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٨٠.

القصص؛ لأخذ العبرة منها ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

فذكر الله لنا سننه في نصرة أنبيائه وعباده الصالحين، وتوفيقه لهم؛ فقص علينا أحسن القصص، كقصة يوسف وإخوته، وقصة موسى وقومه، وقصة داود وسليمان، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، وكذلك قص القرآن علينا قصص الأقوام التي عاقبها الله تعالى، بعد أن عصوا وعتوا عن كل ذكر؛ لنعتبر ونستقيم على شرعه.

فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ٦-١٣].

والاتعاظ بكل ما سبق إنما يكون بعد سماع ما حل بهذه الأقوام من عقوبة إلهية؛ ولهذا استخدم السمع؛ للاعتبار بالأحداث في معرض الكلام عن الأمم السابقة فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

وذكر القرآن الكريم فقدان السمع لدى الأصنام، كدليل على أنهم ليسوا بآلهة فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤١-٤٢].

فقد نقض ألوهية الأوثان، وأنها لا تستحق العبادة؛ بكونها لا تسمع، ولا تبصر من يدعوها، وصفة السمع من أهم صفات الألوهية؛ فقد قال الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

والدعاء مخ العبادة؛ فالوثن إذا لم يسمع دعاء الداعي؛ فأي منفعة في عبادته؟!، وإذا كانت لا تبصر بتقرب من تقرب إليها؛ فأي منفعة في ذلك التقرب؟![1]، والإله يجيب دعاء عباده ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

والأوثان لا تجيب أحدًا، ثم كيف يليق بالإنسان أن يعبد من هو دونه في الصفات؛ إذ إنه يسمع ويرى، وهذه الأوثان لا تسمع ولا ترى؟

وهكذا نرى كيف اهتم الإسلام بحاسة السمع التي هي آلة مهمة في معرفة الحقائق في كل من الكتابين كتاب الله المسطور (القرآن)، وكتاب الله المنظور (الكون).

موضوعات ذات صلة:

البصر، الرؤية، القرآن

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٤٣.